ليلى الصباغ
استاذة في كلية الآداب
جامعة دمشق

معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث

الطبعة الرابعة



١٤١٨ - ١٤١٩
١٩٩٧ - ١٩٩٨

منشورات جامعة دمشق

ليلى الصبّاغ
استاذة في كلية الآداب
جامعة دمشق

معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث

الطبعة الثانية

مقرر تاريخ اوربا الحديث والمعاصر

— آ ـ تاريخ اوربا في العصر الحديث ١٤٩٢ ـ ١٧٨٩ :

— مقدمة في التعريف بتاريخ اوربا في العصر الحديث ، ومصادره .
— اوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، من النواحي : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية ، والفنية .

— اوربا في القرن السادس عشر :

— الكشوف الجغرافية ، وعواملها ، ونتائجها في جميع الميادين ـ وبصفة خاصة في المجال الاقتصادي والاستعماري .
— النهضة الادبية ، والفنية ، والعلمية ، واسبابها .
— التطورات السياسية الداخلية والخارجية في ميدان كل دولة اوربية ، **ولا سيما** في : اسبانيا ، انكلترا ، الامبراطورية الجرمنية المقدسة ، وايطاليا .
— العلاقــات الدوليــة .

— اوربا في القرن السابـع عشر :

— التطورات العامة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والفنية والسياسية وعواملهــا .
— التطورات الخاصة بكل دولة على حدة من جميع النواحي : كفرنسا ، واسبانيا ، وانكلترا ، والاراضي المنخفضة ، وروسيا وبروسيا ، **والامبراطورية الجرمنية .**
— العلاقات الدولية ، والعوامل المؤثرة فيها : **السياسة الاستعمارية .**

— اوربا في القرن الثامــن عشر :

— التطورات العامة : الاقتصاديــة ، والاجتماعية ، والسياسية ، والفكريــة ، والفنية ، وعواملهــا .
— التطورات الخاصة بكل دولة في حقلي السياسة الداخلية والخارجية وبصفـة خاصة الدول الكبرى : كفرنسا، وانكلترا ، والامبراطورية، وبروسيا ، وروسيا.
— العلاقات الدولية والعوامل المؤثرة فيها ـ **التنافس الاستعماري والامبراطوريات الاستعماريــة .**
— خاتمة : اوربا والعالم عشية الثورة الفرنسية .

المقـدمة

التعريف بالعصور الحديثة ومصادرها : اصطلح المؤرخون الغربيون على أن « العصور الحديثة » ـ وهي قطاع من حياة الانسانية على سطح الارض ـ تبتدىء بعام ١٤٩٢ ، وتمتد حتى الوقت الحاضر • ولقد اسميت هـذه المرحلة التاريخية الزمنية من التاريخ ، « بالعصور الحديثة » ، تمييزا لها عن العصور التي سبقتها مباشرة ، وهي « العصور الوسطى » • أي أن اوربا بخاصة ، والعالم بعامة ، قد خرجا من حقبة زمنية لها خصائصها المعينة في جميع الميادين ، ليدخـلا حقبـة جديدة من التاريخ ، تحمل من الصفات كل « حديث » أو كل « جديد » بالنسبة للفترة التي سلفت • « فالعصور الحديثة » اذاً تحمل في طياتهـا ، ولو عـلى شكل بذور ، معظم ملامح العالم الذي نعيش فيه اليوم ، اكان ذلك في ميـدان الاقتصاد ، او الاجتماع ، او السياسة ، أو الفكر ، او الفن •

الا ان المؤرخين الغربيين أنفسهم ما لبثوا في القرن التاسع عشر ـ وقـد عاشوا نتائج الثورة الفرنسية التـي اندلعت عـام ١٧٨٩ ـ ان قسموا العصور الحديثة الى قسمين ، وذلك تسهيلا للدراسة والبحث ، وابرازا لاهمية الثـورة الفرنسية ، وتمييزا للتيارات التاريخية الجديدة التي شقت طريقها في القرن التاسع عشر والفترة المعاصرة ، وانسجاما مع الواقع الذي يعيشونه ؟ وهـذا القسمان همـا :

اولا ـ العصر الحديث : ويمتد من اواخر القرن الخامس عشر او من عـام ١٤٩٢/٨٩٨ هـ بالذات وينتهي بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩/ ١٢٠٤ هـ • ويجعل بعض المؤرخين المعاصرين نهايته قبل ذلك ، أي في عام ١٧٧٠ ، وهو عصر بـدء الثورات في اوربا •

ثانيا ـ الحقبة المعاصرة : وتمتد من الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أو من ١٧٧٠ وحتى الوقت الحاضر . واذا كانت هذه التسمية في اولياتها تبدو منسجمة مع مؤرخي القرن التاسع عشر الذي عاصروا النتائج المباشرة للثورة الفرنسية ، واحداث القرن التاسع عشر ، فانها تظهر لنا ونحن الذين نعيش في الربع الاخير من القرن العشرين ، بعيدة عن الواقع . فالتاريخ المعاصر لنا ، بحسب مفهومنا اللغوي لكلمة (معاصر) ، هو المرحلة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) الى الوقت الحاضر على اكثر تقدير . ولكن مهما تباعد المفهوم التاريخي الاصطلاحي لهذه الفترة ، عن المضمون اللغوي لكلمة (معاصر) ، فان التسمية تبقى قائمة طالما انها غدت اصطلاحا عالميا ، وعلميا ، تعارف عليه جميع المؤرخين واقروه ، شأنه في ذلك شأن تسمية العصور الاخرى[1] .

ولقد اتخذ عام ١٤٩٢ نهاية للعصور الوسطى وبداية للحديثة ، لانه جرت فيه في الواقع احداث هامة جدا ، بالنسبة للتاريخ الاوربي والعالمي على السواء : ففي هذا العام انتهى الوجود السياسي للعرب المسلمين في اسبانيا ، بسقوط آخر معاقلهم وهو (غرناطة) بيد الاسبان ، وبذلك انحسر نهائيا المد العربي الاسلامي عن الغرب الاوربي ، ذلك المد الذي شغل حقبة طويلة من العصور الوسيطة . وفي العام نفسه توصل « كريستوف كولومب » الى كشف قارة جديدة هي « القارة الامريكية » ، التي كانت « العالم الجديد » ، الذي لعب دورا خطيرا في حياة العالم القديم كله . وفي هذا العام كذلك اعتلى عرش البابوية « البابا اسكندر السادس » من اسرة (بورجيا) الاسبانية ، ذلك البابا الذي وصف باللاأخلاقية ، وقام بدور حاسم في تحويل الكنيسة الرومانية الى قوة

---

(١) من المعروف ان ذلك التقسيم للتاريخ يخضع دائما لنقد شديد : فاذا هو
انطبق على احداث التاريخ الغربي مثلا فانه لا ينطبق على تاريخ العالم كله ،
ولا ينطبق بصورة خاصة على تاريخنا العربي .
ولذا فان اجزاء العالم عندما تأخذ بهذا التقسيم ، تنظر اليه على انه « مرحلة
زمنية » فحسب ، لا تحمل في طياتها بالنسبة لتاريخها الخاص ، الخصائص
التي يضفيها الغربيون على تاريخهم الحديث والمعاصر ، وان كان هذا بالتالي
لا يمنع من الاعتراف بالتأثر بتلك الخصائص .

ايطالية زمنية ضخمة . وبذلك مهد بتصرفاته لاندلاع « الثورة الدينية المسيحية الكبرى » في العصر الحديث . كما انه في هـذا العام توفي « لورانزودو مديتشه امير مدينة فلورنسة » (فيرنزا) ، وصاحب الفكر الاسباني الحـر ، والباعث للنهضة الادبية والفنية فيها ، والمشع للفلسفة والافكار الجديدة .

ولا بد من الاشارة هنا ، الى ان بعض المؤرخين يرون في عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، نهاية العصور الوسيطة بدلا من عام ١٤٩٢ ، على اعتبار انه في هذا العام زالت « الامبراطورية الرومانيـة » نهائيا ، باندثار قسمها الشرقي او البيزنطي ، بعد ان قضي على قسمها الغربـي في عام ٤٧٦ م ، الذي اصطلح على انه نهاية للعصور القديمة . كما انـه في هذا العام استفحل خطر المد الاسلامي العثماني الذي اجتاح شرقي اوربا ، وشرع يهدد عواصمها مرة اخرى .

ولكن المؤرخين المؤيدين لعام ١٤٩٢ ، يرون في عام سقوط القسطنطينية ــ على الرغم من انه عام قاس ومملوء بالاحزان بالنسبة للغرب ــ مجرد « مرحلة بسيطة » في الصراع ، الذي دام ثمانية قرون بين الصليب والهلال[1] . ولعلهم بذلك أرادوا ان يهونوا من امره ، ولا سيما انهـم استطاعوا في عـام ١٤٩٢ ان يخرجوا العرب من اسبانيا ، وان يلاحقوهم بعد ذلـك في ديارهم في شمالـي افريقية ، وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها ، وفي البحر الاحمر ، وان يضعفوا من مكانتهم الاقتصادية ، ويخضعوا بعض مناطقهم لاحتلالهم العسكري .

فالعصور الوسطى اذا تنتهـي في اواخـر القـرن الخامس عشر لتبتدىء « العصور الحديثة » باحداثهـا الكبرى : كاكتشاف العالم الجديـد ، ووصول اوربا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وايناع « النهضة الاوربيـة » ، التي كانت في واقعها ثورة في جميع المجالات على أغلبية القيم التـي احتضنتها اوربا في العصور الوسطى ، واتساع الامبراطورية العثمانية الاسلامية ، واغلاقها شرقي البحر المتوسط وجنوبه في وجه المطامع الاوربية الاقتصادية ــ الصليبية ،

---

(1) Favier (Jean), De Marco Polo à Christophe Colomb (1250-1492). Collection Histoire Universelle - Larousse de Poche - Paris 1968. P. 9.

وتغلغل اوربا التدريجي في آسيا ، واستقرارهـا في القارة الامريكية ، ومـن ثم بدء سيادتها على العالم ، واحتكاك حضارتها مع الحضارات المختلفة في آسيا ، وامريكا ، وافريقيا ، وبدء التواصل العالمي على اوسع نطاق •

واذا كان المؤرخون الغربيون متفقين على اتخاذ عام ١٤٩٢ ميلادا « لهذه العصور الحديثة » ، فانهم متفقون كذلك ، على ان هذه العصور لم تولد فجأة ، بل انها ككل ثورة ضخمة ، أو حدث كبير ، احتضنتها العصور التي سلفت ونمتها ، لتقذفها بعد ذلك وليدا بسمات جديدة واضحة ، وان كانت هذه السمات لا تزال تحمل بعض تلونات العصور التي رعتها • وهذا امر طبيعي في مجـرى التاريخ ، فالانسان ، والاشياء المختلفة ، والعادات ، وانماط التفكير لا تندثـر فجأة في عام بل لا بد من بقاء بعض مخلفاتها لفترة معينة من الزمن • فبدهي اذن ان يرى في انسان القرن السادس عشر ، وفي فكره وفي عاداتـه كثير من مـلامح العصور الوسطى • فمفكر جريء وحديث مثل « رابلة « Rabelais » » الفرنسي الذي ولد عام ١٤٩٤ ، أو « كوبرنيك » العالم الفلكي (١٤٧٣ ــ ١٥٥٣)البولوني الذي احدث ثورة في الفكر الاوربي ، نتيجة طرحه لنظريته الكونية ، القائلة : « بأن الارض ليست مركز العالم ، وانما هي الشمس ، وان الكواكب السيارة ، ومنها الارض ، تدور حول نفسها وحول الشمس » ، يحملان في نواح عدة ما يمكن ان يسميا بـه انهما من رجال العصور الوسطى • الا ان هذا لا يمنـع من القول ان (العصور الحديثة) على الرغم مـن وجود بعض قيـم العصور الوسطى وسماتها فيها ، تبقى « حديثة » لان « القوى الجديدة » قد تغلبت فيها على « القوى التقليدية المحافظة » •

ومن الواجب الاشارة في هذا المجال ، الى أن « تاريخ اوربا فـي العصور الحديثة » نواة اساسية في تفهـم « التاريخ العالمـي ، الحديث والمعاصر » ، و « التاريخ العربي الحديث والمعاصر » ، لان الاحداث التي تعاورتهـا في هـذه الفترة ، كانت لها انعكاساتها الضخمة على تطور التاريخ في جميع اجزاء العالم • فاوربا في العصور الحديثة لم تكن مجرد قارة ثابتـة في مكانها ، بل متنقلـة في انحاء العالم ، برجالها ، وقيمها ، وافكارها الجديدة • ومن ثـم فانها دخلت

في احداثه التاريخية ، وخلفت بصماتها في تطوره ، وكانت في الواقع قطب الرحى في الاحداث العالمية كلها ، حتى انه يطلق على القرن التاسع عشر (قرن سيادة اوربا على العالم) ، اذ انها حاولت خلال هذا القرن ، ان تركز وجودها في مختلف اجزاء العالم اقتصاديا ، وسياسيا وفكريا ، حتى غدا من العسير فصل أي تطور في مختلف البقاع العالمية ، عن تطورات التاريخ الاوربي المعاصر .

ولا بد من الاشارة في هذه المقدمة الى ان **معظم مصادر التاريخ الاوربي الحديث** اجنبية اللغة . وهي تضم الوثائق الرسمية الكتابية ، والخاصة ، الغزيرة ، القائمة في مختلف ارشيفات البقاع التي كان لاوربا صلات معها في تلك الحقبة . ويضاف اليها المؤلفات التاريخية ، والادبية ، والعلمية ، والفلسفية ، والدينية ، وغيرها ، المعاصرة لتلك المرحلة ، والمخلفات المتنوعة الاخرى ، من مبان شتى وادوات ، واشياء ونقود ، وصور يدوية وغيرها .

أما **مراجع التاريخ الاوربي الحديث** فهي اكثر من كثيرة ، وبلغات عالمية عديدة ، عدد اللغات العالمية نفسها . وما كتب منها باللغات الاوربية بالذات ، فقد ركز دراسته على « مرحلة زمنية » معينة من تاريخ اوربا الحديث كالقرن السادس عشر مثلا ، أو على مرحلة منه فقط ، او على دولة معينة ، او مجموع دول ، أي على وحدة جغرافية طبيعية ، او سياسية ، او انه عالج مجموع تاريخ وحدة ما نوعيا ، أي في تطورها الاقتصادي ، او الاجتماعي . او اخذ حدثا معينا ، وتتبعه بعمق ، وتفصيل ، كالاصلاح الديني،والكشوف الجغرافية مثلا .ويلاحظ ان المؤرخين الاوربيين في نطاق بعض الدول ، قد اتخذ خطة « الدراسة التاريخية المشتركة » ، أي اتفق عدد منهم على قيام كل واحد ، او اكثر من واحد ، في دراسة فترة زمنية محددة من الحقبة الحديثة ، أو ببحث موضوع ما ، أو تطور دولة من الدول . وعملت هذه الجماعة ، من ثم ، على اصدار « سلسلة » من المؤلفات تغطي العصر الحديث ، وربما امتدت الدراسة فغطت العصور الوسيطة والقديمة ، والمعاصرة . وقد يقوم احيانا مؤلف تاريخي واحد ، باصدار مثل هذه السلسلة ،وان كان هذا قليلا نسبيا.ومن هذه السلاسل التاريخية المشهورة باللغة الفرنسية سلسلة « شعوب وحضارات » Peuples et Civilisations

والتاريخ العالمي ـ لاروس الجيب Histoire Universelle, Larousse de Poche

والتاريخ العام للحضارات Histoire Générale des Civilisations

والتاريخ العالمي ـ مكتبة مرابط Histoire Universelle B. Marabout

وسلسلة التيارات الكبرى من التاريخ العالمي

Les Grands Courants de l'Histoire Universelle

وهذه السلسلة الاخيرة من تأليف المؤرخ جاك بيرين Jacques Pirenne

واذا ما سئل عن **مراجع « تاريخ اوربا الحديث » باللغة العربية**، فهي اما تعريب للمراجع الاجنبية السالفة الذكر ، او « مراجع ثانية » اعتمد في الحصول على حقائقها ، على المراجع الاجنبية .

اذ ركزت حركة التاريخ العربية المعاصرة ، جل دراساتها الاصيلة ، على التاريخ العربي وان كان هذا لا ينفي قيامها ببعض دراسة اصيلة ، لجزء من التاريخ الاوربي الحديث ، عندما يكون هذا الجزء على علاقة بالتاريخ العربي : كالغزو البرتغالي ، والاسباني ، للبلاد العربية في آسيا وافريقيا ، والعلاقات الاوربية العربية ، والعثمانية . ويلاحظ ان ما ألف من المراجع العربية عن « العصر الحديث » في اوربا : وعن القرون السابقة للقرن العشرين ضئيل ، بينما كان القسم الخاص بالمرحلة التي تلت الحرب العالمية الاولى والثانية كثير نسبيا . اذ هدف اصحابه المعربون ، والباحثون ، والمؤلفون ، على السواء الى ارضاء لهفة الجماهير لمعرفة ما يجري في عالمها ،من احداث وتطورات بعدما ازداد اهتمامها بالحياة السياسية العالمية ، وانتشر العلم بين صفوفها .

وفي الحقيقة ان معظم المراجع العربية عن التاريخ الاوربي ، قد وضع لطلاب المدارس الثانوية ، او الجامعات العربية . ومنها السلسلة التاريخية التي ألفها « الدكتور نور الدين حاطوم » الرئيس السابق لقسم التاريخ ، في كلية الآداب ، من جامعة دمشق ، والتي تشمل بالنسبة لتاريخ اوربا الحديث « عصر النهضة الاوربية » و « القرن الثامن عشر » .

واخيرا قد تبدو كثير من الموضوعات المطروحة في هذا الكتاب موجزة ، بل ومقلصة ، وذات طابع مدرسي ، وذلك يرجع في الحقيقة الى ان الكتاب قد وضع في الاساس لطلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ ، ليكونوا (خلفية عامة) عن (تاريخ اوربا في العصر الحديث) ، ولينطلقوا بعدها نحو بحوث اكثر استقصاء ،واستيفاء ، في كل موضوع من الموضوعات المطروحة .

الفصل الأول

المدخل الى العصر الحديث في اوربا

١ ـ نبذة جغرافية موجزة عن القارة الاوربية

ان اوربا هي احدى القارات الست ، وتبلغ مساحتها عشرة ملايين وربع من الكيلو مترات المربعة تقريبا (١٠٫٢٣٦٫٠٠٠)كم٣ • ويحدها من الشمال« المحيط المتجمد الشمالي » ، وتطل شواطئها الشمالية والشمالية الغربية على « بحر البلطيق » و « بحر الشمال » • ويفصلها عن « القارة الامريكية » في الغرب « المحيط الاطلنطي » ، وتقوم في زاويته الشمالية الشرقية « الجزر البريطانية » التي يفصلها عن البر الاوربي « بحر المانش » و « ممر كاله » و « بحر الشمال »• ويفصل اوربا في الجنوب عن « القارة الافريقية » ، « البحر المتوسط » ، الذي تتطاول فيه بثلاثة اشباه جزر ، هي من الغرب الى الشرق ، « شبه جزيرة ايبريا » « وشبه جزيرة ايطاليا » « وشبه جزيرة البلقان » • أما في الشرق فلا حدود بحرية تفصلها عن قارة آسيا سوى « البحر الاسود » و « بحر قزوين » • واذا كان حد « جبال القوقاز » يبدو واضحا وبينا ، فان حد « جبال الاورال » التقليدي هو اصطلاحي ، ومن ثم تبدو القارة الاوربية امتدادا غربيا « لقارة آسيا » بل شبه جزيرة منها • (انظر الخريطة الطبيعية لاوربا في آخر الكتاب) •

وللقارة الاوربية ، سماتها الطبيعية والبشرية ككل قارة من القارات • وهي تتميز بتنوع تضاريسها : ففي الشمال ، تتكون من تضاريس قديمة المنشأ ، فعلت فيها عوامل الطبيعة المختلفة فعلها ، من أتتكال ، وانهدام ، فتحولت في معظم اجزائها الى هضاب ، لا يتجاوز اقصى ارتفاع لها الـ ٢٤٠٠ م ، والى سهول

فسيحة • وتركت الجموديات في الدور الرابع الجيولوجي أثرها الكبير فيها ، من حت ، وبحيرات ، ومواد لحقية ، وبصفة خاصة في شمالها الشرقي ، أما في الجنوب الاوربي ، فالبنية التضاريسية حديثة المنشأ نسبيا ، اذ انتصبت الالتواءات الالبية ، وكونت تلك الجبال المرتفعة الممتدة من البيرنه غربا ، الى القوقاز شرقا ، (البيرنه ، الالب ، الابنين ، السلاسل الدينارية ، الكاربات ، جبال البلقان ، وجبال شبه جزيرة القرم ، فالقوقاز) التي يصل اقصى ارتفاع لها على البر الاوربي الى ٤٨٠٧ م (قمة الجبل الابيض) ، والى ٥٦٣٣ م (قمة البروز في القوقاز) • ويدل على هذا التكوين الحديث للجنوب الاوربي ، عدم استقراره الحالي ، كما يبدو ذلك من نشاط الزلازل والبراكين فيه •

والى جانب تنوع التضاريس في اوربا ، بين سهول ، وهضاب ، واودية ، واخاديد ، وجبال مرتفعة ، هناك الامتداد الكبير للسواحل : فمقابل كل (٢٦٠) كم٢ من المساحة ، كيلو متر واحد من الشواطىء • وهذا يفوق اربع مرات ما عليه الامر في افريقيا مثلا • ولهذه الناحية بالطبع اثرها الكبير في المناخ ، والحياة بصفة عامة ، والحياة البشرية ، ونشاطات السكان بصفة خاصة •

ومثلما تتميز تضاريس اوربا بالتنوع فان « الشروط المناخية » تتسم ايضا بالسمة ذاتها : فهناك « المناخ المحيطي » في الواجهة الغربية ، والشمالية الغربية، حيث الامطار غزيرة ، وتمتد على فترة طويلة من السنة • و « المناخ القاري » في شرقي المانيا ، وبولونيا ، والبلاد الدانوبية ، والسويد ، وفنلندة ، وروسيا ، حيث الامطار صيفية واقل كمية من السابقة ، والشتاء قارص البرودة • « والمناخ المتوسطي » في البلاد المطلة على البحر المتوسط في الجنوب ، باعتدال حرارته، وجفاف صيفه ، وتوسط امطاره • وليس في اوربا ما يمكن ان يطلق عليه صحراء كما هو عليه الحال في القارات الاخرى •

ويشق اوربا عديد من الانهار ، منها الكبيرة ، والمتوسطة ، والصغيرة ، بطولها وغزارتها • ومن الكبيرة مثلا ، نهر الدانوب الذي يجتاز اوربا من غربها الى شرقها ، ويصب في البحر الاسود ، ونهر الرين الذي ينطلق من جنوبها الى

شمالها الغربي ليصب في بحر الشمال ، وكنهر الفولغا الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب ليصب في بحر قزوين ، بعد ان يجتاز الارض الروسية • وتوفر الانهار لاوربا المياه للري ، ويستفاد منها طرقا للمواصلات ، تصل اجزاءها بعضها ببعض •

وخلاصة القول تختلف المظاهر الطبيعية في اوربا بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب • ولم تؤثر في تضاريسها العوامل الجيولوجية ، والجغرافية المختلفة فحسب ، بل كان ليد الانسان اثرها ايضا ، اذ غيرت من معالمها ، ولا سيما غطاءها النباتي والحيواني •

ويسكن اوربا اليوم ما يعادل (٦٠٠) ستمائة مليون نسمة ، وهي اكثر القارات كثافة • وتملك ثروات كثيرة ، زراعية ، وصناعية • وقد كانت القارة الاولى في العصر الحديث ، التي طورت الصناعة فيها حتى تمكنت ان تسود العالم ، وتستغله لصالحها • وان تاريخها في « العصر الحديث » هو قصة المرحلة الاولى من ذلك التطور المدهش ، الذي تعيشه اليوم ، في ميادين العلم ، والتقنية والفكر ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة ، والفن •

٢ ـ لمحة عن أحوال أوربا من منتصف القرن الثالث عشر والى منتصف الخامس عشر

لقد اشرنا في المقدمة الى ان « العصر الحديث » في اوربا ، بكل ما فيه من ثورة وتجديد ، قد اخذ تكوينه الاول في احضان العصور الوسطى • ويرد المؤرخون بذور هذا التكوين الى منتصف القرن الثالث عشر ، وينظرون الى تلك الفترة الممتدة من (١٢٥٠ ــ ١٤٩٢) ، على انها المرحلة التي تحول فيها العصر الحديث من نطفة الى وليد • وهكذا غدا من الضروري التعرف بسرعة بملامح هذه الحقبة ، لتفهم اصول التطورات الجديدة ، التي تميز العصر الحديث •

فاذا ما عدنا الى منتصف القرن الثالث عشر ، شاهدنا ان حضارة العصور الوسطى الاوربية قد وصلت آنذاك الى ذروتها : فمفهوم (العالمية)

Universalisme [1] الذي كان الاساس الاكبر في تفكير العصر الوسيط في اوربا قد بدا راسخا في الاذهان ، ولا سيما بعد ان نجح الفيلسوف « توماس اكويناس » (١٢٢٥—١٢٧٤) في التوفيق بين « الرسالة المسيحية » وتفكير ارسطو . وظهرت اوربا للعيان قارة هادئة تشع عليها روح الملك « لويس التاسع » ملك فرنسا الملقب « بالقديس لويس » وتبرز فيها سلطة البابا « اينوسان الرابع » . فالصراعات فيها محدودة ، وحتى الحروب الصليبية كان قد هدأ اوارها ، على الرغم من قيام الحملة الاخيرة التي تزعمها « لويس التاسع » نفسه ، وهدف منها تونس عام ١٢٧٠ ، وتوفي فيها . كما ان السكان شرعوا بالتزايد في الارياف ، وكان استصلاح الاراضي على قدم وساق ، والنشاط الصناعي ، والتجاري ، في المدن عارما وقويا ، والمبادلات بين بضائع الشرق والغرب تتم على شواطىء البحر الاسود ، والبحر المتوسط ، وفي مدن ايطاليا ، وفي اسواق شامبانيا (شمالي شرق فرنسا) ، والسلام والثقة بالمستقبل يسيطران على الاذهان والضمائر .

الا ان اوربا خلال القرن الرابع عشر ، مرت بمرحلة من الازمات العصيبة : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والتي امتدت حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وتتمثل **الازمة الاقتصادية** بسوء المواسم ، والمحاصيل الزراعية ، نتيجة التغيرات المناخية ، وتبرد الطقس ، واجتياح العواصف العنيفة مناطق السواحل . وقد اعاق النقص في وسائل النقل ، ايصال المساعدة للسكان المنكوبين ، الا اذا كان من السهل الوصول اليهم بحرا . فمن عام ١٣١٥ الى ١٣١٧ ، عاشت اوربا

---

(١) **العالمية** : لقد كان الفكر في العصور الوسطى يأمل في تحقيق وحدة جميع الاشياء : فعلى المسيحية ان تكون وحدة سياسية ودينية ، ومن ثم كان من الضروري توحيد مختلف الشعوب والبلدان في مملكة عالمية تحت سلطة الامبراطور ، وفي كنيسة واحدة تحت سلطة البابا . وتكون مهمة هذه المملكة العالمية نشر السلام في العالم ، كما ان مهمة الكنيسة تعليم البشرية كيف تفكر ، وتحيا ، بشكل واحد . فمن حق الدولة العامة هذه ، والكنيسة فقط ، ان يمارسا سلطتهما على كل فرد ، وان يهيئا ، للهدف الاعلى من الوجود ، وهو الاتحاد مع الله .

مجاعة رهيبة ، امتدت من روسيا حتى جبال البيرنه ، ومـات خلالها الالوف مـن الجوع • وبعد نصف قرن جاء دور الجنوب الاوربي في معاناة مجاعة مماثلة •

وتجيء الاوبئة على هذه العضويات الضعيفة لانسان اوربا ، فتحدث خسائر ضخمة في الارواح • واشهر هذه الاوبئة « الطاعون الاسود » الذي اجتاحها عام ١٣٤٨ ، من شبه جزيرة القرم وانتشر بسرعة[١] لضعف الوسائل الصحية • وقد تناقص عدد السكان من جراء هـذا الوباء فهبط عـدد سكان انكلترة مـن ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ عام ١٣٤٠ الى ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ عام ١٣٧٧ •وغدا متوسط حياة الانسان (٢٥) عاما بدلا من (٣٥) عاما[٢] ، ويقدرون ان اوربا قد فقدت ثلث سكانها •

وقد ادت المجاعات والاوبئة والحروب الى افقار الارياف ، وازدياد قطـاع الطرق ، وانتشار التسول والعطالة عن العمل • ففر الفلاحون المتبقون امـام نهب هؤلاء وسلبهم ، يبحثون لهم في المدن عن عمل واطمئنان • فتضاءلت الزراعة واندثرت قرى بأكملها • واضطر السيد الاقطاعي ، حتى يوفـر اليد العاملـة الزراعية ، ان يحرر اقنانه ويزيد من اجورهم • وفي الاقطاعات التي حوفظ فيهـا على الواجبات والضرائب الاقطاعية ، فان الفلاحين قاموا بثورات عديدة تجـاه قاهريهم [٣] فحرقوا ، القصور ، وسجلات الضرائب ، بل وقتلوا احيانا اسيادهم،

---

(١) انظر اجتياحات الطاعون في كتاب (الديكاميرون) للكاتب الايطالي «بوكاشو»:
Boccace, Le Décameron 1ère journée tra. Francisque Raymond. Paris 1879.

(٢) Bruley (E) Cloet, (R), Coquerelle (S etP). la fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne (1328 - 1715) P. 7.

(٣) ومن هذه الثورات الشهيرة ما يسمى بـ (الجاكري La Jacquerie) فـي فرنسا وذلك عام ١٣٥٩ • حيث قام فلاحو « بوفيزي Beauvaisis » بثورة وحشية اقمعت بوحشية اكبر . وفي عام ١٣٨٠ قامت جماعة من « التوشين Tuchins » في (اللانغدوق) بحركة مماثلة ، وكان لها النتيجة نفسها . وقد اتخذت هذه التحركات اتساعا اكبر في (سكاندينافيا) و (الفلاندر) و (كاتالونيا) . واتسمت بطابع اكثر تنظيما في انكلترة : ففي عام ١٣٨١ ، قام فلاحو الجنوب الشرقي فيهـا ، الـذين اسموا « باللولاردز Lollards » بالسير نحو (لندن) ، واستولوا على البرج فيها ، وذبحوا المستشار . وفي عام ١٤٥٠ بقي احد المغامرين وهو « جاك كاد J. Cade» زعيما للنـدن فترة من الزمن .
وكانت هذه التحركات الثورية اذا ما هزمت ، يتحول اصحابها الى جماعات من قطاع الطرق ، فتزيد الحالة سوءا .

او رجال الدين الجامعين لضريبة العشر • وفي الواقع بدأ النظام الاقطاعي يضعف وينحسر تدريجيا ، وغدا الفلاح سيد ارضه التي يستثمرها • وبالمقابل اضطر النبيل ان يبحث عن مورد آخر يعيش منه ، أكان في البلاط الملكي أو من ارباح قطع الطرق ، او من العمل جنديا مرتزقا ، او في البحث عن « عقود » او « اتفاقات » ، مع بعض الامراء او رؤساء المدن ، لتقديم الرجال المحاربين لهم• وهكذا نشأ « الكوندوتيير Condotierre» « الايطالي » او « الريتر Reître » الالماني او « القائد » الغاسكوني او البريتوني • وضعف اثر سيد القصر الاقطاعي على الحياة الريفية ، وبدأ فلاحو اوربا الغربية يتحررون • وبمال المدن والبرجوازية الناهضة ، شرع الفلاح يرتفع بمستوى استثماره الزراعي ، وذلك منذ نهاية القرن الرابع عشر ، وبصفة خاصة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، موجها جهوده نحو افضل الاراضي ، لتوفير الغذاء لسكان غدوا اقل عددا • ولكن هذا لا يعني زوال الاقطاعية تماما ، اذ انها ستبقى قائمة حتى الفترة المعاصرة • وفي قلب القرن الثامن عشر كان لا يزال يشاهد العديد من التابعين راكعين على ركبهم ، وهم يقسمون يمين الولاء لاسيادهم • الا ان هذا كان مجرد واجهة قانونية ، اذ ان العقلية الاقطاعية كانت في طريق الزوال منذ اواخر العصور الوسطى[1] •

هذا في الريف ، اما في المدن حيث الصناعة والتجارة ، فان تعدد النقد واختلافه [2] والتذبذب المستمر لقيمته ، كان يعيق التجارة ، ومن ثم الصناعة ، وشرعت اوربا تفتقد المعادن الثمينة الضرورية : فقد كانت الفضة مطلوبة جدا لسك القطع اللازمة لدفع اجور الجيوش • وكانت الحروب في الشرق تقطع الطرق التجارية التقليدية • وقد تعرضت الصناعة المزدهرة كصناعة الصوف ، مثلا ، لازمات خطيرة في (الفلاندر) و (فلورنسة) • واصيب أصحاب المصارف الفلورنسية الكبرى بافلاسات ضخمة بين عامي (١٣١٢ و ١٣٤٦)•

---

(١) Favier (J.), Op. cit. P. 131.

(٢) لقد كان النقد الذهبي البيزنطي ، والعربي الاسلامي ، هو المتداول في اوربا عام ١٣٥٢ عندما قامت (فلورنسة) و (جنوة) بسك عملة ذهبية خاصة ، وحذت المدن الإخرى حذوها والملوك كذلك ، وكان نقد فلورنسة (الفلوران) اكثر انواع النقد ثباتا •

وقد ادت هذه الكوارث التي لحقت باوربا الى انتشار خوف عام : فاخذ الناس يبحثون عن سند من القوى السماوية ، وتجلى هذا في فنهم ، حيث ضاعفوا من رسومهم « للمسيح » في اوضاع يبدي شفقته عليهم ، « والعذراء » وهي تحمي تحت معطفها الناس التعساء ، بل سيطرت روح الموت عليهم ، وتجلت في (الرقص المكابري) [1] ، وضاقت نفوسهم ذرعا بالحياة ، فأخذوا يوجهون نقمتهم نحو اولئك الذين كانوا يعتقدون انهم يحملون معهم الاوبئة كالغرباء ، واليهود : فاضطهد الاول في انكلترة ، وذبح اليهود في سكاندنافيا ، والمانيا ، وكاتلونيا ، واللانغدوق ، حتى اضطر البابا الى وضعهم تحت حمايته . وانتقلت الاضطرابات الى المدن ، التي ازداد عدد سكانها زيادة كبيرة ، ولكن ادارتها بقيت بأيدي رجال البورجوازية دون غيرهم ، وهم التجار الاغنياء ، وصناع الصوف ، واللحامون بصفة خاصة . ولقد نظم هؤلاء انفسهم في « نقابات » ليحدوا من المنافسة ، ويقفوا في وجه اقامة مشروعات جديدة ، وليثبتوا قواعد المهنة .

اما العمال الذين بقوا على احوالهم السيئة السابقة ، فانهم ثاروا ، اما ضد مستخدميهم ، أو ضد ممثلي الملك ومطالبه المالية . ولما كانوا في معظم الاحوال غير قادرين على قيادة انفسهم ، فانهم كانوا يسلمون قيادتهم لبعض الاغنياء الطموحين والمغامرين [2] . وقد ادت الثورة العنيفة في (فلورنسة) التي قام العمال بها (الشومبي Ciompi عام ١٣٧٨ ، ضد كبار تجار الجوخ فيها ، الى احناء هؤلاء الآخرين رؤوسهم موقتا ، والى افساحهم مجالا ولو ضيقا جدا للعمال في الحكم . ان ثورات مماثلة قامت في (١٣٥٨ ــ ١٣٨٢) في فرنسا ، والفلاندر ، واسبانيا ، والمانيا ، وبولونيا ، وقد اخفقت معظم هذه التحركات الثورية في تحسين احوال الطبقات الشعبية ، الا انها بالمقابل دعمت قبضة البورجوازية وسمحت لها كي تلعب دورا اكثر أهمية في سياسة الدولة ، حتى سيطرت على كثير من حكومات المدن ولا سيما في ايطاليا .

(١) صورة سادت في أواخر العصور الوسطى ، وتمثل جماعة من كل الفئات والاعمار ترقص على شكل دائرة ، وامام شبح هيكل للموت يسوقهم .

(٢) من امثال جاك فان ارتفيلد (١٣٣٨ ــ ١٣٤٥) ، وابنه فيليب (١٣٨٢) في (غاند) في بلجيكا الحالية ، و (ايتين مارسيل) (١٣٥٨) في باريس .

والى جانب تلك الازمات الاقتصادية ، والاجتماعيـة ، التي عاشتها اوربـا في القرن الرابع عشر كانت هناك **ازمات سياسية** وحروب ضاعفت بنتائجهـا ، وعملياتها العسكرية ، والدمار الذي خلفته ، الاوضاع الاقتصادية سوءاً • وفـي الواقع لم يكن هناك من بقعة لم يصبهـا تخريب الحرب ، واجتياحات الجنـد • واكبر تلك الازمات السياسية (حرب المائـة عام)[1] ، والمصارعات والحروب الداخلية في (ايطاليا) ، نتيجة تجزئها وانقسامها الى مـدن متنافسة ، وأخـرى متناحرة ، و (الحرب الليتوانية الروسية) في الشمال ، وحرب البولونيين مـع (الفرسان التيوتون) • هذا في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية البيزنطية ، وشرقي اوربا ، يتهاويان تحت ضربات الاتراك العثمانيين ، والامبراطورية الجرمانية المقدسة ضعيفة لا حول لها ولا طول •

ومـع هـذه الازمـات السياسية ، والحـرب تمزق اوربـا الغربيـة ، **قامت ازمات دينية عنيفة ،** كان لهـا اثر عميق في الكنيسة الكاثوليكيـة ، اذ بلبلت المشاعر ، وزادتها قلقا ، ومهدت للثورة الدينية التي شاهدها القرن السادس عشر • فالاضطرابات المستمرة في روما ، دفعت البابا (كليمان الخامس) (١٣٠٥ — ١٣١٤) الى الاقامة في (آفينيون) على ضفاف الرون في فرنسا • وقد ازعج هـذا الامر الايطاليين لما حمله من اساءة مادية ومعنوية لهم • ولاسيما ان البابوات الذين تولوا في آفينيون ، وقد كانوا من الفرنسيين ، حولوا مقرهم الى مقر ضخم وفخم ،

---

(١) ان اسباب هذه الحرب تتلخص في ان ملك انكلترة كان يملك اقطاعـات عـلى الارض الفرنسية ، ومن ثم ، فهو تابع لملك فرنسا ، وكان هذا يشعره بالمهانة، ويشعر ملك فرنسا بتدخل الغريب في ارضـه . وفي عـام ١٣٣٧ ، وهو عام ابتداء الحرب ، طالب الملك (ادوار الثالث) الانكليزي بعرش فرنسا ، وسمى نفسه (ملك انكلترة وفرنسا) فاندلعت الحرب واتسعت من عام لعام ، وتحولت الى صراع بين « امتين » أو « بين قوميتين » . ولقد انهزمت فرنسا في المرحلـة الاولى ، الا انها لم تلبث ان استعادت قوتها بفضل « جان دارك » ، التـي بثت الحماسة في النفوس . ومع انها اعدمت حرقا من قبل الانكليز ، فـان روح المقاومة التي خلفتها ظلت سارية . وانتصرت فرنسا واستعادت جميع الاملاك الانكليزية على ارضها ولم يتبق لانكلترة سوى « كاله » . وكانت نهاية الحرب عام ١٤٥٣ . وقد اوجدت هذه الحرب شعلة من الشعور القومي لدى فرنسا ، وكانت عاملا اساسيا في تكونها القومي الحديث .

ومركز للفن والثقافة ، والاحتفالات الدينية المترفة • وليحققوا هذا ، زادوا من الضرائب الكنسية ، واوجدوا ادارة خاصة لشؤونهم المالية • وقد اثار هذا الترف الذي عاشوا فيه ، لاسكان روما فحسب ، وانما نقد جميع المسيحيين المتدينين ، الذين رأوا في حياة (بابوات آفينيون) خروجا على المثل الاعلى للتقشف المسيحي، وفي فروضهم المالية على الشعب زيادة في شقاء السكان • وقد تطورت الاحداث سراعا ، فانتخب لعرش البابوية عام (١٣٨٧ ــ ١٣٨٨ م) اثنان : احدهما استقر في آفينيون في فرنسا ، وهو (كليمان السابع) ،والثاني في روما (اوربان السادس) • وانقسمت المسيحية شقين : فرنسا وحلفاؤها ، ومنهم (ايقوسيا ، وفيما بعد قشتالة ، مع البابا الاول ، وانكلترة والبلدان الاخرى مع البابا الثاني • وتجددت القضية بعد موت البابوين • وفي عام (١٤٠٩) اجتمع الكرادلة من الطرفين ، واسقطوا الاثنين ، وعينوا ثالثا • ووصلت الفوضى الى ذروتها ، اذ ادعى كل واحد من البابوات الثلاثة انه وحده البابا الشرعي ، وعاث جنود كل واحد في ارض ايطاليا فسادا • وانحطت هيبة البابوية في نفوس الناس ، وضاعت المسيحية بين الرؤوس الثلاثة لاتعرف من تتبع منهم • وازداد القلق ، وفكر المخلصون بالاصلاح والخلاص من هذا الوضع •

وبالفعل شاهد القرن الرابع عشر حركتين دينيتين قويتين قاد احداهما ، (جون وايكليف (J. Wycliff)) (١٣٢٤ ــ ١٣٨٤) ، استاذ علم الالهيات في (جامعة اوكسفورد) في انكلترة • وقد ابتدأ بتأييد المواقف الملكية ضد الطلبات المالية للبابوية • الا انه لم يلبث ان هاجم ثورة الكنيسة وترفها ، ومؤسسة الاديرة فيها ، وبعض الاسرار المسيحية ، واخيرا توصل الى القول ان « الكتاب المقدس » هو السلطة العليا في قضية الايمان • وبفضل حماته الاقوياء لم تقلقه السلطات أو الكنيسة ، الا ان تلامذته من الفلاحين (اللولاردز) الذين كانوا ينشرون عقيدته في الارياف تلاشوا امام الاضطهاد •

ودخلت مؤلفاته الى (بوهيميا) ، حيث تبنى افكاره استاذ في جامعة براغ ، هو (حنا هس J. Huss) (١٣٦٩ ــ ١٤١٥) ، الذي لاقى نجاحا كبيرا بفضل تأييد العنصر التشيكي له ، واتخاذ حركته طابعا قوميا • وقد قام البابا بحرمانه •

وعندما رفض الانصياع دعا البابا (المجمع الديني) الذي يمثل مبدئيا السلطة العليا في الكنيسة •

وقد امر المجلس بالقبض على (حنا هس) • ولما رفض الرجوع عن آرائه ، احرق حيا • ولم يهدىء اعدام (حنا هس) الخواطر ، بل زاد مشاعر التشيكيين التهابا ، اذ نظروا اليه على انه بطل قومي ، وقاموا بثورة في بوهيميا ، انهكت القوات الامبراطورية • ومع انها اقمعت اخيرا ، الا ان عددا من (المهرطقين) بقي موجودا •

وقد حاول (المجمع الديني) ــ وكان يضم كبار رجال الدين ، وعدداً من اللاهوتيين من مختلف البلدان الاوربية ــ وضع حد للانشقاق البابوي ، فانتخب بابا وافق عليه الجميع • وعندما اراد ذلك المجمع المحافظة على سلطته وتدخلاته في شؤون البابوية ، فان البابا حله • ونجح البابوات في استعادة نفوذهم السابق في عام (١٤٥٠) • الا انه في غمرة هذا الصراع الطويل اهملت مسألة هامة جدا ، وهي ضرورة اصلاح الكنيسة • ونجم عن « الانشقاق البابوي » ظهور « كنائس قومية » ، بمعنى ان ملوك فرنسا وانكلترة ، اخذوا على عاتقهم خلال الازمة ، تعيين الاساقفة ، والمتمتعين بالمكاسب الكنسية ، وقد اتخذوهم كلهم من سكان البلاد • ولما ارادت البابوية استعادة ذلك الحق ، فانها اضطرت الى عقد اتفاقات مع الملوك ، تعطي فيها للسلطات الزمنية حقوقا كثيرة في المجال الديني • وبذلك خرج الاكليروس من قبضة البابا ليقع في قبضة الملوك •

وهكذا يتضح ان اوربا عاشت خلال القرن الرابع عشر ، وجزء من الخامس عشر ، مرحلة ازمات شديدة ، هزت هزا عنيفا بناها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية • وولدت لدى النخبة المثقفة ذلك القلق الفكري ، الذي دفعها نحو البحث الايجابي ، والمثمر للخروج من تلك الازمات • « فالازمة وان لم تكن تامة الا انها كانت في كل شيء ، وان لم تكن عامة الا انها موجودة في كل مكان »(١) وهي في الواقع ازمة خصيبة : فمن بين عوامل البلبلة ، والانقسام ، والانحطاط ،

(1) Favier, op. cit. P. 10.

والخراب ، كان هناك خمائر يقظة ونهضة • ومقابل المجاعـة ومظاهر المـوت ، والتجزئـة ، والاضطرابات برزت حاجـة الانسان للبقاء ، والتكيف والابـداع • فالحيوية الاوربية انبثقت من المحنة ، وقد تألقت ، ومن خلالها تفتقت في اوربـا مفهومات جديدة عن الحياة العامة ، كانت مقدمة للعصر الحديث • فاثناء تلك الازمات ، ارتسمت مفهومات (الدولة الحديثة) وتراجـع (النظام الاقطاعي) ، وتدعمت (البورجوازية) ، وتفتحت (الحركة الانسانية) •

فردود الفعل الاوربية على التحدي كانت غنية ومثمرة ، وظهر هذا واضحـا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر •

٣ ـ اوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر :

آ ـ التطورات الاقتصادية :

ما ان توقفت الحروب ، ولا سيما حرب (المائة عام) ، حتى عادت الحياة دفاقة للاقتصاد الاوربي ، وذلك خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر : **فازدهرت الزراعة** وعادت الارياف التي اجتيحت خلال المرحلة السابقة ، والتي تركها اهلوها لمدة طويلة ، تعج بالحياة ، بعودة فلاحيها اليها • وقد رجع هؤلاء الى الارض اما من ذاتهم، أو بعد استدعاء الاسياد الاقطاعيين لهم ، واغرائهم بفوائد عديدة • وعاودوا استصلاح الارض كمـا كانوا يفعلون ، وتركوا المناطق الفقيرة الى الارض الغنية التي اخذوا يستغلونها استغلالا كثيفا • وتوسعت **زراعة الكرمة** ونمت ، وكذلك **زراعة القمح** • وفي الشمال اهتموا اهتماما اكبر **بزراعة الشعير ،** لصنع البيرة ، وازداد الاقبال على **تربية المواشي ،** اذ اخذت المدن تستهلك لحما اكثر من السابق والصناعة تتطلب موارد اولية اوفر • واستدعى تسمين (الثيران) في فرنسا ، والفلاندر وانكلترة ، اقامة الحقول المسيجة • وادى الطلب علـى الصوف الى تربية قطعان ضخمة من الغنم ، كان رعاتها يمارسون معها التنقل مـن بقعة الى اخرى طلبا للكلأ • فبالاضافة الى انكلترة ، كرس عـدد من بلاد البحر المتوسط نفسه لهـذا العمل : كايطاليـا ، والبروفنس ، وبخاصة اسبانيا ، التي ظهر فيها حوالي عام (١٣٠٠ م) غنم « الميرينوس » ، الناجم عن تصالب غنـم

قشتالة مع غنم المغرب • وقد كون مربو الغنم في اسبانيا ، اتحادا كبيرا هــو (لاميستا La Mesta) ، لينظم تنقلات هذه القطعان الضخمة العدد ، التي غالبا ماكانت تسيء للمناطق التي تمر منها •

وتطورت الحياة في الريف كذلك : فالسيد الاقطاعي شرع يعيش في المدينة ، أو يسكن منزلا اكثر اشراقا من الحصن الاقطاعي • واخذ البورجوازيون ــ وغالبا ماكانوا قد وصلوا الى مرتبة النبالــة ــ يشترون اراضي عديــدة ، ويسلمون استثمارها لفلاحين ميسوري الحال اطلق عليهم اسم « المزارعين Les Laboureurs». بينما بقي (العمال الزراعيون) وحدهم في اوضاع سيئة [1] • والعامل الزراعي هو غير المؤهل مبدئيا للزراعة ويستأجره صاحب الارض لموسم معين او لعمل محدد •

التجارة والصناعة : اما التجارة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فقد رأت هي الاخرى تقدما بعد عودة السلام ، وان كانت في الحقيقة لــم تتوقف ابدا حتى في فترة الاضطرابات •

وبقيت الصناعة الرئيسية هي **صناعة الصوف** . الا ان منسوجات جديدة نمت ، وهي المنسوجات **من الكتان والقنب** للملابس الداخلية ، **والصناعة الحريرية** لملابس الترف • ولقد نافست أجواخ ايطاليا ، وانكلترة ، وفرنسا ، والمــانيا ، وكلها اصواف رقيقة وناعمة ، الصناعة الصوفية في بلاد (الفلاندر) •

وكانت هذه الصناعة النسيجية بحاجة لاستخدام مادة « الشب L'Alun التي كانت آسيا الصغرى هي المنتج الوحيد لها • الا ان اكتشاف مناجم الشب في ايطاليا ، حرر هذ الصناعة من احتكار الاتراك لهذه المادة • كما ان هــذه الصناعة استدعت الحصول علــى الاصبغــة : **كالزعفران ، والقرمز ، والنيلج ،** وكل هذه المواد كانت محط تجارة هامة بالاضافة الى **القطــن** الذي كان يستورد من المشرق العربي ويصنع [2] •

---

(١) لقد كان العامل الزراعي يتقاضى اجرا ضئيلا (١ ــ ٢ صول) يوميا ويقوم بعمله من مشرق الشمس لغروبها
Giraudet, Histoire de la ville de Tours. d'après Bruley et ses comp. Op. Cit. P. 238.

(٢) F. Autrand, A. Vauchez, M. Vincent , Le Moyen Age. Coll. Bordas P. 172.

ولقد نشطظ **استخراج الفضة** في بوهيميا ، وساكسونيا ، وصربيا ، وكذلك استخراج **الحديد والنحاس والتوتياء** في رينانيا ، وفي الآردن • واستثمرت على نطاق واسع **الملاحات** في المانيا ، وكذلك الملاحات في فرنسا • وفي الحقيقة ازداد استخدام الحديد في أواخر العصور الوسطى لصنع الآلات وبخاصة الحربية منها • وكان الفلز المعدني يحول الى سائل بصهره في فرن عال ، ثم يحول السائل الى حديد • وقد كانت هاتان العمليتان تستهلكان كميات كبيرة من فحم الخشب ، مما ادى الى تلاشي الغابات ، ولذا فقد لجيء الى استخدام **فحم الارض** تدريجيا • فالصناعة المعدنية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت متقدمة على الصناعات الاخرى ، ومنذ ذلك الوقت ، عمل على حفر المناجم وتمكينها ، وضخ المياه منها •

ان جميع تلك النشاطات الصناعية تتطلب رؤوس اموال هامة • ومن ثم ، يلاحظ ان رجال الاعمال في المانيا وفي ايطاليا شرعوا بتكوين اتحادات منهم ، توظف بشكل مستمر ومشترك رؤوس اموالها ، ثم تتقاسم الارباح • واخذ « المصرفيون » الذين يتلقون الودائع ، ويقرضون قروضا ضخمة حتى للملوك ، يلعبون دورا اكثر أهمية يوما بعد يوم مثل (آل فوغر) في اوغسبورغ بالمانيا و(آل مدينشه) في فلورنسة بايطاليا • فهذان البيتان الماليان كانا قوى حقيقية ذات أثر كبير في الاوضاع السياسية القائمة ، وبذلك تبدت اوليات الرأسمالية •

ولتسهيل **العمليات التجارية** ، ومواجهة عدم الكفاية في الانواع النقدية ، ظهرت تقنيات جديدة : فقد استخدمت المحاسبة المزدوجة (الدوبيا) (أي تخصيص صفحتين متقابلتين لكل زبون ، يسجل على واحدة منها ما لديه وعلى الاخرى مايدين به) • واتبع نظام « الشيكات » وهي اوامر بالدفع لصالح ثالث ، ونظام « الحوالات » . التي تسمح لحاملها ان يستلم في بلد اجنبي مبلغا من المال بنقد ذلك البلد • وهذه تقنيات تجارية عرفها العرب قبلا واقتبسها منهم الاوربيون • وكانوا يستخدمون من الوسائل ، ما يحتالون بها على قضية « منع الربا » ، التي كانت الكنيسة لاتزال تؤكدها وتصر عليها • ومع كل اصرارها فقد نشأت « المصارف » ولاسيما في ايطاليا ، وكانت عونا كبيرا للعمليات التجارية •

وكان الجزء الاكبر من النقل التجاري يجرى بحرا • وقد حقق بناء السفن في النصف الثاني من القرن الخامس عشر تقدما كبيرا : فقد حلت « دفة التوجيه » القائمة على محور السفينة محل الدفة الجانبية التي كان من الصعب استخدامها • كما اصبحت السفن اكبر حجما ، فسفن التجديف البندقيـة (الغالير Galères) غدت تضم (٢٠٠) مجدف • وفي الشمال الاوربي بنوا مراكب عالية على المـاء ذات شراع واحد ، وبامكانها مجابهة امواج المحيط ، الا انها كانت بطيئة جدا • وقد ظهر في القرن الخامس عشر نموذج جديد للسفن هو « الكاراك Caraque» وهو سفينة بأبعاد كبيرة ، استخدمها البرتغاليون بخاصة في تحميل البضائع • وقد كانت قادرة على الملاحة في جميع البحار ، فصواريها الثلاث تحمل اشرعة قوية ، وحمولتها الكبيرة جعلت منها مركب نقل وحرب • كما اوجد البرتغاليون سفينـة (الكارافيل) ، وهي بطول (٢٥) متر وعرض (٨ ــ ١٠) متر ، وتحمـل اربعة اشرعة مربعة ، وفي الخلف شراع لاتيني مثلث •

ولقد بقي البحر المتوسط ولفترة طويلة اكثف مركز للنقل التجاري • وكان الجنويون ينطلقون منه الى البحر الاسود ، باحثين عن البضائع التي تحملها اليه القوافل المنغولية ، كالحرير ، والتوابل ، والقطن ، أو السلع المنتجة محليـا ، كالشب ، والقمح ، والخشب ، والفرو ، والعبيـد • وكان البنادقـة يتعاملون بخاصة مع الاسكندرية ، حيث كان العرب يقدمون لهم منتجات الشرق الاقصى ، وبخاصة الفلفل الذي كانوا يحتكرونه •

ان سقوط الامبراطورية المغولية وتقدم الفتح العثماني ، بلبلا تلك الاوضاع التجارية التقليدية ، وغدت العلاقات مع البحر الاسود ضئيلة ، وبالمقابل اصبـح البحر المتوسط الغربي مركز تجارة نشيطة جدا : فقـد نمت نابولي ، وبالرمو ، وشرعت برشلونة ، وجزر الباليئار ، تتاجر مع وهران ، والبندقية ، وجنوة مـع تونس • وقد وصلت البندقية في هذه الحقبة الى اوج رخائها ، نتيجة الارباح ، التي كانت تحصل عليها من التجارة مع المشرق ، والمغرب العربيين • وكان قـد تكونت في شمال اوربا اتحادات قوية للتجار منذ القرن الرابع عشر ، فقـد ضمت « العصبة الهانسية التوتونية » (٧٠) مدينة المانية تحت ادارة (لوبيك Lübeck)

و (هامبورغ) •وكانت تملك مراكز تجارية مزدهرة في (لندن)و (بروج (Bruges) و (فيسبي Visby) وحتى (نوفغورد Novgorod) ولقد انتصرت على ملك الدانمرك عام ١٣٧٠ ، ومن ثم حافظت لمدة على احتكـار التجارة عبر المضائق : فكانت تصدر الى البلطيق الاصواف ، والاجواخ ، والخمور ، والملح ، ونحو بحر الشمال العنبر ، والفرو ، والحديد ، والاخشاب ، والحبوب ، والاسماك •

الا ان احتكارها هذا قضي عليه في القرن الخامس عشر من قبل الانكليز ، والهولانديين ، الذين توسعت صناعتهما ، واشتد عود بحريتهما • وانحط ميناء « بروج » لامتلائه بالرمل وكان ذلك لصالح ميناء (انڤرس) •

واستيقظت اقاليم اوربية اخرى على الحياة البحرية : فقادس ، واشبيلية ، ولشبونة ، أمنت الصلة بين البحر المتوسط ، والمحيط الاطلنطي • ولكن على الرغم من جهود « جاك كور J. Cœur »[1] ، فقد بقيت فرنسا متأخرة تجاريا : (فمرسيليا) و (ايغ مورت Aigues - Mortes) كانتا غير قادرتين على منافسة الموانىء الايطالية أو الكتلانية ، وكذلك حال (بوردو) أو (روان) مع (بروج) أو (هامبوزغ) •

اما النقل على الطرق البرية فقد ظل قليلا ومتأخرا • فالنقل التجاري كان يفضل مجاري المياه على الطرقات البرية ، على الرغم من الاخطار القائمة عليها • الا ان السلع الثمينة وحدها ، كالحرير ، وخيوط الذهب ، والفضة ، والتوابل ، كانت تنقل على ظهور البغال وتجتاز ممرات الالب •

ولما كانت الطرق الفرنسية غير آمنة بسبب الحروب ، فقد تحول النقل التجاري بين الاراضي المنخفضة ، وايطاليا ، الى الشرق ، وقد استفادت من ذلك

---

(١) جاك كور (١٣٩٥ – ١٤٥٦) ابن تاجر من مدينة Bourges (بورج) وقد كون ثروة ضخمة عن طريق تجارته مع الشرق ، وانشأ بيوتا تجارية في مونبليه ، ومرسيليا ، عن طريق استثماره للمناجم واقامته المصانع • وقد كان ممول الملك (شارل السابع) . وقد وافق على اقراضه مبلغا كبيرا من المال للقيام بحملته على « نورمنديا » ، الا ان الملك مالبث ان غضب عليه وسجنه ، ولكنه هرب ، وتوفي في الشرق في خدمة كان يؤديها للبابا •

المانيا ، وتضاعف ارتياد نهر الرين . وقد بقي النشاط التجاري في فرنسا غالبا محليا وبيد الغرباء . فأسواق « شمبانيا » اهملت لصالح (ليون) و (جنيف) و (فرانكفورت) و (ليبزغ) . وعرفت المدن الالمانية رخاء كبيرا ، اذ اغتنت نتيجة صنع الاقمشة وبيعها ، وبيع الاشياء المعدنية ، واصبحت مركز تجارة كثيفة بالفضة .

وقد انطلقت المدن الايطالية اللومباردية بدورها ، في ميدان صنع الاقمشة الدقيقة والاسلحة ، وفي حقل النشاط المصرفي ، ونافست المراكز القديمة جدا « كالبندقية وجنوة » .

ففي أواخر العصور الوسطى اذاً ، ارتسمت ملامح بعض انحطاط في المدن الكبرى التي سيطرت في السابق على النشاط الاقتصادي الاوربي ، بينما نمت ونشطت قوى أخرى كانكلترة ، والمانيا الجنوبية ، والاندلس ، ولومبارديا .

ب ـ التطورات الاجتماعية في أواخر القرن الخامس عشر :

ان الاضطراب الاقتصادي الذي عانته اوربا في القرن الرابع عشر ، وما نجم عنه من انحطاط النظام الاقطاعي ، ادى الى ظهور بنى اجتماعية جديدة يلاحظ فيها توزع جديد للسلطة ، وتوزع جديد للثروة ، وعقلية جديدة .

فقد كانت « النبالة » قد تحولت في أواخر العصور الوسطى الى « طبقة شبه مغلقة Caste » . فحتى نهاية الحروب الصليبية كان النبيل هو « الفارس» ، وهو الرجل القادر على الحرب ، وعلى التسلح على نفقته الخاصة ، واقتناء الخيول الضرورية والعناية بها . فالنبالة اذاً كانت تنبثق من قدرة اقتصادية اكثر منها اجتماعية . الا ان مرور الزمن ، وضعف واردات فئة من طبقة النبلاء ، دفع الى ظهور مفهوم « النبالة صاحبة الامتياز » وذلك لصالح اولاد الفرسان الذي لايمكنهم ان يسلحوا انفسهم ، لافتقارهم للموارد الكافية . فالنبيل الاب مثلا قد يملك اقطاعا محدودا ، يؤمن له حياته الخاصة ، وحياة ابنه الاكبر فقط . أما اولاده الاخرون فيبقون « فرسانا مرافقين » «Ecuyers» ، ولايمكن

النظر اليهم على انهم منفصمون عن طبقة الفرسان ، فهم اذاً « نبلاء مستعدون للفروسية » ، ولذا فقد منحوا مجموعة من الامتيازات القضائية والمالية اخذت تميز « مجموع طبقة النبلاء » المتمتعين بالاقطاع منهم أو غير المتمتعين .

وبالمقابل ، فلم يكن لكل مالك اقطاع من الارض الحق في ادعاء الفروسية .ففي القرن الثالث عشر ، دفع اغتناء البورجوازية ، وبداية توظيف المال النقدي في الارض ، عددا من التجار والحرفيين الى ابواب الفروسية ، وهؤلاء البورجوازيون غرباء بمولدهم عن الطبقة النبيلة الآنفة الذكر . وأمام رغبة البورجوازية بالتسلل الى طبقة النبلاء ، تكونت « طبقة النبالة المغلقة » ، فالملك ، وامراء الاقطاع ، رفضوا في بادىء الامر منح صفة النبالة الى مشتري الاقطاع ، اذا لم يكن « نبيل الدم » . وكان عددهم كبيرا ، ويهدد بالطغيان على النبالة الاقطاعية القديمة . فالقدرة الاقتصادية للفارس لم تعد لتكفي اذن للوصول الى طبقة النبلاء . والملك وحده ، أو الامير الاقطاعي ، (ككونت الفلاندر ، ودوق بافاريا) كانا قادرين وحدهما على منح « النبالة » بكتب خاصة .

وهكذا اختفت الفروسية وراء طبقة محددة قانونيا ، فلايدخل اليها الا من كان مولده النبيل يرشحه لذلك ، الا انها في الواقع لم تكن طبقة مغلقة تماما ، وانما طبقة محددة تحديدا ضيقا .

ولكن هذه النبالة الاقطاعية القديمة أخذت تتلاشى تدريجيا ، نتيجة الازمات الاقتصادية من جهة ، والتحالفات بين ذوي القربى من الاقطاعيين . فالحملات الصليبية حملت اسر الفرسان ديونا ، في الوقت الذي انخفضت فيه الدخول الريفية ، فأصابتهم بكارثة اقتصادية . وجاء الطاعون ليحرمهم من اليد العاملة . والفداءات التي اضطر بعضهم لدفعها ، نتيجة الحروب الداخلية والخارجية التي خاضوها ، اضطرتهم لتصفيات ونكبات . كما ان الاستدعاءات المستمرة للفلاحين التابعين لهم ، للعودة الى الريف واعادة تعميره افقدت بعضهم في الواقع اراضيه . لكن هذا لم يكن مصير كل الاقطاعيين ، ففي بعض المناطق تحول الاقطاعيون الى قوى اقتصادية كبيرة . فقد قامت اسر اقطاعية بتجميع ماهر

للاراضي التي افتقر اصحابها ، فملكت ثروات ضخمة مثل « كبـار قشتالـة » (في اسبانيا) « كأسر المندوزا Mendoza و « البوكيرك Albuquerque . وقد استفاد هؤلاء من ضعف الاسر الحاكمة الاسبانية المنقسمة دائما على نفسها ، ومن عجز الاوساط المدنية ، ليبنوا لانفسهم قوة اقتصادية وسياسية .

ويمكن القول ، انـه تبـدت في انكلترة ، والمانيـا ، وفرنسا بخاصة ، « **نبالة جديدة** » نبالة بفضل الملك . وقد اقتربت هذه النبالة ، بالحياة التـي تبنتها ، من النبالة الاقطاعية القديمة ، الا انها بأصولها ، وعقليتها ، ونشاطهـا ، ترتبط بالبورجوازية التجارية ، وبالطبقة الجديدة من موظفي الدولة .

الطبقة البورجوازية :

ان احـدى القوى الحية والفعالة للمجتمع في نهاية العصور الوسطى اذاً ، كانت البورجوازية التي وصلت في صعودها المرقى الاجتماعي الـى مستوى رفيع وسائد . وتبدو هذه الظاهرة بينة في البلاد ذات الاقتصاد المعتمد على المدن ، كما هو الحال في ايطاليا، والفلاندر ، وعالم العصبة الهانسية ، أو المانيا الدانوبية مثلا ، كما انها واضحة كذلك ، في البلاد التي كانت إلسلطة المركزية للملكيـة تنمو فيها على حساب النظام الاقطاعي ، كفرنسا ، وانكلترة ، وحتى الاراغون شرقـي اسبانيـا .

ولما كانت البورجوازية قد اشترت الارض ، فانهـا استطاعت في القـرن الخامس عشر ان تفرض على الريف تأثير المدينة ، وطرائقها في العمل ، وانماطها في الحياة . وقد مولت المشروعات الزراعية الجديدة وسعت لتحديثها . وقد عمل بعض افرادها على احتكار انتاج زراعي بكامله أو صناعي ـ زراعي كالنبيـذ مثلا . ولم تكتف البورجوازية بذلك بل بنت لها منازل في الارياف ، تنتقل اليها وقت الاوبئة ، أو لقضاء فترة معينة ، ينسى التاجر خلالها مهنته كتاجر ، ويلعب وسط اراضيه دور « **السيد النبيل العريق** » .

ان البورجوازي الذي اغتنى ، لم يكن من طموح له سوى تقليد النبيل ،

بل واقامة علاقات معه • وقد وافق النبلاء نصف المفلسين على اقامة علاقات زواج مع الاسر الغنية من التجار • وغدا من الممكن في بعض البلدان ، ان يصبح من عداد طبقة النبلاء ، من يتزوج فتاة من الاشراف • كما ان بعض الوظائف الحكومية كانت تدخل صاحبها آليا ضمن هذه الطبقة ، كالوظائف الادارية والقضائية العليا • هذا بالاضافة الى ان الكنيسة قدمت لابن البورجوازي ،وسائل صعود اجتماعي سريع ، اذ فتحت امامه الباب لدخول صفوفها • وهكذا فان اوساط التجار المصرفيين الايطاليين ، شرعت تقدم عددا من « الكرادلة » للكنيسة منها •

ولما كانت البورجوازية قد نمت فقد طالبت بصفتها هيئة اجتماعية ، بمسؤوليات سياسية • وبالفعل فقد حصل مندوبو المدن في انكلترة على تمثيل سياسي ، حتى ان « مجلس العموم » عندما كون في منتصف القرن الرابع عشر كان مؤلفا منهم • كما انهم استطاعوا ان يصلوا الى مناصب عديدة ، وكبيرة في الدولة ، في كل انحاء اوربا الغربية ، بل انهم تمكنوا من القبض على رأس السلطة السياسية في البلاد ، التي يسيطر فيها التنظيم المدني على الحياة السياسية، كما هو الحال في « فلورنسة » مثلا ، حيث استطاع « جان دو مديتشه »المصرفي من الوصول الى الحكم • وجاء بعده ابنه « كوزمو » (١٤٢٩ — ١٤٦٤) الذي صفى المجالس القائمة ، وسيطر بهدوء على الحياة السياسية ، وعمل على تشجيع الادب والفن • وفي عهده بنى « برونوليسكي Brunelleschi» قبة فلورنسة الشهيرة ، وصنع « دونا تيلو Donatello» تمثال (داود) ونقش «لورنسوجيبرتي» « باب الجنة » • ومن هذه الاسرة ، « لورنزو » الملقب « بالفاخر » الذي وقف في السياسة الاوربية على قدم المساواة مع ملوك اوربا ، والذي كان بلاطه موئلا للعديد من الانسانيين والفنانين • وقد قام الفنان « ميكيل انجلو » بأوائل اعماله في النحت ، في ذلك البلاط •

ج ـ التطورات الثقافية في أواخر القرن الخامس عشر :

لقد تأثرت الحياة الفكرية في القرن الرابع عشر كما رأينا بالازمات

الاقتصادية ، ومن البدهي ان تترك التطورات الاقتصادية ، والاجتماعية ، في أواخر القرن الخامس عشر بصمات اصابعها على الفكر الاوربي المعاصر لها ، ولا سيما منها تطور المجتمع خارج الاطار الاقطاعي للقرون السالفة • فقد حل تدريجيا محل ثقافة الفروسية ، والدين ، التي بقي عالم النبلاء ورجال الدين محافظا عليها ، ثقافة لادينية ، متأثرة بحياة المدن وبالبورجوازية بصفة خاصة •

فالبورجوازي لم يكن منفصما عن حياة الفكر ، ولاسيما انه وجد فيها وسيلة لارتقائه : فقد مول المدرسة التي كان اطفاله يتلقون فيها المعارف التقنية الضرورية لممارسة التجارة كالكتابة ، والحساب ، والمحاسبة ، كما ارسل ابنا ، أو اكثر من ابنائه ، الى « مدرسة الحقوق » حيث كان يتخرج « مؤهلا » ، أي مرشحا للمناصب الحكومية ، أو « للثوب » ، الذي كان مصدر ربح واحترام •

لقد تبنى البورجوازن بسرعة نمط حياة « الارستقراطي » ، التي كيفها بدوره لذوقه الخاص • ولذا فانه كرس نفسه للادب والفن ، وسعى مع رفاقه البورجوازيين لتكوين « جمعيات فكرية » • كما ان الاسر الغنية عملت على تزيين الكنائس ، وتشجيع الفن ، والادب وقد تأثر الفن والادب بذوق بورجوازية الاعمال ، واتجها بدورهما نحو « الطبيعة »و « الواقعية » •

ان الصفة البارزة في الواقع لهذه الحقبة هو النمو المتسارع في كل البلدان الاوربية للمؤلفات الادبية **« باللغة العامية »** كتراجم لمؤلفين قدماء اوصى بها الامراء ، وقصص ومؤلفات مسرحية مخصصة لاوسع جمهور • وقد لاقت هذه المؤلفات جميعها نجاحا كبيرا •

وفي انكلترة لم تعد الفرنسية اللغة الرسمية ، وذلك منذ عام ١٣٦٢ • وكتب الشاعر « تشوسر » « قصص كانتربري » باللغة الانكليزية ، كما ترجم « وايكليف » الكتاب المقدس اليها • وفي ايطاليا كتب « دانتي » منذ ١٣١٠ « الكوميديا الآلهية » باللهجة الطوسكانية ، وكذلك فعل « بترارك » (١٣٠٢ ـ ١٣٧٤) عند كتابة قصائده ، و « بوكاشو » (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) عندما قدم كتابه الشهير « الديكاميرون » • وفي المانيا ، واسبانيا ، والفلاندر ،

والبلاد الاسكندنافية ، تضاعفت المؤلفات باللغة القومية ، التي هي لغة اغلبية السكان • فبلغت الشعب اذاً كتب المؤرخين ، والشعراء والادباء ، ولم يشذ عن ذلك سوى بعض الكتاب ، الذين تابعوا تأليفهم باللغة اللاتينية • ويمكن القول ان زمن اللاتينية قد تلاشى بالنسبة لاغلبية الذين يكتبون ، ولاكثرية الذين يقرؤون • وقد رافق هذا التطور نحو الكتابة باللغة القومية « نشوء الدولة القومية » ممثلة بصفة خاصة باسبانيا ، وفرنسا ، وانكلترة •

والى جانب هذا التطور اللغوي ، فان **الجامعات الاوربية** « كجامعة باريس» مثلا تابعت تأدية دورها الهام الذي ظهر واضحا ابان « الانشقاق البابوي » • وان تأسيس جامعات أخرى في فرنسا ، مثل (اورلئان ، بورج ، بوردو) وفي بقية انحاء اوربا ، (براغ ، فيينا ، كراكوفيا ، اوبسالا ، كوبنهاغن) وغيرها ، نزع من جامعة باريس قسما كبيرا من طلابها ، الا انه لم يضعف من سلطتها ونفوذها ، على الرغم من ان التعليم بقي فيها تقليديا •

ويمكن القول ان انتشار الجامعات في اوربا على هذا النطاق الواسع ، دليل على انتشار التعليم ، وفي الوقت ذاته عامل في دفعه قدما ، وتعميقه ، والخروج شيئا فشيئا من انماطه الدينية التقليدية ، وفتحه لافكار الانسانيين الجديدة ، وهكذا بدأت المعرفة تأخذ طريقها الى الاذهان • **ونما علم التاريخ ،** ووجد مؤرخون يعملون على تدوين الوقائع التي عاصروها ، وكانوا شهودا عليها • وأحاط بعض الامراء والملوك انفسهم بهؤلاء المؤرخين كي يتحدثوا بعظمتهم وعظمة بيتهم الحاكم ، وقدموا الرعاية لهم ، ولاسيما في فرنسا • ومع خدمة اولئك المؤرخين للسلطة الحاكمة حاول بعضهم ان يخرج هذه المعرفة من نطاق التزييف واللاواقعية ، ليوجهها في طريق الحقيقة والواقع ، وليفسر احداثها •

ومثلما تطور التاريخ ، **تطور الادب ،** ولقي الشعر الوجداني «والرمزي Allégorique» تقديرا كبيرا في البلاط • كما ان مؤلفات عدة ذات صفة « واقعية » ، وتخاطب الجمهور الواسع ، اخذت تروج « ككتاب الف حادث جديد » مثلا ، الذي وجد فيه معاصرو الملك « لويس الحادي عشر » في فرنسا ، متعة كبيرة •

وقد لاقت « العجائب Les Mystères» ، وهي فصول دينية كانت تمثل في ساحات الكنائس ، اقبالا ونجاحا كبيريـن . كما ان « المسرحيـات الهزليـة » استقطبت الاوسـاط الشعبيـة .

ويمكن القول ان العصور الوسطى في قرونها الاخيرة ، قـد رأت ولادة « الفكر الواقعي » المرتبط بحياة الانسان اليومية ومتطلباتها . ورأت ايضا ولادة « الفكر اللاديني » وهو فكر ، تحرر من ضغوط الكنيسة ، وقواعـد الديـن ، كما فهمتها الكنيسة ، أو بالاحرى كما ارادتهـا ان تكون ، وهذا لم تعرفـه القرون السالفة . الا ان هذا لايعني ان « الفكر الجديد » لم يصنع لنفسـه « قواعد جديدة » ، الا انها في هذه المرة كانت مستمدة من ذاته ، ومن تجربته بعـد ان درس الفكر الماضي ، ومحصه ، ونقـده ، وكشف خفاياه التي كانت غائبـة عنـه .

وقد دفعت الازمات الاقتصادية ، والمجاعات ، والشكوك الدينية ، الانسان نحو الفردية والاعتداد بالنفس . فاكتسب الانسان كرامـة خاصة ، خارج المركب الاجتماعي ، الذي كان يستمد منه قوته وقيمته في العصور الوسطى . فاذا كـان الانسان من صنع الله ، فان العالم صنع للانسان . وقـد اتى على لسان رائـد الحركة الانسانية « بيك دولا ميراندول »[1] قوله على لسان الله مخاطبا الانسان « لقد وضعتك في مركز العالم »[2] .

وجاء اختراع الطباعة لينضج « ثورة الفكر الجديد » وينشرها عـلى

(١) مفكر ايطالي ولد في « ميراندولا » عام ١٤٦٣ وتوفي في فلورنسة عام ١٤٩٤ . ودرس في الجامعات الرئيسية في ايطاليا ، وتعلم العربية والعبرية ، وكان من العاملين في « الاكاديمية الافلاطونية » في فلورنسة . ونشر في روما عـام ١٤٨٦ كتابه عن « النتائج الفلسفية والكابالية واللاهوتية » ، الذي احـدث ضجة في اوساط الكنيسة الرومانية ، لانه سعى فيه لبيان حقيقة المسيحية التي رأى فيها . لقاء جميع صور الفكر السابقة لها . وقد سجن بعد اتهامـه بالهرطقة ، وكان له تأثير كبير على المصلح الديني « سافونارولا » ، وكـان يؤمن بان الفكر الانساني هو منبع كل علم . وقـد بقي اسمه رمزا للمعرفـة الموسوعيـة

Grand Larousse Encyclopédique 12 vol. Paris 1960 - 1975. Vol. 8. P. 483.

(٢) Favier, op. cit. P. 258.

اوسع نطاق • ففي القرن الرابع عشر دخل اختراع صيني الى اوربا ، وهو (الحفر على الخشب) • فكانوا يطبعون به صورا « دينية » ، ترافقها شروح لها • وحوالي عام ١٤٢٣ تخيل (لوران كوستر Laurent Coster) من مدينة «هارلم» في الاراضي المنخفضة ، امكان اقتطاع الاحرف المحفورة وتكوين نصوص مختلفة بها • الا ان « حنا غوتنبرغ » من مدينة مايانس الالمانية ، هو الذي جعل الاختراع الكبير عمليا ،بصنعه احرفا من خليط من الرصاص والاثمد ، بدلا من الخشب • وفي عام ١٤٤٧ طبع اول كتاب له ، وفي عام ١٤٥٢ طبع « الكتاب المقدس » الذي جعله شهيرا • وبسرعة انتشرت الطباعة في اوربا • وفي عام ١٤٦٩ ، انشئت مطبعة في « الصوربون » • وفى الوقت نفسه ازدهرت صناعة الورق من الاقمشة البالية ، وذلك في انحاء كثيرة من اوربا • وتلقت الجامعات الاختراع بارتياح ، اذ وفر لها نصوصا صحيحة ، خالية من الاغلاط نسبيا ، كما سهل توافر المؤلفات بين ايدي الطلاب • وقد قام « الدومانوشو » Aldo Manuce» في البندقية ، باصدار مجموعات فخمة من المؤلفات اللاتينية • واستخدم في طباعتها احرفا استمدها من كتاب « النهضة الكارولنجية » ، وبذلك بعث الخط القديم • وسيطر « الخط الهومانيستي » — وهو تعديل لذلك الخط القديم — تدريجيا على الخط « الغوطي » السائد حتى هذه المرحلة ، حتى غدا هو الخط الاوربي الحديث •

ومن سمات الفكر الاوربي ايضا ، في القرن الخامس عشر ، انه شرع يستقي من المؤلفات اللاتينية واليونانية القديمة • وكان قد عرف بعضها عن طريق العرب المسلمين ، كمعرفته مثلا لاريسطو وايزووقراط ، وبطليموس • وجاءت هجرة علماء القسطنطينية امام تقدم الاتراك العثمانيين ، لتدعم اهتمام الفكر الاوربي بالحضارات الكلاسيكية ، والثقافة الهلينية ، وفلسفتها بصفة خاصة • وبذلك ارتسمت معالم « الحركة الانسانية » التي سنتكلم عنها فيما بعد •

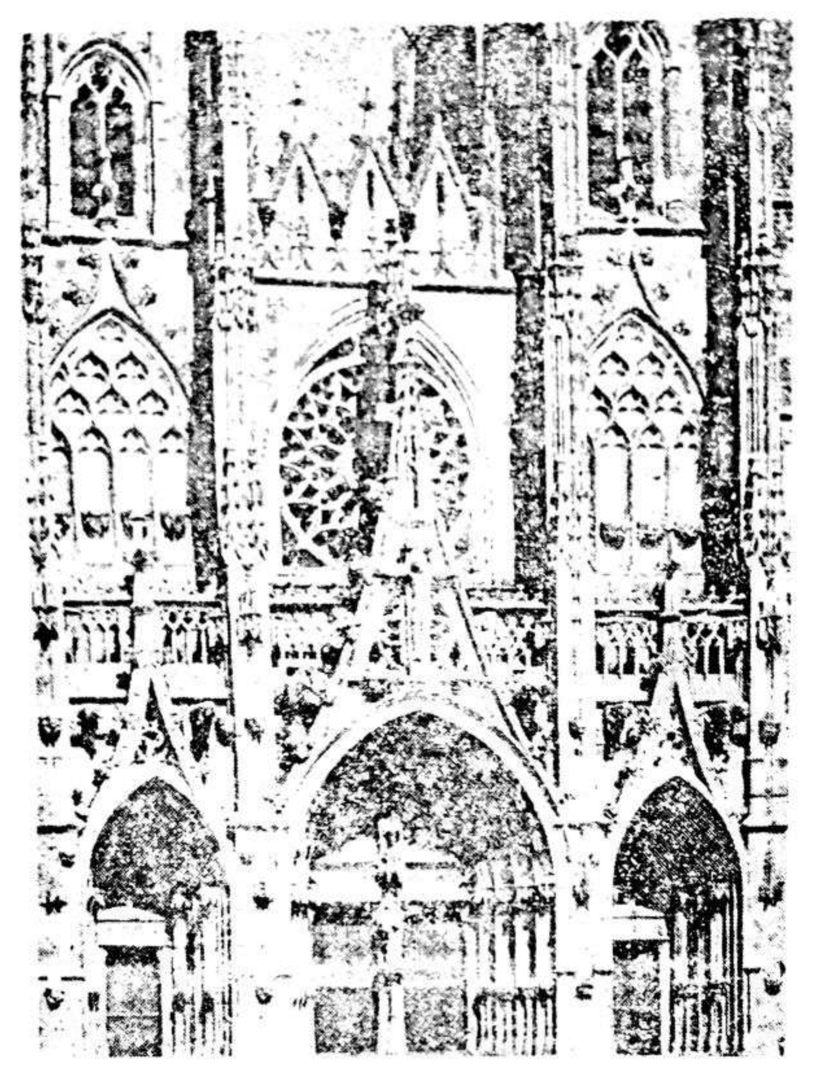
ذاك في ميدان الفكر ، اما **في ميدان الفن ،** فقد لعب تشجيع الامراء ، والملوك ، والبابوات ، والبورجوازيين ، للفنانين دورا هاما في انبثاق الفن الجديد وتفتحه • فحتى القرن الثالث عشر عمل الفنانون للكنيسة بالدرجة الاولى ، اما

في القرن الرابع عشر وفي الخامس عشر بالذات ، فقد مال الملوك والامراء واغنياء البورجوازية ، الى الحياة المترفة ، واقتناء القطع الفنيــة الثمينة ، والــى تخليد ذواتهم بالصور ، فأخذوا يستخدمون الفن والفنانين لتحقيق هذه الغاية . فانشأ بابوات آفينيون ، وملوك فرنسا وامراؤها ، ودوقات بورغونيا ، القصور الضخمة ، وشيدوا الاضرحة المترفة الفخمة ، واغنوا مكتباتهم بمخطوطات مصورة رائعــة . وتنافس امراء المدن الايطالية وحكامها ، كــدودجات « البندقيــة » ، و (آل فيسكونتي) ثم آل سفورزا في « ميلانو » ، و (آل مــالاتيستا (Malattesat في « رمني Rimni» ، و (آل مونفيلتر) في « اوربان Urbin» ،و (آل مديتشه) في « فلورنسة » في تجميل قصورهم ومدنهــم . وكذلك الامر في المــانيا ، وبوهيميا ، والاراضي المنخفضة .

ومن سمات **التطور الفني في ميدان العمارة** في القرن الخامس عشر ، تطــور بناء « الحصن الاقطاعي » . فعلى الرغم من احتفاظه بمظهره الخارجي كحصن ، الا ان فتحاته قد اتسعت ، وبصفة خاصة نحو الداخل ، وتضاعفت عنــاصره التزيينية ، واصبحت قاعاته اكثر سعة ، واشراقــا ، وفخامــة ، بعــد ان زينت بالفريسكات (وهي الرسوم المباشرة على الجدران) ، أو بالسجاد .

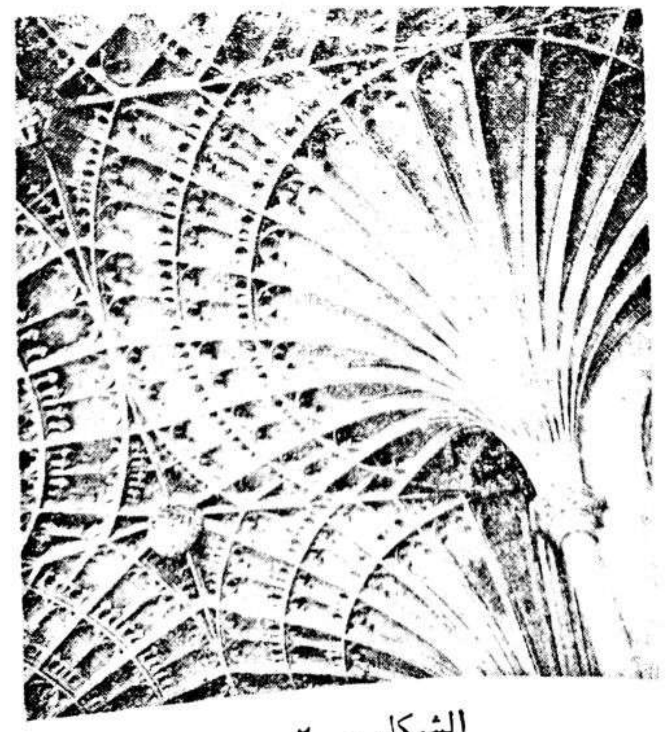
وقد رأى القرن الرابع عشر في انكلترة ميلاد فــن تزييني جديد ، اطلق عليه « الغوطي الملتهب G. Flamboyant» . ويتميز باستخدام خطوط منحنية شديدة التعقيد ، بحيث توحي للناظر بأنها اشبه باللهب ، كما يتميز بثقل العناصر التزيينية (انظر الشكلين (١) و (٢)) . ولكن بينما كانت انكلترة تترك هــذا النمط الفني بسرعة ، ولا تبقي منه سوى القبب الكثيفة التزيين ، وبينما كانت تحــل محلــه « النمط العمودي » ، الذي يعتمد على الخطوط الشاقوليــة الصارمــة والرتيبة ، ويظهر هذا النمط في كاتدرائية كانتربري (الشكل ٣) ، فان فرنسا كانت تتلقفه بحماسة ، وتبثه الى البلدان المجاورة كالمانيا ، ، واسبانيا (انظــر كاتدرائية بورغوس الشكل ٤) ، والبرتغال ، وحتى الى بوهيميا .

اما في ايطاليا ، فكان التأثير الفرنسي ضعيفا ، وعمل الفنانون المعماريون فيها على استخدام هيكل البناء الغوطي ، مع نقل عناصر التزيين القديمة ، مثل



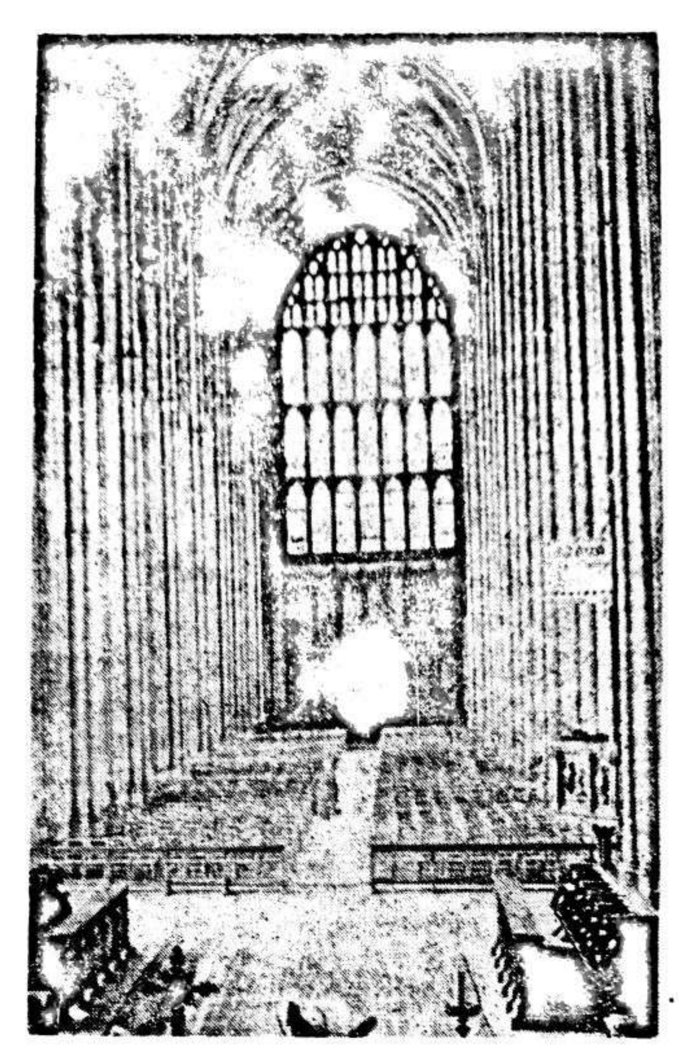
الشكل ـ ١

الفن الغوطي الملتهب

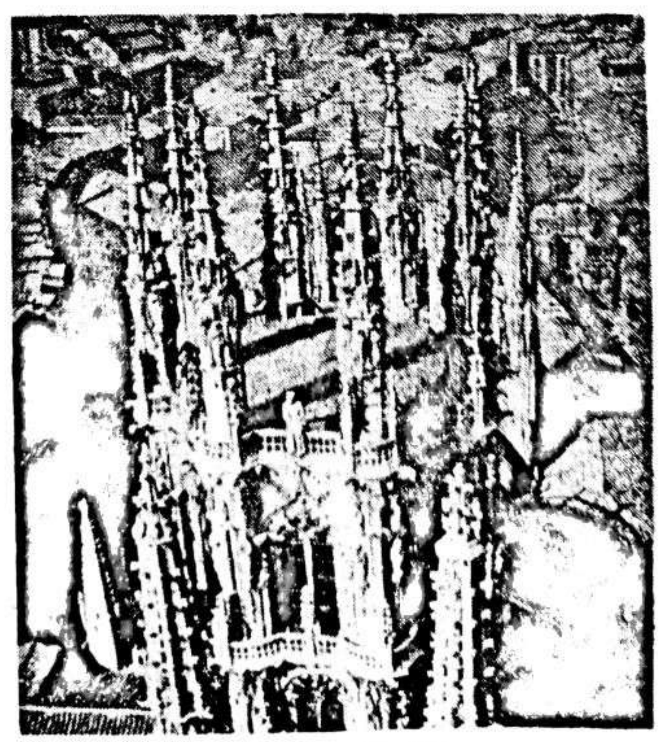


الشكل ـ ٢

الفن الغوطي الملتهب

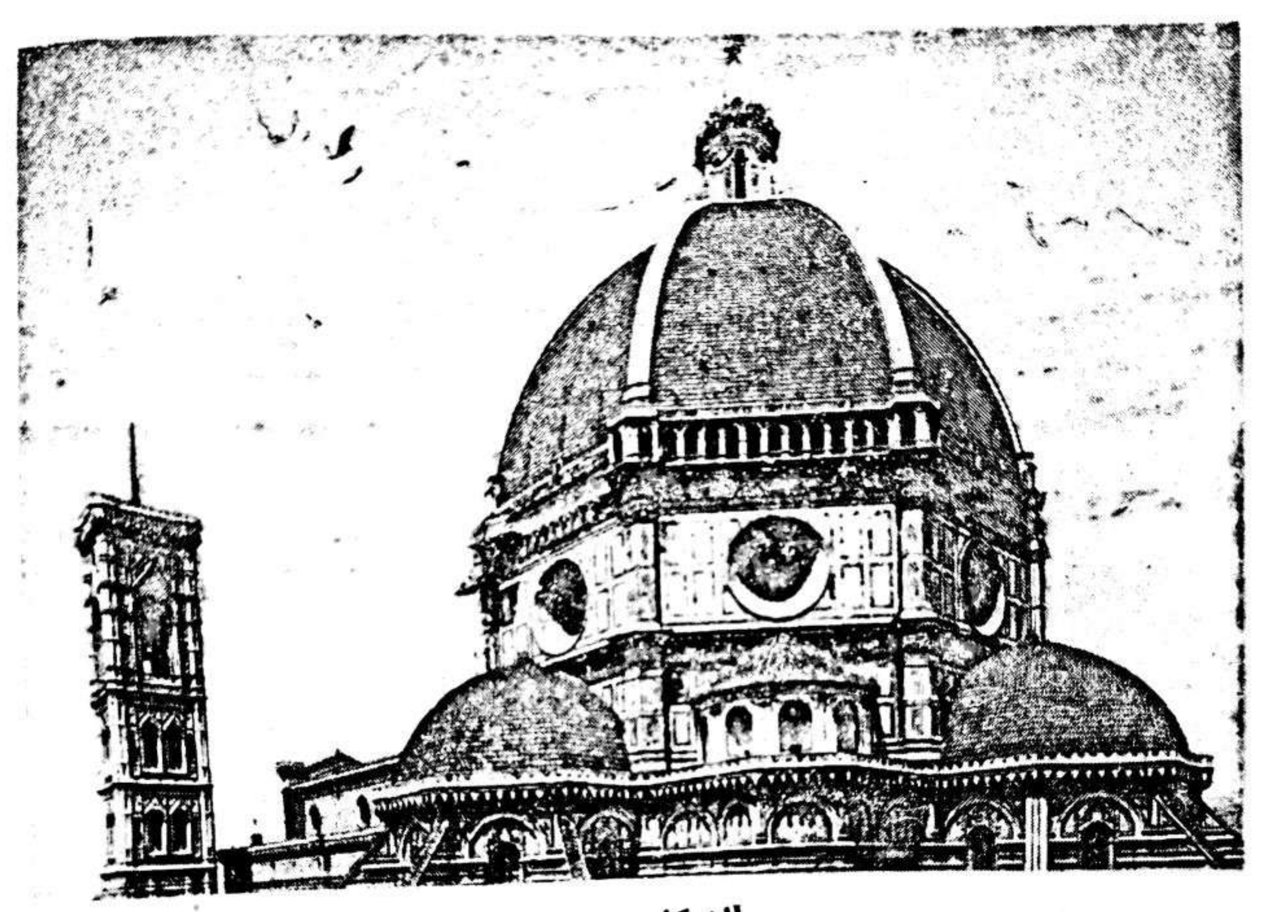


الشكل ــ ٣
النمط العمودي (كارتدرائية كانتربري)



الشكل ــ ٤
كاتدرائية بورغوس (اسبانيا)

(قبة كاتدرائية فلورنسة) التي بناها « برونيلسكي Brunelleschi » (الشكل٥). ولم يلبثوا ان استوحوا من الابنية الرومانية . والتطور نفسه يشاهد في ايطاليا في فن النحت ، حيث تبدت الواقعية القاسية ، ممزوجة ببعض الرقة المستوحاة

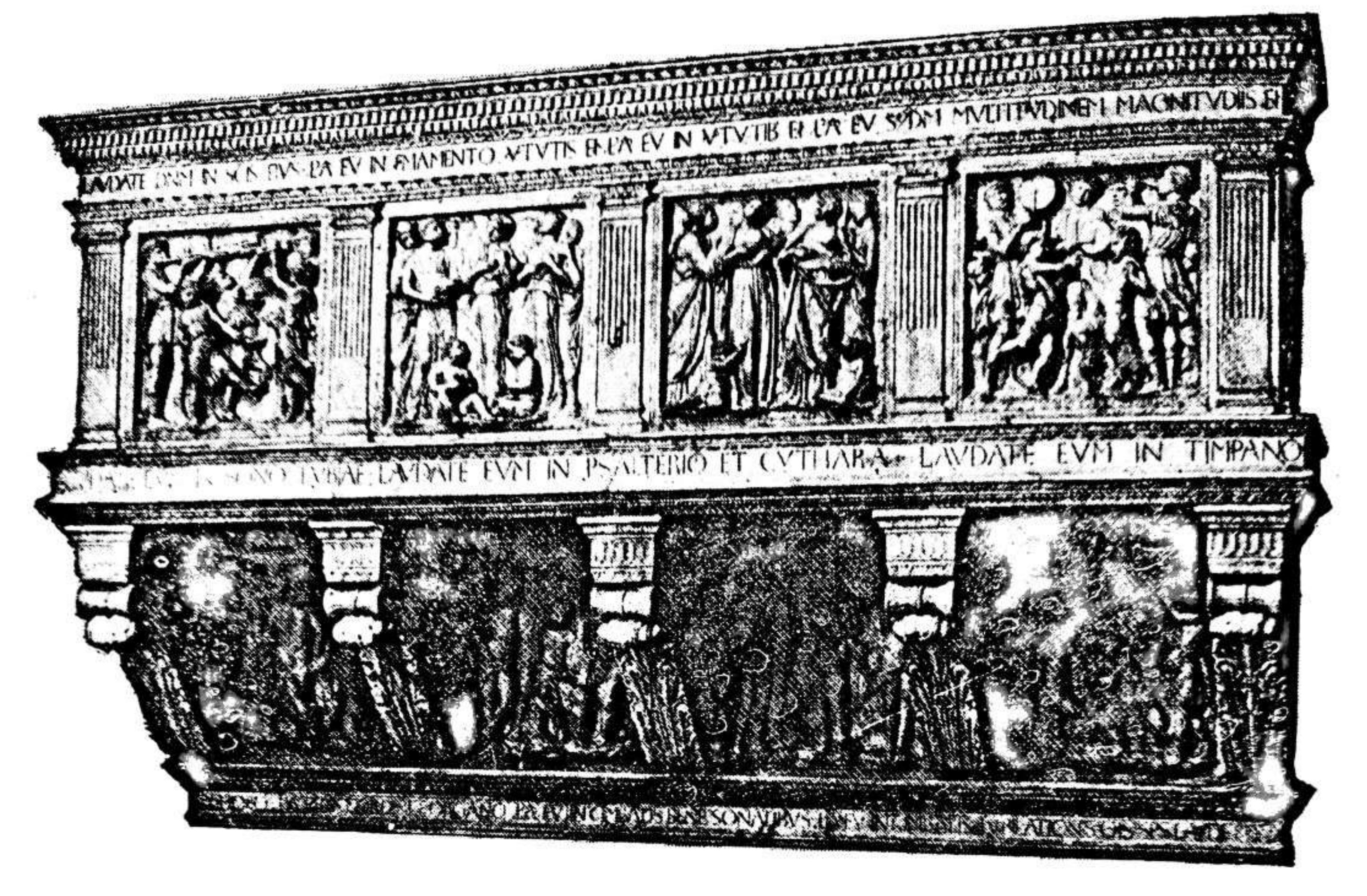


الشكل ــ ٥

قبة كاتدرائية فلورنسة

احيانا من الفن الكلاسيكي القديم (انظر الشكل ٦). وهو منصة قضائية من عمل الفنان « لوكاديلا روبيا Luca Della Robbia » ، وهو فنان فلورنسي (١٣٠٠ ــ ١٤٨١) ، عمل في تزيين كاتدرائية فلورنسة .

وفي حقل الرسم من الفنون ، فقد بقي العاملون في هذا الميدان يعالجون « موضوعات دينية » . ولكنهم مزجوا فيها غالبا بعض الامور الواقعية ، المستقاة من الحياة اليومية . وبذلك شرع الفن يخاطب قلوب المؤمنين أكثر مما يتحدث الى عقولهم ، ويخرج تدريجيا من تلك الاطر المثالية البحتة التي احاط



الشكل ـ ٦ منصة قضائية

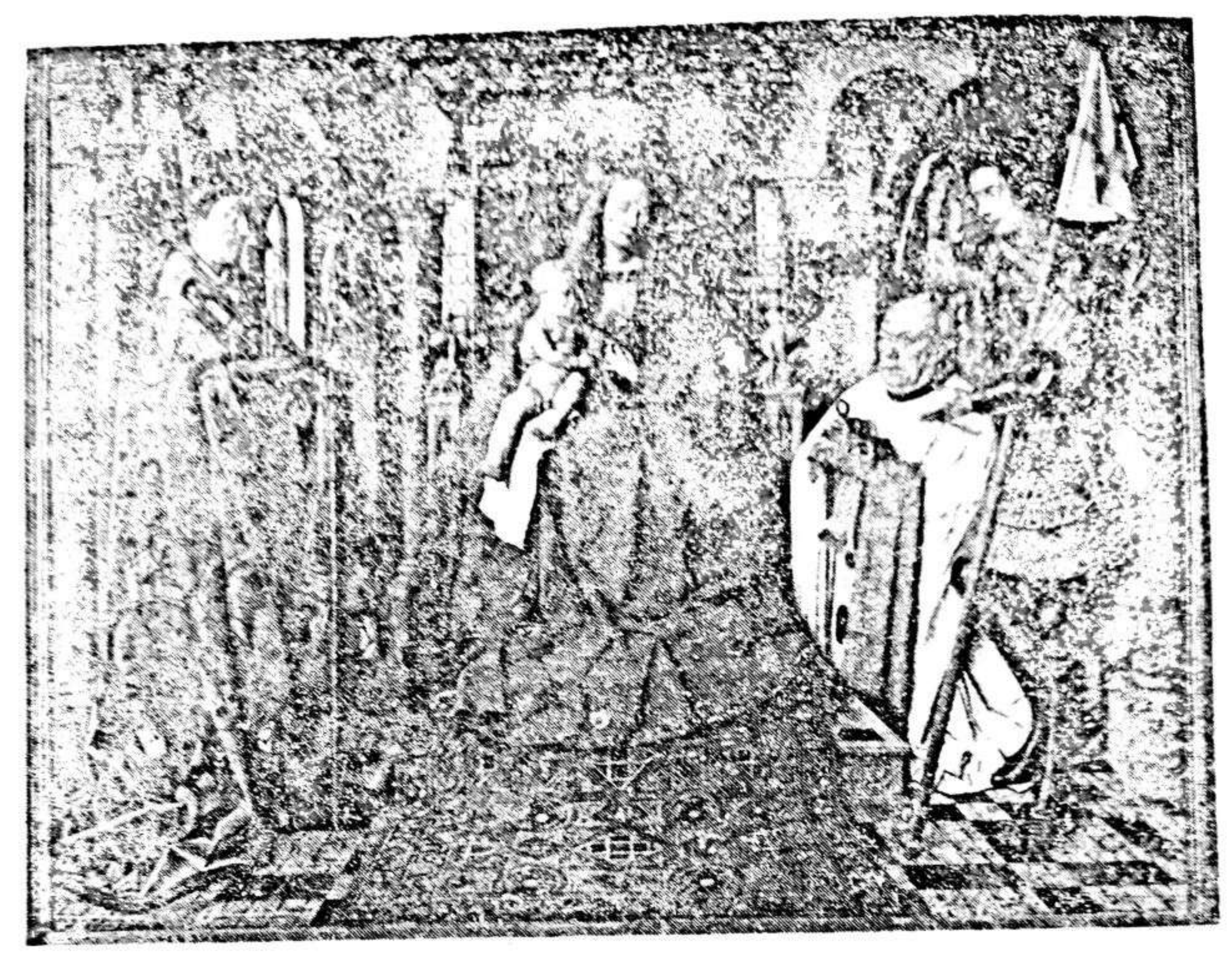
نفسه بها خلال العصور الوسطى • فالفنان « فان دير فايدن Van der Wyden» من الاراضي المنخفضة وضع في لوحته (البشرى L'annonciation) (أي تبشير الملاك لمريم العذراء بحملها بالمسيح) بعض الادوات المنزلية ، بينما يرى احد الشهود في لوحة (بعث لازار) للفنان « جيراردو سان جان » وهو من الاراضي المنخفضة ايضا ، وهو يلتقط خياشيمه كي لايشم الرائحة المنبعثة من الجثة • هذا في الوقت الذي اخذت فيه الشخصيات الدينية المصورة ، ترتسم في قسماتها العواطف الانسانية ، من الم ، وشفقة ، وحنان ، وسعادة •

واهتم الرسم الحديث ايضا بصور الاشخاص العاديين ، وبمشاهد الحياة اليومية • وكان هذا الاتجاه نتيجة التأثر بالبورجوازية المتنامية ، كما اشير الى ذلك سابقا • وهكذا شرع الفن كالادب ، يتحرر من الكنيسة ، ومن مصادر وحيه الدينية شيئا فشيئا ، ويتحول الى فن انساني واقعي وفردي • ولم تعد خلفية

الصورة طلاء مذهبا ، كما كان عليه الامر في القرن الرابع عشر وانما خلفية واقعية محسوسة ، تمثل منظرا ومدينة ،أو داخلية منزل • ولم يكتف فنان بداية النهضة ، بأن يكون فنانا متميزا في فنه ، ومجيدا له ، بل حرص على ان يكون مثقفا موسوعيا ، بل عالما • ولذلك فان الرسامين والنحاتين ، كانوا على صلة وثيقة بالمفكرين الانسانيين (الهومانيست) • وقد قاموا « بدراسة الفن القديم » بأبنيته ورسومه ومظاهر نحته المختلفة ، وقرأوا كل ماسطر عن هندسة البناء ، بل الفوا هم انفسهم في هذا المضمار • ولما كانوا قد اكتسبوا معرفة بالهندسة وبعلم المنظور ، وبالتشريح وغيرها من العلوم ،فانهم استطاعوا ان يولدوا في نفس الناظر للوحاتهم الشعور بالعمق المكاني ، وان يربطوا صورة الانسان بالمكان ومظاهره الواقعية ، بعملية دقيقة ، وان يصوروا جسمه على حقيقته •

وقد نما في القرن الخامس عشر « **الفن البورغوني** » في الرسم والنحت (نسبة الى بورغونيا وهي امارة اقطاعية الى شرقي فرنسا سادت الاراضي المنخفضة)، وتبنته فرنسا ، والمانيا ، وبلاد الشمال • ويتميز بالواقعية ، ويلاحظ على الشخصيات المصورة فيه ، بأنها ذات اجسام ممتلئة ، وقصيرة القامة ، والوجوه فيها صارمة الملامح ، والثياب ثقيلة وذات ثنيات عديدة ومعقدة • الا انه في اواخر القرن الخامس عشر ، بدأت تظهر بعض ملامح الرقة والنعومة في الاجسام المنحوتة ، وبعض الخفة في الملابس ، وكان هذا بصفة خاصة في فرنسا • واشهر مصوري هذه الحقبة في الاراضي المنخفضة « **جان فان ايك** » (انظر لوحته عذراء الكاهن فان دير بايل ، الشكل ٧) ، و « **فان دير فايدن** » و«**جيرار سان جان**» اما في فرنسا فقد تميز« **جان فوكه** » و « **لوميتر دومولان** »

اما في ايطاليا وفي حقل فن الرسم بالذات ، فقد تميز الايطاليون با«لفريسكه» (الرسم على الجدار) ، وبا « اللوحة » • فمنذ القرن الرابع عشر كان الرسامون وبخاصة الفلورنسي « جيوتو Giotto » (١٢٦٦ ــ ١٣٣٦) ينتجون اعمالا فنية مركبة تركيبا متينا ، ومبرزة العواطف والاهواء الانسانية والحركة والرقة ، اما في القرن الخامس عشر أو « الكوارتروشنتو » ــ كما يسميه الايطاليون ــ



اشكل ـ ٧ عذراء الكاهن (جان ڤان ايك)

فهناك مجموعة كبيرة من الفنانين استوحت رسومها من العصور القديمة اليونانية والرومانية • ومـن اشهر هؤلاء :

« مازاتشيو Masaccio» (١٤٠١ ـ ١٤٢٨) ، الذي يبرز في فريسكاته تفهما دقيقا لعلم المنظور ، وللانسجام اللوني • « وبوتشيلي Botticelli» (١٤٤٤ ـ ١٥١٠) ، الذي اشتهر بلوحته (ميلاد ڤينوس) ، التي يطرح فيها رسم الجسم العاري والخلفية المكانية الواقعية • وبرز في القرن الخامس عشر ايضا من النحاتين في ايطاليا :

« دوناتيلو Donatello» (١٣٨٦ ـ ١٤٦٦) ، الذي مزج في نحته بين بساطة الفن القديم وفن العصور الوسطى ، واشهر تماثيله « يوحنا المعمدان » •

د ـ اوربا السياسيه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر :

لا بد لنا قبل البدء بتاريخ اوربا في العصر الحديث من تحديد مفهوم « اوربا » ، لانه مفهوم سائب ، يختلف مضمونه حسب المراحل الزمنية ، ولا سيما مضمونه السياسي .

ففي الشرق يبدو حدالعالم الاوربي مذبذبا وغير مستقر . فاذا كان « فنلندة » قد ربطت « بالسويد » ، واذا كانت البلاد « البلطيكية » الغنية بماضيها السكانديناڤي ، قد أخذت فرق الفروسية الالمانية تستكشف اجزاءها وتجوب فيها ، كالتيوتونية وغيرها ، واذا كانت موانئها « كدانزيغ » و «ريغا» و « ريفال » ، قد ارتبطت تجاريا بالعصبة الهانسية ، فان خلف هذه المحطات المتقدمة وخلف « نوفغورود » و « اوكرانيا » البولونية ، تمتد ارض شبه مجهولة ، ونصف متوحشة هي « ارض الموسكوف » . ومع ان الامير « ايفان الثالث » امير تلك الارض قد خضع لتأثيرات من غرب اوربا ، وهي تأثيرات ايطالية وبابوية ، كان من نتائجها زواجه عام (١٤٧٥) من وريثة اسرة « باليولوغ البيزنطية » ، واعادة بنائه « قصر الكرملين » ، وكنائسه في مدينة (موسكو) بيد فنانين ايطاليين ، وعلى الرغم من انه حرر امارته من نير تتر « القبيل الذهبي» ، الا ان سهوب الجنوب ، وشطآن البحر الاسود ، وبلاد الاورال كانت لاتزال في آسيا ، وآسيا بالمقابل ، وعن طريق الاتراك العثمانيين ، كانت هي الاخرى قد توضعت في اوربا ، وفي البلقان بالذات أي في اليونان ، وعلى طول مجرى الدانوب الاوسط ، ونهر السافا ، وقد تغلغلت حتى الادرياتيك . فالحد الشرقي لاوربا على هذا البحر كان « راغوزا » و « سبالاتو » و « ايستريا » و « اراضي البندقية » . وهذا الحد لا تتجاوزه اوربا الا بالجزر التي احتفظت بها البندقية في البحر الايوني ، والارخبيل الايجي .

اما في الجنوب فيتجاوز الحد الاوربي البحر المتوسط ليمتد ، حتى قبل سقوط غرناطة في يد فردينان وايزابيلا ، على « الريف المغربي » . فقد تجاوزت الصليبية الاسبانية الحدود الجغرافية الاصطلاحية ، ونظرت الى « الريف الافريقي»

كله على انه المتمم الافريقي للاندلس • والشيء ذاته يقال عن الساحل الاطلنطي للمغرب ، اذ ابتدأ التوسع البرتغالي فيه منذ مطلع القرن الخامس عشر •

واذا كان الحدان الجنوبي والشرقي يبدوان مذبذبين ، فان الحدين الغربي والشمالي ثابتان ، وهما المحيط الاطلنطي في الغرب ، والمحيط المتجمد الشمالي ، وبحر البلطيك والشمال ، في الشمال •

وفي اوربا المرسومة بهذه الحدود في اواخر القرن الخامس عشر ، تبدت ظاهرة سياسية عامة نجمت تقريبا في كل مكان منها ، نتيجة التطور الاجتماعي ، والاقتصادي ، الذي أشرنا اليه سابقا • وهذه الظاهرة هي حلول « تنظيمات سياسية » يمكن ان تعطى اسم « دول » محل المجتمعات الاقطاعية القديمة • ففي كل مكان كانت الملكيات الوراثية تتجه نحو « الحكم المطلق » • وقد استفادت من الصراعات الدموية التي مزقت « ارستقراطية الارض » لتقيم محل المفهوم الغامض للسيادة الاقطاعية ، المفهوم الواضح والدقيق للدولة ، المستلهم من« الافكار الرومانية القديمة » • ولقد استندت هذه الملكيات الوراثية الى البورجوازيات التجارية لدعم موقفها ، اذ ان هذه البورجوازيات كانت بحاجة لسلطة قوية تؤمن لها النظام ، وتوفر لها السلام ، لتحقيق مشروعاتها ، وثرائها • وقد استطاعت هذه « الملكيات » ان تجعل قانونها فوق الاعراف والعادات المحلية ، وسعت الى ملء الارض التي يبدو ان الجغرافيا ، أو الطبيعة ، قد منحتها للامة التي يحكمونها ، وذلك بالحاقها ، وضمها ، ودمجها المناطق المشتتة عنها • أو بتعبير آخر سعت الى ايجاد **« الوحدة الطبيعية القومية »** في ممتلكاتها • وفي هذه **« الدول القومية »** عملت السلطة الحاكمة على تأكيد **« المركزية الادارية »** **فمحت** الحواجز الداخلية ، بينما رفعت عاليا الاسوار التي تفصل الدولة عن الدول المجاورة ، وجاهدت لتجعل من هذه الدولة كلا اقتصاديا ، اكثر اتحادا في اقسامه المختلفة ، واكثر انغلاقا على الخارج •

ان هذا المفهوم عن « الدولة الحديثة » في اوربا ، استوحته الدول الاوربية في الواقع من « النموذج الفرنسي » ، حيث كان التطور السياسي في فرنسا متقدما

على غيرها من البلاد الاوربية • ولكن بريق النموذج الفرنسي ، واهمية الدور الذي لعبته فرنسا ، والمكانة التي شغلها التاريخ الفرنسي في ادب العصر ، والتي لامراء فيها ، يجب الا تحجب حقيقة اخرى هامة وهي انه لا توازن زمني بين التطورات السياسية الداخلية في مختلف الدول ، في أواخر القرن الخامس عشر • فعلى الرغم من الاتجاه العام نحو « الملكية المركزية » فان هناك بعض مخلفات من القرن الماضي : كمقاومة القوى والتقاليد الفردية الخاصة ، بل ان بعض التشكيلات السياسية صممت بعناد على الا تموت • ان هذه المخلفات القديمة سيكون لها تأثيرها في الصراع الكبير بين الدول للسيادة على ايطاليا في أواخر القرن الخامس عشر •

أولا ــ اوربا الشمالية والوسطى :

١ ــ انكلترة : ان هزيمة انكلترة في حرب المائة عام كان لها نتائجها الخطيرة عليها : فتجارتها انحطت ، وطبقة النبلاء فيها التي افتقدت اسلاب الحرب السابقة، أخذت تستخدم لصالحها المغامرين الذين غدوا دون عمل • وبذلك اصبح لدى خمسين من أسر اللوردات تقريبا ، جيش حقيقي ، هذا بالاضافة الى من اصطنعوهم من اعضاء البارلمان ورجال القضاء • وبذلك اصبح هؤلاء النبلاء مسيطرين على مقاطعات كاملة ويتمتعون بنفوذ كبير • الا ان هذه الارستقراطية كانت منقسمة الى احزاب متنافسة ، هدفها الوصول الى السلطة العليا ، والسيطرة على الملك • وقد كان الملك بيد اسرة « لانكاستر » ، الا ان اسرة « يورك » كانت تطمع بالتاج • ولذا سعى « ريتشارد يورك » لتحقيق هدفه هذا • فقامت بين عامي (١٤٥٣ ــ ١٤٨٥) حرب اهلية طاحنة في انكلترة ، هي « حرب الوردتين » اصطدمت فيها الاسرتان ، ومن تحالف مع كل واحدة ، من الاسر الارستقراطية السالفة الذكر • وسميت بهذا الاسم لان (اسرة يورك) اتخذت شعارا لها « الوردة البيضاء » و (اسرة لانكاستر) « الوردة الحمراء » • وبعد معارك عنيفة وقتلى كثيرين تسكن « هنري تيودور » ، وهو قريب للاسرتين ، ان يصل الى الملك تحت اسم « هنري السابع » • وبزواجه من اميرة يورك ، استطاع ان يوفق بين الاسرتين ، ويضع حدا لحرب الوردتين •

وكان من جراء هذه الحروب الاهلية ، ان ضعفت طبقة النبلاء في انكلترة. لمقتل العديد من افرادها اثناء القتال • وقد ساعد هذا الضعف ، والرغبة الحادة للبورجوازية والفلاحين في الخلاص من الفوضى والاضطراب ، الملك هنري السابع ، في ان يحكم حكما قويا ، ويثبت « دعائم الملكية المركزية » ، التي كانت فرنسا نموذجا لها • واتخذ مستشاريه من غير النبلاء ومن اوساط القانونيين• وصادر املاك كثير من الاسر الاقطاعية الكبيرة ، مما اغنى الاسرة المالكة • كما ادخل انصاره في « مجلس اللوردات » ، فغدا اداة طيعة في يده •

اما « مجلس العموم » فقد وقف الى جانبه ، لانه سعى لاحقاق العدالة والسلام • وقد عمل على تنظيم « الغرفة المنجمة » التي كان عملها مراقبة الحكام الاداريين ، ومقارعة فساد المحلفين ، وقمع الثورات ، والمجالس غير الشرعية •

ومع ذلك فان انكلترة تبدو في أواخر القرن الخامس عشر اضعف قوة من فرنسا : فهي صغيرة المساحة ، لاتشمل في الواقع سوى « جنوب بريطانية العظمى » ، ووسطها ، أي مايسمى « انكلترة » بالذات ، وبلاد الغال (ويلز)• اما **ايرلندة** فلم تكن مرتبطة بها في ذلك الوقت الا برباط ضعيف غير محدد ، و « **أيقوسيا** » أو « **سكوتلاندة** » في شمالها ، فكانت دولة مستقلة وسكانها مختلفون عن سكان انكلترة • وكان سكان القارة الاوربية ينظرون اليهم على انهم شعب متوحش يشبه تلك الشعوب التي وجدها المكتشفون في الاراضي الجديدة • فالى جانب الشعب نصف المتوحش في المرتفعات ، هناك المزارعون الفقراء ، والصيادون ، والبحارة المغامرون ، الذين يسكنون المناطق الساحلية ، والمدن ، والمنخفضات • وقد كان هؤلاء في صراع دائم مع جيرانهم الانكليز ، ولا سيما على الحدود • بل ان ملك سكوتلاندة كان يقوم بغزوات مربحة على دولة الجنوب • وكانت طبقة النبلاء تقتدي بما يجري في فرنسا ، لابما يجري في انكلترة • وكانت اسرة « ستيوارت » هي الاسرة المالكة ، وقد ورثت التقليد القومي في معاداة انكلترة ، وكانت تبحث خارج الجزيرة عن تحالفات ضدها • ولذا فانها وضعت يدها في يد فرنسا ، وفي يد جميع خصوم آل (تيودور) ، الاسرة الحاكمة الانكليزية •

الا انه على الرغم من ضيق مساحة الرقعة الانكليزية ، فانها كانت تحوي ثروات طبيعية هامة ،ابرزها في تلك المرحلة « الصوف » . وقد استطاع الملك « هنري السابع » ان يمهد لعودة التجارة . وجلبت له الرسوم الجمركية اموالا كثيرة أغنته عن فرض ضرائب اضافية ، وبالتالي عن دعوة البارلمان . وفي الواقع ان الهدوء الذي تمتعت به انكلترة في عهد «هنري السابع » ، انعش الرعي ، والزراعة . واخذت « المراعي » تدريجيا تحل محل « الحقول » لزيادة تربية الغنم ومنتوج الصوف . ولممارسة هذا الامر اخذ الملاكون يحيطون اراضيهم باسوار من سياج ، أو اشجار ، وكان هذا بدء حركة « التسوير » . هذا وقد كانت انكلترة تملك ثروة كبيرة من الغابات ، وتستفيد من خشبها لصهر الحديد المتوافر عندها .

وفي الوقت ذاته نمت صناعة نسيجية هامة في انكلترة ، وكان جزء كبير من (الجوخ) المصنوع يباع بعيدا بواسطة « تجار انكليز مغامرين » ، اخذوا يسعون كي يثبتوا سيادة انكلترة على البحار . وبذلك اخذ ملك انكلترة يحكم بمساعدة الطبقة المتوسطة ، التي ظهرت سيادتها على المجتمع الانكليزي آنذاك ، أي « الجنترى » «Gentry» ، وتضم اشراف الريف ، والبورجوازية التجارية .

٢ ـ الدول السكندينافية : ان قبائل « الفيكنغ » الشجاعة التي هزت اوربا في القرن التاسع كانت هي المعمرة لتلك الدول . واعتنقت الديانة المسيحية في مطلع القرن الحادي عشر ، وانشأت مؤسسات دائمة لها في « ايسلاندة » و «غروئنلاند» بل انها وصلت حتى امريكا الشمالية . ولقد كانت الممالك الثلاث النرويج ، والدانمارك ، والسويد ، تعيش من صيد السمك ، واستخراج الحديد ، والنحاس ، واستثمار الغابات ، والمراعي ، وزراعة القمح . وكانت « ڤيسبي » في جزيرة « غوتلاند » السويدية . تمثل احد المراكز المزدهرة جدا للعصبة الهانسية الجرمنية .

الا ان الحروب المتواترة ، وثورات النبلاء فيها ، ودسائس التجار الالمان ، اضعفت هذه البلاد التي اجتاحتها الاوبئة : فقد فقدت النرويج نصف سكانها ، وخرجت المراكز في غروئنلاند من يدها ، نتيجة اندفاع الاسكيمو اليها .

وقد استطاعت ملكة الدانمارك والنرويج (مارغريت) ، وهي ملكة حازمة ، ان تخضع في عام ١٣٨٩ السويد اليها ، وان تقيم (اتحاد كالمار) بين الدول الثلاث عام (١٣٩٧) • الا ان هذا الاتحاد قد تفكك بعد وفاتها عدة مرات ، وتحطم ، بل غدا في أواخر القرن الخامس عشر سببا في العلاقات العدائية بين السويد من ناحية ، والمجموعة الدانماركية ـ النرويجية من ناحية أخرى • وقد حاولت السويد ان تحقق سيادتها القومية ، وتستقل ، الا انها الزمت على الخضوع •

وقد كانت الملكية الدانماركية ، حتى في الدانمارك نفسها ، ملكية انتخابية ضعيفة ، تقودها طبقة النبلاء • وقد كان بلاطها منظما على النمط الالماني • ويساعدها في الحكم « مجلس الدييت » المؤلف من الاشراف ، ورجال الدين • وهؤلاء الاخيرون كانوا يملكون ثروة ارضية ضخمة تقدر بنصف الدانمارك • اما الفلاحون فكانوا اقرب الى افنان الارض ، ويعانون اوضاعا سيئة •

وقد حاول (آل اولد نبورغ) في الدانمارك ، ان يقووا سلطتهم المركزية في مطلع القرن السادس عشر ، بزعامة الملك « كريستيان الثاني » (١٥١٣ ـ ١٥٥٩) ، وان يقلدوا (آل ڤالوا) في فرنسا ، و (آل تيودور) في انكلترة • وقد استطاع « كريستيان الثاني » ان يحقق بعض النجاح ، ويمكن للاتحاد • الا ان « غوستاف فازا » السويدي ثار عليه ، وانتخب ملكا على السويد عام (١٥٢٣) • وبذلك قضي على اتحاد « كالمار » ، وكونت السويد دولة مستقلة تدين بالمذهب البروتستنتي •

٣ ـ الامبراطورية الجرمنية المقدسة :

بينما كانت فرنسا وانكلترة تدعمان وحدتهما ، مع جميع الازمات التي كانتا تجتازانها ، فان العالم الجرمني أو « الامبراطورية الجرمنية المقدسة » كانت تسير الى انقسام : فقد ضعف شأن الاباطرة حتى فقدوا كل سلطة لهم في ايطاليا، حيث كانت سلطتهم تمتد مبدئيا على كل شمالها ، بل انهم غدوا لايزورونها الا نادرا • وفي المانيا ، كان الامراء الاقطاعيون ، يتصرفون تصرف امراء مستقلين •

وازداد ضعف الامبراطورية بفقدانها بعض اراضيها : فالمدن السويسرية اتحدت مع سكان الجبال ، الذين يسيطرون على ممرات الالب ،ليكونوا « **الاتحاد الهلفسي** » (**سويسرة**)• وتمكن السويسريون ان يحققوا استقلالهم بين (١٣٦٥ ــ ١٤٧٦) ، بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية • ولا بد من الاشارة هنا الى امر يميز السويسريين ، ولعب دورا خطيرا في السياسة الاوربية في مطلع العصور الحديثة ، وهو ان الفقر في الجبال السويسرية قد حول السكان الى « جنود مرتزقة » ، فهناك دائما مايقارب الـ (١٥٫٠٠٠) من الرجال الصالحين للخدمة العسكرية في الخارج • وكانت هذه الخدمة العسكرية المرتزقة أو « الرايسلاوف Reislauf» مؤسسة قومية ، لانها اساس من اسس حياة هذا الشعب •وقد نظمت كنوع من احتكارات الدولة ، فهذه المؤسسة تبعث الى الحكومات المجاورة ، بتصريحات تتيح لها جمع جنود من لدنها ، مقابل اجازات بتصدير القمح ، أو الملح ، اليها ، أو مقابل امتيازات تجارية •

وقد عرف « الجنود السويسريون » على انهم افضل مشاة العصر • وقد اوجدوا اسلوبا في القتال متفوقا على اساليب الجيوش الاخرى ، مما اضطر هذه الاخيرة الى تقليده •وعندما اسس الاسبان جيشهم فانهم اتبعوا النمط السويسري• ولايمكن فهم (الحروب الايطالية) التي ميزت العصور الحديثة ، اذا اهملت الاشارة الى كتائب مشاتهم ، التي كانت اشبه بجدران متحركة مزبئرة بالحديد لايمكن اختراقها [1] ، وكان سلاح هؤلاء المشاة الرماح •

ومن ناحية اخرى ، فان **الاراضي المنخفضة** انفصمت عن الامبراطورية لتدخل في نطاق الدولة « البورغونية » ، التي كان يرئسها « فيليب لوبون » (١٣٩٦ ــ ١٤٦٧) ، الا انها مالبثت ان عادت « لآل هابسبورغ » الاسرة الامبراطورية الحاكمة •

الا ان « **الامراء الالمان** » ، في بقية **اجزاء الامبراطورية** ، لم يعرفوا كيف يستفيدون من ضعف الامبراطورية ليؤسسوا دولا هامة • بل انهم انهكوا انفسهم

---

(1) Hauser et Renaudet, Les débuts de l'âge Moderne. Paris 1946 P. 45.

في صراعات لا نهاية لها ، جعلت بعضهم يجابه بعضهم الآخر • كما انهم لم يكونوا يملكون الوسائل التي تخولهم تكوين ادارة خاصة • وكان عليهم الاعتماد على طبقة النبلاء في حكمهم ،وبذلك كانت السلطة الحقيقية بيد الاقطاعيين •

وفي **المانيا الشرقية** حيث تأثرت تأثرا كبيرا بالطاعون ، استفاد هؤلاء الاقطاعيون من تلك الاوضاع ، ليجبروا الفلاحين الذين تبقوا بعد الوباء ، على العمل في ممتلكاتهم الواسعة • ان هذه « العبودية الجديدة » التي ظهرت بعد (١٣٧٥) ، انتشرت في شرق (نهر الالب) وفي البلاد السلافية •

وقد شرعت **الامبراطورية الجرمانية المقدسة** تتنفس من ازماتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر • فالتاج الامبراطوري[1] كان للمرة الثالثة من نصيب (آل هابسبورغ) حكام النمسا • ولن يخرج من هذه الاسرة حتى سقوط الامبراطورية في مطلع القرن التاسع عشر على يد نابليون بونابرت • وقد وصل الى العرش في هذه المرحلة (فريدريك الثالث) (١٤٤٠ ــ ١٤٩٣) • ومع انه لم يكن لامعا ، الا انه استطاع خلال مدة حكمه الطويلة ان يجمع عن طريق الارث ، الى ارشيد وقية النمسا ، المقاطعات الالبية التي كانت لابناء عمه (ستيريا ، كارنتيا ، الكارنيول ، التيرول ، ومقاطعات اخرى في الصوآب والالزاس) • واهم من كل ذلك تمكن من تزويج ابنه مكسمليان من « ماري دوبورغونيا » وريثة « شارل الجسور » ، وبذلك وضع يده ثانية على الاراضي المنخفضة والفرانش كونته •

وجاء بعده ابنه (مكسيمليان) (١٤٩٣ ــ ١٥١٩) ، وكان اقوى شخصية من ابيه ولقد لعب دورا سياسيا هاما في السياسة الاوربية • وبزواج ابنه « فيليب لوبو » أي « الجميل » ، من وريثة « قشتالة واراغون » وهي « حنا المجنونة » ، ضمن ارثا ضخما لحفيده (شارل الخامس) أو شارلكان •

---

(١) كان الامبراطور الجرمني المقدس ينتخب انتخابا . فقد نص « الصك الذهبي» الصادر عام ١٣٥٦ ، بانه يعين من قبل منتخبين سبعة ، هم رئيس اساقفة كل من مايانس ، كولونيا ، تريف ، ملك بوهيميا ، كونت بالاتينيا ، دوق ساكسونيا ، مارغراف (كونت) براند يبورغ .

٤ ــ الدول المجاورة لالمانيا :

على طول حدود المانيا كان هناك دول قومية، استفادت من ضعف الامبراطورية لتقاوم التوسع الجرمني ومنها : بوهيميا ، وبولونيا ، وهنغاريا • فقد اعتنقت هذه البلاد المسيحية حوالي (١٠٠٠)م ، الا انها بقيت متخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وكان النفوذ الالماني فيها طاغيا ، ولكنها خلال القرنين الرابع والخامس عشر ، تقدمت تقدما سريعا • وكان اثر الطاعون فيها اضعف مما كان عليــه في اوربــا الغربية ، لذا فقد تزايد عدد سكانها • وقد ارتفع هــذا العدد **في بولونيا** بــين (١٣٠٠ ــ ١٥٠٠) من مليوني نسمة الى خمسة ملايين ، وتضاعفت المــدن • وفي الوقت ذاته بدأت تظهر بورجوازية قومية شرعت في منافسة التجار الالمان • وكان رؤساء هذه البلاد (بولونيا) في صدام مع الفرسان (التيوتون): وهؤلاء طائفة المانية دينية عسكرية استعمرت الشواطىء الشرقية لبحر البلطيك بالقوة • الا ان بولونيا اتحدت مع (ليتوانيا) عام ١٣٨٦ ، نتيجة زواج ملكتها من غراندوق ليتوانيا ، فغدت دولة كبيرة تحت حكم اسرة « جاجلون Jagellon» • وتمكن ملكها الليتواني الجديد ، من هزيمة الفرسان التيوتون عام (١٤١٥) ، في معركة (تانتبرغ) • واضطر هؤلاء ان يتنازلوا لبولونيا عن فتحة على بحر البلطيك ، مع ميناء (غدانسك « دانزيغ ») • وغدت عاصمة بولونيا (كراكوفيا) مركزا جامعيــا ، وفنيــا ، مشعا •

اما **بوهيميا** فقد اسلفنا القول ان حركة « حناهس » الدينية ــ القوميــة قد اثارت مشاعر التشكيك ضد السيادة الالمانية ، وانه على الرغم من اقمــاع الحركة ، والثورة التي نجمت عن اعدام الزعيم الديني القومي ، فان كثيرا مــن « الهسيين » ظل موجودا • واستطاع التشيك في عام (١٤٥٧) ان يضعوا على رأسهم زعيما قوميا تشيكيا هو « جورج بوديبراد G. Podiébrad» • وبعد وفاته عام (١٤٧١) قبلوا حكم ملك بولونيا • وبذلك يتضح ان بوهيميا اخذت تخرج من نطاق الامبراطوريــة •

والتطور التقدمي ذاته يقال عن **هنغاريا** • فقد رأت تحت حكم « ماتياس كورفان M. Corvin» (١٤٥٨ ــ ١٤٩٠) ، وهو ابن « جان هونيادي » ، زعيم

المقاومة المجرية ضد الاتراك العثمانيين ، حقبة من الرخاء ، بل انه اصبح لفترة من الزمن ملكا على بوهيميا ، واحتل « فيينا » • ولكن وفاته جاءت قبل فترة قصيرة ، من تمكن الاتراك العثمانيين من هنغاريا ، وفقدانها الاستقلال • واخيرا يمكن القول بالنسبة لهذه الدول ، ان قوة طبقة النبلاء فيها ، وتحركاتهم ، واضطراباتهم ، كانت تضعف في الواقع من شأنها ، ولاسيما ان لها حق انتخاب الملوك فيها •

ثانيا ـ دول البحر المتوسط الغربي والاوسط :

آ ـ **شبه الجزيرة الايبرية** ان « حرب الاسترداد » المسيحية لم تترك للعرب المسلمين في اسبانيا منذ منتصف القرن الخامس عشر سوى « مملكة غرناطة » • الا ان انقسام شبه الجزيرة الايبرية بين عدة ممالك ، والاضطرابات الداخلية في كل منها ، اعاقت لمدة طويلة متابعة حرب الاسترداد ، وانتزاع مملكة غرناطة التي بقيت قائمة وحدها بيد العرب المسلمين ، حتى نهاية القرن الخامس عشر • وقد كان يقتسم شبه الجزيرة الايبرية في نهاية القرن الخامس عشر اربع ممالك مسيحية : ١ ـ **النافار** في الشمال على تخوم البيرنة ، وهي اكثر ميلا لفرنسا منها لاسبانيا •

٢ ـ **الآراغون** وتمتد شرقي اسبانيا ، على ساحل البحر المتوسط وحتى جبال البيرنة • وقد كانت في نهاية العصور الوسطى قوة متوسطية كبيرة تملك جزر الباليئار ، وسردينيا ، وصقلية ، ويحكم امير اراغوني منها (نابولي) •

٣ ـ **قشتالة :** وتتركز في الهضبة الوسطى لشبه الجزيرة الايبرية ، ويحدها شمالا وشمالا بغرب المحيط الاطلنطي ، وجنوبا **مملكة غرناطة العربية ،** التي كان يحكمها « بنو نصر » ، وغربا البرتغال • وقد كانت اوسع الممالك الايبرية المسيحية واكثرها سكانا • وقد تأثرت تأثراً كبيرا بالحضارة العربية الاسلامية ، وبمخلفاتها ، في المدن التي انتزعتها من يد العرب المسلمين ، ولاسيما في المنحنين الفكري والاقتصادي • فأخذ سكانها المسيحيون يقلدونهم في طرق الاستثمار الزراعي الراقية ويعملون على منوالهم في استثمار المعادن كالحديد ، والشب ، والزئبق ؛ كما تم تهجين غنمهم بالغنم المغربي ، فنتج « غنم المرينوس »

الشهير بصوفه • وبذلك اصبحت قشتالة منتجة كبيرة للصوف ، مما ادى الى نشاط تجاري في موانئها ، ولاسيما في اشبيلية • وهذا مارفع شأنها ، واوصلها الى زعامة شبه الجزيرة • وجاء زواج وريثة العرش القشتالي « ايزابيلا » ، من وريث عرش الاراغون « فردينان » في عام (١٤٦٩) ، ليهيىء الوحدة والعظمة الاسبانية • فقد كان للملكين الكاثولكيين ، كل في مملكته ، سياسة مشتركة ومتشابهة • فقد دعما السلطة الملكية باعتمادهما على الطبقة الوسطى ، المؤلفة من بورجوازية المدن ، ومن النبلاء الفقراء القشتاليين ، الذين يسمون « بالهيدالغو »، وذلك تجاه كبار الاقطاعيين • ونظما منها قوة عسكرية بورجوازية ، قضت على من كان يبث الذعر والارهاب منهم في جنبات البلاد • وسعيا ايضا لاتمام وحدة اسبانيا السياسية ، بالقضاء على دولة « غرناطة العربية المسلمة » •واستطاعا تحقيق ذلك في عام (١٤٩٢) ، وبذلك انتهت « حرب الاسترداد » •

بعد الوحدة السياسية اراد الملكان الكاثوليكيان اقامة «الوحدةالدينية»وقددفعها فيهذا الطريق اسقف «طليطلة» «خمينس دوتسز نيروس Ximénès De Cisneros» ونتيجة هذه السياسة في التوحيد الديني المسيحي ، اصبح الشعب الاسباني ، الذي تعود التسامح الديني ابان الحكم العربي الاسلامي ، من اكثر شعوب اوربا تعصبا • ووجد في هذا التعصب العنصر الاساسي لشعوره القومي (١) •

فقد عمد الى اضطهاد اليهود ، ويقدرعددهم في اسبانيا آنذاك بـ (٢٠٠ر٠٠٠) وكانت الدوافع لهذا الاضطهاد اولا ، ثم الطرد الكامل ، اسبابا اقتصادية اكثر منها دينية • فقد كانت الطبقة الوسطى الاسبانية المسيحية ضدهم ، من صناع في المدن ، أو مزارعين ، أو رعاة ، هذا بالاضافة الى الدور الذي كانوا يلعبونه في الميدان الثقافي بصفتهم اطباء ، او ورثة للعلم العربي ، والاغريقي • وهكذا صدر في ٣٠ آذار ١٤٩٢ ـ القرار القاضي باعطاء اليهود اربعة اشهر ، للاختيار بين النزوح عن الارض القشتالية ، والاراغونية ، أو التعميد ، واعتناق الديانة المسيحية • ولم يترك للنازحين منهم أية وسيلة لانقاذ ما يملكون ، اذ منع اخراج المعادن الثمينة

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. P. 23.

من اسبانيا • ولقد تم نزوح الذين لم يعتنقوا المسيحية الى ايطاليا ، والمغرب العربي ، والبرتغال (حيث عاشوا حتى عام ١٤٩٧ فقط) والى الامبراطورية العثمانية ، والاراضي المنخفضة •

اما بالنسبة « للعرب المسلمين » فقد ضمن الملكان الكاثولكيان لهم في بادىء الامر احترام عاداتهم ، واملاكهم ، وقوانينهم ، ودياناتهم ، بل حتى نوع من الاستقلال الاداري • ولقد احترم هذا الاتفاق بين الطرفين لخمس سنوات فحسب ، اذ كان هم « ايزابيلا » والاسقف « خمنيس » رجوع هؤلاء المسلمين عن دينهم واعتناق المسيحية • وبالفعل فانها اصدرت في (١٢ شباط ١٥٠٢) مرسوما بالنسبة لليون وقشتالة ، بطرد جميع من لا يعتنق المسيحية قبل ٣٠ نيسان • ولكن « التنصير القسري » ، لايمكن ان يغير مافي النفوس من ايمان سابق • وهكذا اضيف الى اليهود ، المشكوك في مسيحيتهم الجديدة ، « الموريسكوس Moriscos ، الذين بقوا مخلصين لدينهم الاسلامي ، ويمارسون سراً شعائرهم الدينية ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم •ولقدلاحقتهم الكنيسة ، والسلطات ، « بمحاكم التفتيش » ، واعدم ، وعذب العديد منهم • الا ان طرد المسلمين ، واضطهاد « المنصرين الموريسكوس » منهم ، نجم عنه « انتقام الارض القشتالية الجافة والقاحلة » ـ كما اكد ذلك المؤرخ (هوزر)[1]• فالمسلمون كانوا قد اخصبوها بوسائل الري المدهشة التي استخدموها ، والطرائق الزراعية التي استخدموها • فانحطت الزراعة بعد طردهم ، وكذلك الصناعة والتجارة ، وبخاصة ان المسيحيين الاسبان ، كانوا يحتقرون المهن والحرف التي كان يمارسها المسلمون واليهود • ولذا فان من يرد اسباب انهيار الاقتصاد الاسباني الى تدفق الذهب الامريكي وحده ، غير محق في قوله ، لانه ينسى أو يتناسى الحقيقة السالفة الذكر • بل ان « هوزر » يلح ، على ان تدفق الذهب والمعادن الثمينة الى اسبانيا من امريكا ، ليس هو سبب انحطاطها الاقتصادي ، وانما انحطاطها السالف الذكر كان هو الذي دفعها نحو البحث عن الثروات

---

(1) Op.cit. P. 24.

المعدنية [1] • فاسبانيا اذا بردود فعلها العنيفة ضد اليهود والمسلمين ، اوجدت لنفسها « روحا مشتركـة » ، وكان « التعصب الديني » فيهـا ، هو الصـورة والرمز اللذين اتخذتهما الوطنية والشعور بها •

لقد اتبعت اسبانيا اثناء حكم فردينان وايزابيلا **سياسة خارجية توسعية .** وقد استطاع فردينان ان يدير بمهارة دفة السياسة ، وان يحقق مغانم عديـدة في اوربا ، وفي شمال افريقيا ، وفي القارة الجديدة امريكا • ففي عام ١٤٩٣ اعـاد له الملك « شارل الثامن » ملك فرنسا مقاطعتي « الروسيون » و « سردانيا » Cerdagne» على طرفي البيرنة • وفي عام (١٥٠٠) احتل « مملكة نابولـي » بالاتفاق مع ملك فرنسا « لويس الثاني عشر » ، الذي خلف « شارل الثامن »، كما انـه اتبع به عام (١٥١٢) **مملكة النافار .**

وفي شمالي افريقيا ، تابع فردينان وايزابيـلا سياستهما الصليبية ضـد المسلمين : فاستوليا على « مليلة » في المغرب الاقصى ، وعـلى « وهران » فـي الجزائر عام ١٥٠٨ ، وعلى « طرابلس الغرب » عام ١٥١٠ • وقد ساعد الاسبان على اخراج المسلمين من اسبانيا ، والتوسع حتى طرابلس الغرب ، الضعف الذي كان يعانيه المغرب العربي المسلم ، من جراء الانقسامات والتناحرات الداخلية • فبلاد المغرب العربي كانت تتألف من ثلاث ممالك رئيسية : المرينيـة في المغرب الاقصى ومركزها (فاس) ، و « بني عبد الواد » في الجزائر ، ومركزها «تلمسان» و « الحفصية » في تونس • وكل واحدة كانت في حرب مع الاخرى ، هذا بالاضافة الى هجمات البدو الرحل المتكررة على المدن ، وتدفق النازحين من اسبانيا • امـا المـدن الرئيسية على السـاحل مثل « سـلا » و « الجزائر » و « تونس » و « صفاقص » ، فانها غدت مقراً **لحركة بحرية جهادية ،** ضـد سفن الاوربيين ، انتقاما لمـا اصاب العرب في اسبانيا • وقـد اطلق الاوربيون على هذه الحركـة « صفة القرصنـة » •

وجاء كشف « كريستوف كولومبس » لامريكا عام ١٤٩٢ لصالح اسبانيا ،

(1) Op.cit. P. 25.

ليفتح امام الدولة الجديدة التي برزت موحدة سياسيا ، ودينيا ، آفاقا جديدة مزهرة • وعندما تزوج «فيليب هابسبورغ» عام ١٤٩٦ من ابنة الملكين الكاثوليكيين « حنا المجنونة » ، فان ملامح السيادة على اوربا تبدت امام حفيدهم « شارل كان » واضحة •

٤ ـ البرتغال :

لقد عمل البرتغاليون على اخراج العرب المسلمين من اراضيهم منذ القرن الثالث عشر • ولم تلبث البرتغال ان مرت بمرحلة مشابهة لتلك التي مرت بها الدول الغربية الاخرى ، مع تأثر اعمق بالحضارة العربية الاسلامية التي كانت قائمة على ارضها • وقد تمكن الملك « حنا الاول » (١٣٨٥ ـ ١٤٣٢) ان يثبت اسرة « آفيس Avis» على العرش • وكان ملكا مستنيرا ومثقفا ، وقد ساعده في الحكم اولاده الخمسة ، الذين كان من اشهرهم « هنري الملاح » (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) • وقد غدا هذا الاخير ، ابرز وجه في تاريخ حقبة الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر • وتحت تأثير العوامل الدينية ، والاقتصادية ، والفكرية ، وتحت ضغط النبلاء الصغار ، والفلاحين ، والتجار ، اندفع الملك في سياسة توسع وكشف لسواحل افريقيا • ففي مطلع القرن الخامس عشر وضع البرتغاليون قدمهم على ساحل المغرب الاقصى باحتلالهم « سبتة » عام ١٤١٥ • وبفضل جهود الامير هنري الملاح ، كانت ترسل بعثة الى الشاطىء الافريقي في كل عام ، لتتوغل اكثر فاكثر نحو الجنوب • وهكذا احتلت البرتغال « ماديرا » وجزر « الآصور » في عام ١٤٣١ ، وبلغ البرتغاليون جزر « الرأس الاخضر » في عام ١٤٤٥ • وبينما كانت هذه الجزر تستعمر استعمارا سكنيا ، وتزرع بقصب السكر ، كانت البعثات الاستكشافية تندفع ابعد فابعد • ففي عام ١٤٨٧ وصل « بارتلمي دياز » الى « رأس الرجاء الصالح » في النهاية الجنوبية لافريقيا ، هذا في الوقت الذي كانوا قد احتلوا فيه طنجة في عام ١٤٧١ •

ولم تكن سياسة البرتغال ، تجاه اليهود والمسلمين ، احسن حالا مما كانت عليه في اسبانيا • فقد اعطاهم الملك « حنا الثاني » (١٤٨١ ـ ١٤٩٥) عاما

واحدا فقط لمغادرة البلاد أي في سنة ١٤٩٦ ، وذلك تحت طائلة الاعدام ، والمصادرة. ولقد ازداد عدد « المنصرين » ، وقبض على الاطفال دون الخامسة عشر من العمر ، وعمدوا بالقوة ، وشتتوا في المدن . وامام هذا الظلم قتل كثير من الآباء اولادهم ، أو قتلوا انفسهم . وسادت موجة من الارهاب عام ١٥٠٦ ، حتى انه ذبح في ثلاثة ايام فقط مايقدر بألفين من « الموريسكوس » و « اليهود المنصرين » . ومنذ هذا التاريخ بدأت الهجرة الاسلامية واليهودية الكثيفة من البرتغال .

اما تاريخ البرتغال في عهد الملك « مانوئيل الاول » (١٤٩٥ — ١٥٢١) فيجب متابعته خارج البرتغال نفسها ، وعلى شواطىء المغرب الاقصى ، حيث اسست في مطلع القرن السادس عشر ، عدة حصون على الشاطىء الاطلنطي لبلاد المغرب ، مثل « موغادور » و « اغادير » و « صافي » وغيرها . وكذلك على شواطي افريقيا الغربية ، والشرقية ، وفي المحيط الهندي . ففي عهد هذا الملك وصلت البرتغال الى اوج قوتها ، وتوصلت الى كشف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، وانشأت امبراطوريتها .

ب ـ فرنسا :

خرجت فرنسا من حرب المائة عام منهوكة القوى ، الا انها تمكنت من استعادة قوتها الاقتصادية تدريجيا . فقد شجع الملك « لويس الحادي عشر » على اقامة صناعات جديدة في فرنسا كالطباعة ، وصناعة الحرير في ليون ، وتور ، وصناعة الجوخ في روان ، لينافس الصناعة الانكليزية الصوفية ، وليوفر على فرنسا شراء سلع غالية الثمن من الخارج . كما انه شجع الاسواق ، والمعارض الداخلية ، وحض على التجارة الخارجية .

ومع ذلك فقد بقيت فرنسا تعاني مشكلة اساسية ، وهي قوة الامراء وتهديدهم السلطة الملكية : فهناك (دوق بورغونيا) ، و (دوق بريتانيا) ، اللذان كانا يحكمان مستقلين دويلتيهما ، ويضاف اليهما (امراء آنجو) ، و (دوقات اورلئان) ، و (بوربون) الذين جعلوا من اقطاعاتهم دولا حقيقية . ولما كانوا كلهم امراء عريقين في النبالة ، فانهم ادعوا حق سيادة « مجلس الملك » . وفي الواقع لقد كان

كل واحد منهم يريد ان يستخدم موارد المملكة لصالحه • ومن ثم فان مدة حكم الملك « لويس الحادي عشر » (١٤٦١ ـ ١٤٨٣) كانت صراعا طويلا ضد هؤلاء الامراء • ولم يعمل الملك على مهاجمتهم عسكريا ، وانما فضل المفاوضة معهم ، وازجاء الوعود لهم ، وبث التفرقة بينهم ، وخلق الصعوبات الداخلية لهم في اماراتهم ، ونسج المؤامرات ضدهم ، كما ينسج العنكبوت خيوطه • ولهذا استحق لقب « العنكبوت العام Universelle Aragne» • ونجح اخيرا في ان يكسب لمملكته فرنسا عددا من المقاطعات ، حصل على بعضها عن طريق الارث مثل «الانجو» و « البروفنس » • وبعد وفاته تزوج ابنه « شارل الثامن » من دوقة بريتانيا • وبذلك مدت اسرة « بوربون » الحاكمة في فرنسا نفوذها تدريجيا على كل فرنسا واستطاع الملك ان يكون له مركزا كبيرا في اوربا في أواخر القرن الخامس عشر • ويرجع الفضل في هذا النجاح الى تأييد الشعب له ، والى موارده المالية الوفيرة من الضرائب ، والى الجيش الدائم ، الذي اصبح تحت تصرفه باستمرار • ولم يعد الملك بحاجة لدعوة « الجمعية العمومية » ليأخذ موافقتها على فرض الضرائب• فملك فرنسا غدا ، في اواخر القرن الخامس عشر ، ملكا لايرتبط باحد الا بالله ، وبنفسه • اما المجتمع الفرنسي في أواخر القرن الخامس عشر فكان يختلف كثيرا عن المجتمع الاقطاعي السابق :

فالاكليروس كانت له مكانة كبيرة ، وتأثير قوي ، للثروة التي كان يملكها ، الا ان الكنيسة كانت خاضعة للملك • وفي الارياف لم يعد **الاقطاعيون** اسيادا ، وانما مجرد ملاكين ، وبذلك اصبحت الرسوم الاقطاعية التي كانوا يتقاضونها من الفلاحين عبئا اكبر عليهم ، لانهم لاينالون مقابلها الحماية من هؤلاء الاقطاعيين كما كان عليه الامر في الماضي • وشرع **موظفو الملك من البورجوازية** يكتسبون صفة النبالة ، التي اطلق عليها « نبالة الثوب » • وقد وجدت الطبقة البورجوازية في هذه الوظائف وسيلة للاغتناء ، وشراء الاراضي ، والارتفاع الى مستوى الاشراف • هذا المجتمع الجديد كان يرمي بثقله كله على الفلاحين ، فقد استطاعت الطبقات الحاكمة ان تعفي نفسها من الضرائب ، وان تحملها للشعب • ولكن الكفاح الطويل ، والمرير ، ضد الانكليز ، قد خلق في فرنسا شعورا حديثا ، كان قوة كبيرة لها وهو

« الشعور القومي » . ولقد ارتبط هذا الشعور ، ارتباطا وثيقا بالاخلاص والولاء للاسرة الحاكمة . ومن ثم فقد كان الفرنسيون يتفاخرون باستقلالهم ، ووحدتهم، ويعبرون عن هذه الوحدة ، بالشعارات التالية : « دين واحـد ، وقانون واحد ، وملك واحـد » .

ولقد حاول الملك (شارل الثامن) من (١٤٨٣ ــ ١٤٩٨) ، الذي كـان يحلم احلاما توسعية صليبية كبيرة ، توصله الى ملكية القدس ، ان يستغل هـذه القوة لتأسيس امبراطورية ضخمة . ولذا فهو الذي افتتح العصر الحديث الاوربي بـ « **الحروب الايطالية** » وشجعه على ذلك بالذات انه كان يمتلك مدفعية قوية . اذ ان صناعة المدافع كانت قد تقدمت تقدما كبيرا في فرنسا . وهذا ما سيشار اليه عنـد الحديث عن (الحروب الايطالية) .

الدولة البورغونية :

وسميت كذلك نسبة الى « مقاطعة بورغونيا » ، وتقع الى الشرق من فرنسا . وقد استطاع اميرهـا « فيليب لوبون » (١٤١٩ ــ ١٤٦٧) ، ان يضم اليـه ، ويوحد ، جميع البلاد التي تشكل « الاراضي المنخفضة » . وكان ينظر الى نفسه على انه امير فرنسي ، وانه يأتي في المرتبة الاولى من امراء فرنسا . ومع انه لم يتخذ لقب ملك ، الا انه بسلطته وبمظاهر بلاطه الفخمة والمترفة، كان يتشبه الى حد كبير بملك فرنسا . بل انه اسس في عام ١٤٣٠ « فرقة الشعلة الذهبية » ليجمع الفرسـان حولـه .

وقد حاول خلفه « شارل الجسور » ان يوحد املاكه في دولة واسعة ، بـين فرنسا والامبراطورية المقدسة . الا انه اصطدم بملك فرنسا « لويس الحادي عشر» ووقعت الحرب بينهما . ولقد سعى سعيا حثيثا لدى الامبراطور ، لينال لقب«ملك»، الا انه اخفق . وعند وفاته هاجم لويس الحادي عشر ممتلكات بورغونيا . وكانت ابنة « شارل الجسور » ، (ماري دوبورغونيا) ، هي الوريثة الوحيدة لـه ، وقد تزوجت من « مكسمليان هابسبورغ » . وقد احتفظت فرنسا من هذه الامارة بـ « بيكارديا » و « دوقية بورغونيا » ولكن وريثة الامارة حملت الى زوجها مهرا ،

« الاراضي المنخفضة موحدة » ، و « الفلاندر » ، الـذي كانت تنظر اليهـا فرنسا على انها جزء منها .

ولقد اشرنا سابقا عند الحديث عن الامبراطورية المقدسة ، ان زواج « فيليب لوبو » ابن الامير مكسمليان من زوجته « ماري دوبورغونيا » ، بـ «حنا المجنونة» وريثة عرش قشتالة واراغون ، فتح الباب لابنهما ـ أي لحفيد مكسمليان ـ وهو « شارل الخامس » كي يرث امبراطورية ضخمة .

فـ « شارل » هذا الذي سيصبح امبراطورا على الامبراطورية المقدسة ، هو امير بورغوني الاصل . وعندما اصبح ملكا على اسبانيا ، فانه لم ينفك ابدا عـن كونه « فلمنكيا » (أي من الاراضي المنخفضة) ، بل حاول حتى عام ١٥٢٩ اعادة تكوين ملك اجداده ، واستعادته . وقد ساعده في ذلك مستشارون من الاراضي المنخفضـة .

ج ـ ايطاليـا :

لقد كانت نقطة مشعة في الخريطة الاوربية ، ومركز جذب ترنو اليه جميـع الشعوب في اوربا . فايطاليا بالنسبة اليهم لم تكن ككل البلاد : اذ اليهـا تهفو قلوب المسيحية بصفتها مركز البابوية ، والمحج الموعود ، كمـا ان فيهـا العاصمة السابقة للامبراطورية الرومانية الزائلة ذات الحضارة الرائعة . هذا بالاضافة ، الى انها كانت متقدمة على جميع اوربا بحياتها الاقتصادية ، وتشكيلاتها الاجتماعيـة ، ومنظماتها السياسية المتنوعة ، وبحياتها الفكرية الحرة والرفيعة . الا ان ايطاليـا كانت تعاني مأساة ، لانها لم تستطع ان تكون « وحدة سياسية واحدة » تتمكـن فيها القوى السابقة من تحقيق ذاتها ، وابعادها المختلفة . فايطاليا كانت « مصطلحا جغرافيا » فحسب ، وهي منقسمة الى عديد من الدويلات : ففي الوسط والشمال، كونت « المدن » جمهوريات مستقلة ، يتزعمها كبار التجار ، وبعض هذه المـدن القوية مدت سيطرتها على المناطق المجاورة . الا ان الاسر الكبيرة للتجار ، كانت في صراع فيما بينها على السلطة . وصغار الحرفيين والعمال في ثورة ، للبؤس الذي كانوا يعيشونه ، نتيجة الازمات الاقتصادية ولحرمانهم مـن الحقوق السياسية .

وكانت نتيجة هذه الحروب الاهلية ، تخريب المؤسسات الديمقراطية لهذه المدن ، وحلول نظام الحكم الفردي فيها ، أو الدكتاتوري • وقد كانت هذه (الجمهوريات) أو (الدكتاتوريات) في حرب شبه مستمرة فيما بينها ، مستخدمة جندا مرتزقة غرباء ، يقودهم قادة منهم أي « الكوندوتييري » •

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، وبعد بعض رص نسبي للصفوف ، فان ايطاليا بقيت منقسمة الى عدة دول ، هي :

في الجنوب تقوم ((**مملكة نابولي**)) وتحكمها اسرة اراغونية ، فهي اذاً مستعمرة اسبانية كما ان « صقلية » و « سردينيا » كانتا تتبعان ايضا لاراغون • وفي الشمال تكونت امارة قوية هي **دوقية بيه مون وسافوا** التي امتدت على منحدرات جبال الالب في الشمال الغربي من ايطاليا • وفي الشمال الشرقي انتصبت ((**البندقية**)) ، وقد حكمتها ارستقراطية مدت سيطرتها على الارض الصلبة ، وعلى الشاطيء وجزر دالماشيا • وفي ((**دوقية ميلانو**)) قام آل « فيسكونتي » اولا ، ثم آل «سفورزا» ، بتشجيع الزراعة في سهل لومبارديا ، وتنمية صناعة الحرير حتى غدت الدوقية قوة اوربية • هذا في الوقت الذي ضعف فيه شأن ((**جنوة**)) ، نتيجة تقدم الاتراك في البلقان ، والانقسامات الداخلية التي كانت تعانيها • وفي الوسط هناك ((**دول البابا**)) تحت زعامة البابا ، وعدد من ((**الامارات الصغيرة**)) الا ان **فلورنسة** كسفتها جميعا بقوتها ، وازدهارها الاقتصادي ، والفني ، والفكري ، تحت زعامة اسرة مصرفية كبيرة هي « آل مديتشة » واميرها الكبير « لورانزو الفاخر » •

الحروب الايطالية (١٤٩٤ ـ ١٥٥٩) : ان انقسامات الايطاليين على انفسهم ، ومطامع ملوك فرنسا ، واراغون ، بايطاليا الغنية ، والمتقدمة حضاريا ، كانت في الواقع هي الدوافع الكبرى للحروب الايطالية • فالملك « شارل الثامن » ملك فرنسا ، كان يحلم بتأسيس امبراطورية واسعة ، تمتد الى جنوب ايطاليا ، فقبرص ، فبيت المقدس ، بل والقسطنطينية ، بعد ان يطرد الاتراك العثمانيين منها [1] •
وحدث ان ابن عمه « دوق دانجو » كان يدعي حقوقا وراثية له على عرش نابولي ،

---

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. 72 - 73.

فعند وفاته وانتقال ملكه الى ملك فرنسا ، قام هذا الاخير بالمطالبة بحقوق الارث على المملكة الايطالية في الجنوب • وليحقق شارل الثامن احلامه ، فانه قام بتنازلات عن مقاطعات فرنسية ، لكل من فردينان ملك اراغون ، وللامبراطور مكسمليان الامبراطور الجرمني المقدس • وتقدم في عام ١٤٩٤ ، على رأس جيش قوي الى ايطاليا ، ودخل نابولي منتصرا في عام ١٤٩٥ • واثناء مروره بروما اخذ من البابا الامير « جم » ، اخي السلطان العثماني « بيازيد الثاني » ، وكان رهينة لديه • وعند وصوله الى نابولي توفي الامير التعس ، ويقال قتل بالسم •

الا ان « شارل الثامن » لم يتمتع طويلا بهذا النصر ، فقد اخل وجوده في ايطاليا بالتوازن ، الذي كانت الدويلات الايطالية تسعى لايجاده فيما بينها • ولذا فقد تشكل تحالف من البابا ، وفلورنسة ، وميلانو ، والبندقية والملكين الكاثولكيين ، ضده ، سمي « بالعصبة المقدسة » • وقد وضعت هذه العصبة اهدافا لها : الدفاع عن المسيحية ضد الاتراك العثمانيين ، واعادة الهيبة الى كرسي البابوية ، والدفاع عن حقوق الامبراطورية الرومانية المقدسة[1] • وعندما شعر ملك فرنسا بالخطر يتهدده فانه اسرع لمغادرة نابولي • وشق طريقه عائدا الى فرنسا ، بعد ان تمكن من الانتصار على اعدائه عسكريا في معركة « فورنو Fournoue » في شمال ايطاليا ، في ٦ تموز ١٤٩٥ ، وضاعت بذلك منه مملكة نابولي •

ولم تنته المشكلة الايطالية وحروبها بعودة شارل الثامن الى مملكته ، بل ان الملك « لويس الثاني عشر » الذي خلف « شارل الثامن » على العرش (١٤٩٨ ـ ١٥١٥) ، ادعى هذه المرة حقه في وراثة عرش « ميلانو » عن طريق جدته من آل فيسكونتي • وبالفعل فانه احتل الدوقية ، واسر اميرها عام ١٥٠٠ • ثم اتفق مع « فردينان داراغون » لاقتسام نابولي التي احتلها الطرفان بسهولة ويسر • الا ان الاختلاف قام بين الفرنسيين والاسبان ، ونجح هؤلاء الاخيرون في طرد الفرنسيين منها في عام ١٥٠٤ ، وتنازل الملك لويس عن حقوقه فيها •

ولكن طموح البابا « جول الثاني » (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) ، اجج الصراع ثانية

(1) Hauser et Renaudet, op. cit, P. 72 - 73.

في ايطاليا • فقد نظم تحالفا ضد البندقية (عصبة كامبرة عام ١٥٠٨) ادخل فيه فرنسا ، والامبراطور مكسمليان ، وفردينان داراغون • وهدف البابا تأديب البندقية لتملصها من نفوذه ولانتزاع ممتلكاتها البرية منها[١] • وقد هاجم الفرنسيون البنادقة وانتصروا عليهم في معركة « اغنادل » عام ١٥٠٩ • واقتسم الحلفاء املاك البندقية على البر الايطالي • ولكن البابا ما لبث ان خشي ازدياد النفوذ الفرنسي ، والامبراطوري في ايطاليا فخرج من العصبة ، وانضم الى البندقية • واستطاع أن يكون تحالفا ضخما ضد فرنسا ، دخل فيه اصدقاؤها بالامس : اسبانيا والامبراطور ثم استقطب الدول الايطالية ، وانكلترا ، والسويسريين • وعلى الرغم من انتصارات القائد الفرنسي (غاستون دوفوا) في بادىء الامر ، فان فرنسا لم تقو على التحالف الكبير ، ولذا فقد انهزمت في معركة (نوفارة) عام ١٥١٣ ، التي تم فيها الصلح بين الاطراف المتنازعة وفقدت فيه فرنسا ايطاليا الشمالية •

الا انه ما ان وصل الملك فرانسوا الاول (١٥١٥ ــ ١٥٤٧) الى العرش حتى عادت الاحلام الايطالية تعاوده • فاجتاز جبال الالب عام ١٥١٥ ، واعاد فتح ميلانو ، بعد ان انتصر انتصارا ساحقا على المرتزقة السويسريين في معركة « مارينيان » (١٥١٥) • ووقع مع البابا (ليون العاشر) « اتفاق بولونيا » الذي يعترف فيه البابا بحق الملك في اختيار الاساقفة وكبار رجال الدين • كما وقع مع السويسريين ما يسمى « بالصلح الدائم » ، وبموجبه يسود السلام بين سويسرة وفرنسا ، وتقدم سويسرة لفرنسا ما تريده من الجنود المرتزقة • وقد بقي هذا الاتفاق قائما حتى الثورة الفرنسية •

وبدا ان توازنا قد قام في ايطاليا : فملك فرنسا ساد الشمال ، وملك اسبانيا ساد الجنوب • الا ان الحروب الايطالية ستعاود لهيبها في القرن السادس عشر ، وضمنها الصراع بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة ، ممثلة بالصراع بين (فرانسوا الاول) والامبراطور (شارلكان) •

---

(1) W. Langer, An Encyclopedia of World History U.S.A. 1948 P. 393 - 394.

ثالثا ـ علاقات اوربا بالعالم الخارجي :

آ ـ **مع الدولة العثمانية :** في اواخـر القـرن الثالث عشر ، كانت آسيـا الصغرى منقسمة بين عدد من الدويلات الصغرى التركمانية ، التي كان من اهدافها الاولى القيام بالجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية واعداء الاسلام • وقد استطاعت احداهما بقيادة زعيمها « عثمان » ان تستولي على « بورصة » في عـام ١٣٢٦ • وتدريجيا توسع الاتراك العثمانيون في آسيا الصغرى ، وعلى الارض الاوربية ايضا، منتزعين من بيزنطة الاراضي التي لا تزال تمتلكها • وفي عام ١٣٨٩ ، سحقوا الجيش الصربي في معركة « كوسوفو » • وعندما تداعى الاوربيون الى صليبية جديـدة لدرء الخطر الاسلامي التركي الجديد ، فان العثمانيين حطموا قوات هذه الحملـة الاوربية المشتركة في معركة « نيكوبوليس » في عام ١٣٩٦ •

وفي هذا الوقت كان (تيمورلنك) زعيم التتر ، قد خرج من آسيا الوسطى واحتل بلاد فارس ، والعراق ، وشمال الهند ، وتقدم نحو آسيـا الصغرى ، وهزم الاتراك العثمانيين في معركة (انقرة) عام ١٤٠٢ ، واسر سلطانهم (بيازيد الاول) •

الا ان العثمانيـين عاودوا النهوض ، واستعادوا ما فقدوه • وقـد عمد القائد المجري الشهير « جون هونيادي » على ايقاف تقدمهم امام « بلغراد » ، كمـا عرقل تحركهم في البانيا « اسكندر بك » • الا ان العثمانيين كانوا قد صمموا على الخلاص من الدولة البيزنطية ، ولذا فان السلطان « محمد الثاني » قام بمحاصرة « القسطنطينية » ، وبعد شهرين من الحصار فتحت المدينة عنوة (٢٩ ايار ١٤٥٣) وقتل الامبراطور البيزنطي الاخيـر • وبذلك زالـت « الامبراطورية الرومانية الشرقية » من الوجود بعد ان عاشت الف عام ، بعـد سقوط الدولة الرومانيـة الغربيـة •

وعمل السلاطين العثمانيون خلال السنوات التالية ، أي في القرن السادس عشر ، على اخضاع الامارات الرومانية ، وهنغاريا ، كما عملوا على ضم سورية ، ومصر ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية ، كما مدوا نفوذهم الى شمالي افريقيا ،

وسادوا الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، وبقيت بلاد المغرب الاقصى وحدها خارجة عن سيطرتهم •

وقد ادى التوسع العثماني هذا الى شعور اوربا بالخطر المحدق بها ، ولـذا فان البابا لم يتوقف عن مطالبة الدول الاوربية بالتكتل لايقاف هذا الزحف . الا ان الدول الاوربية التي بدأت تشعر نتيجة نمو مفهوماتها القومية ، بالانفصام التدريجي عن « القضية المسيحية » ، ما كانت تستجيب لتلك النداءات الا اذا كانت تحقق لها مصلحة ما • بل يلاحظ انها شرعت تعقد صلات مع الدولـة العثمانية ، هي في غالب الاحيان صلات ود وتقارب ، وذلـك لتضمن لهـا هـذه الدولة مصالحها التجارية في انحاء امبراطوريتها ، وبخاصة منها فرنسا ، وانكلترا.

ب ـ دخول اوربا بتحاك مع افريقية السوداء : منذ مدة طويلة والاوربيون يذهبون الى الموانىء المغربية باحثين عن الذهب الآتي مـن داخل القارة • وقـد كان في هذا الداخل دول افريقية قوية مثل :

ـ **امبراطورية مالي** : وتضم بـلاد السنغال والنيجر الاعلى • وقـد رأت ازدهارا كبيرا تحت حكـم (كانغو موسى) : فقـد كـانت اسواق « غـاو » و « تومبوكتو » تجذب العديد من التجار • وقد ادهش هذا الملك ، بترفه وكرمه العرب المسلمين انفسهم اثناء قيامه بالحج الى مكة •

ولكن في نهاية القرن الخامس عشر،حل محل مالي **امبراطورية « سنغهاي »** • وقد توضعت عند منعطف النيجر ، ولم تدم طويلا اذ سارت سريعا نحو الانحدار•

وعلى شاطىء « خليج غينيا » ، كانت هناك شعوب اقل عددا ، وذات حضارة أصيلة خاصة بهم ولم يعتنق هؤلاء الدين الاسلامي • وحوالي اواخـر القـرن الخامس عشر ، دخل هؤلاء بتماس مع الاوربيين • فمنذ عام ١٤٢١ كان الاميـر البرتغالي (هنري الملاح) يرسل سنويا نحو الجنوب بعثة بحرية ، وكان يبحث عن طريقة لانشاء علاقات مع شخصية غامضة وغير معروفة تماما لديه ، وهـي شخصية « حنا الراهب » • وهذه الشخصية في الواقع كانت « نجاشي الحبشة »، الملك المسيحي ، الذي لم يلتق بـه احد من الاوربيين بعد ، والذي يمكنه بحسب

اعتقاده أن يضم قواه الى قوى الغربيين لسحق الاسلام[1] .

وقد تقدم الملاحون البرتغاليون شيئا فشيئا على طول الشواطىء الافريقية موجهين من قبل العلماء الذين احاط الامير بهم نفسه . وفي عام ١٤٣٤ اجتازوا « رأس بوجادور » علـى الساحل الصحراوي ، وفي عـام ١٤٤٥ وصلوا الرأس الاخضر في السنغال ، وفي ١٤٨٥ مصب الكونغو .

ان وصول الاوربيين الى تلك البقاع ، بلبل الطرق التقليدية للتجارة فـي القارة الافريقية.فالتبادلات التجارية اخذت تجري في موانىء الساحل الغربي،وفقدت القوافل الصحراوية اهميتها ، كما شرع باستثمار مناجم جديدة للذهب . وبالاضافة الى ذلك فان البرتغاليين اخذوا يحصلون عن طريق مبادلـة سلعة بسلعة ، عـلى التوابل والعبيد السود الذين لاقت تجارتهم رواجا كبيرا بعـد كشف امريكـا ، والتي اثارت صدامات دامية وعنيفة بين القبائل للحصول على اسرى يبيعونهم رقيقـا .

وقد حاول الاوربيون نشر الدين المسيحي في صفوف السكان ، وتكونت مجموعات صغيرة من المسيحيين السود في بقاع متفرقة . الا ان هـذه التطورات لم تمس سوى الاقاليم الساحلية ، اما افريقيا الوسطى الداخلية ، فقـد بقيت مجهولة من الاوربيين حتى القرن التاسع عشر .

ج ـ مع الشرق الاقصى ان علاقات اوربا مع الشرق الاقصى كانت ضئيلة، ففي أواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر ، عرفت **الصين** ، بزعامـة سلالة جنكيز خان المغولية، ازدهارا كبيرا.واستطاع عدد من الاوربيين الاقامة فيها ، وتشييد كنائس مسيحية . الا ان الثورة اندلعت في الجنوب في عام ١٣٦٨ ضد تلك الاسرة المغولية ، وقامت اسرة حاكمة صينية جديـدة هي اسرة « مينـغ » التي بقيت على الحكم حتى ١٦٤٤ . وتقوقعت الصين على نفسها ، وتوقف تقدمها في الميدان التقني .

---

(1) Bruley et Compagnons, op. cit. P. 68.

اما في **الهند** فكان المسلمون قد فتحوا شمالها ، واقاموا عاصمتهم في «دلهي» وتكونت الامبراطورية المغولية الاسلامية . الا انهم لم يستطيعوا السيطرة على بقية شبه الجزيرة الا لبعض الوقت . وبذلك بقيت دول هنديـــة قائمة حتى أواخر القرن السادس عشر . وقد كانت الهند ، كالصين ، مركز حضارة اصيلة ومتألقة ، وكانت على علاقات تجارية مع مسلمي مصر ، وجنوبي شبـــه الجزيرة العربية ، وشرقها ، ومع عرب شرقي افريقيا . اما الاوربيون الذين استطاعوا زيارتها فكانوا قلــة قليلة جــدا .

الباب الأول

القرن السادس عشر فى اوربا

(١٤٩٢ – ١٦١٠)

تمهيـــد :

ان القــرن السادس عشر يمثل مطلــع العصور الحديثة ، وفجرها المشرق المتلألىء • ولقد اختلف حول حدوده الزمنية : فالواقع الحسابي يجعل بدايته عام ١٥٠١ ، ونهايته عام ١٦٠٠ ، ولكن العرف التاريخي يسمح عــادة ببعض المرونة في اختيار الحــدود الزمنية للعصور ، والقرون ، والحقب • فالمؤرخ الفرنسي الشهير « ميشله «Michelet » ، الذي عاش في القرن التاسع عشر ، تحدث عــن القرن السادس عشر ضمن امتداد واسع ، لانه بالنسبة اليه هو « عصر النهضة» بكل ألقه ومظاهره • ولذا قال ، انه من السليم والصحيح مد هذا القرن مــن « كولومبس » مكتشف امريكا ، و « كوبرنيكوس » القائل بكرويــة الارض ، ودورانها حول الشمس ، الى « غاليله » • وبذلك يتجاوز الحدود الزمنية الفعلية للقرن السادس عشر ويطغى على قسم من القرن السابع عشر • بينما يرى المؤرخ الفرنسي المعاصر « هوزر «Hauser » ، بان هذا القرن يمتد بين (١٤٩٢ ــ١٥٩٨)، وهو العام الذي توفي فيــه الملك « فيليب الثاني » ملك اسبانيا ، وصدر فيــه « منشور نانت » في فرنسا ، الذي وضع حــدا للحروب الاهلية الدموية بــين الكاثوليك والبروتستانت ، وكان يمثل التسامح الديني الــذي هو منعطف هــام في الفكر الاوربي •

ويذهب مؤرخون آخرون الى القول ـ مستندين في ذلـك الى التطـور الاوربي الديني والسياسي ـ بأن المرحلة الممتدة من عام (١٤٩٤ـ١٦٦٠) تكوّن مرحلة واحدة • بل ان كثيرا من المؤرخين يرون ان نهاية القرن السادس عشر هـي حوالي عام ١٦٢٠ ، أو ١٦٤٠ ، وذلك بالنسبة لتكامل « التطور الاقتصادي » الذي تـم في هذه الفترة •

وفي الحقيقة ان جميع المؤرخين في تحديدهم لامتـداد القرن السادس عشر يستندون الـى تجانس بعض مجموعات مـن الاحداث وترابطها ، الا أن بعضهم يشتط فيتحدث عن ثـلاث حقب في القرن السادس عشر ، أو حقبتـين ، تبتدىء الاولى عام ١٤٥٠ ، وتنتهي الاخيرة في منتصف القـرن السابع عشر • ان هـذا الجدل حول امتداد القرن السادس عشر ، هو في الواقع اقرب الى الجدل البيزنطي ويجعل من القرن السادس عشر ما يشبه الاسطورة [1] • الا انه يمكـن القول ان الحدود التـي تعارف عليها اغلبية المؤرخين هـي الممتدة بـين (١٤٩٢ـ١٥٩٨) و (١٤٩٢ـ١٦١٠) على اعتبار ان عـام (١٦١٠) هـو تاريخ وفاة الملك « هنري الرابع » ملك فرنسا ، الذي اوقف « الحروب الدينية » ، كما انه عام قريب مـن وفاة « الملكة اليزابيت » عام ١٦٠٣ ملكة انكلترة التي يمثل عصرها «عصر النهضة»، هذا بالاضافة الى انه عـام نصر علمي باهر ، اذ تـم فيـه اختراع « غاليله » للتلسكوب •

والقرن السادس عشر بالنسبة لاوربا قرن غني جـدا بالاحداث الضخمة ، والتطورات الكبرى ، والشخصيات الرائدة واللامعة في كل مجال من مجالات الحياة • ففيه ظهر مصلحون دينيون من امثال « لوتر » و «كالفن» و «زوينغلي» ، وانتثرت في سمائه الفنيـة نجـوم ساطعة مـن امثـال « ليوناردو دافنشي » و « ميكيل آنجلو » و « رفائيل » و «تيسيان» •وفي الميدان السياسي عج بالفعاليات الكبيرة ، كنمو مفهوم الدولة القومية ، وتشابك العلاقات الدولية ، وانفجـار صدامات ضخمة ، منها الحروب بين ملك فرنسا ، والامبراطور الجرمني المقدس

(1) Morineau (Michel), Le XVIe siècle, Paris 1969, P. 35:

والحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ثم الثورة في الاراضي المنخفضة مطالبة بالاستقلال عن اسبانيا ، والصراع في البحر المتوسط بين الاتراك العثمانيين ، واوربا ، واسبانيا منها بخاصة ، وفي اوربا الشرقية ، بين الاتراك ايضا واوربا ، بعد ان تقدم العثمانيون حتى فيينا عام ١٥٢٩ • وفي بحران هذا النشاط الحربي ، قامت علاقات سياسية اقتصادية سلمية ، بين العالم الاسلامي ممثلا بالدولة العثمانية نفسها ، وبين اوربا •

وطيلة هذا القرن ، فان الكشوف الجغرافية التي ابتدأها الاسبان والبرتغال تابعت سيرها ، وانبرى لها الانكليز ، والفرنسيون ، والهولنديون •

ان تاريخ القرن السادس عشر بحسب قول المؤرخ « جول ميشله » هو « بطل » : « لانه اظهر قوة الانسان وحده امام السلطات والتقاليد • فقد سادته روح انسانية واحدة تفوق بقيمتها مملكة ، بل امبراطورية ، بل مجموعة دول ، بل قد تفوق النوع الانساني كله »[1] لقد ولد في القرن السادس عشر الفكر الحر ، وحقق فيه فتحان ضخمان في تاريخ الانسانية : « كشف العالم » و « كشف الانسان » ، وفيه نمت فكرة التسامح الديني • فبالنسبة للمؤرخ « ميشله » ، كان كل من « كولومبس » و « كوبرنيك » و « ولوتر » و « غاليله » ، ابطالا عظاما ، اذ تحدوا البابا وسلطة الكنيسة ، وسلطة الامبراطورية ، والعصور السالفة ، والعقائد السائدة ، والرأي العام •

أما بالنسبة للمؤرخ « هوزر » فان القرن السادس عشر يمثل ثورتين : ثورة في « الفكر » وفي مفهوم « الجمال » ، وثورة في « المعتقد والاخلاق والدين » • ويطلق عادة على الاولى ، للتبسيط اسم (النهضة La Renaissance) وعلى الثانية ، (الاصلاح الديني La Reforme) • والثورتان اذا ما نظر اليهما من الخارج هما « عودة الى الماضي » ، عودة الى القديم الكلاسيكي ، والى المسيحية الاولى • ولكن اذا تعمقنا فيهما نرى انهما حركتان متشابهتان ومتواصلتان ،

---

(1) Morineau, op. cit. P. 16.

وما هما الا تأكيد لوجود (الانسان الفرد) وثورة للضمير الانساني على كل القيود الجماعية السالفة [1] •

فليس هناك من تاريخ يجب ان يفسح فيه المجال لدراسة التطور الفكري والفني اكثر من تاريخ هذا القرن • فلا يمكن للدارس فهم الاحداث السياسية فيه اذا لم يضع دائما نصب عينيه هذه الحقيقة وهي ان هذا القرن هو قبل كل شيء قرن « النهضة » و « الاصلاح الديني » •

وان هذه (الفردية) نفسها التي تميز الحركة الانسانية (الهومانيست) و « الحركة الاصلاحية الدينية » تفسر « الثورة الاقتصادية » التي هي من خصائص هذه الحقبة بما حملته من توسع تجاري ، ونمو نقدي جديد ، وانتصارات اولية للرأسمالية • كما انها تفسر ايضا التطورات على الصعيد السياسي : « فالجمهورية المسيحية » الجامعة تنحل ، وتنشأ « الدولة الحديثة » ويصطدم بعضها ببعضها الآخر ، فتبحث عن السلام « بالتوازن » وتنمي في مواطنيها شعورهم بقوميتهم •

ان هناك ايضا حادثا آخر كبيرا يملأ هذا القرن ، وما هو الا نتيجة للحركات الثلاث ــ الآنفة الذكر ــ الفكرية ، والاقتصادية والسياسية ، وهذا الحادث هو (اتساع ساحة التاريخ) : فأعمال الكشف الجغرافي التي ابتدأت في أوربا قبل قرن من الزمن تقريبا ، أدت الى ظاهرة من أهم الظاهرات في ذاك القرن بل وفي العالم المعاصر • فاوربا القرن السادس عشر ، قد تظهر لابناء حضارة العصور الوسطى ، وكأنها قد غدت مركزا للعالم • وليس هذا وهما ابدا ، اذ أن جرأة المغامرين الاوربيين ، قد وضعت بالتحاك عوالم كان بعضها بعيدا جدا عن بعضها الآخر ، بل انها فتحت بالعنف ، عوالم كانت مغلقة ، أو منطوية على نفسها • ويمكن القول انه يشاهد في القرن السادس عشر انتصار التفوق الاوربي : فالدوران حول افريقيا ، وكشف جزر الهند الغربية (الانتيل) ، واحتلال المكسيك ، والبيرو ، وفتح اليابان للتجارة الاوربية ؛ كلها امور قام بها الاوربيون ، واوجدت للمرة

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. P. 1 - 2.

الاولى « تاريخا عالميا » بالمعنى الصحيح . اذ لوحظ ان تلك الانسانيات المتمايزة عن الاوربيين ، في البقاع الجديدة ، لها هي الاخرى ماضيها وحضارتها . ومع ان القرن السادس عشر ليس له المعنى نفسه بالنسبة لليابان ، التـي كانت تحكمها اسـرة « اشيكاغا » الشوغونية ، والصين ، التي كانت تحت سيادة اسرة « مينـغ » ، والهند ، التي تكونت فيها امبراطورية « بابر المغولي » الاسلامية ،وايران التي سيطر عليها الصفويون الشيعة ، الا انه ترك بقيمة الجديدة واحداثه آثارا دعت لتحركها باتجـاه أو بآخـر [1] .

ويضيف المؤرخ « مورينو » المعاصر ، الى صفات القرن السادس عشر تلك أنـه كان بداية « الصراع الاجتماعي » في اوربا : فقد قامت تنيجـة الثورة الاقتصادية السالفة الذكر ، ونمو الرأسمالية التجارية ، هوة بين المجموعات البشرية العاملـة في حقل الانتاج . وظهرت روح نضال حقيقية للطبقات ،حلت محل الانسجام القديم الذي كان يسود العلاقات الانسانية في العصور الوسطى [2] .

هذا ما فطن اليه « كارل ماركس » في عام ١٨٤٨ ، فاشار الى ان القرن السادس عشر يمثل مرحلة حاسمة في التاريخ الاجتماعي ، مرحلة حـل فيها نمط الانتـاج الرأسمالي محل الانتاج الاقطاعي . فقد قال : « ان اكتشاف امريكا ، والالتفاف حول افريقيا قدما للبورجوازية الوليدة ميدانا جديدا للعمل والنشاط : فالاسواق في الهند ، والصين ، واستعمار امريكا ، والتجارة الاستعمارية ، وتضاعف وسائل التبادل ، والسلع بصفة عامة ، كل هذا اعطى التجارة ، والصناعة ، والملاحة دفعـا وتقدما لم تعرفه من قبل . ومن ثـم ادى الى نمو سريـع « للعنصر الثوري » وتمثله البورجوازية آنذاك ، في المجتمع الاقطاعي ، الـذي كان سائرا في طريـق الانحلال » . وهكذا نشأت طبقة من «البروليتاريا» من سكان المدن والعمال ، وان كان شعورها الطبقي وتنظيمها لايزالان ضعيفين . الا ان البؤس الذي كانت تعيشه والظروف المحلية المحيطة ، كانت تدفعها بـين حين وآخر الـى القيام بانتفاضات

---

(1) Ibid, P. 2.

(2) Op. cit. P. 19.

تحاول بها طرح نير الاقوياء • لكن هذه المحاولات كانت دون جدوى ودون امل . والشيء ذاته يقال عن تحركات الفلاحين •

ان ما قدم سالفا عن الخصائص العامة للقرن السادس عشر ، وموقف بعض المؤرخين الاوربيين منه ، يعطي صورة غنية عن هذا القرن ، ويبرز اهميته • وبالتالي يبين مدى تشابك قضاياه واحداثه • فالتصدي لكتابة تاريخه ليس عملية سهلة ، ولا بد من الاختيار في ميدان وقائعه • ومع ان عديدا من المؤرخين الغربيين قد انبرى لدراسة هذا القرن ، فان كل واحد منهم ركز على بعض النواحي دون الاخرى . ولكن اذا اخذ مجموع القرن بشموله فانه يمكن تمييز التيارات الكبرى التالية فيــــه :

١ ــ كشف العالم أو ما يطلق عليه دائما تعبير « الكشوف الجغرافية » •

٢ ــ الثورة الاقتصادية •

٣ ــ النهضة بمظاهرها الفكرية والفنية •

٤ ــ الثورة الدينية : « الاصلاح البروتستانتي » و « الاصلاح الكاثوليكي » المضـــاد •

٥ ــ نشوء الدول القومية الكبرى بنظامها الملكي الاستبدادي المطلق •

٦ ــ التطور في العلاقات الدولية ، ويدخل ضمنه الصراعات المختلفة ، والتنظيم الجديد لهذه العلاقات •

الفصل الثاني

كشف العالم او الكشوف الجغرافية

لقد قامت حركة الكشف الجغرافي في اوربا منذ مطلع القـرن الخامس عشر كما اشرنا الى ذلك سالفا ، الا انهـا لـم تحقق هدفها الاولي الكبير إلا في أواخر القرن الخامس عشر ، عندما توصلت الى كشف القارة الامريكية عـام ١٤٩٢ ، وأتبعته بكشف الطريق الموصلة الى الهند ، بالالتفاف حـول افريقيا وعبور رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ • ولقد توبعت الكشوف الجغرافية في القرون التالية ، ولا زال العالم الغربي حتى الآن يسعى في هذا الميدان، لكشف المناطق المجهولة من الكرة الارضيـة •

ولقـد كانت ((**الكشوف الجغرافية الكبرى**)) بالنسبة لزمانها ، فتوحـا علمية جديدة ، اثارت دهشـة الناس وفضولهم ، وبثت في نفوسهم روح المغامرة والانطلاق ، وولدت تنافسا وتزاحما بين الدول ، وسباقا اشبه بمحاولات ((غزو الفضاء)) اليوم • وفي الحقيقة لقد كانت الكشوف الجغرافية فجر عهد جـديـد ــ كما اشرنا لذلك سابقا ــ فتح امام البشرية آفاقا واسعة جدا •

واذا ما استقصيت العوامل التي دفعت باوربا نحو القيام بحركة كشوفهـا تلك ، فانه يمكن اجمالها بالنقاط التالية :

١ ــ عوامل اقتصادية :

وهي أهم العوامل الدافعة : فقد كانت اوربا في القرن الخامس عشر تشكو

من ندرة المعادن الثمينة لديها ، ومن ثـم قلة النقد المتداول ، مما اعـاق التجارة الاوربية ، وخلق بلبلة في الامور النقدية • ويرجع ذلك الى نضوب مناجم الفضة في أوربا ، وانقطاع وصول الذهب من السودان عبر افريقيا الشمالية الا بكميات ضئيلـة[1] •

فرأت اوربا ان تبحث عن تلك المعادن في البلاد الآسيوية ، التي ذكرت الاخبار الشائعة وكتابات الرحالة « ماركو بولو »[2] (١٢٥٤ ــ ١٣٢٣) انها تحوي الكثير منهـا • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان اوربا كانت بحاجة الـى التوابل (الفلفل ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل) وغيرها ، التي لا تنتجها ارضها وذلك لاستخدامها في تركيب الادوية ، وفي الطعام ، ولا سيما في تقديد اللحوم • وكانت هذه التوابل مرتفعة الاثمان جدا في اوربا : فقد كانت تأتيها مـن جنوب شرقي آسيا ، محمولة على سفن عربية او هندية ــ عربية ، توصلها الـى شمال الخليج العربي أو شمال البحر الاحمر • ومن هنا كانت القوافل البرية تحملها الى سلالم الشرق « كالاسكندرية ، وبيروت ، وطرابلس » حيث يشتريها البنادقـة ويقومون بتوزيعها في بلاد الغرب • وقد كان المماليك في سورية ومصر يتقاضون اثمانا عالية لها من البنادقة • وتأتي ارباح هؤلاء الاخيرين الضخمة لتضاف لتلك الاثمان الباهظة ، لتجعل اسعارها في اوربا فادحة • وامام هذا رأت اوربا ان تصل الى البلاد المنتجة للتوابل مباشرة ، بالالتفاف حول افريقيا ، او بالاتجاه غربا فـي

---

(1) Braudel (F), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris 1949. P. 369 - 374.

(٢) رحالة بندقي ، رافق اباه وعمـه في رحلة لبلاد الصين عبر عكا ، فارمينيا ، فكرمان ، فهرمز ، فكشغر ، فبكين . وقد وضعهم (قبلاي خان) امبراطور الصين ، تحت حمايته عام ١٢٧٥ . وبقوا في الصين ١٦ عاما . وفي عام ١٢٩١ عاد ماركوبولو الى ايطاليا ، وزار في طريقه البحرية ، سومطرة ، والشواطئ الغربية للهند ، وحط في هرمز ثانية . ومنها اخذ الطريق البرية عبر بـلاد ايران ، فطرابزون ، فالقسطنطينية . وقد كتب ماركو بولو تقريرا عن رحلته ، ونشره عام ١٢٩٩ . وكان له صدى ضخم في اوربا ، حتى ان المؤرخ الانكليزي « فيشر » ينظر اليه على انه ثورة ، تعدل في اهميتها التوسع الضخم فـي المعرفة البشرية الذي حدث بعد قرنين مـن الزمـن ، ونجم عـن رحلات كريستوف كولومبس .

History of Enrope. London. 1948. P. 413.

المحيط الاطلنطي ، وذلك لتحصل على حاجاتها دون الوسيط العربي المملوكي ، والاحتكار البندقي ، وتخفف من خسارتها لنقدها الذهبي في مثل تلك التجارة .

ويجب الا ينسى في هذه العوامل الاقتصادية ، الاتجاه القومي ـ الاقتصادي، بعد اتضاح اسواق تجارتها ، للحصول على المال اللازم لبناء كيانها السياسي وتوسيع اسـواق تجارتها ، للحصول على المـال اللازم لبنـاء كيانها السياسي والعسكري .

هذا بالاضافة الى حسدها للبندقية ، التي وصلت لاوج ازدهارها الاقتصادي، وسيادتها السياسية على شرقي البحر المتوسط ، وتجارته ، بفضل تلك التجارة . وكانت دول البحـر المتوسط الاوربية ، اكثرها رغبـة في انتزاع هـذا الاحتكار التجاري من يدها ، ولا سيما اسبانيا ، والبرتغال والمدن الايطالية الاخرى . وهذا لا يمكن ان يتم الا باقامة وسيلة مباشرة للاتصال مع الشرق ، او بتعبير آخـر بالبحث عن طريق أخرى غير الطريق المألوفة .

٢ ـ عوامـل دينيـة :

وتتلخص في متابعة اوربا حربها الصليبية ضد المسلمين : فعلى الرغم من أن تلك الحروب التي ابتدأتها تهاجم في اسبانيا (حرب الاسترداد) وحملاتها الصليبية على المشرق العربي الاسلامي ، والمغرب العربي الاسلامي ، قد شارفت النهايـة في ظاهرها ، فان الروح التي تولدت من ذلك الصراع الدموي العنيف كانت روحـا تزمتية انتقامية عند بعض الملوك والامراء . وبهذه الروح ، ارادوا مطاردة العرب المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهـم ، واخضاعهم لسيادتهم ، وانتزاع ما يملكون من خيرات ومكاسب اقتصادية . ولتحقيق هذا الامر فانهم شرعوا يبحثون عن ذلك البلد المسيحي الواقع على طريق التوابل ، والذي قيل لهم انـه قريب من ارض المسلمين ويحكمه الراهب يوحنا[1] ، حتى يتحدوا معه في صراعاتهم ضد الاسلام .

---

(١) انظر حول الراهب يوحنا ما كتب في :
L. Halphen. L'essor de l'Europe XIe-XIII siècle. Paris 1940, PP. 435-436.

وهذا البلد ، الغامض الموقع في اذهانهم ، قد يكون (الحبشة) ، بل ان « ماركوبولو » بين لهم في كتابه ان خان « كاته Cathay » (أي الصين) كان قد اعتنق المسيحية ، ولعلهم رأوا فيه حليفا آخر ضد الاسلام • وكانت بعثة « كوفيلهام » البرتغالي عام ١٤٨٦ الى شرقي افريقيا عبر الاسكندرية ، والسويس، تهدف الى هذا الغرض ، بالاضافة الى بحثها عن طريق الهند • وقد وصل « كوفيلهام » الى شواطىء افريقيا الشرقية ، والى « سوفالا » ، الميناء الشهير تمهيدا للالتفاف نحو افريقيا[1] ، كما انه زار الحبشة وقربه النجاشي اليه، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٥٤٥ •

وهذه الروح الصليبية الانتقامية نفسها هي التي املت على البرتغال مهاجمة سواحل « المغرب الاقصى » منذ مطلع القرن الخامس عشر ، واملت على اسبانيا احتلالها لعدة مراكز على سواحل المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الغرب ، في مطلع القرن السادس عشر •

ومقابل هذه الروح المسيحية السلبية ، كان هناك روح ايجابية ، ترغب في كشف مناطق جديدة للتبشير بين سكانها بالدين المسيحي ، وجلبهم الى حظيرته وزيادة عدد المؤمنين به •

٣ ـ عوامل فكرية :

لقد اخذت اوربا منذ القرن الثالث عشر تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري ، وبدأت تتحرر تدريجيا من المعتقدات الوهمية والخرافية ، ولا سيما في ميدان المعرفة الكونية • فقد نسي الاوربيون خلال عصورهم الوسطى علم اليونان القائل بكروية الارض ، وسيطرت على فكرهم الخرافات حتى تخيلوا ان المحيط الاطلنطي يكتنفه الظلام الدامس نحو الافق الغربي ، ويسود سماءه طير الرخ الجارح ، وان المياه في جنوبه تشتد حرارتها حتى تصل الى درجة الغليان ثم تسقط في هوة كبيرة ، الى غير ذلك من الاوهام •

(1) G. L. E. op. cit. Vol. 3. P. 613 (Covilha).
— Hauser et Renaudet. op. cit. P. 55.

الا ان احتكاك اوربا بالانتاج الفكري العربي الاسلامي بـدد تلك الجهالات، ولا سيما بما قدمه العرب في ميدان الفلك ، والجغرافيا ، سواء أكان انتاجا ذاتيا ، كمؤلفات **ابي الوفاء البوزجاني** (١) ، **والفرغاني** (٢) ، **والبتاني** (٣) ،

---

(١) **ابو الوفاء البوزجاني** : محمد بن محمد . ولد في بوزجان بين هراة ونيسابور وعاش في بغداد وتوفي فيها (٣٢٨-٣٨٨ هـ/٩٤٠-٩٩٨ م) . فلكي ورياضي . وقد اعترف الباحثون الاوربيون في تاريخ العلوم بأنه هو واضع النسبة المثلثية (الظل) أو (المماس) وانه أول من استعملها في حلول المسائل الرياضية . له عدة مؤلفات في الرياضيات والفلك . ومنها « الكامل » وهو في حركات الكواكب ، و « رسالة في الهيئة » و « زيج الواضح » وغيرها .

- الزركلي ، الاعلام ١٣ مجلدا (مع المستدركات) بيروت الطبعة الثالثة . ج٧ ص ٢٤٤

Carra de Vaux, The Legacy of Islam ed. by Th. Arnold and A. Guillaume. P. 390.

- جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الاوربية بيروت ١٩٦٧ . ص ٢٨٦ - ص ٢٨٧

(٢) **الفرغاني** : من علماء الفلك ايام الخليفة العباسي المأمون وكان لا يزال حيا سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م . وقد حدد الابعاد بين الكواكب واقطارها وقد بقي تأثيره قائما في اوربا حتى زمن كوبرنيك .

- جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٨٨

(٣) **البتاني** : ابو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي المعروف عند الاوربيين في العصور الوسطى باسم Albatenius . ولد قبل ٢٤٤ هـ/٨٥٨م في حران او ما جاورها ، وكان مسلما على الرغم من ان اسرته صابئة . عاش معظم حياته في الرقة وانتقل الى بغداد ، وتوفي قرب سامراء عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . وهو من اكبر الفلكيين العرب ، له عدة مؤلفات اشهرها « الزيج » . ترجم كتابه للاتينية مرتين في القرن الثاني عشر ، ونشر في المانيا عام ١٥٣٧ ، وفي بولونيا عام ١٦٤٥ . وكان قد ترجم للاسبانية في القرن الثالث عشر .

←

وابن يونس المصري (1) ، وجابر بن افلح الانـدلسي (2) و الطـوسي (3) .

←

ـ نللينو : « البتاني » . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . القاهرة د.ت . المجلد ٣ ص ٣٣٦–٣٣٨ ، ومحمد مسعود ، المعلق على البحث في هامشها .

ـ الاعلام ج٦ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

ـ جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(١) **ابن يونس المصري** : علي بن عبد الرحمن المصري ، ابو الحسن ، فلكي واديب. توفي عام ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م بالقاهرة ، وكان مصاحبا للخليفة الفاطمي (الحاكم بامر الله) . وله عدة مؤلفات اشهرها « الزيج الحاكمي » ، وهو مطبوع في اربعة مجلدات . وقد ترجمت بعض فصوله الى الفرنسية عام ١٨٠٤ م ، وقال عنه « غوستاف لوبون » المؤرخ « وضع ابن يونس في القاهرة زيجه الحاكمي المشهور فانسى كل زيج قبله في العالم ، حتى عني به فلكيو الصين ، فذكره احدهم عام ١٢٨٠ م » .

ـ هـ . سوتر : (ابن يونس) . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة مجلد ١ . ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

ـ الاعـلام ج ٥ . ص ١١٢ .

ـ جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٩٠ .

(٢) **جابر بن افلح الاندلسي** : ولد في اشبيلية فيأواخر القرنالخامس للهجرة/اواخر الحادي عشر الميلادي ، وتوفي في قرطبة في منتصف القرن الثاني عشر تقريبا منتصف السادس الهجري . له عدد من المؤلفات الفلكية وقد نقل بعضها للاتينية وطبعت عام ١٥٣٣ . ويعترف الاوربيون بأن كتبه كان لها اثرها في تاريخ المثلثات .

قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ٣٥٧ .

ـ جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٩١ .

←

والبيروني (٤) ، وغيرهم في الفلك . وكتب ابي زيـد البلخي (٥) والاصطخري (٦)

←

(٣) **الطوسي :** محمد بن محمد نصير الدين الطوسي ٥٩٧–٦٧٢هـ/١٢٠١–١٢٧٤م فيلسوف وفلكي كبير . قربه « هولاكو » وبنى له في مراغة مرصدا عظيمـا ، وقرر من يرصد الكواكب فيه . صنف مؤلفات لا يزال معظمها مخطوطا ، ومن المطبوع « تحرير اصول اقليدس » ، و « المقالات الست » . ومن ابرز مؤلفاته « البارع » في علم الهيئة والبلدان و « التحصيل في النجوم » و« الشـكل القاطع » الذي ترجم للاتينية ، والفرنسية ، والانكليزية .

– الاعلام ج٧ ص ٢٥٧–٢٥٨ (وفيه المصادر العديدة التي تتحدث عنه) .

– جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٩١ .

(٤) **البيروني :** محمد بن أحمد ، أبو الريحان البيروني الخوارزمي (٣٦٢–٤٤٠ هـ/ ٩٧٣–١٠٤٨ م) رياضي ، وفلكي ، وفيلسوف ، ومؤرخ ، من اهل خوارزم واقام قليلا في الهند . ينظر اليه بعض علماء الغرب (سخاو) على انه اعظـم عقلية عرفها التاريخ . كان مقربا من محمود الغزنوي . ولقد اكدالبيروني كروية الارض ، وان جميع الاجسام تنجذب نحو مركز الارض . ولاحظ ان بعض الظواهر الفلكية يمكن تعليلها بافتراض ان الارض تدور حول محورها مرة كل يوم ، وتدور حول الشمس مرة كل سنة . له عدة مؤلفات « الآثار الباقيـة عن القرون الخالية » ، وقد ترجم للانكليزية ، و « الجماهر في معرفة الجواهر» و « القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم والجغرافية وغيرها .

– السيوطي · بغية الوشاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصر ١٣٢٦هـ . ص.٢٠

– ياقوت الحموي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) ٧ اجزاء مصر ١٩٠٧ – ١٩٢٥ . ج٦ . ص ٣٠٨ .

– الاعلام . ج٦ . ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

– جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٩٢ .

(٥) **ابو زيد البلخي :**احمد بن سهل (٢٣٥–٣٢٢ هـ/٨٤٩–٩٣٤ م) احد كبار علماء الاسلام في الشريعة ، والفلسفة ، والادب ، والجغرافية . ولد في احدى قرى بلخ . له عدة مؤلفات في فنون عدة ، من اشهرها « صور الاقاليم الاسلامية ».

←

وابن خرداذبة (٧) . والمقدسي (٨) وابن رستة(٩) وياقوت الحموي (١٠)

→

ـ أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة،٣ أجزاء،مصر ١٩٣٩ ج٢ ص١٥ .

ـ الاعلام . ج ١ . ص ١٣١ .

(٦) **الاصطخري** : ابراهيم بن محمد الاصطخري المتوفى ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م . ساح في بلاد العرب وبعض اجزاء الهند ، وبلغ المحيط الاطلنطي . واليه ينسب كتاب « صور الاقاليم » و « مسالك الممالك » .

ـ الاعلام . ج١ . ص٥٨ .

(٧) **ابن خرداذبة** : عبيد الله بن احمد ، المتوفى حوالي ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م . مؤرخ جغرافي من اهل بغداد . وعمل عاملا للبريد للخليفة العباسي . من مؤلفاته « المسالك والممالك » .

ـ الاعلام ، ج ٤ . ص ٣٤٢ .

ـ حداد والحسامي . تاريخ الحضارة العربية . دمشق د.ت. ص ٢٢٨ .

(٨) **المقدسي** : محمد بن احمد البشاري ، شمس الدين ، المتوفى حوالي (٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) . ولد في القدس ، وعمل في التجارة ، ورحل كثيرا . صنف كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وفيه كثير من الخرائط .

ـ الاعلام . ج ٦ . ص ٢٠٣

ـ تاريخ الحضارة العربية ص ٢٢٨

(٩) **ابو علي احمد بن عمر ابن رسته** : عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري /بين التاسع والعاشر الميلادي ، في مدينة اصفهان ، ولا يعرف شيء كثير عن حياته . صنف كتابه « الاعلاق النفيسة » ولم يصل منه سوى جزء وهو مطبوع .

ـ فان ارندنك : ابن رسته . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . مجلد ١ . ص ١٦٦ .

(١٠) **ياقوت الحموي** : (٥٧٤-٦٢٦ هـ/١١٧٨-١٢٢٩ م) مؤرخ ، ومن كبار الجغرافيين ، والادباء . كان عبدا ثم اعتق . عمل بالتجارة ، ونسخ الكتب ، وساح كثيرا . من كتبه « معجم الادباء » و « معجم البلدان » .

←

وغيرهم كثير في الجغرافيا ، او كان ترجمة للكتب اليونانية القديمة الكبرى ، واشهرها « المجسطي » لـ « بطليموس »(١٣) .

وهكذا ارتد الاوربيون الى الافكار القديمة عن كروية الارض ، وظهرت ملامح « نهضة جغرافية » ، كانت العون الاكبر لحركة الكشوف الجغرافية في

→

ـ الاعلام . ج ٩ . ص ١٥٧ .

ـ جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٣١٣ .

(١١) **الادريسي :** محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي الحسني (٤٩٣ـ٥٦٠ هـ/ ١١٠٠ـ١١٦٥ م) من كبار الجغرافيين العرب . ولد في سبتة ، وتعلم في قرطبة، ورحل حتى انتهى امره في صقلية . فقربه صاحبها « روجر الثاني » النورمندي وله وضع كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » . وقد ترجم الى كثير من اللغات الاوربية .

ـ سيبولد (ك.ف) : (الادريسي) في دائرة المعارف الاسلامية المعربة .

مجلد ١ . ص ٥٤٧ .

ـ الاعلام . ج ٧ . ص ٢٥٠ .

ـ جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٣١٤ ـ ٣١٦ .

(١٢) **ابو الفداء :** اسماعيل بن علي الملك المؤيد الايوبي (٦٧٢ـ٧٣٢ هـ/١٢٧٣ـ١٣٣١ م) مؤرخ ، وجغرافي ، و اديب ، وواسع المعرفة . له عدة مؤلفات اهمها في التاريخ « المختصر في اخبار البشر » ، وفي الجغرافيا « تقويم البلدان » .

(١٣) **بطليموس (كلود) :** فلكي ، ورياضي ، وجغرافي ، يوناني ، عاش في القرن الثاني الميلادي (حوالي ٩٠ـ١٦٨ م) . وقضى معظم حياته في الاسكندرية ، وكان مؤلفه الكبير « المجسطي «Almageste » » الذي عرض فيه نظام الكون .

ومن كتبه ايضا « الجغرافيا » ، الذي طبع عدة مرات في القرن السادس عشر .

G. L. E. Vol. 8 P. 892.

تقدمها . وقد ساعد على هذه النهضة الجغرافية ، بالاضافة الى اخذ المعرفة العربية في هذا الميدان ، ماقدمته البرتغال في شخص اميرها (هنري الملاح) للمعرفة الجغرافية من خدمات . واهمها انشاء مراكز للدراسة الجغرافية ، ولرسم الخرائط ، وارسال بعثة بحرية في كل عام الى الجنوب ، كانت تعود وقد ازدادت معرفة بسواحل افريقيا فتعمل على انشاء تلك الخرائط المصورة . وقد عمد الى ترجمة كتاب بطليموس عام ١٤٠٩ الى اللغة اللاتينية .

وفي هذا المجال يجب ألا ننسى (حركة الترجمة) الواسعة التـي ابتدأهـا عدد من المفكرين الاوربيين ، والجامعات ، منذ القـرن الثالث عشر ، وتابعوها خلال القرون التي تلت ، وكانت تتوخى نقل امهات الكتب العربية الى اللغة اللاتينية، وما ترجمه العرب من المؤلفات القديمة[1] .

وقد ساعد على انتشار الكتب المترجمة أو المؤلفة حديثا ، « اختراع الطباعة » وانتشارها صناعة علمية في معظم انحاء اوربا ولا سيما في ايطاليا ، والبندقية منها بالـذات .

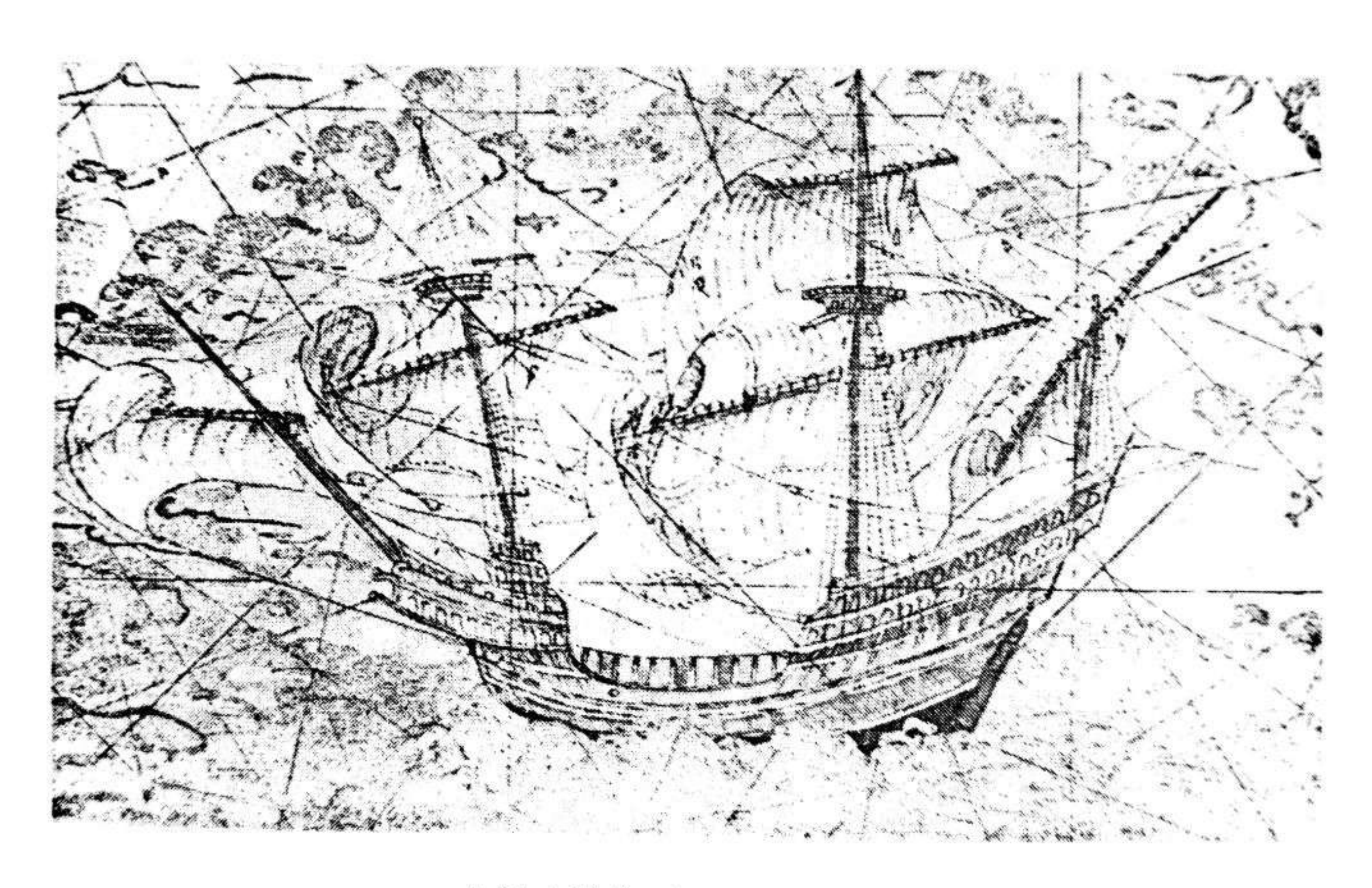
٤ ــ عوامل تقنيــة :

وفي الحقيقة ، ما كان بوسع الاوربيين الانطلاق في المحيطات ، لولا التقدم الذي احرزوه في (فن الملاحة) في القرن الخامس عشر . وقد ألمحنا الـى بعض مظاهره سابقا : فالسفن المتوسطية (التي تجوب البحر المتوسط) كانت ثقيلـة وبطيئة ولا تصلح الا للسير على السواحل ، وقد اكتشف في القرن الرابع عشر (سفن الكاراقيل) القشتالية الخفيفة والمرتفعة .

---

(١) انظر تفصيلا اكبر حول « حركة الترجمة وادوارها » في :
ــ جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ١٦٩ فما بعد .

كما اكتشفت دفة القيادة المحورية ، التي ساعدت بقوة عملها على زيـادة ابعاد السفن • ثم زودت « الكاراقيل » البرتغالية في القرن الخامس عشر ، باشرعة مربعة لتستفيد من الرياح الخلفية ، وباشرعة مثلثة ــ أو لاتينية كماتسمى ــ للملاحة عندما تكون الرياح معاكسة تماما للاتجاه الذي يراد السير فيه • وبذلك وجـدت تدريجيا « السفينة السريعة » ، والقادرة على مواجهة الرحلات المحيطية ، الطويلة الامـد • (الشكل ٨) •

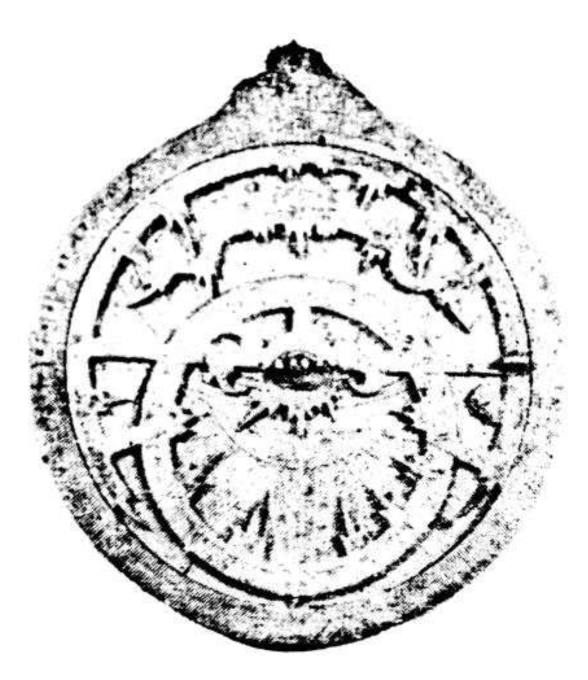


الشكل ــ٨ــ سفينة الكاراقيل

وفي الوقت نفسه تطورت ، « تقنيات الاتجاه » ، مما ساعد على الابتعاد عن الشواطىء ، وشق عباب البحار المجهولة :

— فالبوصلة بابرتها المغناطيسية عينت اتجاه الشمال • وقد ادخل البرتغاليون عليها تحسينات في القرن الخامس عشر •

— و « عصا يعقوب » (المنظار البحري) ، والاسطرلاب العربي (الشكـل ٩)



الشكل —٩—

اسطرلاب عربي

سمح لهم بحساب عرض مكان عـن طريق قياس ارتفاع النجـم القطبي ، او الشمس عن افق ذلك المكان • الا ان تعيين طول مكان بقي صعبا عليهم تقديره ، اذكانوا لا يزالون يقيسون الزمن بالساعة الرملية •

— و « الخرائط » ، و « الكرات » المصنوعة حديثا اعانتهم هي الاخرى على تحديد مكانهم ، وضبط خط سيرهم ، واشهر هذه الكرات كرة « مارتـن بيهايـم «Martin Behaim (١٤٩٢) ، التي تلخص المعارف الجغرافية للاوربيين عشية الكشوف الكبرى • ومن اشهر الخرائط التي رسمت في تلك الحقبة كذلك « خريطة توسكانلي » الفلكي الايطالي ، الذي رسم خريطة بحرية قبـل عشرين عاما من رحلة كولومب ، هدف من ورائها الاثبات انه يمكن الوصول الى الهند عن طريق العرب • وقد ارسل هذه الخريطة مع رسالة مفسرة الى قس برتغالي لينقلها الى ملك البرتغال • وقد يكون كريستوف كولومب قد

اطلــع على نسخة منها [1] .

٥ ـ عوامل سياسية :

ان نمــو « مفهوم الدولة القومية » خلال القرن الخامس عشر جعل الدول الاوربية تندفع نحو المغامرات الاستكشافية لتثبت وجودها الجديد ، وتدعــم اقتصادها وتحقق نفوذها السياسي على اكبر رقعة من الممتلكات في اوربا وخارجها. وفي الوقت نفسه ، تحطم السيادة السياسية للقــوى القائمــة ، كالبندقية مثــلا والاسلام . وقد امتزجت العوامل السياسية هذه بالعوامل الدينية ، والاقتصادية السالفة ، مزجا ، غدا من الصعب تمييز واحدة عن الاخرى تمييزا كاملا . فاحتلال العثمانيين لمدينة القسطنطينية هز اوربا دينيا ، اذ سقطت عاصمة المسيحية الشرقية اخيرا بيد الاسلام ، بعد ان وقفت صامدة ما يقارب القرون الثمانية . وهزهــا سياسيا ، لانها لــم تكن قد ابعدت الخطر الاسلامي في اسبانيا ، وشمالي افريقيا بعد ، حتى نفذ اليها هذا الخطر مرة ثانية من الشرق ، وبشكل كاسح ومخيف ، مهددا كياناتها السياسيةالجديدة . وهزهــا اقتصاديا ، لان الاتــراك العثمانيين باحتلالهم القسطنطينية ، وسيطرتهم التدريجية على شرقي البحر المتوسط ، اغلقوا في وجه اوربا الطرق الموصلة الى الشرق الاقصى وخيراته .

فبحث اوربا عن طريق جديدة تحملها الى الشرق الاقصى ، لم يكن هدفــه اقتصاديا ودينيا فحسب ، وانما القضاء سياسيا ايضا على القوة الاسلامية الناهضة مــن جديــد .

ولقد اخذت شبه جزيرة ايبريا على عاتقها ، تحقيق امنيــة الطريق الجديــدة للهنــد بدولتيها البرتغال واسبانيا . اذ ان موقعها الجغرافي على مفترق المحيــط الاطلنطي ، والبحر المتوسط ، ملائم جدا للقيام بعملية الكشف ، وارسال بعثات

---

(١) انظر الرسالة في :

Dupâquier (J), et Lachiver (M.) : Les Temps Modernes. Col. Bordas Paris 1970. P. 8.

ملاحية نحو الشاطىء الغربي لافريقيا او عبر المحيط الاطلنطي • كما ان الملاحين الجنويين المتحمسين لهذه الطريق وجدوا في حكام شبه الجزيرة تشجيعا ودعما منذ القرن الرابع عشر •

أولا ـ كشف البرتغاليين طريق الهند :

لقد بينا سابقا ان البرتغاليين قاموا برحلات متتابعة خلال القرن الخامس عشر على سواحل افريقيا الغربي ، وصلوا خلالها الى رأس بوجارور (١٤٢٦) ، فالرأس الاخضر (١٤٤٥)، فخط الاستواء (١٤٧١)، فمصب الكونغو (١٤٨٥)،وفي عام (١٤٨٧) عبر « بارتلمي دياز » جنوب افريقيا الى شرقها في عاصفة هوجاء ، جعلته يطلق على الرأس الموجود في اقصاها الجنوبي اسم «رأس العواصف» • الا ان ملك البرتغال « حنا الثاني » اعطاه اسم « رأس الرجاء الصالح » تيمنا •

وبعد عشر سنوات من رحلة «دياز» تلك كانت «الرحلة الكبرى» بقيادة « فاسكو دوغاما » • وقد وجدت صعوبات كثيرة لاعدادها ، اهمها رفض البحارة القيام بهـا ، بعد ما قصه بارتلمي دياز عن اهوال رحلته السابقة ، الا انه تغلب عليها • وابحر « فاسكو دوغاما » من « لشبونة » في ٨ تموز ١٤٩٧ ، مـع اربع سفن كارافيل ، و١٦٠ بحارا (عشرة منهم كانوا محكومين بالاعدام) • وساير فاسكو دوغاما السواحل الغربية للقارة الافريقية واجتاز رأس الرجاء الصالـح وحاذى الساحل الشرقي لافريقيا • وفي « مالندي » شمال « زنجبار » (على ساحل تنزانيا اليوم) ، استعان بملاح عربي هو « احمد شهاب الدين بن ماجد[1]» ليدله

---

(١) انظر حول حياته ، ومؤلفاته ، وابداعه المصادر التالية :

Gabriel Ferrand, Shihab Eldine Ibn Majid in Encyclopédie de l'Islam. 1ère ed. T. IV P. 377.

و ـ محمد قطب الدين النهروالي المكي • البرق ا ليماني في الفتح العثماني • ص ١٨ـ١٩ •

و ـ ليلى الصباغ : افريقيا الشرقية في مطلع العصر الحديث (القرن العاشر ـ السادس عشر) بحيث قدم الى ملتقى الفكر الاسلامي الثالث عشر في تامنراست في الجزائر شوال ١٣٩٩ هـ/ ايلول سبتمبر ١٩٧٩ .

و ـ الاعلام • ج ١ • ص ١٩٠ـ١٩١ .

على طريق الهند • وساعده هذا الملاح العالم ، على اجتياز المحيط الهندي ، حيث كانت الرياح الموسمية الصيفية عونا كبيرا له في دفع مراكبه نحو الشواطىء الهندية• ووصل الى « كاليكوت » حيث اتصل بالامير الهندي هناك في ٢٠ ايار ١٤٩٨ ، والتقى بعديد من التجار العرب المسلمين • وقد دامت الرحلة اكثر من عشرة اشهر بقليل • ولكن فاسكو دوغاما كان قد اكتشف الطريق الحقيقية للهند ، وهي الطريق الاقصر التي ستستخدمها جميع المراكب الاوربية حتى حفر قناة السويس • ومع انه خرج بعد كريستوف كولومب بخمس سنوات ، فانه كان الاول الذي حمل الى اوربا مراكب مشحونة بالتوابل• فقد عاد في ايلول ١٤٩٩ الى لشبونة بمركبيه الطافحين ، وقد قدرت الارباح الناجمة عن بيعها بستين مرة من تكاليف رحلته•وبذلك سال لعاب المغامرين ، والبحارة ، والتجار • وقد عاود الرحلة ثانية عام ١٥٠٢ مع واحد وعشرين مركبا ، وحطم سيادة العرب على المحيط الهندي •

وقبل سنتين أي في عام ١٥٠٠ كان اسطول « الفاريز كابرال A. Cabral » متجها نحو بلاد الهند ، عندما دفعته الرياح نحو شواطىء (البرازيل) من امريكا الجنوبية • ولم يكن كابرال الاول الذي اتخذ الطريق البحرية نحو الغرب للوصول الى الهند • واذا كان قد بدا واضحا للبرتغاليين امكان الوصول الى الهند بالسير حول شواطىء افريقيا ، فان الاسبان كانوا قد سبقوهم وبجرأة في البحث عن طريق الى الهند بالاتجاه غربا •

وصول فاسكودوغاما الى كاليكوت :

كتب مرافق لفاسكو دوغاما مذكراته ، وتحدث عن وصولهم كاليكوت قائلا: « في هذا اليوم نفسه (الاحد ٩ ايار «مايو» ١٤٩٨) ، وحوالي المساء ، رسونا على بعد ميلين تحت مدينة (كاليكوت) ، على بعد نصف ميل تقريبا من الشاطىء • وعندما استقرينا هناك جاءت اربعة مراكب من البر تلاقينا • كانوا يريدون ان ان يعرفوا من أي بشر نحن • فاعلموا عنا ، واورنا كاليكوت • وفي اليوم التالي

عادت المراكب نفسها ترسو قرب مراكبنا ،فارسل القبطان احدرهائننا الى كاليكوت. والذين رافقوه ، حملوه الى (مغربيين) من تونس يجيدان القشتالية والجنوية . وقد اظهرا دهشتهما من وصولنا ، وسألاه عما نبحث على هذا البعد ، فاجابهما اننا نبحث عن مسيحيين وعن توابل . فاجاباه لم لا يرسل الى هنا كل من ملك قشتالة وفرنسا والبندقية سفنهم ، واجابهما بان ملك البرتغال لا يريد ان يسمح لهؤلاء بارسال احد الى هذه النواحي ، فردا عليه قائلين نعم ما يفعل ! واطعماه الخبز القمحي والعسل . وعندما طعم عاد الى المركب . وجاء احد المغاربة معه ، وأخذ يقول ... حظا حسنا حظا حسنا ... كثير من الياقوت ، كثير من الزمرد . يجب ان تشكروا الله الذي قادكم الى ارض كلها غنى[١] » .

ثانيا ـ كشف الاسبان لامريكا :

وكان الرحالة الذي قام بالكشف الكبير وخاض عباب المحيط الاطلنطي ، هو كريستوف كولومب (١٤٥١ـ١٥٠٦) وقد كان ابن ناسج من مدينة جنوة . وقد عمل عميلا لبعض المصرفيين في المدينة ، ثم اخذ يظهر اهتماما ، هو واخوه ، بالخرائط المنشورة عن العالم،وباخبار الكشوف الجغرافية البرتغالية على سواحل افريقيا الغربية. ويذكر انه عثر على احدى الخرائط[١] ، التي اعطت للعالم الكروي المعروف انذاك ، سعة تفوق واقعه ،مما جعل المسافة المحيطية التي تفصل غربي اوربا ، وبلاد الصين (كاته) ، واليابان (زيبانغو) ، تبدو مسافة قصيرة ، يمكن ان تقطعها السفن في بضعة اسابيع . وقد تبنى هذه الفكرة ، وانتقل الى البرتغال ليعرض على ملكها « جان الثاني » في عام ١٤٨٤ ، ارسال بعثة معه الى الهند عن طريق الغرب . الا أن العلماء المحيطين بالملك ، اظهروا شكوكا في حساباته . وبعد ان اخفق في عرض مماثل على ملك انكلترة ، فانه اتجه الى فردينان وايزابيلا،

(11) Dupâquier et Lachiver, op cit. P. 7.

(١) انها خريطة (صورة العالم Imago Mundi) التي صنعها بيردايي Pierre d'Ailly) وقد طبعت في لوفان ـ (في بلجيكا الحالية) ـ وتمثل كروية الارض ، وتعيد الخطأ الذي وقع فيه « ماران الصوري » ، بحيث مد العالم المعروف على (٢٥٢°) بدلا من (١٨٠°) كما فعل بطليموس .

ملكي اراغون وقشتاله (اسبانيا) ، وقدم لهما المشروع ، الـذي يمكنه مـن الوصول الى الهند بطريق الغرب ، وتحريض الخان الكبير ضد الاتراك المسلمين، وبالذهب الذي يتـم جمعه ، يصار الى تجهيز حملة مسيحية تستعيد القدس • واذا ما نجح في تحقيق هذه الامور ، فان الملكين الكاثوليكيين يعطيانه لقب «اميرال البحر المحيط » ونائب الملك في الاراضي الجديدة ،ويكون له الحق بثمن $\frac{1}{8}$ الارباح •

وامام مدينة غرناطة المسلمة ، المحاصرة عام ١٤٩١ ، حصل كريستوف كولومب من الملكة ايزابيلا ، على التصريح باعداد ثلاث سفن متينة لرحلة المحيط • وخرج من « بالوس » بسفنه الثلاث ، ورجاله التسعين ، وذلك في الثالث من شهر آب عام ١٤٩٢ • وكان يحمل رسالة من ملكي اسبانيا الى الخان الكبير (أي ملك الصين) وقد توقف اولا في جزر « قناريا » وبعد مشاق عديدة ، وتمرد من بحارته ، لاحت له في ١٢ تشرين الاول عام ١٤٩٢ الارض ، ورسا في احـدى (جزر بهامـا) ، التي اطلق عليها اسم « سان سلفادور » • وبعد خمسة عشر يوما هبط في (كوبا)، ظانا نفسه انه في جزيرة «زيبانغو» أي اليابان • ثـم حاذى سواحل « سـان دومنغ » التي اطلق عليها اسم « هيسبانيولا » وعاد الى اسبانيا ، في ١٥ مارس عام ١٤٩٣ • حيث استقبل استقبالا فخما وكانه بطل منتصر ، مع انه لم يحضر معـه سوى قليل من الذهب والقطن ، وبعض رجال من تلك الاراضي البعيدة •

وقام كريستوف كولومب بعد رحلته تلك بثلاث رحلات اخرى ، بين عام ١٤٩٣ و ١٥٠٤ • وخلالها تـم اكتشاف « الانتيل الصغرى » ، ولامس ساحل امريكا الجنوبية ، ثم كشف ساحل امريكا الوسطى • الا ان رحلاته لم تكن نصرا تجاريا ، فهو لم يحضر التوابل البتة • واذا كانت رحلاته ابتدأت بالنصر والمجد فانها انتهت بالبؤس والذل • فبعد رحلته الثالثة ، سجن وعذب اذ لم يغفر لـه الاسبان ، انه لم يأت لهم بالذهب والتوابل • ولذا اتهم بانه لم يكتشف الطريق الحقيقية للهند • ومات فقيرا بائسا في عام ١٥٠٦ ، في مدينة « ولد الوليد » •ومع انه سطر فيما بعد ، على المباني التي اهديت لذكراه الجملة التالية القائلة بأنه :

« اعطى الى قشتالة وليئون عالما جديدا » ، فان كريستوف كولومب توفي وهو مؤمن بأنه وصل الى بلاد الهند • ولقرون عدة بقي الناس يتحدثون عن « بلاد الهند الغربية » وهم يقصدون « امريكا » ، مقابل الهند الشرقية التي وصل اليها فاسكو دوغاما •

ولما كان الفلورنسي «امريكو دوڤسبوشي» ، هو الاول الذي قال ان البلاد التي وصلها كريستوف كولومب هي في الحقيقة قارة جديدة ، وليست الهند ، فقد اطلق اسمه على الكشف الجديد ، وسميت القارة بـ « امريكا » وذلك في الخريطة التي صنعها عام ١٥٠٧ « مارتن ولزي مولر M. Walseemüller »[1] • وجاء الاسباني « بلبوئا Balboa ليؤكد عام ١٥١٣ ذلك ، بعد ان اجتاز برزخ بناما بـرا ، وكشف الامتـداد اللامتناهي للمحيط الهادي •

ولابد من الملاحظة ا نهذه الكشوف الكبيرة لم تقم بهـا القوى البحرية التقليدية (البندقية وجنوة) ، وانما دولتان جديدتان لمـا يمض على انهاء الحكم العربي الاسلامي فيهما سوى فترة حـديثة • فكيف ستقتسم هاتـان الـدولتان اسبانيا والبرتغال العالم ؟

منذ عام ١٤٩٣ لجأ الطرفان الى البابا « اسكندر بورجيا » ليحدد لهما مناطق نفوذهما وجاءت معاهـدة « تورد وسيلاس Tordesillas » عـام ١٤٩٤ لتثبت الحدود بين امبراطوريتيهما في المستقبل • فقد كان البابا «اسكندر السادس» قد اعلن قبل توقيع المعاهدة بأنه يعطي للاسبان « جميع الجزر والارض اليابسة الموجودة أو التي ستكتشف غرب خط يرسم على بعد ١٠٠ ميل غرب جزر اصور» • اما المعاهدة السالفة فقد حصل فيها البرتغاليون على نقل هذا الخط الى الغرب مسافة اكبر • الا ان الدول الاخرى لم تعترف بهذا التقسيم • وفي نهاية عام ١٥٢٩ وقعت معاهدة بين اسبانيا والبرتغال اقامت خط تقسيم في المحيط الهادي شرق جزر « الملـوك »[2] •

---

(١) Bruley et Compagnons, op. cit. P. 77.

(٢) Ibid. P. 78.

ثالثا ـ ماجلان يقوم بالدورة حول الارض :

وبينما كان البرتغاليون يفرضون سيادتهم على طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، كان الاسبان يبحثون عن هذا الطريق بمحاولتهم الالتفاف حول امريكا من الجنوب . ففي ٢٠ ايلول عام ١٥١٩ انطلق (فرماو ماجلان) ، وهو ملاح برتغالي ، في خدمة اسبانيا ، من مدينة (اشبيلية) مع خمس سفن شراعية و (٢٣٤) رجلا ، ومؤنا تكفي لعامين . فاستكشف شاطىء (البرازيل) ، واكتشف (خليج ريودو جانيرو) في الفاتح من كانون الثاني ١٥٢٠ ، ثم (ريودولابلاتا) . وفي شهر آذار ١٥٢٠ كان عند خط عرض (٤٩°) جنوبا . وكان البرد شديدا فقرر أن يقضي الشتاء على ساحل باتاغونيا . وبقي ثلاثة اشهر ، وحدث ضده تمرد من بحارته حتى اضطر الى الاستيلاء بالقوة على ثلاثة من مراكبه .

وعاود رحلته في ٢٤ آب ، واكتشف في الاول من تشرين الثاني ممرا نحو الغرب ، بين امريكا ، وارض النار ، وهو الذي يسمى اليوم (مضيق ماجلان) . وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، وبعد كثير من الجهود ، والآلام ، تم النفوذ الى محيط سماه ماجلان « البحر الهادي » . وعندئذ ابتدأ عبورا منهكا بدا له لانهائياودام ثلاثة اشهر وعشرين يوما،لم تشاهد القافلة البحرية خلالها سوى جزيرتين فقيرتين . ومات عديد من البحارة بمرض « السخربوط Scorbut»[1] . ووصل البحارة الباقون الى (جزر الفيليبين) في شهر نيسان ١٥٢١ . وهنا قتل (ماجلان) في معركة مع سكان البلاد . ولم يبق من بعثته الاستكشافية حينئذ سوى مركبين (و ١٠٨) من البحارة .

وبعد ان استكشف نائبه « جان سيباستيان ديل كانو J. S. Del Cano» (جزر الملوك) و (بورنيئو) ، فانه اخذ طريق العودة في ٢١ ديسمبر ١٥٢١ ، باتباعه طريق رأس الرجاء الصالح ، وفي قلب منطقة السيادة البرتغالية ، بينما كان ماجلان يفكر بالعودة عن طريق امريكا الجنوبية . وفي الثامن من شهر ايلول عام

---

(١) مرض عام من اعراضه الضعف ، والالم في المفاصل والاطراف ، ونزيف في اللثة ، وتخلخل في الاسنان ، وقد يؤدي الى الموت ، وسببه نقص فيتامين (C) في الطعام وسوء التغذية .

١٥٢٢ هبط (١٨) رجلا من بحارة ماجلان في اشبيلية ، وعاد مركب واحد هو « مركب النصر » « Victoria» • وكان ماجلان قد ارسل مركبا آخر ليخبر عن كشف الممر (أي ممر ماجلان) • وقد جلب مركب النصر معه ، حمولة ثمينة تضم (٣٥٠٠٠) كيلو ، من القرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل ، تغطي تكاليف البعثة .

وبرحلة ماجلان ، اثبتت كروية الارض عمليا ، واكتشفت الطريق الغربية للهند • ومن سوء حظ اسبانيا كانت هذه الطريق طويلة جدا ، لايمكن ان تدخل باب المنافسة مع الطريق البرتغالية •

رابعا ـ الافق الجديد لاوربا :

لقد كان المنتظر والمحتم ان يكون لكشف امريكا نتائج ضخمة • ومع ذلك ، فقد اعتبرت لمدة طويلة عائقا في وجه الوصول الى الهند • وكان جميع الناس يغبطون البرتغاليين على نجاحهم ، ولاسيما ان تجربة ماجلان السالفة الذكر والهامة جدا على الصعيد العلمي ، لم تؤد لفتح تيار تجاري • ومن ثم ، فان الملاحين الاوربيين ، بقوا لقرنين يبحثون عن ممرات جديدة تحملهم الى الهند • فمنذ عام (١٤٩٧) كان الملاح البندقي (جان كابوت J. Cabot) ، وهو يعمل لحساب ملك انكلترة ، يسعى للالتفاف حول امريكا من الشمال • وقد اكتشف اثناء ذلك جزيرة (الارض الجديدة) ، وسواحل (لابرادور) • بينما حاول ابنه (سيباستيان Sebastien Cabot) ، على العكس من ذلك ، ان يلتف حول آسيا من الشمال ، ووصل الى (اركانجلسك) في عام (١٥٥٢) • وبعد الاستكشافات التي قام بها (جاك كارتيه Jacque Cartier) الفرنسي عام ١٥٣٤ ، في خليج (سان لوران) في كندا ، والملاحين الانكليز (دفيس Davis) عام (١٥٨٧) و (هدسون) عام (١٦١٠) والفرنسي (صامويل شامبلان S. Champlain) عام (١٦٠٧) ، في شمالي امريكا ، تبين ان الممر الشمالي ـ الغربي غير صالح طريقا تجارية • كما ان امل الوصول الى الهند بطريق الشمال الشرقي قد خاب بعد ان قضى المستكشف (بارنتز Barentz) ـ وهو هولاندي ـ شتاءقاسيا في « زمبيل الجديدة » عام ١٥٩٦ ، في الشمال الغربي من سيبيريا •

ومن المؤكد ان هذه الاستكشافات كان لها اثر كبير على اذهان الناس خلال تلك الحقبة الزمنية : فلم يكونوا يعرفون سوى حوض البحر المتوسط ، الـذي كانوا ينازعون المسلمين ملكيته بضراوة وعنف • وخـارج هـذه المنطقة المألوفـة لديهم ، كان عندهم بعض المفهومات الغامضة عن افريقيا السوداء وعن آسيا ، اللتين كانوا يتصورونهما مسكونتين بشعوب ثرية جدا ، ويخشى بأسها •

وفجأة وجدوا انفسهم بتماس مع عالمين جديدين : الامبراطوريات الآسيويـة الكبيرة التي ادهشهم تنظيمها ، وحضارتها ، ووقفوا امامهـا خاشعين ، وسكـان امريكا الذين اثاروا لديهم الطمع والشره • فخلال اقل من جيل ، تعرف الاوربيون بعالم متنوع تشغل المحيطات فيه مكانا غير متوقع ، حتى ان العلاقات فيه ، ظلت لعدة قرون لاتتم الا عبرها • ان هـذا الاكتشاف دون شك كان حادثا هـامـا فـي التاريـخ الانسانـي •

وهكذا لم تعد الحضارة المسيحية تعيش وحدها مع الحضارة العربية الاسلامية بل اكتسبت عليها تفوقا ماديا وسياسيا حاسما ، لان الاوربيين كانوا الاول الذين اكتشفوا العالم وسيعملون لعدة قرون على سيادته •

وبالمقابل ، فان الجغرافيا الاقتصادية لاوربا قد تغيرت : فالواجهة المتوسطية (المطلة على البحر المتوسط) الغنية اصابها انحطاط نسبي ، وتركز الاهتمام على شاطىء الاطلنطي ، فزهت مدن (اشبيلية) و (لشبونـة) أولا ، ثم (انفرس) و (امستردام) و (لندن) فيما بعد • ففي النصف الاول من القرن السادس عشر بلبل التوسع الاوربي العالـم •

نتائج الكشوف الجغرافية :

كان للكشوف الجغرافية السالفة الذكر اذاً ، آثار بعيـدة المدى في حياة اوربا ، وفي حياة العالم ، وأولى هذه النتائج ، وفي **الميدان السياسي :**

١ ـ **تكوين الامبراطوريات الاستعمارية** : أو بتعبير آخر بدء الغزو الاستعماري الاوربي للمناطق الجديدة التي اكتشفت • فلقد اندفع الاوربيون في مختلف البلدان،

ومن مختلف الفئات الاجتماعية (نبلاء صغار ، متعلمون ، محاربون قدماء ، مغامرو نفقراء ، رجال دين) نحو استعمار المناطق الجديدة ، بالحرب والعنف بالدرجة الاولى ، والغزو الفكري بالدرجة الثانية • ومن اولى الدول الاوربية المساهمة في هذا المجال ، البرتغال ، واسبانيا ، اللتان وجدتا في مغامرتهما الجديدة استمرارا لحربهما الصليبية ضد العرب ، ووسيلة لنشر الدين المسيحي ، ومده على البقاع الجديدة،وطريقا للحصول على الذهب والفضة والاحجار الكريمة والعبيد.

آ ـ الامبراطورية البرتغالية :

لقد كانت البرتغال هي الاولى التي وصلت الى (الهند) ومن ثم كان همها احتكار طريق التجارة عبر المحيط الهندي ، وفرض سيادتها الوحيدة على كل الطرق البحرية فيه • ولقد ابتدأ (فاسكودوغاما) نفسه العمليات العسكرية ضد الهند عام (١٥٠٢) •

وبعد ست سنوات (١٥٠٨) قام (المايدا) ، الذي عين نائبا للملك في الهند ،بتحطيم اسطول امير (كاليكوت) • وجاء خلفه (البوكيرك) لينزع من الهند (غوئا) في عام (١٥١٠) ، ويجعلها عاصمة للامبراطورية البرتغالية ، ويقيم مراكز محصنة على الشاطىء الغربي للهند •

وفي عام ١٥١١ استولى على (مالاقا) ، واسس مراكز تجارية في (جزر الملوك)• وبعد وفاته في عام ١٥١٥ ، حاول البرتغاليون مد سيطرتهم الى (كانتون) في الصين ، الا ان غزو الامبراطورية الصينية كان فوق امكاناتهم ، فاضطروا للاكتفاء بفتح مركز تجاري فيها ، في (مكاو) عام ١٥٥٨ ، وفي ١٥٤٢ دخلوا بتماس مع (اليابان) •

ولم تكتف البرتغال بهذه السياسة والسيادة ، اذ ان هذا لم يقطع دابر التجارة العربية • ولذا ، فانها وهي تمد نفوذها على شواطىء الهند ، وتجوس سواحل الصين على المحيط الهادىء ، كانت تشن حربا قاسية لا هوادة فيها ، ضد العرب على سواحل افريقيا الشرقية ، بعد ان استولت على مدنهم الزاهرة ، وخربتها ، مثل مسمبيج ، وكلوة ، وممباسا ، وغيرها • كما لاحقتهم في سواحل شبه الجزيرة العربية ، بل في الهند ذاتها • لقد كانت حربا صليبية يقودها « تجار

الفلفل والقرنفل والزنجبيل » ضد العرب . فكل شيء في نظر هؤلاء ، كان مباحا تجاههم ، من حرائق لمدنهم ، ومذابح لاسراهم ، وحرق لمراكبهم مع الجماعات التي تحملها ، وتقطيع للانوف والاذان الى غير ذلك من مظاهر الوحشية[1] وتمكنوا من الاستيلاء عام ١٥٠٦ على جزيرة (سوقطرة) قرب باب المندب . وفي عام ١٥٠٧ على (هرمز) في مدخل الخليج العربي ، محاولين سد المنفذين الرئيسيين للعرب المسلمين الى المحيط الهندي ، وتجارة الهند . كما تمركزوا على الساحل الغربي للخليج العربي في الاحساء ، وفي عمان .

وحاولت مصر المماليك ان تقف في وجه هذه الحملة الضارية ، وسيرت اسطولا لطرد البرتغاليين ومساعدة (السلطان محمود) سلطان (كجرات) في الهند ضدهم . وقد انتصر الاسطولان المصري والكجراتي في بادىء الامر ، الا ان البرتغاليين عادوا فهزموهما عام ١٥٠٩ . وهاجم البرتغاليون (عدن) في عام (١٥١٣) ولكنهم لم يفلحوا بالاستيلاء عليها . وعندما ضم العثمانيون مصر عام (١٥١٧) ، وبلاد العراق في عام (١٥٣٥) ، شعروا بمسؤوليتهم الكبرى في الدفاع عن شبه الجزيرة العربية ، والاماكن المقدسة فيها ، وفي ضرورة استعادة النفوذ الاسلامي على الطريق التجارية في المحيط الهندي ، وانتزاعها من البرتغاليين . وبالفعل فقد سيرت هذه الدولة عدة حملات بحرية [2] ، بعضها انطلق

---

(١) Hauser et Renaudet, op. cit. P. 65 - 66

(٢) مثل الحملة التي ارسلتها بقيادة واليها في مصر خادم سليمان باشا عام ١٥٣٨ وحاصرت ديو ثلاثة اشهر ، وحملة «بيري ريس» عام ١٥٥١ ، وحملة « سيدي علي ريس » . وقد بقيت الدولة العثمانية ترسل حملاتها في الواقع حتى ١٥٨٩ ، حيث ارسلت واحدة باتجاه المدن العربية في افريقيا الشرقية ، لمساعدتها في ثورتها ضد البرتغاليين ، كمدينة « ممباسا » . الا ان الاهتمام العثماني بالمحيط الهندي ضعف بعد هذا التاريخ ، لانشغال الدولة العثمانية بقضايا اخرى ، وللوهن العام الذي اصابها ، الا أنها كانت قد انشأت على ساحل « ارتيريا » الحالية (ولاية الحبش) ومن اهدافها حماية البحر الاحمر من البرتغاليين والاوربيين عامة ، وبذلك ضمنت النفوذ الاسلامي فيه . فعلى الرغم من وجود البرتغال في المحيط الهندي فان السفن الاسلامية الحاملة للحجاج والسلع ، ظلت قادرة على الوصول لجدة ، والسويس ، دون صعوبة . كما ان تجارة التوابل عبر مصر ، رات بعض انتعاش في منتصف القرن السادس عشر .

عبر البحر الاحمر فمواني‌ء اليمن ، الى بلاد الهند نجدة لسلطان « كجرات » في الهند ، وبعضها الاخر عبر الخليج العربي • الا ان تلك الحملات لم تعط مردودا أو نصرا • ولقد استشرى امر البرتغاليين حتى دخلوا البحر الاحمر عدة مرات ، وهددوا ميناء جدة • بل ان البوكيرك انذر بالاستيلاء على الاماكن المقدسة ، ونبش جثة الرسول الكريم (ص) • وتحالفوا مع الحبشة المسيحية ضد امير دولة (عَدَل) المسلمة (احمد غراز) ، الذي كان قد دخل الحبشة مجاهدا ، وفاتحا ، بعد ان كانت دويلته وهي على الحد الجنوبي الشرقي للحبشة تابعة لها •

وهكذا سيطر البرتغاليون على طريق الهند • الا ان الاسبان الذين دخلوا المحيط الهادیء برحلة ماجلان ، حاولوا بلوغ جزر التوابل من ناحيتهم • وبعد صراعات وخصومات مع البرتغاليين ، استطاعوا ان يستقروا في عام ١٥٦٩ في (جزر الفيليبين) •

ولم يهتم البرتغاليون ببلاد الهند فحسب ، وانما عملوا حثيثا لاستعمار الشريط الساحلي في البرازيل اعتبارا من عام ١٥٣٠ ، مؤسسين فيه (مراكز) ذات صبغة تجارية عسكرية • وشرعت زراعة قصب السكر تنمو نموا كبيرا ، بفضل احضار العبيد من (غينيا) ، وبيعهم للعاملين في الزراعة من البرتغاليين • وكان هذا بداية الاتجار بالرقيق الاسود وحمله من افريقيا الى امريكا •

وقد غدت التجارة البرتغالية من احتكار الدولة : ففي كل عام كانت تنطلق اربع سفن كبيرة أو خمسة من (لشبونة) الى بلاد الشرق الاقصى ، والى ميناء « غوئا » غربي الهند بالذات ، وتعود محملة بالمنسوجات القطنية ، والتوابل ، والاحجار الكريمة ، من (سيلان) والحرير ، والعطور • وكانت الارباح المتدفقة هائلة • وقد رافق المبشرون الدينيون التجار ، ومن اشهرهم (فرانسوا كساڤيه) الذي كان يسعى لمحاربة اخلاقية الاستعمار ، ثم انتقل الى اليابان حيث اقام فيها عامين •

ان الامبراطورية التي بنتها البرتغال كانت امبراطورية هشة على الرغم من المراكز الحصينة التي اقامتها، اذ ان الاسبان، والعرب ، والانكليز ، والهولانديين،

كانوا يهددون باستمرار سيادتها عليها • هذا بالاضافة الى قلة عدد سكان البرتغال بالنسبة لسعة هذه الامبراطورية ، واستحالة تأمين قوى عسكرية لمحاربتها وحمايتها من نقمة السكان المحليين ، واطماع الدول الاخرى • ومن ثم بقيت الامبراطورية البرتغالية على شكل مراكز محدودة على الشواطىء ، ولم تتوغل نحو الداخل التوغل الذي قامت به اسبانيا •

ب ـ الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية :

لم يقنع الاسبان بارخبيل (الانتيل) بل اندفعوا لاحتلال القارة الامريكية حيث وجدوا فيها دولا منظمة تنظيما قويا • فهنالك :

١ ـ المايا **Mayas** الذين تثبتوا خلال الالف الثالثة قبل الميلاد في الجنوب الشرقي من **المكسيك** • وقد كانت حضارتهم متقدمة ، كما يشهد بذلك « **معبد المحاربين** » في (شيشن ــ ايتزا Chichen Itza) • وكانوا **يعتمدون على** زراعة **الذرة** • وكان التقويم الذي يستخدمونه ادق من التقويم الاوربي • وكان كهنتهم قادرين على التنبؤ بالكسوف والخسوف ، مما يدل على معرفة فلكية متقدمة • كما عرفوا الارقام ولهم نظام رقمي يظهر الصفر فيه •

وقد غادروا مدنهم في القرن التاسع ، واقاموا في شمال شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) حيث دعموا في القرن الثاني عشر بمهاجرين جدد • الا ان حربا اهلية قضت على هذه الحضارة المتألقة قبل مجيء الاسبان اليهم •

٢ ـ بالمقابل فان **امبراطورية الازتيك** كانت تسود **أمريكا الوسطى** منذ القرن الرابع عشر • وكان الازتيك منتظمين في قبائل وعشائر ، ومستعدين دائما للحرب • وكان المجتمع يتألف عندهم من كهنة ، ونبلاء ، واحرار ، وعبيد • ويعبدون آلهة عديدة ، منها الشمس ، ويعتقدون ان آلهتهم تتغذى من الدم الانساني • ولذا فان همهم هو الحصول على اسرى ، ليضحوهم للالهة بنزع قلوبهم من صدورهم • والمحارب الذي يقوم باسر (٤) افراد كان يعتبر من طبقة اعلى • ولقد كان (الأزتيك) يجهلون بعض التقنيات البدائية كالدولاب مثلا • وكانوا لا يعرفون

(تعدين الحديد) الا انهم يستخدمون (النحاس) على نطاق واسع ، وكان وفيرا في هضبة (المكسيك) • وكانت كتابتهم تشبه الكتابة المصرية القديمة ويدونون على الحجر ، والجلد ، ولحاء الشجر ، كتابات سحرية ومخططات مدن وحسابات • وكانت السنة لديهم (١٨) شهرا ، كل شهر (٢٠) يوما يضاف اليها (٥) ايام لا يعطونها اسما •

أما فنهم فجدير بالاهتمام : فالهرم المدرج في (مكسيكو) (تنوخ تيتلان Ténochtitlan) ، المكرس لاله الحرب ، كان مزينا بالتماثيل ، وبالنقوش البارزة • وقد بنيت العاصمة (مكسيكو) على بحيرة ، وكان يسكنها ما يقارب ١٠٠ر٠٠٠ نسمة •

٣ ــ والى الجنوب أي في **امريكا الجنوبية** قام (**الاينكا Incas**) وقد توضعوا في قلب سلسلة جبال الآندز (بيرو وبوليفيا اليوم) • وقد فرضوا انفسهم على (الهنود الكيشوا) خلال القرن الثاني عشر • وكان يسير الامبراطورية ، (الانكا) « ابن الشمس » • وتذكر سلطته على شعبه بسلطة فرعون مصر • وكانت المركزية شديدة ، وساعد عليها شبكة طرق متشعبة ودقيقة • وكان يقوم بتنفيذ اوامر (الانتان ــ الاله) اربعة نواب للملك ، وحكام المقاطعات ، والموظفون • وكانت عقوبة اية حركة تمرد الاعدام • وكان عدد سكان (كوزكو Cuzco) العاصمة القائمة على ارتفاع ٣٤٠٠ م ، ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة • وقد بنيت بموجب مخطط هندسي ، ويطل عليها من الاعلى معبد الاله الشمس •

لقد كان (الاينكا) يجهلون الكتابة ، الا انهم كانوا يعرفون الحساب ، والصياغة ، والنسيج • ويعرفون كيف يشقون قنوات الري ويعتنون بها • وكان العمل عندهم الزاميا ، فكل رجل من الشعب يتلقى قطعة من الارض عليه العمل فيها • وكان يزرع دون مقابل ممتلكات (الانكا) الامبراطور • ويزرعون الذرة والبطاطا ، ونباتات مدارية اخرى ، على مدرجات • وكانت منتوجات ممتلكات الانكا تكدس في مخازن الحبوب العامة ، وتستخدم لاطعام الموظفين ، والجنود ، وحتى الشعب في حالة المجاعة • وكانوا عندما يحرثون ، ويزرعون يبتدؤون عادة باراضي اليتامى ، والارامل ، والاشخاص الذين أقعدتهم الشيخوخة ، او المرض•

وعندما يذهب الرجال للحرب فان زوجاتهم يصبحن بحكم الارامل ، ولذا فان الاخرين يقومون بزراعة اراضيهم • وآخر الاراضي التي كانوا يفلحونها كانت اراضي (الانكا) الملك ، ويقومون بعملهم فيها بفرح وبملابس الاعياد •

وفي الواقع لقد دهش الاسبان عندما دخلوا غازين ومستعمرين ، الى ارض امريكا ، امام الحضارات التي رأوها امامهم • الا انهم لم يحترموها وانما عملوا على القضاء عليها بوحشية •

الغزاة الاسبان المستعمرون Conquistadores

لقد قام الاسبان بغزو بقعاع تلك الحضارات بحفنة من الرجال ، عرفوا « بالفاتحين Conquistadores » • وهم نبلاء قشتاليون ، متكبرون ، وقساة • وكان « التعطش للذهب » يحرق نفوس اكثرهم ، ويشوه عواطفهم الانسانية ، ويحرك روح المغامرة لديهم • وقلة منهم كانت مندفعة للتبشير بالدين المسيحي • وبذلك اتخذت عملية الغزو الاستعماري في جزء منها صورة حملة صليبية •

احتلال المكسيك :

في ربيع عام ١٥١٩ ، هبط (فرنان كورتيز) على ساحل المكسيك مع (٦٠٠) رجل ، وفي اواخر عام ١٥١٩ كان على مدخل مدينة مكسيكو حيث استقبله الامبراطور « مونتيزوما Montezuma » في بادىء الامر بالترحاب • واستطاع (كورتيز) بالـ ١٦ حصانا التي احضرها ، وقطع المدفعية العشر ، ان يؤثر على الهنود الحمر ويدفع الشعوب الخاضعة للازتيك ، الى التحالف معه ، حتى ان بعضهم ظن في لحظة من اللحظات بأن الاله الاكبر (كيتز الكوتل Quetzalcoatl) جاء ليستعيد مملكته • اذ كانوا يعتقدون انه بعد ان تحول الى رماد ، سيعود بسحابة بيضاء ويكمل عمله الخلقي •

الا ان (كورتيز) ما لبث ان ابان وجهه الصحيح ، واخذ يتصرف كسيد مطلق وحطم الاصنام • فثارت (مكسيكو) ، واضطر الاسبان الى الهرب في ليلة ٣٠ حزيران عام ١٥٢٠ • الا انه بمساعدة الشعوب المعادية للازتيك ، هيأ كورتيز عملية

اعادة الاحتلال : فحاصر الطرقات المؤدية الى العاصمة ، وقطع القناة التي تغذيها بالماء • فانتشر الجدري ، ولم يقدر الامبراطور الجديد الشجاع (غاتيموق Guatemoc) من منع (كورتيز) من استعادة المدينة في ٢١ آب عام ١٥٢١ ، ونهبت (مكسيكو) وخربت كلها تقريبا • ولما لم يجدوا ذهبا بالكمية المنتظرة ، فان (غاتيموق) عذب ، ثم اعدم في عام ١٥٢٥ •

وقام كورتيز الذي عينه (شاركان) (قائدا عاما لاسبانيا الجديدة) باخضاع البلاد كلها ، وباعادة تنظيمها (١٥٢٧ ـ ١٥٤٤) •

احتلال بلاد الاينكا :

لم يجد الاسبان في المكسيك الذهب الذي كانوا يبحثون عنه بشراهة • الا انه على بعد ٤٠٠٠ كم الى الجنوب ، وفي قلب الانديز ، تحقق حلمهم على يد مغامرين (فرانسوا بيزارو) و (دييغود الماغرو) •

ففي عام ١٥٣٢ ، وباتفاق مع شارلكان ، جمعا جيشا صغيرا ، ودخلا الى (الانديز) ، واسرا الانكا (اتاهوالبا Atahualpa) غدرا • وطلب (بيزارو) فدية خيالية لفك اسره ، وهي ان يملأ الحجرة التي يقيم فيها حتى ارتفاع قامته ، ذهبا واحجارا كريمة • وقد اقتسم (بيزارو) ورفاقه هذا الكنز الثمين ، بعد أن بعث بالخمس الى شارلكان • واجبر (اتاهوالبا) على اعتناق الديانة المسيحية ، ثم قتل في ٢٩ آب عام ١٥٣٣ • وبعد ثلاثة اشهر ، احتلت مدينة (كوزكو)وفي عام ١٥٣٥ ، اقام (بيزارو) على الشاطىء عاصمة البيرو الجديدة وهي (ليما)، والتجأ آخر (إنكا) الى الجبال ، حيث حزم أمره على المقاومة •

الا ان (بيزارو) و (الماغرو) لم يلبثا ان دخلا في صراع فيما بينهما ، قتل الاثنان خلاله • واضطرت القوى الاسبانية ان تمضي عشرة اعوام لاعادة النظام (١٥٤٤ـ١٥٥٤) والهدوء • وفي عام ١٥٧٢ قبض على (الانكا) الاخير ، وقطعت رأسه في الساحة الكبرى في (كوزكو) •

تنظيم الامبراطورية الاسبانية :

بينما كان البرتغاليون يستقرون في البرازيل ، فان الاسبان كانوا يوسعون

امبراطوريتهم ويحصنونها : فمن ناحية الشمال توقفوا عند حدود الصحراء ولـم يتجاوزوا ابـدا (كاليفورنيا المنخفضة) ، على الرغم مـن استكشاف (كورونادو Coronado) الذي بلغ (وادي كولورادو الكبير) في عام ١٥٤٠ • الا ان عملية الاحتلال كانت تسير قدما في الجنوب : فاحتلت (شيلي) ، واقيمت منذ عـام ١٥٣٥ مؤسسات على (ريودو لابلاتا) وبخاصة مدينة (بوينس ايرس) •

لقد بحث الاسبان طويلا ، ودون جدوى عن بلاد (الدرادو El-dorado) ذلك الملك الاسطوري الذي يغطي جسمه كله بالتبر ، قبل ان يستحم في البحيرة المقدسة • الا انهم اكتشفوا صدفة في بلاد البيرو ، وفي عام ١٥٤٥ ، منجم الفضة في (بوتوزي Potosi) وذلك على ارتفاع ٤٠٠٠ م •

وبينما كان البرتغاليون ، والاسبان ، يتقاسمون سيادة العوالم الجديدة ، فان الانكليز والفرنسيين ، كانوا يحاولون ان يدخلوا باب التنافس معهما • الا ان الطرفين لم ينجحا في ان تكون لهما حصتهما من تجارة الهند • ولكنهما بالمقابل حصلا على مكاسب كبيرة من (القرصنة) على حساب الاسبان ، والبرتغاليين : ففي عام ١٥٢٢ قاد القراصنة الفرنسيون الى ميناء (دييب) في فرنسا ثلاث سفن اسبانية ، اسروها وهي طافحة بالذهب ، والاحجار الكريمة • وبدءا من منتصف القرن السادس عشر اندفع الانكليز والفرنسيون بجرأة نحـو استعمار الاراضي الجديدة •

ظهور امريكـا اللاتينيـة :

منذ منتصف القرن السادس عشر ، كانت الامبراطورية الاسبانية فـي امريكا منظمة تنظيما متينا ، ودقيقا : فقد اسست مدن على نمط المدن الاسبانية ، وفتحت الجامعات وبدأت (حضارة جديدة) بالتكون • وشيدت الكاتدرائيات والقصور التي حوفظ فيها على النمط الاسباني • وادخل في كل مكان الديـن الكاثوليكي والفرق الدينية ، ودواوين التحقيق (محاكم التفتيش) •

وطبقت **الادارة المدنية ، والدينية ،** عـلى النمـوذج القشتالـي • والف « مجلس الهند » الذي اتخذ مقره في (اشبيلية) ، وكلف بقيادة الادارة الاستعمارية

وعين نائبان للملك ، في كل من (مكسيكو) و (ليما) ، يمثلان ملك اسبانيا ، واحاطا نفسيهما بالابهة ومظاهر الترف ، والزهو . والى جانب نائبي الملك انشئ ابرشيتان ، تضم كل واحدة عدة اقسام دينية . وتضاعفت الاديرة التي اسسها الدومينكان والفرانسيسكان .

كما نظم استعمار تلك البقاع واستغلالها على النمط الاوربي : فقد تبلبلت التقاليد الزراعية السائدة ، بادخال الحصان ، وزراعة الرز ، والتوسع في زراعة الكرمة، وتربية الثيران الصغيرة، الى غير ذلك من الامور .ولكن غنى هذه المستعمرات بقي معتمدا على ذهب المكسيك ، وفضة البيرو . وكانا ينقلان الى اوربا بقافلتين من الغلايين (الغليون نوع من السفن الكبيرة) ، كانتا تغادران في كل عام (اشبيلية)، أو (قادس) ، باتجاه (قرطاجنة الجديدة) وتعودان محملتين حمولات ثمينة . أما احتكار التجارة ، فقد حفظ للاسبان ، حتى الذين يتاجرون ايضا مع الفيليبين .

ان هذه الثروات المكتسبة ، حصل عليها الاسبان نتيجة العمل القسري الذي فرض على الهنود ، أكان في المناجم ، ويدعى نظام (الميتا Mita)[1] او في المزارع الواسعة (الهاسيندا Haciendas) التي اعطيت لمستعمرين من الاسبان، ويسمى (نظام الانكوميندا Encomienda) .

لقد كان المستعمرون يعاملون الهنود كما يعاملون الارقاء ، او اقنان الارض فانتشرت بينهم المجاعات والاوبئة . وعبثا كان ما اعلنه البابا على الملأ ، بأن هؤلاء الهنود بشر ، وانسان كغيرهم ، ويجب الا تقيد حريتهم ، والا يحرموا من املاكهم والا يسترقوا ، وايده شارلكان في ذلك . ولقد حارب بعض رجال الدين بحماسة وبشدة الاضطهاد الاسباني ، ومنهم بخاصة الاسقف (لاس كازاس Las Casas)

---

(١) كان على السكان الاصليين ، ان يعملوا يوما في الاسبوع ، في مناجم الذهب والفضة ، من شروق الشمس الى غروبها ، ولا يعطون راحة سوى ساعتين فقط . وقد خفف هذا النظام في القرن الثامن عشر ، الا انه لم يلغ حتى ١٨٢١ . وقد اسهم في اقفار هضاب البيرو المرتفعة ، بسبب عدم تآلف السكان مع هذا العمل ، وبسبب حوادث المناجم ، والهروب الى السهل .

عام ١٥٤٢ • وفي كتابه « تاريخ الهند الغربية » الذي نشره عام ١٥٤٣ ، شجب بشدة الطرق التي استخدمت في الاحتلال ، ونتائج الاستعمار ، وما جرته من بلاء على السكان الاصليين •

وفي الحقيقة اقفرت بعض المناطق من سكانها بسرعة ، بسبب تلك المعاملة القاسية • فشرع الاسبان يحملون من افريقيا ، زنوجا للعمل في المزارع المستحدثة ، ولا سيما في الانتيل • وبذلك نشأ « نظام الاسترقاق الاسود » الذي اخذ بتفريغ افريقيا الغربية من سكانها وتخريبها ، وقد بقي قائما حتى القرن التاسع عشر • ولا تزال الولايات المتحدة تعاني نتائجه للان في « مشكلة الزنوج » على اراضيها •

وفي (امريكا اللاتينية) تم التزاوج بين العناصر البيضاء الوافدة ، وبين الهنود ، والزنوج • ونجم عن ذلك فئة مولدة خليطة هم (الميتيس Métis) او الخلاسيون • الا ان هؤلاء كانوا محتقرين ، ولا يمكنهم الوصول الى أي عمل او منصب هام ، بل كانوا يمنعون من ان يصبحوا قساوسة • وقد بقي هذا التمايز الطبقي ، حتى القرن التاسع عشر ، عندما قامت المستعمرات الاسبانية ، والبرتغالية بثوراتها •

الفصل الثالث

الثورة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية

لقد كان للكشوف الجغرافية نتائج اقتصادية بعيدة المدى في حياة اوربا والعالم على السواء ، بل كانت **ثورة اقتصادية** غيرت الحياة الاقتصادية الاوربية تغييرا عميقا ، ولا سيما التجارة منها •

١ ـ فقد تغيرت الجغرافية الزراعية والحيوانية :

اذ حمل المستعمرون من اوربا كثيرا من النباتات الى امريكا كالقمح ، وقصب السكر ، والكاكاو ، والنيلج ، والكرمة • وكذلك الحيوانات كالثور الصغير ، والغنم ، والخيل • وبالمقابل فان امريكا عرفت اوربا بنباتات لم تكن تعرفها كالذرة، والفاصولياء ، والبطاطا ، والتبغ ، والبندورة ••• الخ • ولكن هذه التغيرات لم تحمل معها تطويرا مباشرا في طرق الزراعة وتقنياتها ، ولذا بقيت الاطر السابقة على ما هي عليه مع تعديلات محدودة • وبقي اهتمام الفلاح منصبا على زراعة القمح للاغنياء ، والشعير والشيلم والشوفان ، للفقراء • وقد بقيت البلاد تتعرض للمواسم السيئة ، وتخضع للمجاعات ، وللارتفاعات الفاحشة في الاسعار • الا ان الهام في التطور الزراعي • **ظهور المزارع الاوربية الكبيرة في البلاد المستعمرة ،** التي تملكها الاوربيون ، واستغلوها لصالحهم ، واستخدموا في فلاحتها السكان الاصليين والزنوج •

٢ ـ ان الثورة الاقتصادية الحقيقية كانت في الواقع في ميدان التجارة • فالكشوف الجغرافية الكبرى بلبلت أسس التجارة السابقة : فالسفن البرتغالية والاسبانية اخذت تجلب من الشرق ، ومن الغرب الامريكي ، حمولات ثمينة

احتكرتها الدولتان الايبريتان • وبذلك غدت (لشبونة) سوق التوابل الكبير و (اشبيلية) ميناء الاتصال مع امريكا • وكان على الدولتين توزيع تجارتهما في اوربا ، للتزود منها بالمقابل ، بالبضائع المختلفة : كالقمح ، والاقمشة ، والاسلحة• وكانت الموانيء المستفيدة من التجارة الجديدة : (هامبورغ) في الشمال على الارض الالمانية ، و (بريستول) في انكلترة ، والموانيء الفرنسية على الاطلنطي ، و (انفرس) في الاراضي المنخفضة ، التي قام رخاؤها على النقل البحري ، وشهرة بورصتها ، والتسهيلات التجارية فيها • وشاركتها هذه الشهرة مدينة (ليون) الداخلية في فرنسا ، التي كانت مركزا كبيرا للمبادلات العالمية • أما موانيء البحر المتوسط ، التي انحرف عنها خط التجارة العالمي ، نتيجة تحوله الى الاطلنطي ، والمحيطات الاخرى ، فقد اصيبت بركود نسبي • ومنها مدن ايطاليا ، والبندقية بخاصة ، التي فقدت احتكارنقل التوابل ، الذي كان بيدها سابقا ، حتى اضطرت الى استيراد فلفلها الخاص من لشبونة • الا ان هذه المدن ، او جمهوريات ايطاليا التجارية ، لم تفقد فعاليتها الاقتصادية وازدهارها ، اذ تابعت الحصول على ارباحها عبر البنوك ، والصناعة النسيجية ، والتجارة ذاتها • فالبحر المتوسط على الرغم من سقوطه عن عرشه السابق ، بقي محافظا على قيمته التجارية كوسيط بين الشرق الاقصى ، واوربا • كما ان العالم العربي لم يفقد دوره ، كمقر للطرق البرية المتجهة الى ذلك الشرق الاقصى ، او الوافدة منه • فمقابل نشاط الطرق البحرية المحيطية ، عملت التجارة الاوربية متعاونة مع العرب على ارضهم ، في احياء الطرق البرية ، ولا سيما الطريق الصحراوية ، التي تصل بلاد الشام بالعراق، ومنها الى الخليج العربي ، فالمحيط الهندي • اذ ان هذه الطريق على الرغم من صعوبتها ، تبقى اقصر من طريق رأس الرجاء الصالح ، واكثر أمنا • ومن ثم ، اخذت الدول الاوربية ، تسعى لعقد اتفاقات تجارية مع (الدولة العثمانية) المسيطرة على العالم العربي في القرن السادس عشر ، وكذلك مع (الدولة الصفوية) في ايران • ونجم عن ذلك ما يسمى في تاريخ العلاقات العثمانية ـ الاوربية « بالامتيازات » •

ومع ان العلاقات التجارية بقيت محافظة على مظاهر الماضي في بعض جوانبها في بادىء الامر ، الا انها في الواقع اخذت تنطلق تدريجيا من تلك المظاهر •

فعلى الصعيد المالي : ازداد اعتمادها على المصارف • فمن المعروف ان المصارف وجدت اولا في المدن الايطالية ،حيث كانت مشروعاتها التجارية تحتاج الى اموال ضخمة ، ولا سيما في (فلورنسة) • بل ان الاسرة الحاكمة نفسها في هذه المدينة ، وهي اسرة (مديتشة) كانت من اصحاب المصارف • ولقد نشطت البنوك وتأسيسها ، بعد الكشوف الجغرافية ، ولا سيما بعد ان سمحت البروتستنتية الكالفنية بالتعامل بالفائدة ، واصبح النقد ذاته سلعة ، وانتشرت مضاربات البورصة واشتدت الحاجة الى النقد المتنوع لشراء مختلف السلع • ونما بعض هذه البنوك في القرون التالية ، الى حد التحكم في اقتصاد البلاد التي يعمل فيها ، وفي سياستها، كبنك (امستردام) في هولاندة ، و (بنك انكلترة) في انكلترة •

وعلى الصعيد المالي ايضا ، يلاحظ انتشار استخدام الطرق الحسابية ، التي ادخلها الايطاليون في العمل التجاري ، واكتسبوا كثيرا منها من العرب • وشرع (رجل الاعمال) يستعمل (الشيك) ، و (الحوالة) ، اللذين يجنبانه اخطار نقل النقد عبر الطرقات • كما انه اخذ يستفيد من رؤوس الاموال التي وضعتها المصارف تحت تصرفه •

هذا ، وقد استفادت بعض البيوتات التجارية الكبيرة ، وبخاصة في المانيا الجنوبية ، من هذا التطور في طرق التجارة العالمية ، فاتجهت بتجارتها نحو المحيط الاطلنطي ، ووسعت علاقتها التجارية الى ابعد مدى ، واوجدت عملاء لها في مراكز انصباب السلع كلشبونة ، وانفرس ، واشبيلية ، واخذت تساعد الحكومتين الاسبانية ، والبرتغالية ، المحتكرتين لسلع المستعمرات ، في توزيع تلك السلع ، فاثرى اصحابها ثراء فاحشا • ومن هؤلاء (آل فوغر Fugger) و (الويلسر Welser) من اوغسبورغ في المانيا وغيرهم ، الذين اصبحوا من الممولين الكبار ، بل اشبه بمصارف متنقلة ، لها تداخلاتها السياسية ، وتمويلاتها للملوك ، والاباطرة • وهؤلاء لم يعتمدوا على تجارة السلع والبضائع فقط ، وانما عملوا في تجارة (النقد) التي درت عليهم ارباحا خيالية • فالقرن السادس عشر كان بدء (قوة الرأسمالية المصرفية) •

وبمناسبة الحديث عن (النقد) فانه لابد من التأكيد انه ازداد استخدام

النقد زيادة كبيرة وجاء استثمار المعادن الثمينة في امريكا ليدفع التقدم النقدي قدما بل ويضخمه • فقد كان هناك ذهب (الانتيل) و (المكسيك) اولا (اربعة اطنان في المتوسط سنويا اعتبارا من عام ١٥٥٠) ثم فضة (البيرو) التي استخرجت بكميات كبيرة من منجم (بوتوزي) بدءا من عام ١٥٥٦ • فبين عامي (١٥٨٠ـ١٦١٠) كان يصل الى اسبانيا سنويا ٢٠٠ طن منا لفضة •

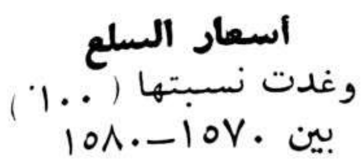
وبالطبع ترك التضخم النقدي هذا اثره الكبير في الاسعار ، فشرعت بالارتفاع • وكان الارتفاع في بادىء الامر بطيئا (٥٠٪ في الثلث الاول من القرن السادس عشر) ثم تسارع بدءامن عام ١٥٣٥ حتى تضاعفت الاسعار خلا ل الثلث الثاني من القرن • وبعد تباطىء خفيف عاودت الحركة تصاعدها وغدا المستوى في عام ١٦٦٠ اربع مرات اكثر ارتفاعا في المتوسط عما كان عليه قبل مائة عام • (انظر الشكل ٩ مكرر) •

واول البلاد التي تأثرت بارتفاع الاسعار هذا كانت (اسبانيا) ، ثم انتقل الامر الى اوربا الغربية • وفي الواقع ، لقد اخذت اسبانيا تشتري اكثر فاكثر منتوجاتها من الخارج (كالحبوب والمنسوجات من فرنسا مثلا) وهذا ادى لتصدير مستمر لمعادنها الثمينة او نقدها •

ولم تتأثر اوربا وحدها **بأزمة النقد** وانما تسربت الى كل منطقة البحر المتوسط ، والى الدولة العثمانية والبلاد العربية التابعة لها ، ولا سيما ان مبادلات تجارية نشيطة كانت قائمة بينها وبين البلاد الاوربية •

وقد ادهش ارتفاع الاسعار التصاعدي في اوربا المعاصرين وصدمهم • ولم يستطيعوا ان يتفهموا تفهما صحيحا ظاهرة التضخم النقدي هذا • فبالنسبة لبعضهم لم يكن ارتفاع الاسعار سوى نتيجة انخفاض قيمة النقد ، وهذا امر كان كثير الحدوث في تلك الحقبة • اما ان تكون كثرة الذهب والفضة ، وهما « ثروات ثمينة » قادرة على اثارة غلاء الاسعار ، فهذا امر لم يكونوا مستعدين البتة لتقبله أو تصديقه •

الا ان القاضي الفرنسي (جان بودان) اوضح عام ١٥٦٨ ، بان هذا الارتفاع



خطان بيانيان متقابلان يوضح احدهما (المملوء) ، تدفق الذهب والفضة
وثانيهما (الخطي) ، ارتفاع الاسعار
الشكل (٩) مكرر

في الاسعار هو نتيجة مباشرة لتدفق المعادن الثمينة • اذ ان الطلب على السلع غدا اكبر ، فمن الطبيعي ان ترتفع اسعار المنتجات ، وبالتالي ان ينشط الانتاج الزراعي والصناعي • كما أخذ المفكرون يربطون ظاهرة « تفجر الاسعار » هذه بنمو « عدد السكان » أيضا أي بزيادة عدد المستهلكين •

ومن التطورات في حقل التجارة ايضا تكون **الشركات الكبرى للتجارة البعيدة .** لان التجارة العالمية الواسعة التي كانت الكشوف الجغرافية سببا لها ، بحاجة الى رؤوس اموال ضخمة لتجهيز الاساطيل التجارية وحمايتها وشراء السلع ... الخ من الامور • ومن الشركات الكبرى التي كونت وكان لها دورها الهام في التاريخ « شركة الليفانت » الانكليزية التي اتخذت احد مراكزها مدينة (حلب)،و« الشركة الهولاندية الشرقية المتحدة »، التي نشأت من تجمع ثماني شركات، واخذت تصريحا من الدولة بحق عقد المعاهدات مع ملوك البلاد المتاجر معها ، وتجهيز الاساطيل وتسليحها ، وتجميع الجنود • وعلى غرارها كانت « شركة الهند الشرقية الانكليزية » التي قامت باستعمار الهند •

ومن التطورات التجارية ايضا **تحسين الطرق الداخلية** في كل دولة من الدول ، **ووسائل النقل فيها ،** وتطوير النقل البحري كذلك ، من ارتقاء بناء السفن والبحث عن قوة اخرى غير الرياح لتسييرها ، والسعي لايجاد وسائل افضل تعين الملاحين في تحديد مواقعهم ، وتحفظ سلامتهم • الا ان هذه التطورات في طرق المواصلات بقيت بطيئة •

وهنا لا بد من الملاحظة ان الدول قد اتجهت الى تنمية **اساطيلها التجارية والحربية ،** لحماية قوافلها التجارية من القرصنة ، وممتلكاتها وما وراء البحار من عدوان الدول الاخرى ، ولتوسيع تلك الممتلكات • فالى القرن السادس عشر يرجع اهتمام اسبانيا وفرنسا ، وانكلترة ، بتنمية اساطيلها •

ومن الضروري الاشارة في نطاق التطورات التجارية ان حركة النقل التجاري عبر بحر البلطيق قد تضاعفت ست مرات خلال القرن السادس عشر • فقد كان الخشب ، والقطران ، والفرو ، والقمح البولوني ، كلها تنتقل من الشرق الى

الغرب . والملح ، والاجواخ ، والتوابل ، مـن الغرب الى الشرق . وحل محل « العصبة الهانسية » السابقة في التجارة ، الروس ، والالمان ، وبخاصة الهولانديون حتى انه كان بيدهم في عام ١٦٠٠ (٦٠٪) من مراكب النقل التجاري هذا .

٣ ـ اما في **ميدان الصناعة** فقد بقي النظام الصناعي الحرفي قائما ، ويقدم المواد الضرورية للحياة اليومية ، والملابس اللازمة للفلاحين . وكـانت « النقابات» تفرض تنظيمات صارمة وقيودا شديدة . ولكن لما كانت لاتمتد الى كل مكان ، ولا تحتوي جميع المهن ، فقد استطاع رجال جريئون ان يؤسسوا مشروعات صناعية حرة ، بهدف زيادة الانتاج ، امام الحاجة الملحة لبعض المصنوعات . بل ان بعض التجار اخذ يلجأ الى الفلاحين في القرى ، ليقوموا بصنع مايلزم لهم من سلـع ، مقابل تقديمهم المادة الخام لهم ، ووسيلة الانتاج ، ثم يقوم هؤلاء بجمع المصنوعات وبيعها . وهذا « النظام المنزلي » في الصناعة بدأ بالانتشار في انكلترة خاصة ، وهو تملص من نظام « النقابات » السائد في المدن ، والذي كان قيدا عـلى التطور الصناعي . وهكذا تزايدت تدريجيا (الاعمال الصناعية الكبيرة) ، الا ان الصناعة الكبيرة بمفهوم القرن التاسع عشر كانت نادرة بل يمكن القول لا وجود لها . ويمكن القول ان **صناعة التعدين** كانت الصناعـة الاكثر تطورا في هـذا القرن ، لحاجة المدفعية لها . وقد توسعت المناجم في انكلترة ، والمانيا الجنوبية ، (بالنحاس والفضة) وبقي الفحم الحجري قليل الاستثمار . وقد ظهرت عـدة مصانع للحديد ، والنحاس . وكان البرونز اكثر استخداما من الحديد في صناعة المدافع . ويلاحظ ان الصناعة المعدنية هذه ، كانت مستهلكة كبيرة للخشب ، وقد نظمها بدقة وصرامة فرانسوا الاول في فرنسا ، وكذلك صناعة الزجاج . وقـد نشأت، نتيجة ذلك التطور ، ارستقراطية من ارباب صناعة الحديـد ، والزجاج ؛ وتحتهم تقوم كتلة الحرفيين ، التي بقيت تعمل كما هو الحال في العصور الوسطى. وقد حافظت **الصناعة النسيجية** على مكانتها الاولى ، الى جانب صناعة التعدين ، كصناعة الجوخ في الريف الفلاماني ، وفي المدن الايطالية ، والانكليزية . وصناعـة

الحرير في البندقية ، وفلورنسة ، وجنوة ، وتور ، وليون • وصناعة المنسوجات القطنية الاكثر شعبية ، في فرنسا ، والاراضي المنخفضة •

اما **الطباعــة** وهي الصناعة الثورية بحق ، فقد ازدهرت في المدن الكبيرة (اڤرس ، البندقية ، وليون) • ولــم تكتف بالاحرف اللاتينيــة بل ظهرت المطابع بالاحرف العربيــة ايضــا •

٤ ـ **تنامي المسؤولية الاقتصادية للدولة :** ان الكشوف الجغرافية بما درتــه من اموال على الدول المستعمرة ، ضاعفت في الواقع من مسؤولية « الدولة القومية الحديثة » في الميدان الاقتصادي • وورثت الدولة بذلك عمل المدينة في العصــور الوسطى ، أي ان الدولة بمجموعها اخذت تنظم النشاط التجاري،وتستغله لمصلحتها• فملكا لشبونة ، وبرشلونة ، هما اللذان كانا يشرفان على نشاط بلادهما التجاري ، بل ويحتكران معظم المنتوجات الجديدة الواردة من البلدان المكتشفة • ولم تكن اسبانيا والبرتغال هما الوحيدتين اللتين اتبعتا هذا الطريق ، بل كانت هناك انكلترة، وفرنسا ايضا ، ولاسيما بعد ان رأت الدول ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر ، ذبولا في الازدهار الاقتصادي ، نتيجة التبلبلات النقدية ، والحــروب الدينية ، والاهلية ، والدولية ، التي اعاقت التجارة ، وخربت المدن • وهكذا عمل المصلحون الاقتصاديون ومنهم (كولبير) في فرنسا في القرن التالي على وضــع اسس اقتصادية تتبناها الدول • واطلق على ذلك التنظيم الاقتصادي السائــد في معظم الــدول اسم « المركنتيليزم Mercantilisme » ويتضمن هــذا النظام ، ان الدولة تشرف على النظام الاقتصادي وتحميه من منافسة الدول الاخرى • ولمــا كان يعتقد ان الثروة الموجودة في العالم هي ثابتة ، فانه كان على كل دولة ان تجذب اليها الذهب والفضة • ويكون ذلك بزيادة صادراتها الــى الخارج ، والتقليل من وارداتها • ومن هنا كانت ضرورة تشجيع الصناعة الوطنيــة ، وتنظيم التجارة ، واحتكارها ، وايجاد مستعمرات ، واستثمارها لصالح الدول المستعمرة فقط • وهذا النظام هو في الحقيقة السياسة الاقتصادية للقرن السابع عشر •

النتائج الاجتماعية والفكرية للتطورات الاقتصادية والكشوف الجغرافية :

عاشت اوربا في القرن السادس عشر تطورات اجتماعية كان اثر الثورة الاقتصادية فيها واضحا ، وان كانت هذه التطورات في ذاتها استمرارا للتغيرات التي اشير الى وجودها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، مع تسارع اكبر ، واهمها :

١ – **تتابع الزيادة السكانية في اوربا** : وهذا ما ساعد على دفع النشاط الاقتصادي قدما . فحوالي عام ١٦٠٠ أي في آخر القرن السادس عشر واول السابع عشر ، كان يسكن ايطاليا (١٢) مليون نسمة ، واسبانيا (٧) ملايين ، واقل من ذلك في انكلترة ، وربما (٢٠) مليونا في الامبراطورية المقدسة ، و(٢٠)مليونا في فرنسا . وقد تبدو الارقام ضعيفة بالنسبة للوقت الحاضر الا انها تفصح عن زيادة بالنسبة لعصرها .

٢ – وبالمقابل يلاحظ **زيادة عدد سكان المدن** ففي ١٥٠٠ كان هناك مدينتان يزيد عدد سكانهما عن (١٠٠,٠٠٠) نسمة ، اما في ١٦٠٠ فقد غدا هناك (١١) مدينة . لكن شروط الحياة في هذه المدن لم تتحسن : فالوفيات بين الاطفال كانت ضخمة ، فقد كان يموت في الاحياء غير الصحية بمعدل طفل من أربعة أو ثلاثة قبل بلوغه السنة .

وقد تأثر سكان المدن بارتفاع الاسعار اكثر مما استفادوا : لان الاجور التي ارتفعت بدورها ، كانت قليلة بالنسبة لتصاعد الاسعار . وبذلك تكونت (بروليتاريا) حقيقية في المدن مكونة من المتمرنين الحرفيين ، والشركاء ، أي مساعدي معلمي الحرفة ، الخاضعين لرؤساء النقابات ، الذين كانوا يعينون الاجور، ويتفقون مع السلطة ضد العمال . وقد حدث في عام ١٥٣٩ اضراب شهير ، قام به عمال المطابع في ليون ، امتد ثلاثة اشهر . فما كان من السلطة الا ان منعت كل تجمع للعمال عام ١٥٤٥ ، كبيرا كان ام صغيرا ، واطلقت يد ارباب الحرف باختيار عمالهم من الفرنسيين أو الاجانب [١] .

وقد بقي احتراف المهنة يجري – كما كان عليه الامر في العصور الوسطى –

(١) انظر الامر الملكي الذي اصدره ملك فرنسا بهذا الشأن في :
Dupâquier et Lachiver, Op. cit, P. 27.

بالتدرب عليها عند (معلم) من معلميها ، الا ان فرص المتمرن أو الشريك للوصول الى رتبة « المعلمية » بقيت ضئيلة .

٣ ـ ان التطور الاقتصادي وارتفاع الاسعار لم تستفد منه **طبقة النبلاء الصغار ،** التي كانت ضحية هذا التطور . فالضرائب التي كان يدفعها اليهم فلاحوهم لم تعد كافية لسد حاجاتهم . فلكي يعيشوا في بحبوحة اضطروا للقيام بالحرب ، ووضع انفسهم اكثر فاكثر ، في خدمة من يكون قادرا على الدفع لهم . وبالفعل قدموا خدماتهم للملوك والامراء الذين يدفعون لهم ، وكانوا مستعدين لكل المغامرات . وقد عملوا في هذا المعسكر ، أو ذاك خلال « الحروب الدينية » . ففي كل بلاد اوربا آنذاك كانت الحروب الاهلية متناوبة مع الحروب الخارجية .

اما **الطبقة البورجوازية** فقد اغتنت نتيجة التجارة البحرية الكبيرة ، واشترت اقطاعات ارضية كاملة ، ومعها لقب النبالة ، وسحقت الاسر القديمة العريقة بمظاهر ترفها وفخفختها المغرقة . ولذا انصرف المجتمع الثري الى التنافس في مضمار الترف ، ودخل في هذا التنافس الملوك والامراء انفسهم .

وكانت **(الكنيسة)** لا تنظر الى ثرائها نظرة تقدير وانما نظرة شك وحذر . الا ان افراد هذه البورجوازية كانوا ينظرون الى ثرواتهم كدليل الرضا والحماية الآلهية . وكانوا مستعدين لتلقف الافكار الجديدة ، وقد كونوا في المدن حيث ازدهروا عالما مغلقا على نفسه ، بعيدا عن الشعب الذي يستخدمونه في اعمالهم . وقد عملوا على القبض على المؤسسات في المدن ، وعلى بناء « قصور المدينة » حيث تقيم السلطة الحاكمة كدليل على قوتهم الاقتصادية والسياسية النامية .

ويجب الا ينسى في هذا التطبق الاجتماعي **الفلاحون ،** الذين لم يطرأ على حياتهم تغيير يذكر ، سوى انصراف بعضهم الى عمل حرفي أو صناعي :(كالغزل وصنع الادوات والنسيج) الى جانب عمله الزراعي . وقد ظلت حياتهم بشكل عام يسودها الفقر ، وتنتابها المجاعات ، وتبلبلها الحروب ، ويطغى عليهما الجهل .

واذا كان للكشوف الجغرافية وآثارها الاقتصادية تلك النتائج الاجتماعية ،

فقد كان لها بالطبع **منعكساتها الفكرية** على المجتمع الاوربي والعالمي • فاثرها واضح وفعال في تطور المعرفة البشرية ، ونموها في مختلف الميادين : فقد اتسعت ساحة المعلومات الجغرافية ، وازدادت دقتها ، وتقدم من جراء ذلك علم الجغرافيا، وعلم الخرائط • وكذلك خطا علم النبات ، وعلم الحيوان ، والتعدين ، وعلم الفلك ، خطوات كبرى نحو الامام ، وذلك بفضل ما اكتشفه الانسان من نبات جديد ، وحيوان جديد ، ومجموعات من النجوم ، بالاضافة الى اثبات كروية الارض عمليا • فهذه الفتوحات العلمية الجديدة كانت مجالا فسيحا للعلماء كي ينكبوا على دراستها وبحثها •

واثارت الحضارات المختلفة التي احتك بها الاوربيون ، ولا سيما تلك التي لاقوها في امريكا ، اذهان الباحثين ، فانعكفوا على دراسة مظاهرها • والامر نفسه يقال عن الحضارات الشرقية ، الهندية ، والصينية ، بل العربية الاسلامية • وبذلك نمت المعرفة التاريخية نموا كبيرا ، وتدعمت الحركة الانسانية واسرعت خطاها •

وصحب حركة الكشوف الجغرافية ، كما اسلفنا القول ، انتشار المسيحية عن طريق المبشرين • فبعد ان كانت مقتصرة في العصور الوسطى على معظم اوربا وعلى اجزاء محدودة من آسيا وافريقيا ، فانها امتدت بعد الكشوف الجغرافية على امريكا الشمالية والجنوبية ، واخذت تشق طريقا اوسع في افريقيا وآسيا • ولاسيما بعد ان تأسست فرقة « اليسوعيين » التبشيرية عام ١٥٣٤ ، وقام البابا بتنظيم العمل التبشيري ضمن « لجنة الدعاية » •

وفي الواقع أن الآثار الفكرية للكشوف الجغرافية عديدة ، فبالاضافة الى ما ذكر سابقا ، هناك ماخلفته في الادب ، وفي موضوعاته التي طرقها • وما كتاب « يوتوبيا » « لتوماس مور » الانكليزي سوى مثال حي على ذلك •

وخلاصة القول ان التطورات الاقتصادية اوجدت في اوربا « روحا مادية » قوية اثرت في الفكر الديني ، وجعلته اكثر واقعية واهتماما بشؤون الدنيا ، كما ان الآفاق الجديدة الواسعة اضعفت الثقة بالكنيسة وتعليمها ، مما مهد الجو لتقبل افكار « الاصلاح الديني » •

الفصل الرابع

النهضـة الاوربيـة

التعريف بالنهضة :

لقد أشرنا في التمهيد « للعصر الحديث » ، وخلال الحديث عن المظاهر الفكرية في اوربا في اواخر القرن الخامس عشر ، ان فكر الانسان الاوربي شرع ينفض عنه عقلية العصور الوسطى ، ويتملص تدريجيا من معظم مظاهر تراثها • ان نمو هذه الحركة الثورية التحررية في الفكر ، وفي جميع مظاهر النشاطات الانسانية ، هـي بايجاز ما يمكن ان يطلق عليه اسم « النهضة الاوربية » •

ان الصورة التي لدينا عما يسمى « بالنهضة » في اوربـا ، رسمها بالدرجة الاولـى المـؤرخ الفرنسي « ميشله Michelet . » عـام ١٨٥٥ والسويسري « بوركهارت Burckhardt » عام ١٨٦٠ • فكلاهما جعل من « النهضة » مرحلة من التاريخ الانساني تتميز بصفات خاصة • فهذه المرحلة بالنسبة اليهمـا تنافس جذريا « مرحلة العصور الوسطى » ، وتحتوي بشكل كامن جميع سمات « العالم المعاصر » الذي عاشا ضمنه في القرن التاسع عشر • ففي نظر «بوركهارت» ان هذه المرحلة هي من فكر الشعب الايطالي المستيقظ ، الذي وعى نفسه • فهي إذاً نتاج في العقلية ، أو بتعبير آخر ، ان « النهضة الاوربية » كما اسلفنا القول هي خروج اوربا على عقلية القرون الوسطى ، والانطلاق نحو مسار جديد فـي التفكير • « فالكنيسة المسيحية » ممثلة بالبابا ، ورجال الديـن ، كانت مسيطرة بتعاليمها على الاوربيين ، وكان حملة الثقافة والعلم الوحيدون هم رجال الدين ، فمنهم العلماء ، ومنهم الفلاسفة • وكانت كلماتهم هي الثقة والحجة فكل ما يقولونه

صحيح ، وما يأمرون بـه يطاع طاعة عمياء • وكان هذا في الواقع عائقا في ارتقاء العلوم ، والمعارف • لان العلم عندهم هو ما وجد في الكتب المقدسة ، التي كان لهم وحدهم حق تفسيرها • أما الثقافة اليونانية القديمـة ، والرومانية ، فهما ثقافتان وثنيتان عمدت الكنيسة الى حجبهما عن ناس اوربا • وبذلك اغلقت الفكر الاوربي ضمن حواجز الدين ، كما ارادته هي وشرحته ، فقتلت روح البحث والتجديد فيـه •

ولم تكتف بذلك بل عمدت الى النهي عـن التمتع بجمال الحيـاة الدنيوية ونعيمها ، ودعت الناس الى الفقر والتقشف ، بل وتعذيب النفس ، وحرمانها ، لان ذلك هو الطريق الى السعادة الابدية في الآخرة • وبذلك يلاحظ انها تدخلت في كل دقائق حياة الفرد من ميلاده الى وفاته ، وسيرتها ضمن الحدود والقواعد التي ارتأتهـا •

ففي عصر (النهضة) أو (عصر احياء اوربا) نبـذ الاوربيون تدريجيا هـذه التعاليم الكنسية ، وعادوا الى كتب الاغريق ، والرومان القديمة ، والى كتب العرب المسلمين الاصيلة ، او المترجمة عن اليونانية ، يدرسونها ، ويتدارسونها، الى جانب « الكتاب المقدس » ، فبعثوا دراسة فلسفة ابن رشد في مدرسة (بادوا) الايطالية • واثارت هذه الدراسات لهفتهم العلمية للاستزادة ، فشرعوا يبحثون رينقبون عن الكتب اليونانية ، واللاتينية القديمة ، وكذلك عن الآثار الغنية فـي اطار الحضارتين القديمتين • وهـذا ما عـرف باسم « الحركـة الانسانية » أو « الهومانسيم Humanisme» • وهكـذا اتيح للاوربيين تعرف الحضارات الاوربية المزدهرة قبل ظهور المسيحية • وهذا ما فتح امامهم ابواب موازنة هذه الحضارات بحضارة العصور الوسطى ، التي عاشوا فيها ، ومكنهم من الانفتاح على مبادىء ، واتجاهات ، لـم يألفها الفكر البشري في العصور الوسطى • ولعل اهم تلك الاتجاهات ، والافكار ، والمبادىء ، النظر الى الحياة الانسانية علـى انهـا غاية في ذاتها ، وان الانسان مركز لها ، ومقياس لكل شيء فيها • ومن ثـم لا بد من احترام ذاتية الفرد ، والاعتراف بوجوده الكامل : فكرا ، وروحا ، وجسدا ، والاعتراف بحقوقـه : كحرية التعبير عن نفسه في الآداب ، والفن ،والعلم

والدين ، والسياسة ، وربط مركزه الاجتماعي بكفاياته ، ونشاطه الحياتي ، لا بأصله ، ونسبه ، كما كان سائدا في العصور الوسطى • فالانسان إذاً ليس عاجزا امام الطبيعة ، بل هو قادر على كشف اسرارها ، وحل القضايا التي تواجهه في دنياه ، بدلا من الاستسلام للظروف والاوضاع السيئة ، على أمل ان يجد حياة افضل في العالم الآخر •

فانسان عصر النهضة هو « **الانسان الفرد** » المتعطش للابداع ، وللمجد الشخصي ، وللفخار ، وكانت الحقائق الموضوعية التي توصلت اليها « العصور القديمة » ، هي سنده في العودة الى الواقع ، والى اكتشاف العالم الخارجي ، والانسان ، اللذين تجاهلتهما العصور الوسطى ، واحتقرتهما ، وسط النصوص المقدسة ، والتلاعب بالالفاظ • ومن هذا الاتجاه نشأ تذوق « العلوم الانسانية »، والاندفاع نحو البحث ، والدراسة ، وانكباب الانسان على التفكير بمشكلات حياته الدنيوية ، اكثر من استغراقه في بحث القضايا الدينية • ان « الحركة الانسانية » إذاً اكدت على مفهوم (ا لفردية Individualisme) • واشتط الكثيرون في تحقيق هذا المفهوم في الحياة الخاصة ، والعامة ، مما ادى الى نبذ الروابط الاجتماعية ، وسيطرة الاثرة والانانية على النفوس • فالفرد غدا هو نفسه قانونه الاخلاقي الخاص ، ومن ثم نما تشككه بالدين ، وغدا لا دينيا او علمانيا •

وبكلمة موجزة عمل « الانسانيون » على تفسير النصوص اليونانية ، واللاتينية ، والعربية ، وعملوا على كشف ما فكرت به العصور القديمة ، وما فكر به الفلاسفة المسلمون بالانسان ، وبالعالم ، وكيف ادرك الطرفان « فن الحياة » وكيف فهما « الجمال » •

وفي الحقيقة كان « للفردية » التي نادت بها الحركة الانسانية اثرها الكبير في الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من الحوادث التاريخية الكبرى التي تميز مطالع العصور الحديثة اليها • كالثورة الاقتصادية ، والتوسع التجاري ، والتضخم الرأسمالي ، وانحلال الدولة المسيحية الواحدة ، وظهور الدول القومية الحديثة •

فالنهضة اذاً هي المرحلة التي خرجت فيهااوربا العصور الوسطى على ثقافتها الدينية ، ووحدتها السياسية واللغوية ، وتبنت ثقافــة دنيوية ، وعاشت في أطر وحدات سياسية قومية متمايزة ، لهــا لغاتها الخاصة وكياناتها •

ولا بد من الملاحظة مرة أخرى ، أن « النهضة الاوربية » لم تحدث فجأة ، وانما جاءت تدريجيا وعلى مرحلة طويلة امتدت ثلاثة قرون تقريبا (من القرن الثالث عشرالى القرن السادس عشر) • وهذا التحول الثوري في الفكر والفن بخاصة يختلف مــن حيث بــدايته ، ومــدته ، وقوته ، من دولــة اوربية الى اخرى • فبينما ظهرت تباشير النهضة في اوربا ، في ايطاليا منذ القرن الثالث عشر ، وبلغت اوجها في القرن الخامس عشر (الكواتروشنتو) ، واوائل السادس عشر • فان دولا مثل فرنسا ، واسبانيا ، وانكلترة ، وهولاندة ، لم تستجب للتطورات الجديدة الا في أواخر القرن الخامس عشر • ولم تثمر النهضة ثمرا يانعا الا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حيث كانت اندفاعة النهضة في ايطاليا قد اخذت تضعف ، وتألقها يخبــو •

ويمكن ان يلاحظ الى جانب ما ذكر سابقا ، ان كل امة اوربية اشتهرت فــي الحقيقة بمظهر من مظاهر تلك النهضة : فتميزت ايطاليا بالنهضة الادبية ، والفنية ، والمانيا بالنهضة الدينية او (الاصلاح الديني) • أما في فرنسا وانكلترة ، فقد ظهرت النهضة متنوعة الصور ، وبأطرها الادبية والفنية ، والدينية ، والعلمية •

العوامل التي ادت الى ظهور النهضة :

لا بد للدارس ان يتساءل عن الاسباب التي ابرزت هذه التطورات في اوربا في هذه الحقبة الزمنية • وفي الواقع يمكن ان يرجع انبثاق النهضة الى العوامل الآتيــة :

اولا ـ اثر الحضارة العربية الاسلامية :

فقد قال المؤرخ « غوستاف لوبون »[1] لولا الحضارة العربية الاسلامية لتأخرت النهضة في اوربا عدة قرون • وبالفعل ، لقد كان لاتصال اوربا بالحضارة العربية الاسلامية الاثر الكبير في تلك النهضة • فمن المعروف انه بينما كانت الغزوات الجرمنية تستقر على الارض الاوربية في مطلع العصور الوسطى ، وتسدل ستارا كثيفا على الحضارة الرومانية فيها ، كان الاسلام يظهر في شبه الجزيرةالعربية ويمتد بمثله وقيمه الانسانية الرفيعة الى الشام ، والعراق ، وفارس ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند في قارة آسيا ، والى مصر ، والسودان ، وبلاد المغرب في افريقيا، والى الاندلس وصقلية وجنوبي فرنسا وايطاليا وكريت في اوربا • وصهر الفكر الاسلامي في تلك الربوع في بوتقته الخلاقة افضل عناصر الحضارات المعروفة كاليونانية ، والفارسية ، والهندية ، فنمت ((**الحضارة العربية الاسلامية**)) وترعرعت ، وكانت اعظم حضارة عرفتها العصور الوسطى في جميع المجالات • ولم تبق هذه الحضارة حبيسة جدرانها ، بل انها تجاوزت حدود الخلافة الاسلامية والدويلات ، التي اينعت في ظلها ، وشعت على العالم المعروف آنذاك وبخاصة اوربا • ولقد تم التحاك بين الحضارة العربية الاسلامية ، واوربا العصور الوسطى ، عبر اربعة مراكز رئيسية هي :

آ ـ الاندلس التي فتحها العرب في اواخر القرن الاول الهجري/الثامن الميلادي وبقي حكمهم فيها حتى سقوط غرناطة بيد الاسبان في سنة ١٤٩٢ •

ب ـ صقلية وجنوبي ايطاليا اللتان فتحهما العرب في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وامتد حكمهم لصقلية حتى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي •

جـ ـ شرقي حوض البحر الابيض المتوسط الذي شهد نشاطا تجاريا واسعا مع المدن الايطالية ، وحروبا عنيفة بين أوربا والعرب ، في ديار بلاد الشام ، تدعى (بالحروب الصليبية) ، وكان من نتائجها الاولى ، انشاء الاوربيين على ارض تلك الديار ممالك ، استقر بعضها ما يقارب القرنين •

---

(١) « غوستاف لوبون «G. Le Bon» طبيب وعالم اجتماعي فرنسي (١٨٤١ ـ ١٩٣١) ، ومؤرخ له عدة مؤلفات ، منها « حضارة العرب «La Civilisation des Arabes» وقد ترجم للعربية . « وحضارات الهند » و « علم نفس الشعوب » وغيرها .

د ـ جنوبي شرقي فرنسا الـذي اقام فيه العرب المسلمون من ٧٣٧ م والى نهاية القرن العاشر . وتوغلوا منه الى سويسرا عام ٩٣٥ م [١] .

ففي « **بلاد الاندلس** » اينعت الحضارة الاسلامية ، واجتذبت الجامعات الاسلامية فيها ، ومنها جامعة « قرطبة » ، ودور الكتب ، طلاب العلم من اوربا . فوفدوا اليها ليتتلمذوا على علمائها ، ويغترفوا مـن معارفها ، ويتعرفوا الحياة الاقتصادية والفكرية ، للعرب فيها ، بل ومعتقدهم الديني ، ثـم ليعودوا الـى اوطانهم ، حاملين معهم ثمـار ذلك الاحتكاك . ومن هؤلاء الذين درسوا فـي اسبانيـا ، واشتهر اسمهم « الراهب جربير «Gerbert» [٢] ، الـذي أصبح « البابا سيلفستر الثاني » (٩٩٩ـ١٠٠٣) ، والذي كان لـه اثر في الفكر الاوربي الديني ، اذ ينظر اليه على انه من طلائع الاصلاح الديني . كما ينسب اليـه نقل **الارقام العربية** الى اوربا ، التي اوجدت تطورا عميقا في العلوم الرياضية .

ورافق دراسة الاوربيين في اسبانيا المسلمة ، « حركة ترجمة » واسعة للكتب العربية الى اللاتينية : الكتب العربية الاصيلة ، والكتب العربيـة المترجمة عـن اليونانية ، ككتب **اريسطو** [٣] ، **وافلاطون** [٤] ، **واقليدس** [٥] ، **وبطليموس** ،

---

(١) أنظر حول العرب في تلك المنطقة :

G. Le Bon, LaCivilisation des Arabes PP. 323 - 327.
P. Riche, Grandes Invasions et Empires (Vᵉ - Xᵉ) Larousse de Poche Paris 1968. P. 220.

(٢) انظر حوله جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ١٦٣ ـ ١٦٨ .

(٣) **اريسطو** فيلسوف يوناني (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) كـان تلميذا للفيلسوف افلاطون مدة عشرين عاما . ثم اصبح استاذا « لاسكندر المقدوني » . اشتهر بمعرفته الواسعة جدا والعميقة ، ومؤلفاته الكثيرة وكشوفه العلمية المتنوعة . فهو اول من اوجد علم التشريح ، والفيزيولوجيا المقارنة ، والمنطق ، وتاريخ الفلسفة وغيرها . الا انه تميز بالذات في حقل الفلسفة التي تعتمدعلى«الواقعية»

G. L. E. Vol. I. P.571

(٤) **افلاطون** فيلسوف يوناني (٤٢٨ـ٣٤٨/٣٤٧ ق.م) كان من تلاميذ الفيلسوف سقراط ، وقام برحلات كثيرة الى مصر ، وبرقة، وايطاليا الجنوبية ، وصقلية . وفي اثينا انشأ حلقة فلسفية (الاكاديمية) . خلف افـلاطون ٢٨ حوارا Dialogues ومن اهمها (الجمهورية) ، و (القوانين) . وكل (المحاورات) تطرح سقراط وهو يناقش ويجادل .

Ibid, Vol. 8. P. 553.

←

وغيرهم . وتناقل علمـاء الغرب ، وفلاسفتهم ، اسماء الفلاسفة العرب وعلمائهم امثال **ابن سينا** (٦) **وابن رشد** (٧) **والرازي** وغيرهم ، ومعارفهم .

وكانت مدينة « طليطلة » التي سقطت بيد الاسبان عام ١٠٨٠ م ، هي المركز الهام للترجمة في القرن الثاني عشر حيث اسست مدرسة خاصة بذلك فيهـا .

---

(٥) **اقليدس** رياضي يوناني من القرن الثالث ق.م درس الرياضيات في الاسكندرية حوالي ٣٠٠ ق.م وقد عرف بكتابه الشهير (العناصر) ، الذي كان يمثل المؤلف الهندسي النموذجي .

(٦) **ابن سينا** : وهو ابو علي الحسين بن عبد الله ويسميه الاوربيون « آفيسين Avicenne » (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) . ولد بالقرب من بخارى وتلقى علمه فيها . وقد درس الفقه ، والمنطق ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والطبيعيات ، والطب ، والالهيات . وقد نظر اليه في الشرق على أنه امـام العلوم كلها . وكان اثـره في الطب كبيرا وقد الف فيه كتابه (القانون) . كما تميز بالفلسفة وله فيها كتابه (الشفاء) . وقد ترجم الكتاب الاول الى اللاتينية في القرن الثاني عشر (ترجمة جيرار الكريموني) ، وطبع في اواخر الخامس عشر ثلاثون طبعة . وترجم الى معظم لغات العالم ، وبقي اساسا لتعليم الطب في جامعات فرنسا ، وايطاليا حتى أوائل القرن التاسع عشر .

ـ ده بور : ابن سينا . في الموسوعة الاسلامية المعربة . مجلد ١ . ص ٢٠٣ وتعليق محمد ثابت الفندي عليه .

ـ جلال مظهر المصدر نفسه . ص ٢٤٢ فما بعد .

(٧) **ابن رشد** : ابو الوليد محمد بـن احمد . وقـد عرف عند الغربيين باسـم « **افروس** Avirroes » . ولد بقرطبة ٥٣٠ هـ ـ ١١٢٦ م ، وكان جده قاضي الجماعة فيها ، ودرس الفقه والطب ، وانتقل الى مراكش حيث قربـه خليفة الموحدين « ابو يعقوب يوسف » اليه . وولي القضاء باشبيلية ، وقرطبة درس ارسطو وشرح عددا من مؤلفاته . واتهمه بعض الفقهاء بالمروق عـن الدين ، فأحرقت مؤلفاته في الفلسفة . له عدة مؤلفات ، وما يصل منهـا بالعربية « تهافت التهافت » ، وهو رد على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» وبعض شروح على كتب ارسطو . وقد ترجمت كتبه الى العبرية ، واللاتينية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما ترجمت في الخامس عشر والسادس عشر ، وكان لها اثرها الكبير في اوربا حتى منعها رجال الدين المسيحيون فـي القرن الثالث عشر .

ولابن رشد كتاب في الطب يسمى «الكليات» وقد ترجم هو الآخر ، وكان لـه شأنه في اوربا ، وان لم يضارع كتاب (القانون) لابن سينا .

ـ كارادوفو : ابن رشد . في الموسوعة الاسلامية المعربة . ج١ ص ١٦٦ وحاشية جميل صليبا على البحث .

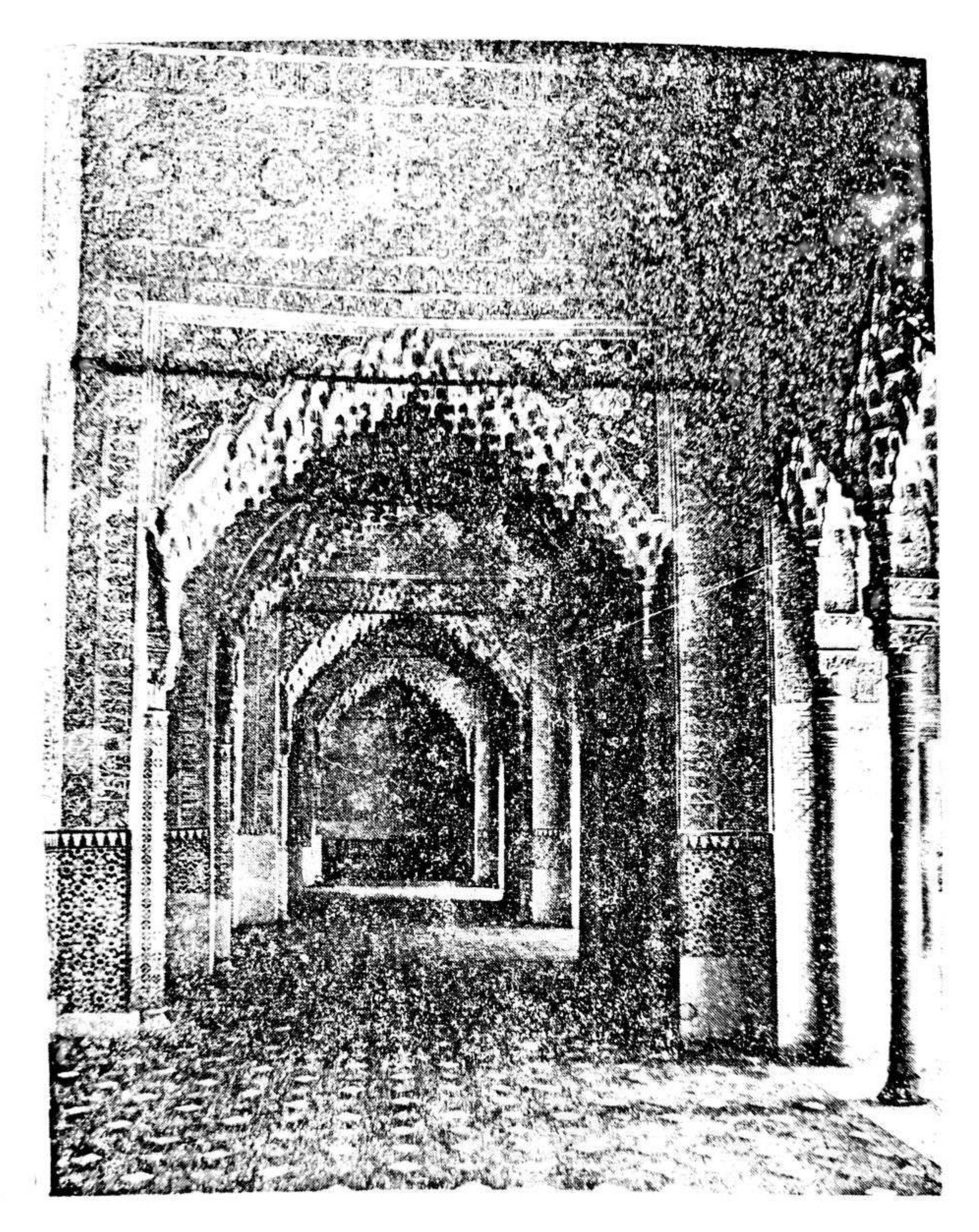
الاعلام : ج ٦ . ص ٢١٢

ومن اشهر المترجمين فيها «جيرار الكريموني» الايطالي الاصل (١١١٤–١١٧٨م).
وقد اتم ترجمة حوالي ثمانين مؤلفا في مختلف العلوم والمعارف •

وبقيت معالم الحضارة العربية الاسلامية بجذورها ثابتة ومستعمقة على الارض الاسبانية ، حتى الى ما بعد قضاء الاسبان والبرتغال على كل النفوذ السياسي العربي فيها • بل ان كثيرا من المنجزات الحضارية العربية ، افادت هؤلاء في كشوفهم الجغرافية التي قاموا بها ، وفي تطوير الحياة الاقتصادية ، وذلك قبل ان يتم نفي بقاياهم من اسبانيا في مطلع القرن السابع عشر • وبذلك تكون «الحضارة العربية الاسلامية » قد لعبت دورا فعالا في الحركة الانسانية الاوربية ، بنقلها التراث اليوناني القديم الى اوربا ، عبر ترجمتها له ، وبايصالها لها فكرها الفلسفي والعلمي الذاتي والمبدع ، وفنها الرفيع • (انظر الشكلين ١٠ ، ١١ كنموذج للفن الاسلامي في غرناطة) •

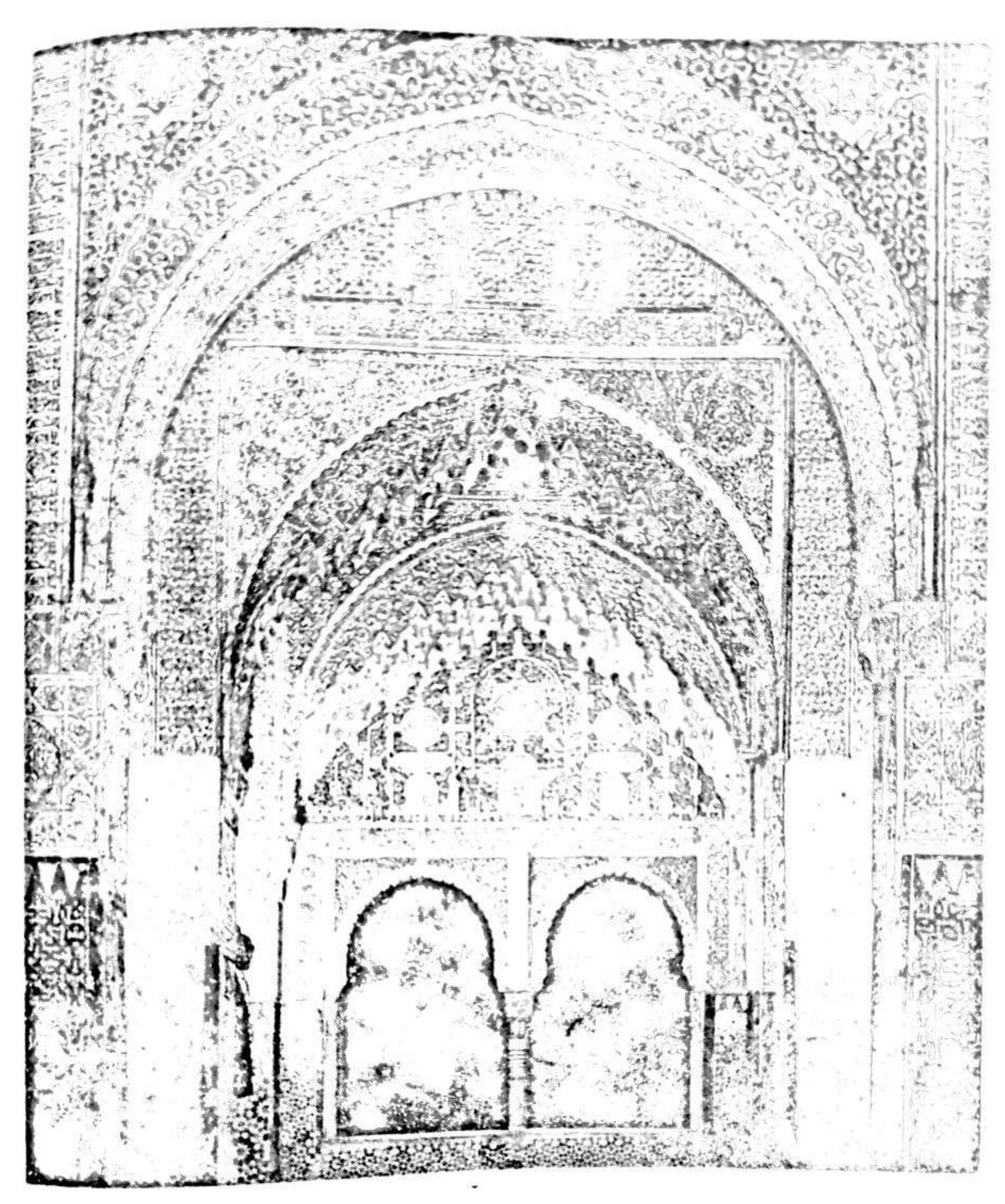
أما في صقلية ، حيث أقام المسلمون ما يقارب مائتين وثلاثين عاما ونيف ، وفي جنوبي ايطاليا مدة اقصر ، فان الحضارة العربية الاسلامية وجدت فيهما مرتعا خصيبا • وعندما انتزع (النورمان) هذه البقاع من العرب ، فانهم لم يعمدوا الى اقتلاع جذور الثقافة العربية المتمكنة فيها، بل انهم على العكس ، حاولوا ان يجتذبوا اليهم ائمة العلماء العرب ، من امثال (الشريف الادريسي) ، الجغرافي ، العربي ، الكبير • كما اسسوا جامعة « نابولي » التي اخذت على عاتقها ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ونشرها في انحاء العالم الغربي ، وكذلك مدرسة (سالرنو) للطب التي اشتهرت فيها شخصية « قسطنطين الافريقي » (١٠٢٠–١٠٨٧ م) •
وقد قام قسطنطين هذا بترجمة بعض الكتب الطبية العربية الى اللاتينية •

والى جانب المسلكين السابقين اللذين تسربت عبرهما الحضارة العربية الاسلامية الى اوربا ، فقد كان هناك الاحتكاك العربي – الاوربي في بلاد الشام ، ومصر ، عن طريق الاعمال التجارية اولا الحروب الصليبية ثانيا • فهذه الحروب كانت على الرغم من هزيمة الغرب فيها نعمة عليهم ، اذ اتاحت للاوربيين ، وبخاصة لاولئك الذين اقاموا في بلاد الشام ابان الحروب الصليبية وبعدها ، فرصة واسعة للاتصال بالحضارة العربية الاسلامية • ومن ثم فانهم اخذوا الكثير عنها في



الشكل -١٠-
قاعة الملوك في قصر غرناطة

النواحي الاقتصادية - وقد اشرنا الى بعضها عند بحث التجارة سابقا - والاجتماعية ، والفكرية ، ونقلوا كثيرا من مؤلفات العرب في العلوم ، والرياضيات،



الشكل ــ١١ــ
من قاعة الملوك في قصر غرناطة

والفلسفة ، وحملوا معهم عند عودتهم الى بلادهم بعض الفنون والصناعات ، كالصناعة الحريرية الراقية والتوسع في صناعة الورق .

اما المسلك الرابع ، الذي تم فيه احتكاك الاوربيين بالعرب والحضارة

العربية الاسلامية ، فقد كان **جنوب شرقي فرنسا** حيث استقر العرب في البروفنس ومقاطعة آرل ، ما يقارب قرنين من الزمن ، وحتى اوائل القرن العاشر ، وتركوا اثرا كبيرا في مجتمع تلك البقاع من الناحية الاقتصادية ، والفكرية ، والاجتماعية . بل ان بعض الباحثين يرون ان شعر التروبادور الذي ظهر في هذه المنطقة كان متأثرا تأثرا كبيرا بالشعر الغنائي العربي وكذلك الموسيقا(١) .

ومن ذلك العرض الموجز يتضح ان الاحتكاك بالحضارة العربية الاسلامية عبر المسالك السالفة الذكر ، بل وعن طريق **الاحتكاك التجاري كذلك مع المغرب العربي الافريقي** نفسه ، كان عاملا اساسيا في تقدم مختلف نواحي الحياة في اوربا ، وفي تحرير اذهان الاوربيين من كثير من الاوهام والخرافات وفي دفعهم في طريق التفتح الحياتي و « الاحيائي » وفي سبيل البحث ، والتنقيب، والتحسس بمظاهر الجمال ، مما مهد لانبثاق النهضة الاوربية .

ثانيا ـ حالة الاستقرار النسبي في اوربا : ولا سيما في غربها وشمالها ، وبدء ظهور الدول القومية ، والملكيات المركزية الاستبدادية المستندة الى البورجوازيات التجارية . ففي القرن الثالث عشر هدأت غارات (النورمان) ، وفي منتصف القرن الخامس عشر انتهت حرب المائة عام ، والانشقاق البابوي ، وظهرت حكومات قوية في الدانمارك ، والنرويج ، وفرنسا ، والسويد ، وانكلترة، واسبانيا . وحتى ترضي تلك الحكومات ، البورجوازية التجارية التي تعتمد عليها، وتفسح لها مجال الارباح التي ترغب بها ، كان عليها ان توفر النظام والسلام في داخل حدودها . ومن ثم فانها عملت بكل ما في وسعها لتجعل القانون يسود فوق العادات والتقاليد المحلية . وهذا الامن النسبي في الدول الناشئة حديثا اوجد الجوا الملائم لكي تنتش بذور النهضة وتنمو .

ثالثا ـ تقدم الحياة الاقتصادية ، ونمو التجارة بخاصة وتزايد الثروة . وهذا قد ظهر مبكرا ، وبشكل واضح في المدن الايطالية ، لسيطرة تلك المدن ، وبخاصة البندقية على تجارة البحر المتوسط ، او بالاحرى تجارة الشرق في اوربا . فعبر

(١) انظر حول الموضوع ، جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٥٢ فما بعد .

هذه التجارة كانت تنقل المنتوجات من الشرق • ولا سيما التوابـل • والحرير ، الى اوربا • وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه هذه التجارة الهامة ، فـاز الدول القومية الناشئة حديثا ، كانت تعمل على تنمية اقتصادها الخاص ، وزيادة حجم التبادل التجاري فيها ، وفيما بينها ، وتسعى الى توسيع اسواقها • ولقـد ادى النمو التجاري هذا الى قوة الطبقة البورجوازية الرأسمالية ، مما مهد للانهيار التدريجي للنظام الاقطاعي ، المستند الى الارض والزراعة ، والذي كـان مـن المؤسسات الرئيسية في العصور الوسطى • ومن ثـم قيل « ان مجتمع النهضة هو صنيعة نمو البورجوازية ، والرأسمالية ، والملكية الاستبدادية المطلقة » • اذ عملت هذه « الطبقة الجديدة » على تشجيع العلـم ، والادب ، والفن ، مستفيدة مما تملكه من مال ، ومنافسة بذلك لطبقة النبـلاء الاقطاعيين المتدهورة اقتصاديا واجتماعيـا •

رابعا ـ تشجيع الرأسماليين والحكام : من ملوك ، وامراء ، وبابوات ، لرجال الفكر الحديث والادب والفن • فقد تباهى هؤلاء وتباروا في ان يجعلوا اماراتهم وممتلكاتهم وقصورهم كعبة يؤمها كبار الادباء ، والفنانين • وتنافسوا في اقتناء الكتب النادرة ، والمخطوطات القديمة ، اليونانية ، واللاتينية ، والعبرية ، والعربية • وارسلوا البعثات الى الشرق للبحث عن تلك المخطوطات ، واقامـوا المكتبات الثمينة • واشتهر في هذا الميدان أمراء فلورنسة (آل مديتشة) ، وامراء ميلانو (آل سفورزا) ، وملوك فرنسا واشهرهم (فرنسوا الاول) في القرن السادس عشر (١٥١٥ ـ ١٥٤٧) ، الذي انشأ مكتبة ضخمة عرفت فيما بعد في باريس باسم « المكتبة الوطنية » ، كما اسس « كلية فرنسا » لتكون مركزا حرا للدراسات الانسانية ، والبحوث العلمية • أما في انكلترة فان ملوكهـا (آل تيودور) لـم يكونوا اقل حماسة للادب والفن من ملوك فرنسا ، واشتهر منهم الملك (هنـري الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) ، والملكة اليزابيت (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) •

ولقد سار (البابوات) في روما على النهج نفسه فعملوا على تقريب الادبـاء والفنانين اليهم واستعانوا بهم ، لاحاطـة انفسهم بمظاهر العظمة ، والابهـة ،

ومنافسة الامراء ، والملوك • ومن اشهر هؤلاء البابا « جول الثاني » (١٥٠٣ – ١٥١٣) و « لئون العاشر » (١٥١٣ – ١٥٢١) •

خامسا – النهضة المبكرة في ايطاليا : ومن عواملها الكبرى ، الى جانب ما ذكر سالفا في اطار العوامل العامة ، **مجد ايطاليا التاريخي** لما كانت مركزا للحضارة الرومانية القديمة : فأرضها تعج بالآثار الفنية الغابرة ، ومكتبات اديرتها زاخرة بالمخطوطات اللاتينية واليونانية السالفة • فما كان على الايطاليين ، وقد تفتحت اعينهم على نمط جديد من الحياة ، والتفكير ، الا ان يبحثوا ، وينقبوا ، ليبعثوا تراث الاجداد ، ويحتذوا حذوه •

والى جانب هذا ، فان انتقال كثير من العلماء والمفكرين الاغريق الى ايطاليا ، حاملين معهم العديد من المخطوطات الاغريقية ، بعد فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، جعل الايطاليين بتماس مباشر مع الفكر الاغريقي • هذا بالاضافة الى ان بلاد اليونان نفسها قريبة من ايطاليا ، وصلات التجاور ، والتزاور ، والتجارة ، قائمة بين الطرفين مما سهل على الايطاليين نقل التراث اليوناني في الاداب والفنون •

فايطاليا ، وقد سبقت غيرها من البلدان الاوربية في ميدان النشاط الاقتصادي والاهتمام بالحياة الانسانية الواقعية المادية ، من ترف وبذخ ، وتحرر ، وبالحياة الادبية والفنية ، فانها كانت مركز اشعاع حضاري لبقية اجزاء اوربا ، وبخاصة انها كانت محجا للكثير من المسيحيين على اعتبار انها مقر للبابوية زعيمة المسيحية • وبذلك انتقل اليها طلاب الادب ، والفكر ، والفن ، ليدرسوا في جامعاتها العديدة (جامعة سالرنو ، وبولونيا ، وسيين ، وبادوا ، وبافيا ، وتورينو وغيرها) ، ويطلعوا على معالم اليقظة فيها ، ثم يعودوا منها الى بلادهم ، حاملين معهم بذور الفكر الجديد ، وتأثيرات المدارس الادبية والفنية السائدة فيها ، والكتب المطبوعة ، كما ان مفكري ايطاليا وفنانيها قصدوا بالمقابل ، البلدان الاوربية ، فنشروا فيها افكارهم وآدابهم وفنونهم •

سادسا – استخدام الحروف المتحركة في الطباعة ، ونمو صناعة الطباعة كما

اسلفنا القول ، ولا سيما في البندقية ، مما ادى الى طباعة الكثير من الكتب بسرعة ودقـة ، ونفقات قليلة ، وسهل سبل تداولها لمعظم فئات الشعب • فوصلت مؤلفات الفلاسفة ، الاغريق والعرب • الـى ايـدي الناشئة ، وكذلك الكتاب المقدس ، فتعرفوا الافكار السائدة في الحضارات الاخرى ، واصول الكتاب المقدس ، كما تضاعف نشر الكتب التي تتحدث عن الفن القديم •

مظاهر النهضة :

١ ــ **النهضة الفنية وتمثلت بولادة فن جديد ،** تبدى بخروج فن التصوير ، والنحت ، والعمارة ، والموسيقى ، عن مألوف فن العصور الوسطى • ولقد ولد هذا الفن الجديد في ايطاليا • وكان بالنسبة لمبدعيه ، هو « الاحياء » للفن الحقيقي الذي اختفى منذ العصور القديمة • وكان (الفلورنسيون) اول من ثـار على التقاليد الفنية السائدة في العصور الوسطى ، واحتقروا (الفن الغوطي)[1]وعادوا الى البنى الفنية التي قلدوا بها العصور القديمة •

ولكن الفن الجديد لم ينتصر مباشرة ، اذ ظلوا يبنون حتى في القرن السادس عشر ، كنائس غوطية في انحاء اوربا ، كفرنسا ، واسبانيا ، وحتى في ايطاليا ذاتها أم « الفـن الجديـد » [2] •

ولقد استخدم الفنانون « الحديثون » تقنيات جديدة : **ففـي فن العمارة** استعادوا طرائق البناء عند الرومان ، وفي **النحت** ، استندوا الى معرفة متقدمة

---

(١) هو الفن الذي ازدهر في اوربا بين القرن الثاني عشر والرابع عشر . والعنصر المميز فيه هـو البنية « الحبكية « Ogival » » للسقف ، اي ان السقف يكون على شكل حبك او عصيبات بارزة تتصالب مع بعضها ، وتكون زاويـة ينتهي اطرافها بصورة عامة على خط المراكز . كما اعتمد هذا الفن المعماري على الاقواس المنكسرة ، وعلى الدعامات الضخمة بدل الاعمدة في داخل الكنائس بصفة خاصة . وفي الخارج هناك شبكة من الدعامات ، تسند الجدران والسقف وتنتهي بانصاف أقواس ، كما يتميز بنوافذه المغطاة بالزجاج الملون ، الـذي يسمح بدخول النور الى الصالات الواسعة . وفي الواقع كان « الفن الغوطي » في عمارة الكنائس عملاقا بسعة قاعات كنائسه ، وارتفاع اسقفها (٤٢ م في كنيسة اميان في فرنسا) . الا انه يتميز في الوقت نفسه بالانسجام الذي يوحي بالتوازن والانتظام . ومن أشهر الكاتدرائيات المبنية على هذا النمط الفنـي (كاتدرائية شارتر) في فرنسا . كما تميزت الكنائس الغوطية بفني تزييناتها الخارجية التي اعتمدت على تماثيل المسيح ، ومريم العذراء ، والقديسين .

جدا ودقيقة ، للجسم البشري الذي لم يترددوا في تمثيله عاريا • وفي الرسم ، اعتمدوا على قوانين « علم المنظور » ليعطوا انطباعا بالعمق ، كما استخدموا الرسم بالزيت الذي كان «الفلامانيون» قد شرعوا باستخدامه منذ القرن الخامس عشر ، والذي يعطي للصورة ملامح ارق واغنى • وفي الوقت ذاته ظهر (المنظر الطبيعي) في الفن ، وبرزت صورة الحياة الانسانية العادية ، بدل قصر الرسم على الامور الدينية كما كان عليه الامر خلال العصور الوسطى • واقتبس الفنان احيانا موضوعاته من الميتولوجيا اليونانية ، والاساطير الرومانية •

ان هذه العودة الى الفن القديم ، الذي اتخذ نموذجا منذ الآن فصاعدا ، هي (احياء أو نهضة) ، طالما كان هناك ، كتاب ، وفنانون ، وجمهور ، يحسون انهم قد وجدوا في هذا الفن تراثا جميلا واصيلا ، خاصا بهم ، وتقليدا نشأ على الارض الايطالية ، وحطمت جزءا منه الغارات الجرمنية ، وغضبة المسيحية ضد كل ما يمكن ان يذكرّ بالوثنية فيه •

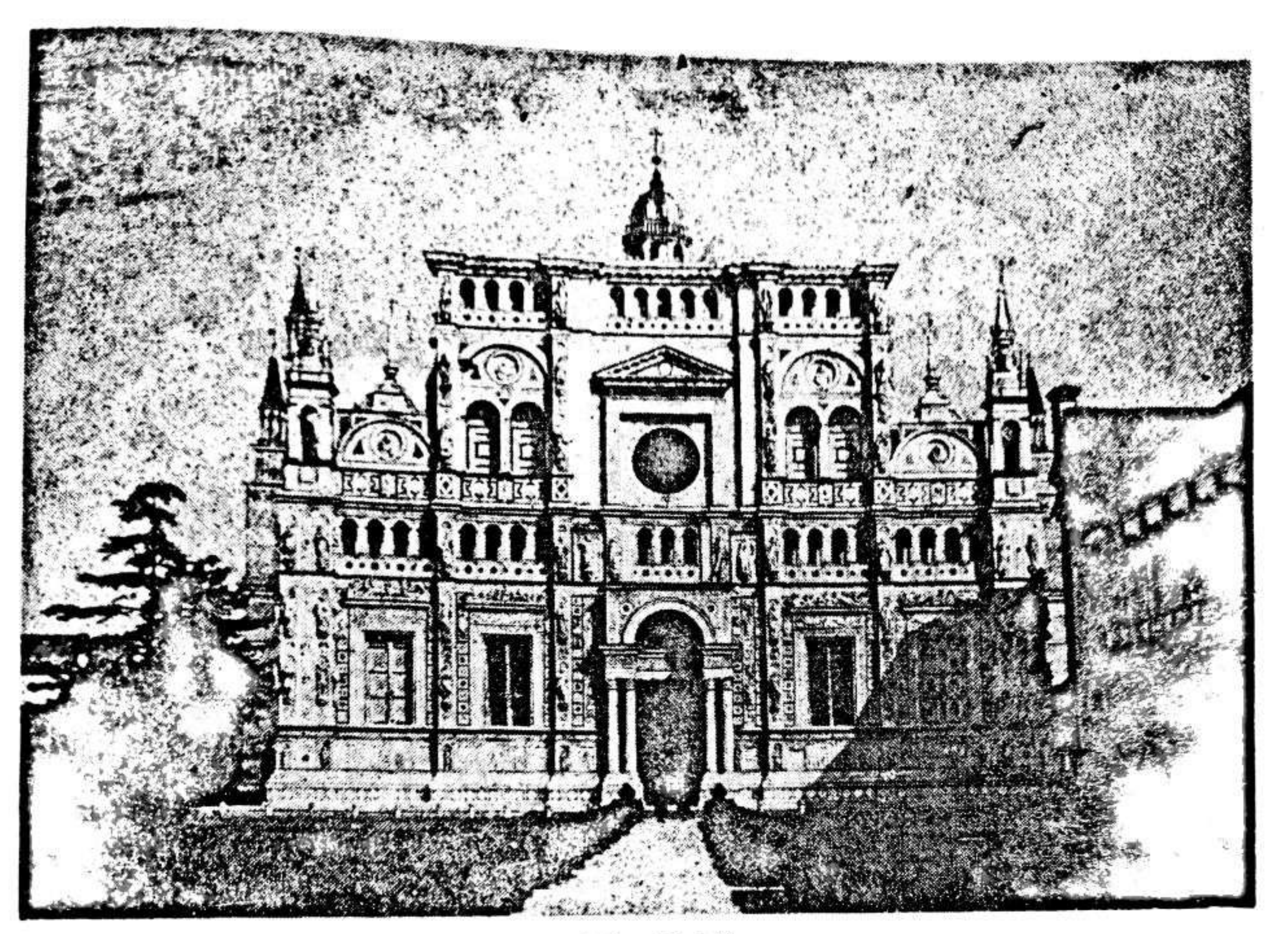
لقد اتجه الاهتمام نحو آثار الابنية الرومانية ، وشرع بالتنقيب عنها ، وسعى الكثيرون لتكوين مجموعات من الآثار القديمة لديهم •

وهكذا عمل المهندسون المعماريون ، على اقامة القصور الشامخة للامراء ، والملوك والاغنياء البورجوازيين ، وعلى بناء الكنائس الرائعة ، وطبقوا فيها اصول فن العمارة الروماني ، واليوناني[1] (انظر الشكل ١٢ ، ويمثل كنيسة باقيا) ، وزينوها جميعا باجمل (الفريسكات) • فعلى طلب من البابا (سيكستوس الرابع) ، رسم (رفائيل) ، (اريسطو) ، و (افلاطون) ، على جدران الفاتيكان • إذ في اعتقاد ذلك الوقت كان القدماء هم الذين اكتشفوا القوانين الخفية للانسجام الجمالي ، التي خلق الله العالم بموجبها •

ولم يرتق هذا الفن الجديد ، في الواقع ، في ايطاليا ، الا بفضل الظروف

---

(١) كان رائدهم ما كان قد الفه المهندس المعماري الروماني (فتروفيوس Vitruvius) في القرن الاول ق.م ، والمسمى «De Architectura» وقد نشر هذا الكتاب عام ١٤٨٦ ، وتتالت طبعاته في القرن السادس عشر .
G.L.E. Vol. 10. P.859.



ـ الشكل ١٢ ـ

كنيسة باقيـا

الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، السائدة في شبه الجزيرة . لان كـل (مدينة) ، كانت تريد ان تتألق اكثر من جارتها ، وكل اسرة كبيرة تود ان تبـز الاخريات . وهذا يشرح ميلاد مفهوم تشجيع الامراء ، والبابوات للفن ، والادب والعلـم .

ان النهضة الفنية ولدت في **فلورنسة** ، وانتصرت في القرن الخامس عشر (الكواترو شنتو) ، بفضل الدعم المالي والمعنوي لآل مديتشة . وقد كان الفنانون يشغلون مكانة كبيرة في المجتمع ، فقد كـان الامراء ـ كما اشرنا الـى ذلك ـ يقدمون لهم الرعاية الممتازة . وقد اسهم البابوات انفسهم في هذا المضمار ، بـل ان « شارلكان » الامبراطور الروماني المقدس ، و (فرانسوا الاول) ملك فرنسا، كانا يحضران الفنانين الايطاليين الى اسبانيا ، وفرنسا ، مقابل نفقات كبيرة .فالفنان كان اشبه بالبطل ، الذي يفرض نفسه في جميع الميادين : فهو نحات ، ورسام ،

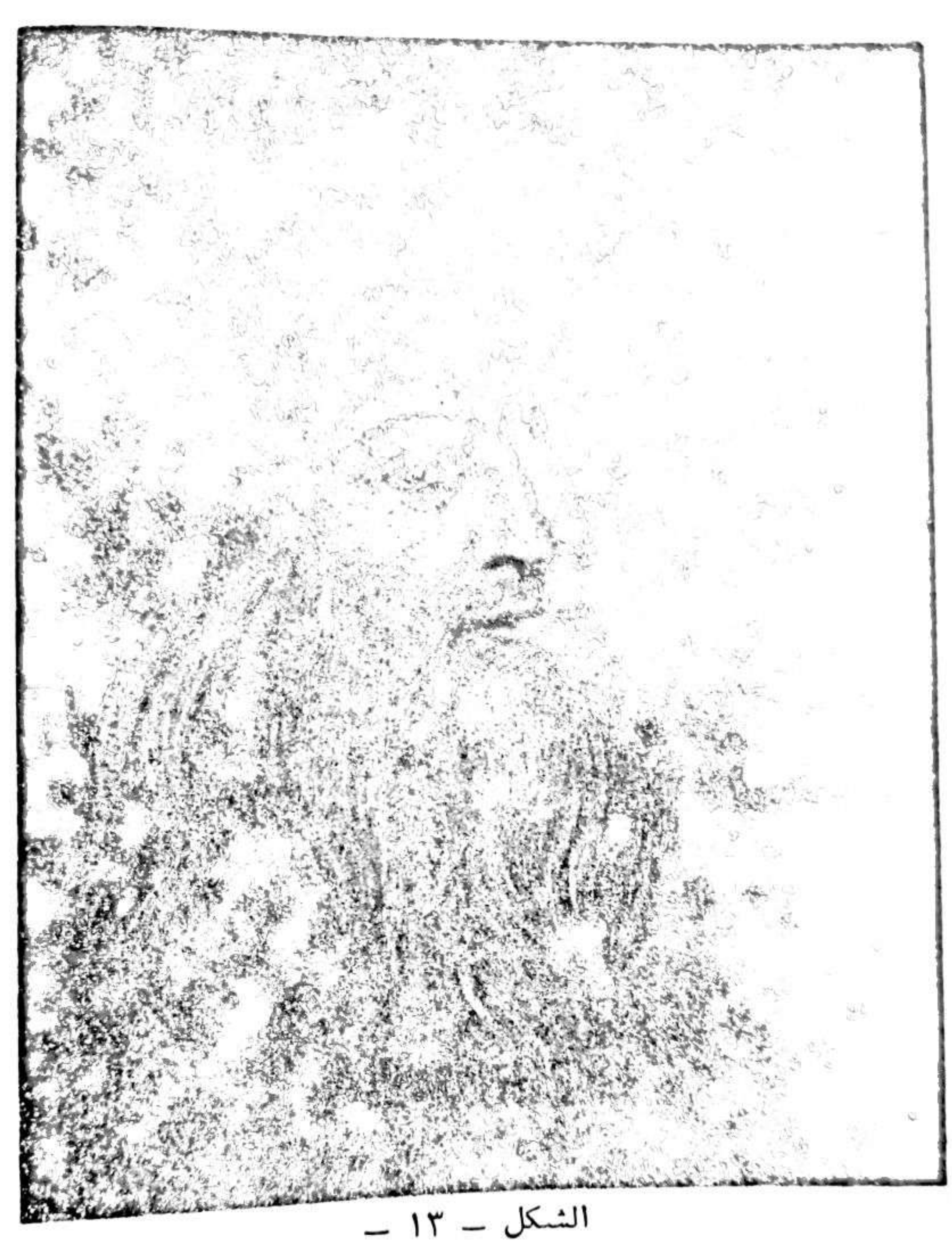
واديب ، واسع المعرفة • وهو يوقع على اعماله ، ويظهر ذاته ، بينما كان لا يفعل ذلك خلال العصور الوسطى ، ولذا فـان معظم الاعمال الفنية كانت خلالهـا مجهولة الهويــة •

لقد تعرفت فرنسا ، عبر « الحروب الايطالية » ، التـي وضعت الفرنسيين بتماس مع الايطاليين ، على هذا الفن الجديد ، واتبع (فرانسوا الاول) خطـة الامراء الايطاليين في حماية الفن ، كما اسلفنا القول •

ولقد انجبت ايطاليا في هذه المرحلة التاريخية فئة من الفنانين ، ظلت اسماؤهم نجوما لامعة ومشعة في قلب الحضارة الغربية ، بل الانسانية ، حتى الوقت الحاضر. ومـن هـؤلاء :

ليئوناردو دافنشي (١٤٥٢ ــ ١٥١٩) الفلورنسي ، ذي العبقرية الموسوعية. فهو رسام ، ونحات،ومهندس، وعالم، وحياته تشبه الاسطورة • (انظر صورتـه بيده في الشكل ١٣) • وقد كان يقول انه بامكانه الوصول الى معرفة حقيقية للعالم بفضل الرسم • وكان تلميذا للفنان (فيروشيو) ، ويهيىء بعناية لوحاته ، ويخط عليها الاشكال ، بالوان مظلمة وفاتحة ، قبل ان يضع الالوان الاكثر حيوية ، وقبل ان يعود الى تحديد الحواف الرئيسية للاشكال بالرسم • وكان يحيط رسمه بوشاح اثيري بفضل طريقة التظليل (Sfumato ــشبه الظل) ، التي استخدمها • ولقد شرح هو نفسه طريقته هذه بقوله : « ان نورا شديدا لا يعطي ظلالا جميلة • فاحذر النهار الشديد الضياء • وتأمل اثناء المغيب ، او خلال الضباب ، وعندمـا تكون الشمس ملفعة بالغيوم ، سحـر الرجال والنساء ورقتهم ، اولئـك الرجال والنساء ، الذين يمرون من الطريق المظلمة ، بين الجدران السوداء للمنازل ، فهذه هي افضل اضاءة • فليختنف ظلك شيئا فشيئا في النور ، وليتلاشـى كالـدخان ، او كأنغام موسيقى عذبة • تذكر ان بين الضياء والظلمة مرحلة وسطى ، تأخذ مـن الاثنين : فتكون ضياء مظللا ، او نهارا قاتما »[1] • ويلاحظ ان فنه كله رقة ،

(1) Dupâquier et Lachiver, Op. cit, P. 32.



الشكل — ١٣ —

ليئوناردو دافنشي بريشته

ونعومة ، ودقة ، واثيرية . ومن سوء الحظ ان رسومه لم تصل الينا محفوظة حفظا حسنا . ومن اشهر لوحاته : (البشرى) ، وهي من اول اعماله ، وقد رسمها عام ١٤٧٢ ، و (القديسة أنـا والعذراء) (الشكل ١٤) ، و (الجوكوندا) ، و (العذراء عند الصخور) و (الاله باخوس) (اله الخمرة عند اليونان) ، وفريسكة



الشكل ـ١٤ـ
القديسة حنّا والعذراء
(ليئوناردو دافنشي)

« العشاء الرباني الاخير » ، في مطعم (دير القديسة مريم) في ميلانو ، شمالي ايطاليـا •

وفي ميلانــو ، حيث استدعاه الدوق (لودوفيك لومــور (Ludovic Le More ابتدأ بصناعة تمثال ضخم لـ (فرانسوا سفورزا) ، والد الدوق • لقد كان مقررا

ان يكون ارتفاع هذا التمثال ، الذي عمل به ستة عشر عاما ، ثمانية امتـار ، الا انه لم ينجزه ابدا .

ولقد عمل في **ميدان الهندسة** عملا طويلا ، ومبدعا : فقد اهتم باقامة قنوات على انهار في ايطاليا ، وحلم بحفر قناة في فرنسا على نهر (السولونيو) ، عندما استدعاه (فرانسوا الاول) اليها . وقـد سجل ملاحظاته الهندسية في دفاتـره ، وخط رسوم مشاريع عديدة ، وتصور كل انواع الآلات وارسى قواعد الميكانيك ، واستشف حركات الارض . لقد درس الجيولوجيا ، والحيوانات ، والنباتات ، وشرح جثثا ، مما سمح له ان يدرس العضلات دراسة دقيقة طبقها في رسومه .

وقد انطلق من ذهنه كثير من الاختراعات المعاصرة ، التي كانت صعبة التطبيق في زمنه ، فقد فكر في جعل ما هو أثقل من الهواء يطير في الجو ، وقد سبقه الى ذلك العالم العربي الاندلسي (عباس بن فرناس)(١) . وفكر في الغوص في اعمـاق البحار، واحداث ثورة في « فن الحرب » ، عندما أشار الى آلات جديـدة ، « كعربة الهجوم » ، او ما يشبه الدبابة . فقد ذكر في احدى رسائله ما يلـي : « سأصنع عربات مغطاة ، لا يمكن ان تتأثر بالهجوم عليها ، وهي قادرة علـى التوغل بين صفوف الاعداء بمدفعيتها ، وان تخترق أي شكل من اشكال الجيوش مهما كان عددها ، ثم يتبعها المشاة دون عقبات أو خسارة (٢) » .

وشلت يده اليمنى في آخر حياته ، وتوفي عام ١٥١٩ في قصر (كلو) ، قرب

---

(١) **عباس بن فرناس** عالم ، وفيلسوف ، وشاعر ، وفلكي ، من الاندلس . عـاش في قرطبة وتوفي عام ٢٧٤ هـ/٨٨٧ م . وعاصر الخليفة الاموي عبـد الرحمن الثاني بن الحكم . اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة في الاندلس وصنع (الميقاتة) ، لمعرفة الاوقات ، واراد ان يطير نفسه ، فاكتسى بالريش وصنع له جناحين ، الا انه لم ينجح ووقع .
الاعلام . ج ٤ . ص ٣٧ .

(٢) Dupâquier et Lachiver, Op. cit, **P.33.** كما اشار في رسالة وجهها عـام ١٤٨٢ الى دوق ميلانو ، ان لديه اختراعات عديدة ، مثل نموذج لجسور خفيفة ، ومتينة ، وسهل نقلها ، لمتابعة العدو او الهرب منه ، وانه قادر على افراغ المـاء من الخنادق عند حصار مكان ، وبناء جسور عديدة ، وآلات اخرى ضرورية لعملية الحصار .

(امبواز) في فرنسا • ولم يستطع ان يكون له مدرسة في فلورنسة ، لانـه لـم يعش فيها وقتا طويلا • الا انه ليس هناك اليوم من ينكر عبقريته الموسوعية ، وفعالياته العملاقة • ففي كثير من النواحي يبدو ليئوناردو دافنشي متقدما على عصـره •

رافائيل Raphael (١٤٨٣–١٥٢٠) :

ويمثل مدرسة (روما) التي ازدهرت في القرن السادس عشر ، بعد ان اصاب مدرسة فلورنسة الفنية الوهن ، بسبب تأثير (سافونارولا) الذي توصل الـى الحكم فيها بعد سقوط اسرة مديتشة عام ١٤٩٤ ، والذي عرف بصرامته الدينية ، وعدم تشجيعه للفنانين ، وحرقه جميع اللوحات المستقاة من مصادر وثنية •

وقد عرف عن رفائيل ، بانه كان منفتح الذهن ناعم الملمس (انظر صورته بريشته في الشكل ١٥) • وقد زين « قاعات الفاتيكان » ، وتبنى في رسومه التركيب الهرمي ، العزيز على ليئوناردو دافنشي • وقد عين مهندسا لكنيسة (القديس بطرس) ، وتوفي وهو في السابعة والثلاثين من عمره • وقد تميز فنـه بالتركيب المتين في لوحاته ، وبجمال اللون ، وبالعظمة المقرونة بالرقة • وهـذه الميزات جعلت منه احد كبار الرسامين في ميدان الرسم الحديث • وقد قربه البابا (ليئو العاشر) اليه ، وترك اثـرا طويل الامد في الفنانين الايطاليين • وفي الحقيقة لقد مارس فنـه في (الصورة) ، وفي (الفريسكة) الكبيرة • ولقد اقتبس مـن الفلسفة موضوعات اكبر لوحاته • وتظهر بالذات في (قاعة التوقيع) في الفاتيكان، حيث توحي فريسكاته فيها بمفهوم الرحلة الانسانية نحو الافكار ، والمثل ، ومـن المثل الى الله • فقد زين الجدران باربع لوحات هي (العدالة) ، و (مدرسة أثينا) (الشكل ١٦) ، و (البارناس) ، و (انتصار سر القربان المقدس) • وقـد نظر الى رفائيل على انه يمثل « كمال النهضة » ، وقد لقب بالالهي[١] • وفـي الحقيقة كان سريع الابداع ، وكان يترك لتلاميذه مهمة اتمام معظم رسومه •

---

(1) Milza (P), Berstein (S), et Monneron (J.-L), Histoire des XVIᵉ, XVIIᵉ, XVIIIᵉ siècles - Paris 1970. P. 33

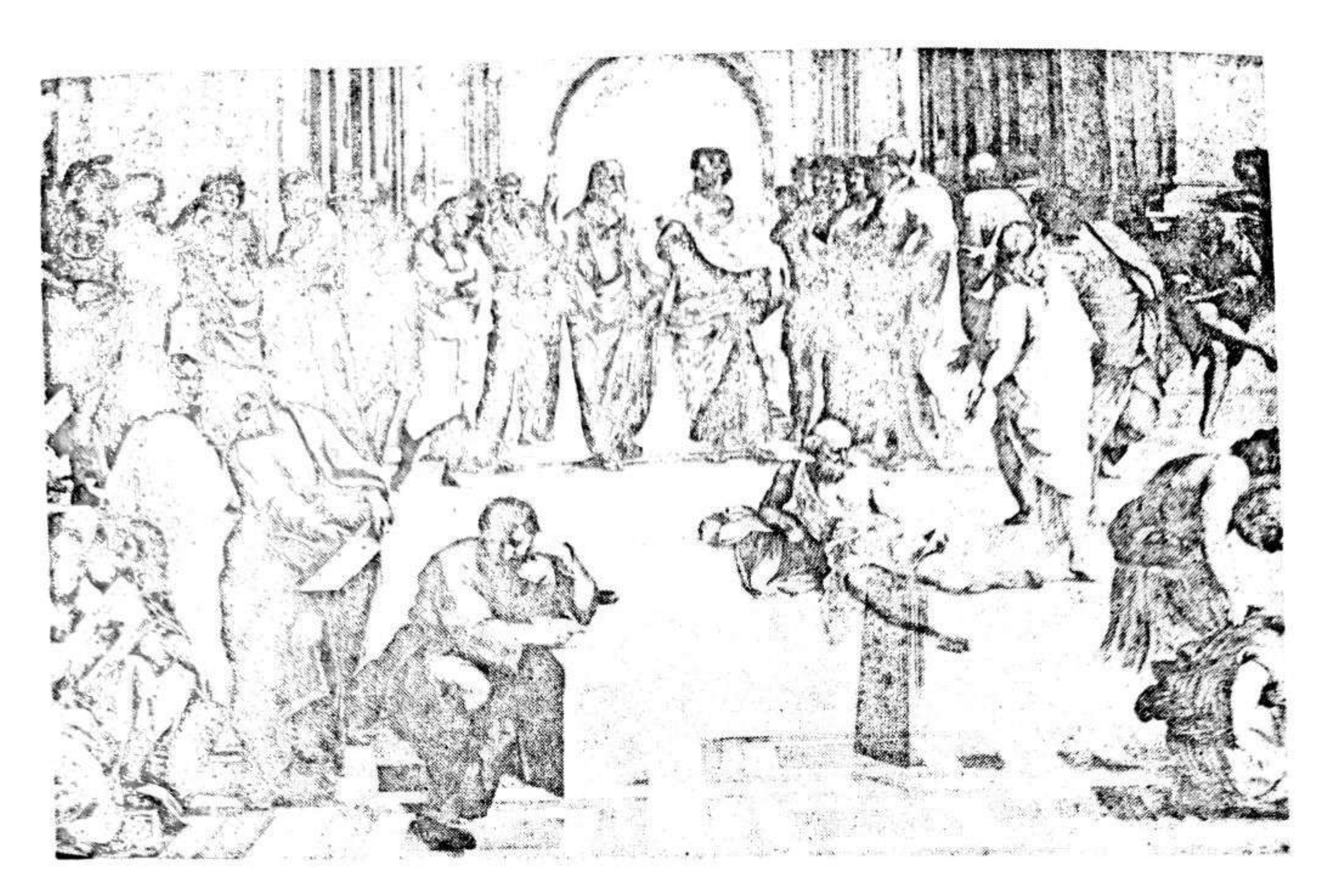


الشكل ــ١٥ــ

الفنان رفائيل

ميكل ــ آنج (انجلو) : انه مثل ليئوناردو دافنشي عبقرية عالمية ، وقد عاش بين عامي (١٤٧٥ــ١٥٦٤) • وكان نحاتا بالدرجة الاولى ، ورساما ، وشاعرا، واسمه بالايطالية (ميكيل ــ آنجلو بئوناروتي) • (انظر صورته بريشته في الشكل ١٧) •

ولد في « جهمورية فلورنسة » • ولقد لفت انتباه (لورنزو الفاخر دو مديتشة)



الشكل ــ١٦ــ
فريسكة مدرسة اثينا
(رفائيــل)

منذ سن الخامسة عشر ، فرعاه • وفي عام ١٤٩٦ كانت اقامته الاولى في رومـا ، حيث نحت فيها تمثالا للشفقة (البيتا Pieta) ويمثل العـذراء ، وهي تحمل جسد المسيح • وهو موضوع مـن موضوعات العصور الوسطى ، ولكن ميكيل آنج) عرف كيف يبث فيـه قوة رائعـة مع حنان جديـدين • وعند عودتـه الى فلورنسة نحت التمثال العملاق للنبي (داوود) ، الذي وضع في ساحة قصر الامير وكان من قطعة رخام واحدة •

وقد استدعاه البابا « جول الثاني » عام ١٥٠٥ ، وكلفه بصنع التماثيـل التي يجب ان تزيـن الضريح الفاخر ، الـذي اوصى بـه هذا البابا لنفسه ، في كنيسة « القديس بطرس » • وعمل في ذلك اربعين عاما دون ان ينتهي • الا ان بعض المنجز مما نحت ، هو من اقوى ما نحت في الفن الحديث ، ولا سيما تمثاله



الشكل -١٧-

الفنان ميكيل - آنجلو

الضخم (موسى) ، وهو مستند الى الواح شريعته • (انظر الشكل ١٨) • ولهذا التاريخ يرجع تمثاله (العذراء وطفلها) •

وكانت طباعه صعبة ، فتخاصم مع البابا (جول الثاني) ، الا انه وافق على تزيين سقف كنيسة (السيكستين) ، على الرغم من انه لم يكن لديه أية



الشكل ــ١٨ــ
تمثال النبي موسى
(ميكيل آنجلو)

تجربة في (الفريسكة) . وكان السقف بطول ٤٠ م ، وعرض ١٣ م ، وكان ميكيل آنج يعمل ببطء ، وهو معلق على صقالة ، وتنتابه الشكوك ، والوساوس ، وهو في مشاحنات دائمة مع البابا ، حتى انه منعه اخيرا من دخول مكان عمله . وبعد اربعة اعوام (١٥٠٨ــ١٥١٢ م) ، انجز العمل . وفي احاطة فنية هندسية ، رسم ميكل آنج « الفصول الدرامية للخلق » ، مفسرة تفسيرا جديدا ، ونقل الى الرسم رؤياه القوية كنحات . ان لوحة « خلق آدم » مثلا ، وهي اشهر فريسكاته ، يظهر فيها آدم ، ويده تلامس يد الخالق ، ليستمد منه القوة والصفاء . ولكن ما ان ابتعد عنه حتى كان الشقاء والخطيئة له بالمرصاد (انظر الشكل ١٩) .



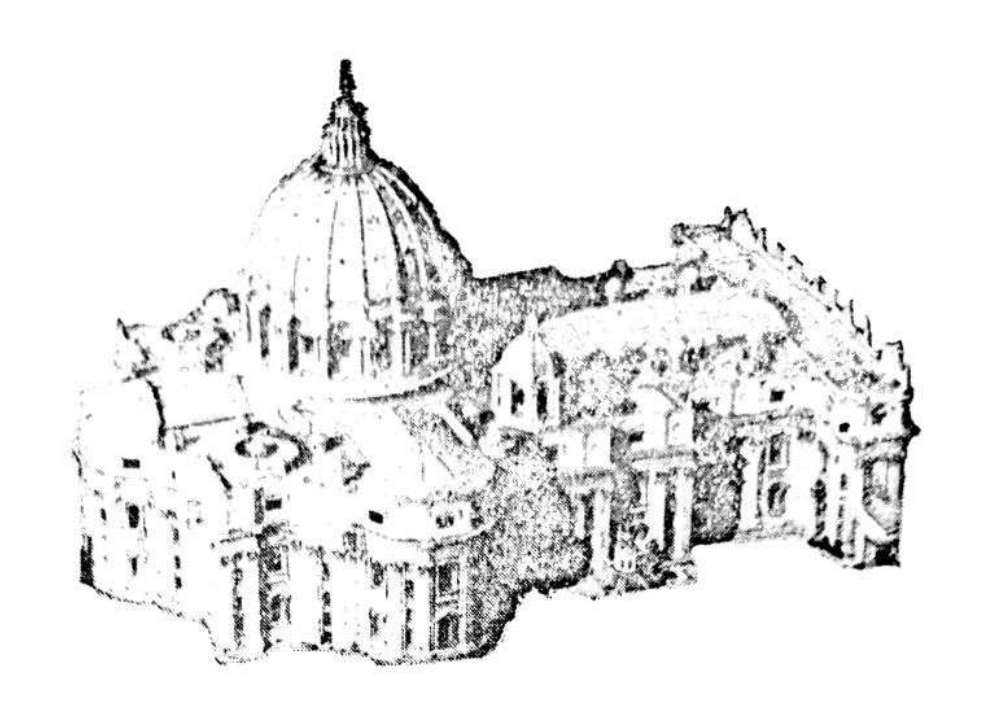
الشكل ـ١٩ـ

فريسكة خلق آدم (من سقف كنيسة السيكستين)

(ميكيل ـ آنجلو)

وقد قام ميكيل آنج بعد ذلك بأمر من البابا (كليمـان السابع) ، بنحت اضرحة (لورنزو مديتشة) ، و (جوليان مديتشة) في فلورنسة .

وكان في الثانية والسبعين من عمره ، عندما اسلمه البابـا توجيـه الاعمال المعمارية في كنيسة القديس بطرس . وبذلـك خلف (برامانت) ، الذي وضع المخطط الرئيسي ، وكذلك (رفائيل) . فاقام فوق السقوف المقببة قبة عملاقة بقطر ٤٢ م وارتفاع ١٢٣ م (انظر الشكل ٢٠) .



الشكل ـ٢٠ـ
قبة كنيسة القديس بطرس
(ميكيل ـ آنجلو)

ان اعمال ميكيل آنج تشع عظمة تتجاوز الانسان وتتدفق منها رهبة ،وجدية قد تترجمان طبيعته الفلسفية ، وطباعه الحزينة ، وكان يقول : « ان ألف لذة لا تعادل ألما واحدا » •

مدرسة البندقية :

لا بد ان يفرد لمدينة (البندقية) مكان خاص في الدراسة الفنية ، اذ ان غناها الاقتصادي ، ووجودها كدولة مستقلة عريقة في ايطاليا ورغبة تجارها النبلاء الذين كانوا يقودونها ، في اظهار تألقها ، وعزلتها النسبية عن البر الايطالي ، وبناءها الخاص على البحر ، وعلاقاتها مع الشرق ، كل هذا ، جعل الفن فيها يزدهر ، ضمن خط اصيل ، مغاير لخطوطه في باقي ايطاليا • علما بأن « النهضة » قد تأخرت فيها قليلا عن بقية المدن الايطالية ، وظلت تتابع تقاليدها الوسيطة ، حتى بدايات القرن

السادس عشر • الا ان فنانيها ومنهم ، (جيوفاني بليني [1])، استخدموا مبكرين التقنيات الفلامانية في الرسم ، مما اعطى لفن البندقيــة مظهرا شاعريا جديــدا : انسجام رقيق في الالوان ، واشراقة في المناظر ، ونعومة حزينة على الوجوه •

ولقد ذهب تلامذة (بليني) بعيدا في قبول (الفن القديم) ، وبحثوا عــن ايجاد جو خاص بكل موضوع ، ومن اشهر هؤلاء (تيسيان Titien) ١٤٧٧ـ ١٥٧٦) الذي رسم صورا عديدة لفينوس ، ولعدد من الاشخاص ، تدعوللاعجاب ومنها صورة الملك فرانسوا الاول ، (الشكل ٢٢) ، (انظر صورته بريشته فيالشكل ٢١)• وقدم ايضا مركبات فنية رائعة • وكان استخدام اللون لديه ، استخداما حارا، ومبدعا ، وجديدا ، بحيث فتح الباب لظهور (فن الباروك) ، الذي ازدهر فــي القرن السابع عشر ، وبشر من بعيد ببعض اشكال الرسم المعاصر ، كما فعــل (لوتنتورة Le Tintoret) (١٥١٨ـ١٥٩٤) ، الذي تفيض لوحاتــه بالحركــة والتوتر الدرامي •

وفي ميدان الفن المعماري تمثل الكمال الكلاسيكي في انتاج الفنان «بلاديو Palladio » ، في الكنائس ، والقصور ، التي شيدها • وقد ألف كتبا في الهندسة المعمارية ، بقي أثرها حيا مدة طويلة من الزمن •

ويمكن القول ان (مدرسة البندقية) في الرسم بعظمة مناظرها ، وفخامــة هندستها المعماريــة ، وبمعنى الوجود الانساني فيهــا ، وحسية الاشكال ، كانت اساسا (لعلم الجمال الحديث) •

الفن في بقية ايطاليا : وفي ايطاليــا الشمالية ، بين روما والبندقية ، نمت فعالية فنية اقل روعة وعظمة ، ولكنها غنية جدا • فقد كانت بلاطات الامــراء ، والمدن ، توصي على قطع فنية • وكان الفنانون الذين وفدوا من روما بعد نهبها

---

(١) «G. Bellini» : من اسرة اشتهر عدد من افرادها بالنبوغ (١٤٢٩ ـ ١٥١٦) تميز باستخدام اللون عنصرا من عناصر التعبير ، وترجم العاطفة الدينية ترجمة مثيرة . فجميع عذراواته يجمعن الناحية البشرية ، والدينية ، جمعا مدهشا . وكان الاول في تحقيق ذلك الانسجام بين المنظر الطبيعي ، والوجه ، وبسحر عجيب . ومن لوحاته الشهيرة « العذراء والطفل » و « القديسون » .
G.L.E Vol. 2. P.50.



الشكل ــ٢١ــ

الفنان تيسيان

عام ١٥٢٧ ، ينشرون بعض فنهم المكتسب من العبقريات الكبيرة • الا ان هــذا الجيل الجديد من الفنانين ، ما عدا ندرة منهم ، كان يفتقد حس الاصالة • فقد اهتم بخاصة ، بتقليد المعلمين الكبار ، والتعليق علــى ما صنعوا ، وبذلك ابتــدأ « نقد الفن » لا الابداع • وانتشر بالتدريج الاقتناع ، بأن الاساس في الفــن ،



الشكل -٢٢-
الملك فرانسوا الاول
بريشة تيسيان

هو مهــارة الوصول الى النجــاح ، أو في « الفــن المتصنــع «Maniérisme « أو الطرائقي » . وتتبدى حركة « تصنيع الفن » هذه ، بالتعقيد المربك ، والعمل التقني .. وهذه الحركة مهمة في تاريخ الفن ، لان الفن الايطالي بصورته هــذه، التي يسهل تقليدها ، انتشر في كل اوربا .

الفن في بقية انحاء اوربا : لقد ظهر التأثير الفني الايطالي في كل مكان :

وكانت آلية نفوذ التأثير الايطالي الى البلاد الاوربية ، هي نفسها تقريبا في كل بقعة : فهناك امير راع ، او مشجع ، يأخذ الامر على عاتقه ، فيستدعي فنانين ابطاليين يدخلون فنهم ، وتعليمهم الفني • وفي الوقت نفسه ، كان هناك فنانون من البلاد الاوربية ، يذهبون الى ايطاليا ، لاقتباس الفن • الا انه يلاحظ في شمال اوربا ، ان « الفن الغوطي » ، بقي يقاوم الفن الجديد • ومع ذلك ، فان بعض الاتجاهات الجديدة اتضحت الى جانب القديمة •

في فرنسا : لم يكن الذوق الفني الايطالي قد تسرب الى فرنسا في مطلع القرن السادس عشر ، وبقي الفن الغوطي حيا فيها • الا ان حب الامراء الاقطاعيين الكبار للفخامة ، والترف ، والفنون ، هيأ الجو للتطور ، الذي حدث بعد الحروب الايطالية مباشرة • فقد بهر ملوك فرنسا (شارل الثامن ، ولويس الثاني عشر ، وفرانسوا الاول) بترف البلاطات الايطالية ، وارادوا تقليدها • ومن ثم استدعوا اليهم فنانين ايطاليين ليزينوا لهم قصورهم ، بينما ابقوا هندسة تلك القصور ، وبنائها ، بايدي الفنانين الفرنسيين • وبهذا التركيب الفني ، الفرنسي ـ الايطالي بنيت القصور المشهورة في فرنسا ، المسماة بـ« **قصور اللوار** » ، والتي من اشهرها قصر « شامبور » ، و «بلوا» • وقد اطلق على هذه المرحلة من النهضة الفنية في فرنسا « **النهضة الفنية الاولى** » وتمتد من (١٥٠٩ ـ ١٥٣١) •

ولما انتشرت المؤلفات عن الفن المعماري القديم ، وازداد التأثير الايطالي ، حدث تحول اكثر عمقا في الفن الفرنسي : فقد تخلى الفنانون تقريبا عن التقاليد المحلية لصالح اساليب الفن القديمة ، وبذلك حدثت « **النهضة الفنية الثانية** » (١٥٣١ـ١٥٥٩) • أما بعد عام ١٥٥٩ ، فقد غدا الفن ثقيلا ،وبولغ في اثرائه، وترك « التصنعيون » الايطاليون بصماتهم فيه • ومثل على ذلك « قصر فونتنبلو » • وشمل « الفن التزييني » الجديد في فرنسا ، بصفة خاصة ، اعمدة ، وتماثيل ، وتيجان أعمدة، وافاريز،وواجهات ،وكلها زينت بالرسوم التزيينية العربية، والنقوش الغريبة •

وقد تميز « **فن النحت** » في فرنسا ، في القرن السادس عشر ، أكثر مما كان عليه « فن **الرسم** » ، الذي يبدو وكأنه كان مجهولا • وكان الفنانون

الايطاليون ، والفلامانيون ، هم الذين يعملون في هذا الميدان ، في فرنسا • ولذا ظهر وكأن النهضة الفنية في فرنسا مستوردة من الخارج • واشتهر في فن النحت، في فرنسا ،اسم « جان غوجون » (١٥١٠-١٥٦٤) ، الذي نحت « حوريات نبع الابرياء » في باريس • (الشكل ٢٣) •



الشكل -٢٣-

حوريات نبـع الابرياء في باريس

للفنان جان غوجون

وصفوة القول ، لقد سعى الفنانون الفرنسيون ، ولا سيما في مجال العمران لدراسة آثـار الفن اليوناني الروماني في ايطاليا ، وتخلوا تدريجيا عن كل مبادىء العمارة في العصور الوسطى ، ووضعوا قواعد جديدة مقتبسة من الفن القـديم ، مما هيـأ الجو لانتصار « **الفـن الكلاسيكي** » •

وفي شبه جزيرة ايبريا : يظهر التجديد الفني اولا في « الفن التزييني » ،

كما في فرنسا ، حيث امتزجت فيه التأثيرات الغوطية ، والاجنبية ومنها العربية • ولقد ازدهر في اسبانيا (فن الصياغة) بفضل نشاط الفنانين الايطاليين ، الوافدين الى اشبيلية ، وفالنسيا ، وغيرهما •

الا ان تأثيرهم لم يظهر في ميدان (العمران) ، الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في قصر شارلكان بغرناطة ، وفي قصر « الاسكوريال » ، المبنيين بين (١٥٦٤ــ١٥٨٤) •وقد اشتهر من الفنانين ، في ميدان النحت ، (الونسو بيروغيت Alonzo Berruguete) ، الذي تكون فنيا في فلورنسة ، وفي روما ، بالقرب من ميكيل ــ آنج • وفي ميدان الرسم نبغ (لوغريكو Le Greco) (١٥٤١ــ١٦١٤) ، وهو وريث « المدرسة البندقية » ، الا ان الوانه الحارة التي تشبه اللهب ، كانت اكثر انسجاما مع اسبانيا ، التي كانت تعيش آنذاك « قرن الذهب » •

في اوربا الشمالية : لقد تسرب الفن الايطالي الـى الاراضي المنخفضة ، وانتشر في المانيا ، وهنغاريا ، وبوهيميا • الا ان معظم الفنانين الكبار ظلوا يقاومون هذا التأثير ، وبقي بعضهم يسير في طريق الفن الوسيط ، بينما حافظ آخرون على التقليد الفلاماني •ومع ذلك ، فان اكبرهم (البير دورر) (١٤٧١ــ١٥٢٨) ، تأثر بالفن الايطالي تأثرا كبيرا • اذ اقام في ايطاليا ، وغدا واحدا مـن الهومانيست • واشهر قطع حفره ، كانت (الفارس) ،و (الكآبة) • وهي تبرز كيف امتزجت مفهوماته الهومانستية ، مع حرارة حماسته الدينية للاصلاح البروتستنتي ، الذي كان دورر من انصاره المندفعين •

النهضة الادبية والحركة الإنسانية

لقد اشرنا سابقا ، الى ان (الحركة الانسانية) قد ظهرت في نهاية العصور الوسطى ، وازدهرت حقا في القرن السادس عشر،وتحكمت في تطور الحياة الفكرية الاوربيـــة •

فالانسانيون في القرن السادس عشر ، ونسميهم في يومنا هذا « المثقفين » كانوا من رجال الادب ، والعلم ، الذين يقدسون قبل كل شيء ، العقل ، والثقافة،

في الانسان . فهما ـ بحسب رأيهم ـ اللذان يجعلان الانسان اكثر انسانية . وكانوا يؤلفون مجتمعا صغيرا ، يضم افرادا من كل الامم الاوربية ، ويرتبطون فيما بينهم بعلاقات لصيقة ، ويفرضون سلطتهم الفكرية على اوربا كلها ، ويسخرون من التعليم التقليدي ، الذي كان لا يزال قائما في بعض الجامعات .

وهذا الوسط ، كان يضم في اصوله الاولى جامعيين ، ورجال دين ، وتجارا ونبلاء صغارا ، ورجال دولة ، واصحاب مطابع ، وغيرهم . وكان الامراء والملوك يتصلون بهم ، او يحمونهم ويرعونهم ، ويقربونهم اليهم .

وكانت المدن الجامعية ، ومراكز الطباعة ، هي مناطق اشعاع الحركة الانسانية « كالبندقية » ، و « بال » حيث تقوم اكبر المطابع ، و«ليون» و « بادوا » بسبب جامعتها الكبيرة ذات الشهرة العالمية . كما اشتهرت « لوڤان » في بلجيكا ، حيث نظم الانساني « ايراسموس » (كلية اللغات الثلاث) ، و « باريس » في فرنسا حيث أنشأ الملك «فرنسوا الاول» عام ١٥٣٠ (كلية فرنسا Collège de France) وخصصها لدراسة المواد الجديدة ، كالاغريقية مثلا . وقد نافست هذه المراكز « الصوربون » القوي ، والعريق ، الذي بقيت الدراسة فيه تقليدية .

اتجاهات الحركة الانسانية :

تميزت الحركة الانسانية بما يلي :

١ ـ لقد اتخذت هدفا اساسيا لها ، ان تحدد وتحقق النموذج الاكثر كمالا والاسمى رفعة ، للكائن البشري ، وللوجود الانساني ، في الفرد ، والمجتمع .

٢ ـ يريد الانساني ان يعرف كل شيء ، لان « العالم وحده هو الانسان الحق » . والمعرفة الرئيسية ، هي معرفة المفكرين القدماء ، وانتاجهم . ولذا ، فانه كان يبحث عن نصوصهم الاصيلة ، ليقرأها بلغتها الاساسية . ولهذا الغرض ، رأى ضروريا تعلم لغات ثلاث : اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية ، وجمع المخطوطات القديمة ، الثاوية في الاديرة ، ونشرها .

٣ ـ ان الحركة الانسانية حركة متفائلة ، وتؤمن بطبيعة الانسان ، واصالة الخير فيه • ومن ثم فانها كانت تريده حرا • وكان « الانسانيون » مربين يتمنون توسيع الطاقات اللانهائية للطبيعة البشرية ، وتنميتها ، لانهم يعتقدون بالتقدم •

٤ ـ ان الحركة الانسانية حركة اصلاح ، للمجتمع ، والفرد ، على السواء : فمستشارو الامراء والملوك منهم ، كانوا يوجهونهم نحو سياسة مستوحاة من التاريخ ، والانجيل • وبهذه الروح ، كتب « توماس مور » في عام ١٥١٦ كتابه « اوتوبيا » حيث وصف فيه مجتمعا كاملا ، وعادلا ، وسعيدا، ومتسامحا • والانسانيون يشكون « بالدولة » ويحذرونها ، ويحاربون من اجل السلام ، ويشجبون الحرب •

٥ ـ كان الانسانيون حريصين على ان يفهمهم اكبر عدد من الناس ، ولذلك استخدموا لنشر افكارهم **(اللغات القومية)** الى جانب اللاتينية ، وهذا ادى بدوره الى نشأة (الآداب القومية) ونموها •

نتاج النهضة الفكرية الادبية في اوربا :

في ايطاليا ظهر التأثير الانساني **في الشعر** ، حيث كتب (اريوست ١٤٧٤ـ١٥٣٣) قصيدة (رولان الثائر) • وقد اقتبس موضوعها من العصور الوسطى ، الا ان صورها تدين بالكثير للقدماء •وكذلك ،فان (لوتاسو) (١٥٤٤ ـ ١٥٩٥) جمع في كتابه (القدس المخلصة) اساطير قديمة ، الى جانب الامور الدينية المسيحية •

الا ان **التطور الذي طرأ على علم التاريخ** كان اكثر اصالة ، ويمثله في هذه الحقبة (ماكيافلي ١٤٦٦ـ١٥٢٧) ، صاحب كتاب (الامير) ، و (غيشاردان ١٤٨٣ـ١٥٤٠) مؤلف (تاريخ ايطاليا) • فالاثنان استوحيا من القدماء : (تيت ليف) ، و (تاسيت) ، الا انهما أخذا ، اكثر ما اخذا من تجاربهما كسياسيين • ويعتبر (ماكيافيلي) مؤسسا (لعلم السياسة) ، اذ ان كتابه (الامير) كان معالجة

واقعية لنظام الحكم • وقد دعا فيه الى (توحيد ايطاليا) على يد امير قوي ، وسياسي ، يلجأ الى جميع الوسائل ، لتحقيق حكم ثابت ،وراسخ ، ومهما كانت تلك الوسائل بعيدة عن المثل الاخلاقية الفردية •

أما في خارج ايطاليا فقد كان اسم الهولاندي (ايراسموس (Erasmus هو الاسم الانساني الكبير (١٤٦٦-١٥٣٦) • وكان كتابه « مدح الجنون » هجوما صاعقا ضد مفاسد الكنيسة وسلوك البابوات • وكان مربيا كبيرا ، فقد اعلم الجمهور المثقف في عهده - اذ لم يكتب الا باللاتينية - بالاسس الكبرى للحكمة القديمة • وقد اكد بكل مناسبة على « حرية الفكر » ، وبين وجوب (نقد النصوص) • وقد عينه (شارلكان) مستشارا ، وتراسل معه (فرانسوا الاول) ملك فرنسا ، و (هنري الثامن) ملك انكلترة ، وقدم له البابا (بول الثالث) قبعة الكاردينال • فقليل من الادباء في التاريخ ، لاقوا مظاهر التجلة التي لاقاها. وكان سائحا جوابا ، فقد اقام في باريس ، وانكلترة ، حيث التقى بالاديب (توماس مور) ،وكان صديقه • وفي كل مكان كان يلتقي بعلماء الدين المسيحي ، ورؤساء المطابع ، والمفكرين ، وكان يعمل معهم ويناقش • وقد كرس جهدا كبيرا لنشر « العهد الجديد » من الكتاب المقدس ، عام ١٥١٦ ، مع نقد ملحق به ، وقد لاقى عمله هذا نجاحا كبيرا • ويمكن ان يقال ، ان (ايراسموس) ، يمثل تماما المثل الاعلى للحركة الانسانية ، الراغبة في قيادة الانسان الى السعادة ، بطريق دين داخلي عميق ، يغذيه الانجيل • وجاءت « ثورة لوتر الدينية » وما تبعها لتقضي على هذه المحاولة في الاصلاح • ولم يؤيدها ايراسموس فقد توفي وهو مخلص لروما ، الا انه ممزق النفس ، ومنطو عليها •

وفي فرنسا فان التطور الادبي كان سريعا : فمع ان تقاليد العصورالوسطى بقيت حية في الادب الشعبي ، الا ان الحركة الانسانية ثبتت ذاتها • وتبدى هذا في فريق « البليئاد «La Pleiade » ، الذي قطع صلته بالعصور الوسطى ، وقلد القدماء والايطاليين • ولكنه حرص ايضا ، على ان يثبت ، ان اللغة الفرنسية تنسجم ، وتتوافق مع الفن الشعري الجديد • ومن الشعراء الكبار في المدرسة الادبية (رونسار) ، الذي نشر (قصائد في الحب) عام (١٥٥٠-١٥٥٢) • ومن

الناثرين (رابله) ، الذي كان احد اقطاب الحركة الانسانية ، وهو مبدع احد الاعمال الادبية الفرنسية الكبرى ، المسمى (بانتا غرويل Pantagruel) ١٥٣٢ و (غارغانتوا Gargantua) ١٥٣٤ • وفيه يقدم « رابله » مفهوم الانسان الذي تفتح بحرية ، وبرنامجا جديدا للتربية •

ومن الناثرين الذين ظهروا بعده ، ودبجوا اول المؤلفات الفرنسية المخصصة لمعرفة الانسان ، كان (مونتين Montaigne) في كتابه (التجارب Les Essais) وقد طرح فيه «فنه في الحياة » ، وآراءه في التربية •

ان ذاك الاحياء للغات الشعبية ، قام في كل انحاء اوربا : ففي المانيا اعطى المصلح الديني (لوتر) للآداب الالمانية اول انتاج ضخم لها ، وهو ترجمة الكتاب المقدس) (١٥٢٢ ـ ١٥٣٤) • وفي انكلترة وضع (توماس مور) في كتابه (اليوتوبيا) و (فرانسيس بيكون) ، اسس النثر الانكليزي • فقد ظهرت « الرواية الشعبية » واستخدمت اللغة القومية فيها • والقول ذاته ينطبق على اسبانيا والبرتغال •

ان هذا الازدهار في (الآداب القومية) ، رافق على الصعيد السياسي ، بناء الدول القومية الكبرى ، ودعمه ، ويسره •

وخلاصة القول ، لقد كانت (النهضة) تجديدا واحياء للفكر الوثني ، مرتبطا بتقديس كل ما هو قديم • ففي ميدان الفنون والآداب ، ظهر رفض واضح لكل الاخلاق الصارمة وقيمها ، مع ميل قوي جدا لكل ملذات الحياة • بل قام بعض المفكرين بالتشكيك في المبادىء الاساسية للمسيحية •

ومع ذلك فقد بقيت (ا لنهضة) دينية ، اذ كان ما يبحث عنه المفكرون آنذاك هو التحالف فقط بين ماهو بشري ، وماهو الهي • ومن ثم كان لآراء الفلورنسي « فيتشينو Ficino» » (١٤٣٣ـ١٤٩٩) ، الذي أخذ من الفيلسوف اليوناني (افلاطون) الفكرة القائلة : « بأن الانسان يمكن ان يرتفع الى معرفة الله ، اما بالذكاء ، أو بمحبة الجمال » ، رواج ونجاح • وهي رؤية متفائلة ، كرؤية الانسانيين ، الذين وجدوا في « المسيح » نهاية المطاف في البحث عن الكمال الذي كان يستقصيه المفكرون القدماء •

وهكذا اعيدت للانسان مكانته ، وكذلك للطبيعة : واعيد له حق التفكير

بجسمه ، وبنشاطه المتنوع . ان هذه الفكرة تضعف دون شك دور (المسيح المخلص) ، ولكنها ليست فكرة لا دينية . ومن ثم فالنهضة حررت الانسان الا انها بقيت مسيحية .

النهضة العلمية في القرن السادس عشر

وفي هذا المجال العلمي ، كانت الحركة الانسانية ايضا هي المحررة للفكر الاوربي . لان قراءة مؤلفات القدماء ، مثل « التاريخ الطبيعي » لـ (بلينوس)[1] و « العناصر » لـ (اقليدس) ، وما اتى بـه (ارخميدس)[2] وغيره من علماء اليونان ، وتعرف الاوربيين بما ابدعه العرب في مجالات العلوم المختلفة ، من معرفة ، وطرائق بحث ، دفـع العلماء منهم للبحث عن طرائق جديـدة ، وللسير فيها . الا ان هؤلاء العلماء بقوا يتلمسون طريقهم تلمسا ولمدة طويلة .

وقامت محاولات لتأسيس العلم على العقل ، ولكن بقـي اناس ذاك العصر مقتنعين ، بان العالم يكون عضوية عـلاقة حية ، يحركها نوع من الارادة الالهية ، العاملـة في جميع الاشياء .

ولهذا السبب فان العلم تخلص بصعوبة في القرن السادس عشرمن «السحر». فقـد بقي الطب ممتزجا بالتنجيم ، وبقي (علم السيمـا Alchimie) ، الـذي يحلم بتغيير الرصاص ، وتحويله الى ذهب ، قائما . وما عـدا بعض الشخصيات النابغة التي تعتبر طليعية ، فان العلم لم يتقدم الا بعد **استخدام الملاحظة،والتجربة.**

طلائع النبوغ العلمي :

وهنا تطرح قضية (ليئوناردو دافنشي) : فقد خلف الفنان العالم فـي

(1) **بلينوس** : عالم روماني ، موسوعي ، عاش في القرن الاول الميلادي (توفي ٧٩ م بانفجار بركان فيزوف) . وكتابه « التاريخ الطبيعي » وهو من ٣٧ مجلدا ، يحيط بكل العلم القديم .

(2) **ارخميدس** : من علماءاليونان، ومن مدينة سيراكوز في صقلية (٢٨٧–٢١٢)ق م. له اختراعات عديدة ، وهو صاحب القانون المعروف باسمه ، بان كل جسم يغطس في سائل يفقد من وزنه ما يساوي حجم السائل الذي يزيحه .

(دفاتره) تأملات علمية ، يؤكد فيها اهمية التفسيرات الرياضية ، وينبذ فيها طرائق التفكير الموروثة من العصور الوسطى ، ويبشر بنجاح (العلم الحديث) . فقد وضع الخطوط العامة لقوانين المجموعة الشمسية ، وعلم الجيئولوجيا . ومع ان تفكيره كان علميا دقيقا ، فان ميله للرياضيات ، بقي مرتبطا لديه بافكار اخرى لا تمت الى العلمية بصلة . ففي (ليئوناردو دافنشي) ، قد يكون (المهندس) ، و (الميكانيكي) ، هما اكبر من العالم .

وخلاصة القول ، تقدمت **الرياضيات** ببطء : ففي المانيا تولدت مدرسة (للهندسة) انطلاقا من علم (الخرائط) ، وقد عمل فيها الفنان (البير دورر) ، وبدىء باستخدام الاحرف للدلالة على المجهولات . وفي ايطاليا تقدم علم (الجبر) وحل الرياضيون المعادلة من الدرجة الثالثة ، ومع ذلك فان التقدم يعتبر ضئيلا .

الا انه في **ميدان الفلك** ظهر (كوبرنيك) البولوني . وقد ولد في (كراكوفيا) عام ١٤٧٣ ، ثم درس في جامعة بولونيا (في ايطاليا) ، وكان من الانسانيين . ولقد استطاع ان يأخذ من الفكر الاغريقي ، الفكرة التي جعلته يضع الشمس لا الارض ، في مركز المجموعة الشمسية . ان نظريته ليست كاملة ، ولكنها بشرت باعمال العالم (كبلر) ، و (غاليله) ، في القرن السابع عشر .

تقدم الملاحظة ونمو علم الطب : لقد ظهر في هذا القرن ميل كبير لدراسة الطبيعة ، ومنه كان تقدم الملاحظة ، وتصنيف الانواع ، والعضويات ، والاجسام . ونشط **علم الكيمياء** ، ومن علمائه المشهورين (باراسيلس Paracelse)[1] **والجيئولوجيا** على يد الطبيب (اغريكولا)[2] ، **وعلم النبات ، والحيوان** ،

---

(١) طبيب وكيماوي سويسري (١٤٩٣–١٥٤١) . اراد ان يجعل من تدريسه الطب في جامعة بال ، مظهرا لنشأة الطب الجديد . فقد درس باللغة الالمانية ، وهاجم جالينوس ، وابن سينا ، والرازي ، واحرق مؤلفاتهم . ويعتبر ابا للطب (الهرمتي Hermétique) ، وهو الذي يقول ان كل شيء في الطبيعة يفسر بالملح ، والكبريت ، والزئبق ، وان المرض ينشأ من اختلال التوازن في جسم الانسان بين العناصر الثلاثة المشار اليها .

(٢) طبيب ساكسوني (١٤٩٤–١٥٥٥) ، اهتم بعلم المعادن ، والتعدين . وفي كتابه (عن المعادن) وصف هام للمعارف الجيئولوجية ، والمعدنية ، والتعدينية في عصره .

في كلية الطب في (مونبليه) ، حيث تلقى الاديب (رابلــة) الذي ذكرناه آنفــا ، علمه • و « جامعة مونبليه » [٣] ، في جنوب فرنسا ، كانت احد المراكز الثقافية الهامة ، وهناك من يقول ، بان العرب كانوا من المساهمين في تأسيسها • وبالفعل كانت تضم اساتذة تثقفوا بالعربية ، وكانت تحوي كثيرا من المؤلفات العربية المترجمة للاتينية • وقد تطورت معرفة جسم الانسان تطـورا كبيرا بفضل التشريـح ، العزيز جدا على فنشي ، وميكيل آنج • وبرز اسم (فيزال Vésaie) صاحب البحث عن « بنيــة جسم الانسان » ، وقد كــان طبيبا لشارلكان • وكذلك درس (ميشيل سرقة Servé)[٥] دوران الدم • ومع ميول الاطباء للسحر فانهم بدأوا يلجون ابواب علوم الملاحظة • وعلى الرغم من اسهام بعض الصناع في ميدان الاختراعات ، الا انه لم يكن ينظر اليهم بنظرة احترام • ومن هؤلاء مثلا ، صانــع الفخار (برنار باليسي) ، الــذي كانت لــه افكاره حول المعادن ، والحــلاق الجراح (امبرواز باره) Ambroise Paré ، الذي قام بأول ربط للاوعيــة الدموية ، بدل كيها بالحديد المحمي ، كما كان يجري سابقا • ويمكن ان نضيف في ميدان العلوم ظهور « علــم السياسة » على يــد « مكياڤيلي » ، كمــا تطور علم التاريخ ، والبحث فيه ، تطورا ايجابيا ، وخصبا •

---

(٣) انظر حولها جلال مظهر المصدر نفسه ص ١٩٠ــ١٩١ .

(٤) « اندره فيزال » : عالم تشريح بلجيكي (١٥١٤ــ١٥٦٤) . درس في جامعــة لوڤان ، ومونبليه ، وباريس . اهتم بالتشريح اهتماما كبيرا ، والف في ميدانه ما يعتبر تجديدا في هذا العلم ، ونقدا لجالينوس ، والقدماء . اتهم بانه شرح انسانا حيا ، فحكم عليه بالاعدام ، الا ان الملك « فيليب الثاني » حول الحكم لحج الى الديار المقدسة في فلسطين ، واثناء عودته توفي .

(٥) « ميشيل سرقة » عرف كذلك باسم « ميشيل دوفيلنوف » . وهو طبيب اسباني ، و عالم باللاهوت (١٥١١ــ١٥٥٣) . درس القانون ، والطب ، واهتم بمباحث الدين ، وبضرورة اصلاح الكنيسة . الا انه يبدو متأثرا جدا بالفكر الاسلامي . ولذا فانه رفض الايمان بالثالوث المقدس ، وقال بان الشخصيات الالهية الثلاث ليست سوى تجسيمات لمبدا وكيان واحد . هاجم كتاب كالفن « المؤسسة » ، ومن ثم سجن اثناء مروره من جنيف ، واعدم . قال بدورة الدم الرئوية قبل (هارڤي) ، وقد يكون تأثر بما كتبه الطبيب العربــي (ابن النفيس) حول ذلك الامر .

الفصل الخامس

الاصلاح الديني

ازمة الكنيسة الكاثوليكية :

لقد اجتازت الكنيسة ، في اواخر العصور الوسطى ، ازمات كبيرة قسمت المسيحيين ، وبلبلت افكارهم • فهناك الانشقاق البابوي (١٣٤٨–١٤١٧) الذي ألمحنا اليه ، عندما انتقل البابا الى آڤينيون • كذلك حركة (وايكلف) الانكليزية، و (جان هس) التشيكي في بوهيميا • كما ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر ، بعد ثمانين عاما من حركة هس ، حركة الراهب الدومنيكي (سافونارولا) في فلورنسة ، الذي هاجم بعنف الانحطاط الخلقي والديني في عصره ، وبخاصة رجال الدين ، الذين كان من واجبهم الاول الاقتداء بسيرة المسيح ، الا انهم انصرفوا الى الحياة الدنيوية ، وحياة الارض بدلا من حياة السماء • وقد استطاع ان يصبح سيد مدينة فلورنسة ، وشرع يصلح في امورها بحسب مبادئه• ولكنه وقع في خصومة مريرة مع البابا (اسكندر بورجيا) ، فاحرق كمهرطق عام ١٤٩٨ •

ولكن اذا كانت تلك الحركات قد بقيت محلية الى حد كبير ، فان ازمة القرن السادس عشر كانت اقساها ، واكثرها انتشارا ، وادت الى ما يسمى « **بالاصلاح الديني** » الذي كان ثورة دينية حقيقية ، قسمت بعمق المسيحية على نفسها ، وانتزعت عددا من (الكنائس القومية) ورعاياها ، من سلطة **الكنيسةالباباوية** ومعتقداتها ، تلك الكنائس ، والرعايا ، الذين اطلق عليهم اسم **البروتستانت** •

اولا ـ اسباب الاصلاح الديني:

ما هي اسباب الاصلاح الديني ؟ سؤال معقد جدا•اعطيت له تفسيرات عديدة

واذا ما أخذ كل تعليل وحده ، فانه يبدو غير كاف ابدا • فهناك مثلا **الاسباب القومية** ممثلة في ثورة المانيا على روما • وفي الحقيقة ان تلك الاسباب كان لها دورها ولكن مذهب لوتر انتشر في بلاد اخرى ، مما يدل على انه كان استجابة لشعور ، وترقب ، عامين • كما ان **الكالفنية** لم ترتبط بقضية قومية •

ومثلما يمكن القول ان **للاسباب القومية** اثرها ، فان للعوامل **السياسية والاقتصادية** ، دورها • وتتمثل في رغبة بعض الامراء ،وبعض الملوك ، في الاستيلاء على املاك الكنيسة ، وفي تعاطف الرأسماليين والماليين مع مذاهب دينية تحفز الجهد الفردي ، ولا تشجب القروض بفائدة ، كما تفعل الكاثوليكية • ولكن حتى في هذا الميدان ، يلاحظ ان (الاصلاح) قد مس الاغنياء والفقراء ، والشخصيات الكبرى والصغرى ، على السواء •

فاذا كان (لوتر) وهو الماني ، قد اظهر اشمئزازه من بعض عادات الكنيسة وتقاليدها ، فان هذا لا يكفي لتسويغ عمله • فالذي دفعه ليفعل ما فعل ، كان قبل كل شيء القلق ، والعذاب ، اللذين شعر بهما ، وهو يواجه قضايا (الخلاص) و (الايمان) • وهكذا تبقى **العوامل الدينية** لها الاهمية الاساسية ، حتى ولو تعلقت بأذيالها ، أمور قومية ، واجتماعية ، واقتصادية • وتتلخص هذه العوامل بما يلي :

ـ مفاسد الكنيسة وضعف نفوذها على النفوس :

فسلطة **البابوات** قد تناقصت ، لان سلوكهم اصبح قابلا للنقد : فهم يفكرون بالسياسة والحروب اكثر مما يفكرون بالدين ، ويتصرفون وكأنهم رؤساء دول ، ويقربون افراد اسرهم ، ويحيطون انفسهم ببلاط حقيقي • ولما كان هذا يكلف غاليا ، فانهم ضاعفوا الضرائب على رعاياهم ، ولا سيما في انكلترة ، والمانيا •

ولم يتجاوز الباباوات وحدهم حدودهم ، وانما شاركهم بذلك **الكرادلة** ، **ورؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديرة ايضا** • فنادرا ما كان يقيم هؤلاء في مقرات اعمالهم • وغالبا ما كانوا يكدسون عدة مناصب دينية في

اشخاصهم ، ومعها الارباح الكنسية ، ويهملون ادارة امــلاك الكنيسة ، والاشراف على الرعية ، ويعيشون حياة دنيوية عصرية ، قد يكون فيها كثير من المباذل واللهو والبعد عن القيم الاخلاقية الرفيعة ، بل ان بعضهم لجأ الى بيع الاسرار المقدسة . وبالمقابل لم يكن رجال الدين الادنون يتمتعون الا بدخول ضئيلة جـدا ، وكانوا هزيلي العلم ، لعدم اهتمام الكبار من رجال الدين بعقد الندوات التعليمية لهم ، او بتوجيههم ، وبذلك اهملوا دورهم معلمين ووعاظا .

وفي الواقع لقد كان علم الالهيات (التيئولوجيا) في أزمة ، لان ازمة العصر لم تسمح له باعطاء حلول مرضية للمسائل المثارة .

هذا بالاضافة الى ان اخلاق رجال الدين غــدت فاسدة ، وقواعد النظــام في الاديرة غير مطبقة .

ـ الحالة النفسية السائدة لدى الشعوب : فالشعوب في ذلــك العصر ، عاشت تجارب طويلة ومريرة : كحرب المائة عام ، والانشقاق الديني ، والطاعون الاسود ، وتقدم الاتراك في شرقي اوربا ، وقد رأوا في كل ذلك عقابا مــن الله . ولذلك كانوا بحاجة لخدمات دينية اكثر عمقا ، اذ ان الناس كانوا قلقين. ولمــا رأوا ان الكنيسة لا تعطيهم ما يريح نفوسهم ، فانهم ، منذ القرن الخامس عشر ، اخذوا يكونون (اخوات)، تجمع المؤمنين الحريصين اكثر فاكثر على خلاصهم الابدي . واتخذ تقاهم ، وتعلقهم بالدين ، صورا من النسك والتصوف .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان كثيرا من المؤمنين في القرن السادس عشر ، لم يعودوا يفهمون عقيدة الكنيسة ، ويصبون لعبادة اكثر بساطة ، وتجردا من مظاهرها الخارجية العديدة ، الهادفة للتأثير في الجماهير .

ـ الحركة الانسانية : ان التطلعات السابقة ترجع في كثير من مناحيها في الواقع الى الانسانيين . فعادتهم في نقد النصوص القديمة ، دفع بهم الى فحص « الكتاب المقدس » ، اكثر فاكثر ، وبعمق ، والى حذف ما كان قد اضيف اليه ، والى ابراز النص الاول والاصيل مرة اخــرى . وجاءت الطباعــة ، لتكشف « الكتاب المقدس » لعديد من المسيحيين . فبين عامي (١٤٥٧ـ١٥١٧) ، صدرت

اربعمائة طبعة من هذا « الكتاب المقدس » . فالمؤمنون الذين تعلموا من النص الاصلي ، تمنوا العودة الى (البساطة الاولى) للكنيسة ، والى اصول المسيحية الاولـى .

وفي الحقيقة ، لقد بحث (الانسانيون) ، في « الكتاب المقدس » ومنهم ايراسموس ، عن مظهر للتقى اكثر نقاء . وقد هيأت افكارهم القائلة بضرورة حلول اللغة القومية محل اللاتينية في شؤون العبادة ، وبأن الحياة الدينية يجب الا تكون طقوسا معقدة متتابعة ، وانما ايمان بالله حي وحقيقي ، لظهور المصلحين الدينيين من امثال لوتر وكالڤن وغيرهمـا .

ويجب الا ينسى ذلك النقد اللاذع ، الذي وجهه «الانسانيون » الى رجال الدين ، والبابا نفسه ، في كتاباتهم ، ووازنوا فيه بين الكنيسة الاولى ، كما ارادها المسيح ، والكنيسة في عصرهم . وبذلك نبهوا الاذهان الـى بعدها عن القيم والمثل التي اختطتها المسيحية الاولى .

فمما قاله الانساني الكبير (ايراسموس) مثلا في كتابه «مدح الجنون» ناقدا البابا بلهجة ساخرة :

« ألم يكن البابوات ، الذين هم نواب يسوع المسيح على الارض ، سيعيشون حياة حزينة جدا ، وتعيسة ، لوسعوا للاقتداء بالمخلص الالهي ، واعماله ، وعقيدته، وآلامه ، واحتقاره للاشياء الدنيوية ؟ .. ولو فكروا بان كلمـة « بابا » تعني « الاب » وبلقب « المقدس جدا » الذي يشرفون بـه ، أفلم يكن ذلك ليوحي لهم ، وينذرهم ، كي يكونوا جديرين به ؟ وايـة مجموعة من الملذات ، ومظاهر الرفاهية من كل نوع ، كانوا سيحرمون انفسهم منها ، لو ارادوا ان يكونوا يومـا متحلين بالعقل والحكمة ؟ فسيحل محل الثروات ، وانواع التشريف ، والسلطة ، والانتصارات ، والالقاب ، والمناصب ، والوظائف ، وصكوك الغفران ، والخيول ، والبغال ، والحرس ، والملذات من كل نوع ، التي يحيطون انفسهم بها ، سيحل السهر ، والصيام ، والدموع ، والصلوات ، والمواعظ ، والدراسات ، والتنهدات، وآلاف التعاسـات المماثلـة .

« يجب ان لانخاف هذا البؤس من اجل ابائنا المقدسين جداً : فلقد تركوا للقديس بطرس وللقديس بولس ، آلام البابوية ، واعمالها ، واحتفظوا لانفسهم بانواع التشريف والملذات التي تحيط اليوم بالكرسي البابوي المقدس . أتريدون ان يقوم البابا اليوم بالمعجزات ، كما كان يقوم بها في الماضي ؟ وان يجهد نفسه في تعليم الشعوب ؟ وان يشرح الكتاب المقدس باخلاص ؟ وان يصلي بحرارة كما لم يكن امامه سوى هذا العمل ؟ وان يبكي كامرأة ، أو كأي تعيس ، وأن يحيا في البؤس كأي شحاذ ؟

« ان بابوات اليوم يعملون على ازاحة مظاهر البؤس تلك عنهم ،ولا يحتفظون الا بتلك المباركات اللطيفة التي يتحدث عنها القديس بولس .. ولكنهم ليسوا بخلاء تماما ! اذ يجب عليكم ان تروا بأية طيبة واحسان يصدرون ذلك الحرمان المخيف ، الذي يبعث بكم آلاف الاميال ، ما وراء الجحيم ! » [1] .

ثانيا ـ مارتن لوتر Maritn Luther ـ ازمة ١٥١٧ : في هذا الجو الفكري المعبأ ظهر (مارتن لوتر) . ظهر في المانيا ، حيث كانت مفاسد الكنيسة صارخة ، اكثر من بقاع اوربا الاخرى . ولقد تفجرت الازمة في عام (١٥١٧) ، بسبب قضية (صكوك الغفران) .

ولد (مارتن لوتر) عام (١٤٨٣) ، في ساكسونيا . وكان لامعا اثناء دراسته في جامعة (ارفورت) . الا انه ككثير من النفوس القلقة آنذاك ، انخرط في سلك الرهبنة ، وانتسب الى دير الاوغستين [2] ، وغدا قسا ، ثم واعظا ، في دير (فتمبرغ Wittemberg) عام ١٥١٢ ، فأستاذا في جامعتها . وكان كثير القراءة ، والصوم ، والصلاة ، الا ان فكره لم يعرف الهدوء . والسؤال الكبير الذي كان يراوده : هل اعمال الانسان قادرة على انقاذه يوم الحساب الاخير ؟

---

(١) عن كتاب Dupâquier, Lachiver, op. cit, P.47.

(٢) طائفة القديس اوغستين الدينية ، هي عدة فرق . وهذه الطائفة قد نظمت في القرن الثالث عشر ، وتؤمن بافكار القديس اوغسطين ، والمشاكل التي طرحها ، وبصفة خاصة ، بالله ومصير الانسان ، ذلك المصير المحكوم بالخطيئة، الذي لا تنقذه الا الرحمة الالهية .

وهداه تفكيره بعد مطالعاته لتعليمات (القديس بولس) ، بانه لا ينقذ الانسان سوى ايمانه ، الذي يكشف له في الوقت ذاته ، خطيئته ، والثقة بخلاصه .

وعندما قرر البابا (ليئو العاشر) ان يبيع صكوك الغفران [1] للمسيحيين ، كي يكمل بالمجموع من ثمنها ، « كنيسة القديس بطرس » في روما ، ويستفيد من جزء منها كذلك ، (البير دوبرا نديبورغ) ، ليسدد ديونه لدى المصرفي اليهودي (يعقوب فوغر) ، (وهدفه الحصول على اسقفية مايانس) ، قـام لوتر في ٣١ تشرين الاول عام ١٥١٧ ، والصق منشورا بـ ٩٥ اعتراضا على تلك الصكوك ، وذلك على باب كنيسة القصر ، نفذ فيها ذلك الاجراء . وكان اكثر ما صدمه ، ليس استخدام الدين في الوصول الى المال فقط ، وانما نشر الفكرة القائلة ، بان الانسان قادر بعمل طيب ، ان يكسب خلاصه يوم القيامة ، وكان هذا ضد معتقده .

وطلبه البابا الى روما ، فرفض الذهاب ، وعندما ارسل له رسالة ، يطلب اليه فيها ، التراجع عن نقده عام ١٥٢٠ ، فانه حرقها علنا ، فحرمه البابا .

وخلال هذا الوقت نشر كتابه (في حرية المسيحي) ، حيث عمق مذهبـه في الخلاص ، و (أسر بابل) ، الذي لم يعترف فيه الا بسرين من الاسرار المقدسة السبعة[2] ، (التعميد) و (المناولة) . واخيرا (منشور الى نبـلاء الامـة

---

(١) صك الغفران يمنحه في العادة البابا ، ويسمح للمؤمن بان يغسل خطاياه ، وان يربح الجنة بسهولة اكبر . ويمكن ان يحصل عليه المرء بالصلوات ، او باعطيات للكنيسة . وهذه الممارسة افسحت المجال لمساوىء عدة .

(٢) الاسرار السبعة هي اشارات مقدسة سنها المسيح لاستدرار رحمـة الله ، وتطهير روح الانسان ، وهـي سبعـة . التعميـد ، والتثبيت ، والمناولـة (الاوخاريستا) ، وسر التوبة ، ومسحة المرضى ، وسر الكهنوت ، والزواج . اما التعميد فهدفه محو الخطيئة الاولى ، ويكون بغسل المسيحي بالماء ، والتثبيت هو في اتمام التعميد ويجري بين التعميد والمناولة ، ويعني منح المسيحيين روح القدس ، وعطاياه اللانهائية ، ونور الايمان . ويكون بوضع يدي رجل الدين ، المكلف بهذا الامر ، على رأس المسيحي ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ، والمسح على الوجنة باليد . اما المناولة ، فهي تناول قليل من النبيذ ، مع قطعة خبز . وسر التوبة ، هو اعتراف المسيحي بخطاياه ، ومنحه المغفرة . ومسحة المرضى هي مسح رجل الدين على الاعضاء الحسية للمريض ، واطرافه ، لينال الرحمة ، ويخفف عنه . وسر الكهنوت ، وهو التكريس الذي يعطي رجال الدين بمختلف مراتبهم ، السلطة لممارسة الاعمال الدينية ، وبخاصة منها الكهانة . فهـذه الممارسة ، كانت تعني في الاصل ، « تعليم المسيحيين » . واخيرا سر الزواج ، ويعني تكريس الحب بين المراة والرجل ، المنتج لتواتر البشرية ، وتكريس البيت الـذي يكونانـه .

الالمانية المسيحيين) ، حيث انكر فيه سلطة البابا ، ودخل في اصلاح جذري للكنيسة .

• واستدعي الى « الدييت الامبراطوري » في (ورمز) عام ١٥٢١ ، ودافع عن افكاره بقوة وشجاعة . فبعد ان جابه البابا ، جابه الامبراطور ، ورفض ان يتراجع ، فحرم من حقوقه المدنية ، وهدد بالموت . الا ان (دوق ساكسونيا) حماه ووضعه في قصره في (وارتبورغ) ، حيث عمل لعام ، على ترجمة « الكتاب المقدس » الى اللغة الالمانية ، وجعل منه كتابا شعبيا . ثم عاد الى (فتمبرغ) عام ١٥٢٢ ، حيث تزوج ، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٥٤٦ م ، يعمل على تنظيم الجماعات التي آمنت بمبادئه .

ما عقيدة (لوتر) ؟ ان الايمان وحده بالنعمة اليه — كما اشرنا سابقا — قادر على انقاذ الانسان ، اما الممارسة الدينية فلا تفيد في شيء . شيء واحد له قيمته ، هو التواصل بين الله والمؤمن . ومن ثم ، فلا يجب ان يرافق العبادة ، اية مظاهر ، ماعدا التراتيل ، والقراءة المشتركة « للكتاب المقدس » ، والابقاء على السرين المشار اليهما آنفا ، وتكون المناولة بالنوعين : الخبز ، والنبيذ . ولم يبق الا ما كان قد قرره المسيح نفسه ، ورفض تقديس العذراء والقديسين . كما ورفض ان تعلق في الكنائس الصور ، ولم يسمح الا بالصليب . والغى عزوبية رجال الدين ، والنذور الديرية . وهكذا ، فاللوترية قامت على الصلة المباشرة بين الله والمؤمن . وانتشرت آراء لوتر في كل ألمانيا ، وكان لها **نتائجها الهامة :**

١ — فكثير من **المدن ، التي كان يحكمها بورجوازيون ،** قطعت صلتها بالبابا ، وانضمت الى الاصلاح الجديد اذ ان البورجوازية كانت قد تبنت الافكار الحرة الجديدة ، كما وجدت مصلحتها المادية في هذا التجديد الديني .

٢ — كثير **من النبلاء الاقطاعيين الصغار ، الفقراء ،** اعتنقوا اللوترية ، وصادروا املاك الكنيسة اذ رأوا في ذلك تأمينا لحياتهم المادية ، ودعما لسلطتهم . **كما أن عددا من الامراء الكبار ،** كأمير براند يبورغ ، وساكسونيا ، تبنوا الدين الجديد . بل أن الرأس الاعلى للفرسان التيوتون قطع صلته بالبابا ، واحتفظ لصالحه باملاك فرقته الدينيه ، وكان هذا بدء نشأة (دوقية روسيا) . وقد قام هؤلاء

بذلك ، اما للرغبة في وضع ايديهم على املاك الكنيسة ، او لارادتهم في التحرر ، والاستقلال عـن سلطة الامبراطور •

٣ ــ امتزجت الهزة الدينية هذه **بحركات اجتماعية** : ففي الاوساط الشعبية، قام (توماس منزر Th. Muntzer) ، ونادى بدين المساواة ، وان نهاية العـالم قريبة ، وسيكون فيهـا عقاب الاغنياء • فانفجرت عندئـذ **ثورة فلاحية ضخمة** في (١٥٢٤ــ١٥٢٥) ، في الصوآب جنوب غربي المانيا ، وقد سلحت نفسها ببرنامج ثوري • الا ان لوتر ظهر امامها رجعيا ، اذ دعا الثوار اولا للهدوء ، والى السلام ، ثم وجه ضدهم نداء عنيفا ، وطالب بقمع حركتهم ، وذلك باسم واجب الطاعة لسلطة الامراء • وسميت هذه الحرب « **بحرب الفلاحين** » •

وعند وفاة لوتر (١٥٤٦) كان **ثلثا المانيا ، والسويد ، والنروج ، والدانمارك، لدين كلها بالمذهب الجديد** ، والى جانب حركة الاصلاح •

الكنيسـة اللوتريـة :

لقد اصبح لوتر اذاً وغصبا عنه ، مؤسس كنيسة جديدة • وقد قامت هـذه الكنيسة على سلطة الامراء المتحالفين ، المدافعين عن الاصلاح • ففي (مجمع سبير) (١٥٢٩) ، « **احتج** » ستة من هؤلاء الامراء ، واربع عشرة مدينة ، ضد ارادة الامبراطور ، الذي كان راغبا في العودة الى الوحدة الدينية في المانيا • ومن هنا اتت لفظة « بروتستانت » وتعني « المحتجين » • وفي (صلح اوغسبورغ) عـام ١٥٥٥ ، تثبت مستقبل البروتستانتية باعتراف الامبراطور ، واقراره ، بان الرعايا يجب ان يتبنوا دين الامير ، الذي يحكمهم •

وفي هذه الكنيسة الجديدة ، حافظ لوتر على كل مالا يناقض عقيدته ، أي أنـه ابقى على الكنائس ، وتسلسل الرتب بالنسبة للرعاة المكلفين بتعليم الكتاب المقدس ، وبالتعميد ، والمناولة • اما « الصلاة » فتقال باللغة العامية •

وقد ثبتت « العقيدة الجديدة » في كتاب « اعتراف اوغسبورغ » الـذي

دبجه تلميد (لوتر) ، « فيليب ميلانكتون » ، عام ١٥٣٠ • ولقد الف (لوتر) ، في اخريات حياته ، عددا من التسابيح والاناشيد الدينية •

وهكذا تم الاصلاح الديني ، وبـدا بعقيدته في الايمان ، قاطعا صلته الفكرية بالحركة الانسانية ، الواثقة بمقدرة الانسان على تحقيق خلاصه ، وكذلك صلتـه الواقعية بروما • الا ان الوقائع السياسية التي رافقت حركة الاصلاح ، وساعدته، جعلت من عمل لوتر اكبر تمزق هام ، عرفته المسيحية منذ نشأتها •

ثالثا ـ (الكالفنية) والاصلاح الفرنسي :

في الوقت الذي كان فيه الاصلاح اللوتري يفقـد جزءا من قوة توسعـه وانتشاره ، ظهرت قوة كبيرة اخرى هي قوة (جان كالفن) •

ولتفهم اصالة (الكالفنية) لا بـد من توجيه الانتباه الى اقليمين ، نبتت فيهما أفكار اصلاحية دينيـة :

اولا ـ سويسرة : فقد كان يعيش في مـدينة (زوريخ) منهـا ، الواعظ (اولريخ زونغلي) ، وكان اكثر تطرفا في اصلاحه من لوتر • فقد اعطى اهميـة أقل لقضية **(الخلاص بالايمان)** ، والح على ان الانسان لا يمكن ان ينقـذ الا بقرار من الله وحده ، وللابد ، وهذه هي فكرة **(القدر الالهي)** • ومـن ثـم فالاسرار بالنسبة اليه ، ليست الا شعائر رمزية • فهو لا يعتقد ، كما كان يعتقـد لوتر ، بوجود المسيح بالخبز والنبيذ ، في المناولة ، ولذلك فهو لا يريد قساوسة ، ومن ثم فاصلاحه اصلاح جذري • وقد توفي زونغلي عام ١٥٣١ ، ولكن تأثيره بقي في سويسرة، ووادي الراين • ومع ان أثره كان اضعف في مدينة « ستراسبورغ » فان « كالفن » اكتشفه فيهـا •

ثانيا ـ فرنسا : وهنا ايضا كانت الحركة الاصلاحية تتقدم ، وانما بصورة اكثر اعتـدالا ، وهي **« صورة الانجيلية »** المستوحـاة مـن (ايراسموس) و (لوفيڤرديتابل Lefèvre d'Etaples) ، والاثنان مـن الانسانيين • وقـد كون الاسقف « بريسونة Briçonnet» ، في اسقفيته ، في« مو Meaux» قرب باريس،

فريقا يضم « لوفيفر ديتابل » ، وبعض رجال الدين من باريس ، هدفه اعادة روح الانجيل الاولى الى الكنيسة ، دون الاصطدام بالبابا ، أو قطع الصلة به . وكانت تحمي هذه الحركة أخت الملك « مارغريت دانغوليم » . وقد تركت هذه الحركة اثرها في جميع الطبقات الاجتماعية .

وفي الوقت ذاته كانت الافكار اللوترية تتسرب عبر الانسانيين ، ورجال الدين الذين اعتنقوا آراء زميلهم الالماني . وقد ساعد انتشار الكتاب ، والصورة، على عملية التسرب والانتشار ، لانهما كانا وسيلتين ناجعتين في الدعاية .

وكان الملك (فرنسوا الاول) غير معاكس لهذا الاتجاه الفكري ضمنيا : فهناك تأثير اخته من ناحية ، وميوله الشخصية من ناحية ثانية ، والتنافس بينه وبين الامبراطور شارلكان من ناحية ثالثة . وهذه كلها دفعته الى محاباة (اللوتريين) ، الذين كانوا لا يطمحون الا بدين اكثر صفاء . الا ان النتيجة كانت ، ان ازداد عددهم ، واستفحل خطرهم ، حتى انهم لصقوا على الجدران في باريس ، وعدد من المدن الفرنسية ، منشورات تهاجم بعنف الصلاة الكاثوليكية عام ١٥٣٤ . فما كان من السلطة السياسية ، الا ان شرعت بالبطش بهم . فتفرقت جماعة (مو) ، وفر اللوتريون ، وكان من بينهم رجل الدين (كالفن) ، الذي نشر بعد عامين كتابه « مؤسسة الدين المسيحي » .

كالفن وعقيدته : ولد كالفن في نوايون (فرنسا) عام ١٥٠٩ ، ودرس دراسة دينية في باريس ، وحقوقية في (بورج) . ثم شرع يتبنى تدريجيا الافكار الاصلاحية بين ١٥٢٨–١٥٣٣ . وفي العام الاخير حزم رأيه فجأة على تكريس نفسه للاصلاح . فقطع صلته بروما ، وفر الى (ستراسبورغ) ، ثم الى (بال) في سويسرة . وهنا كتب باللاتينية ، النسخة الاولى من كتابه السالف الذكر (عام ١٥٤٦) . وهذا الكتاب الصغير في تاريخ الاصلاح أخذ شكله النهائي عام ١٥٥٩ .

ان الانسان بالنسبة لكالفن (خاطىء) ، وغير قادر على انقاذ نفسه بنفسه . فالانقاذ يأتي من الله وحده ، الذي يقدّر لكل واحد الخلاص والنعيم ، أو الهلاك

الابدي ، لاسباب لانعرفها • فاولئك الذين قدر لهم الخلاص ، أو (المصطفون)، يتلقون الايمان بوساطة (يسوع المسيح) ، وعليهم عندها ان يجهدوا انفسهم في طاعة الشريعة المقدسة • ان هذه الطاعة ، هي دليل الايمان الملقى في قلوبهم من الله •

ويدير الكنيسة (رعاة) يعلمون الكلمة المقدسة ، ويعمدون ، ويحتفلون بالعشاء الرباني الاخير ، أو بتعبير ادق « بالجماعة المؤمنة » • وهذه الكنيسة مستقلة عن السلطة السياسية ، ولكنها تحكم بحزم حياة المؤمنين • وليس فيها ذلك التسلسل المتدرج بالمراتب ، القائم بالكنيسة الكاثوليكية •

تاسيس كالفن كنيسة نموذجية في جنيف :

ان كتاب (كالفن) المشار اليه آنفا ، جعل منه الاب الثاني للاصلاح الديني البروتستنتي • وفي (جنيف) التي دانت بالبروتستانتية ، فاستدعته ليقيم فيها نهائيا منذ عام ١٥٤١ ، اظهر كالفن نشاطه الذي لم يضعف حتى وفاته عام (١٥٦٤)•

وقد كانت جنيف في الواقع مأوى لجميع البروتستانت المضطهدين • وقد اصدر كالفن فيها « اوامره الكنسية » ، التي فرضت على المدينة اخلاقا صارمة • وكانت الكنيسة فيها تحكم من قبل جماعة من (الرعاة) ، ينفذون تلك الاوامر بدقة وشدة • والى جانب الكنيسة ، هناك (مجلس) يمثل السلطة المدنية ، التي تمثل بالتالي (بورجوازية المدينة) • الا ان هذا المجلس ، اضطر تدريجيا ، الى احناء رأسه امام مطالب (مجلس الرعاة) • وقد حورب أي فرد يحاول ان يمس العقيدة ، أو يخرج عن التنظيمات الصارمة • ولقد منع كالفن المسرح ، والالعاب ، والرقص ، ونظم الربا تنظيما دقيقا • ومع كل تلك القيود ، فقد ازدهرت مدينة جنيف ، لان معظم اللاجئين اليها كانوا من الصناع المهرة •

لقد غدت جنيف (روما الكالفنية) ، لابسبب نفوذ كالفن فحسب ، وانما بسبب تأسيس (تيئودور دوبيز Théodor de Bèze) (١٥١٩-١٦٠٥) ، « الاكاديمية » • اذ في هذه « الاكاديمية » كان يكون (الرعاة المبشرون) ، الذين بعث بهم الى جميع انحاء اوربا ، لبث العقيدة الجديدة •

كانت كنيسة كالفن في جنيف ، نموذجا قلدته جميع الكنائس الكالفنية فيما بعد • والكنائس الكالفنية كنائس مستقلة ، الا انها متجمعة تحت سلطة مجامع قومية ، أو اقليمية •

انتشار الكالفنية : كان انتشار الكالفنية سريعا ، وعاما • فقد انتشرت في **سويسرة ، وغربي المانيا ، والاراضي المنخفضة ، وبوهيميا ، وهنغاريا ، وبولونيا ، وفي فرنسا .** وقد لاقت رواجا بين الصناع ، والبورجوازيين بصفة خاصة • كما وجدت تربة صالحة في ايقوسيا (سكوتلاندة) ، حيث بشر بها (جون نوكس) ، وكان ذلك في عهد الملكة (ماري ستيوارت) ملكة ايقوسيا ، وارملة ملك فرنسا (فرنسوا الثاني) • وسميت الكنيسة الجديدة فيها (بالكنيسة البريسبيتريانية (Presbytérien التي كان تنظيمها صورة طبق الاصل عن « كنيسة جنيف » ، والتي تركت اثرها في الاصلاح الديني الانكليزي •

لقد كانت (الكالفنية) على نقيض (اللوترية) ، التي كان من نتائجها تقوية سلطة الامراء ، باعطائهم الفرصة لمصادرة املاك الكنيسة ، وبفرض دينهم على رعاياهم • الا ان (الكالفنية) اسهمت في تقوية روح الحرية والاستقلال ولاسيما عند البورجوازيين ، ومن ثم دفعت حركة التاريخ قدما •

رابعا ـ حركة الاصلاح الديني في انكلترة :

الانغليكانية : لقد كانت انكلترة ، مثل المانيا ، تشكو منذ مدة طويلة ، من المتطلبات المالية للبابوية ، وقد رأينا حركة (وايكليف) فيها سابقا •

واذا كان الاصلاح الديني قد قام به في المانيا ، وسويسرة ، وفرنسا ، رجال دين مفكرون ، فان الاصلاح في انكلترة ، قام بـه الملك بنفسه لاسباب شخصية • فقد كان الملك (هنري الثامن) من اسرة تيودور ، يرغب في الزواج ثانية من امرأة في البلاط تدعى (آن دوبولين) ، فطلب من البابا ان يلغي زواجه من امرأته (كاترين داراغون) ، التي كانت خالة (شارلكان) الامبراطور • فاحتفظ البابا بجوابه لمدة طويلة ، فما كان من الملك الا ان طلق زوجه عن طريق « رئيس اساقفة كانتربري » ، وتزوج من محظيته • فقرر البابا حرمانه • وامام ذلك ، اعلن

نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية عام ١٥٣٤ ، بقرار من البرلمان ، سمي بـ (قرار السيادة Acte de Suprématie) • لم تكن هذه القطيعة مع البابا هرطقة دينية ، وانما انشقاقا عن الكنيسة ، اذ لم تتغير العقيدة او العبادة • وكان الملك يضطهد الطرفين ، (البابويين) (والبروتستانت) ، على حد سواء ، واغلق جميع الاديرة ، وباع ممتلكاتها • وتدريجيا ، اخذت الافكار اللوثرية تنتشر ، فقرر ان تكون الصلاة بالانكليزية ، وان يحتفظ بثلاثة اسرار مقدسة فقط •

وتحت حكم الملك (ادوار السادس) (١٥٤٧ ــ ١٥٥٣) ، تبنت الكنيسة الانكليزية التي سميت بـ (الانغليكانية) ، (كتاب صلوات) ذا روح كالفنية ، وسمحت بزواج رجال الديـن •

وفي عهد الملكة (ماري تيودور) (١٥٥٣ ــ ١٥٥٨) ابنة (كاترين داراغون)، وزوج ملك اسبانيا (فيليب الثاني) ، جرت محاولة لاعادة الكاثوليكية • فقد تصالحت الملكة مع رومـا ، واضطهدت البروتستانت ، ومـن هنا جاء اسمها (ماري الدامية) • وعند وفاتها ، خلفتها اختها (اليزابيت) (١٥٥٨ ــ ١٦٠٣) ابنة (هنري الثامن) من زوجته (آن دوبولين) •

ولقد اخفت في بادىء الامر نواياها ، الا انها لم تلبث ان قضت عـلى كـل تشريع ديني اجنبي ، باصدار (قانـون الـ ٣٩ مادة) عام ١٥٦٣ • وبـه أخـذ المـذهب (الانغليكاني) شكلـه النهائي ، الممثل في تفاهم بـين البروتستانتية والكاثوليكية : فمـن الكالفنية ، احتفظ بكتاب الصلوات ، والغـاء الاسـرار المقدسة ، ماعدا التعميد والمناولة • ومن الكاثوليكية ، حافظ علـى الاحتفالات الدينية ، والاساقفة ، والطقوس ، الا ان الصلاة كانت بالانكليزية ، ومنعت اقامـة الصلاة الكاثوليكية • ان هذه الكنيسة التي تبنت ، واستقرت ، كانت تحديـا للكاثوليكية والكالفنية في آن واحد ، ولـذا كانت مشـارا لثورات الكاثوليك ، وهجوم الكالفنيين • ولذلك ، فان الاضطهادات لاحقت « المتطهرين » الكالفنيين (البوريتان) ، وجميع المذاهب غير المتطابقة مع الانغليكانية • وكان على الملكـة اليزابيت ان تقاوم حتى موتها تلك الصراعات ، كي تفرض سلطتها •

خامسا ـ الاصلاح ـ المضاد أو الاصلاح الكاثوليكي :

امام التقدم السريع لحركات الاصلاح البروتستانتي ، لم يكن امام الكنيسة الكاثوليكية سوى فرصة واحدة تسمح لها بالبقاء ، وهي اصلاح نفسها • وقد استغرق اصلاحها لنفسها اكثر من قرن ، وقام في بادىء الامر بجهود فردية تمثلت في:

جمعية اليسوعيين :

ففي عام ١٥٣٧ ، اسس (اغناطيوس دولويولا I. De Loyola) (وهو اسباني الاصل) ، (مع فرنسوا كساڤيه) ، في مدينة باريس ، (جمعية يسوع)• وقد اخضع المنضمون اليها أنفسهم لنظام تدريبي ، وحياتي ، « عسكري » قاسٍ • فهم ، أي « اليسوعيون » ، جنود للمسيح ، يقودهم (قائد) منتخب منهم لمدى الحياة ، ويقسمون يمين الطاعة العمياء للبابا • وكانوا يعطون ثقافة عصرية متينة • واليسوعي يجب ألا يعيش في الدير ، وانما عليه أن يختلط بالناس ، ليبشر بعقيدته • وكان منهم المعلمون ، والواعظون ، والمبشرون ، في اوربا وخارجها • وقد تقربوا من الملوك والامراء ، وكان عدد منهم قساوسة خاصين بهم ، ومربين ، يقدمون اعترافاتهم لهم ، وبالتالي ، فانهم كانوا يمارسون تأثيرا كبيرا عليهم ، وعلى اولادهم ، ولاسيما أنهم تبنوا أساليب التربية الحديثة المستندة الى دراسة « الانسانيات » • كما مارسوا مثل هذا التأثير في نفوس مجموع المسيحيين عن طريق الوعظ ، والاصغاء الى الاعترافات ، والخدمات التي كانوا يقدمونها ، وبخاصة التعليمية ، والصحية ، والاجتماعية • وقد اعترف البابا بهذه الجمعية عام ١٥٤٠ • وكان توسعها كبيرا اذ بلغ عدد افرادها عام ١٥٨٠ (٥٠٠٠) عضو ، والكليات التي افتتحتها (١٤٤) كلية •

مؤتمر ترانت : ومقابل تلك الجهود الفردية ، حاولت البابوية أن تتخذ بعض اجراءات دفاعية • (فبول الثالث) مثلا ، اعاد **(دواوين التحقيق)** ـ أو كما يطلقون عليها احيانا اسم (محاكم التفتيش) ـ التي كان قد ضعف أمرها منذ العصور الوسطى ، ما عدا في اسبانيا • فهذه المحاكم الرهيبة ، التي كانت تحكم على المهرطقين

بالحرق ، كانت تريد ارهاب الجماهير بالامثولة ، وقمع أي تحرك بالعنف ولقد ادى القمع هذا ، الى افناء المخالفين في اسبانيا ، وايطاليا •

كما أسس عام ١٥٤٣ **(لجنة الفهرست)** التي كانت تضع (قائمة) أو (فهرسا) بالكتب التي يرى بانها خطرة على العقيدة الكاثوليكية ، ليمنع المؤمنون من قراءتها •

الا ان هذه القرارات لم تكن كافية : اذ ان عددا من الامراء الكاثوليك ، وكثيرين من علماء اللاهوت طالبوا بعقد **(مجمع ديني)** • وكان هدف بعضهم المصالحة مع البروتستانت ، وهدف بعضهم الآخر اصلاح الكنيسة • واخيرا اجتمع المجلس في **(ترانت)** عام ١٥٤٥ ، وامتدت اعماله حتى ١٥٦٣ • وكان ذلك ، بسبب الصراعات الفكرية : أولا بين (الايراسميين) ــ نسبة الى (ايراسموس) ــ الذين يريدون المصالحة ، وبين « المتشددين » والمتشبثين بآرائهم السابقة • وثانيا بين الامبراطور من جهة ، وملك فرنسا ، والامراء البروتستانت من جهة أخرى •وقد اتخذ (مجمع ترانت) **مجموعة من الاجراءات الاصلاحية ،** منها أن القساوسة والاساقفة يجب ان يقيموا في مقر اعمالهم ، وان يجري تثقيف القساوسة الصغار في ندوات محلية ، ويمنع ضم اقطاع كنسي الى آخر • واشترط في القس ان يكون قد تجاوز الـ (٢٥) عاما ، والاسقف (٣٠) عاما على الاقل •

اما **في ميدان العقيدة ،** فلم يجر أي تنازل للبروتستانت : فالكنيسة هي التي تثبت العقائد ، وتعلن « الصفة المقدسة » لتعليمات آباء الكنيسة • ويصل الانسان الى الخلاص بالايمان ، والاعمال معا • والمسيح موجود فعلا في مواد المناولة • وعلى كل كاثوليكي ان يقبل الاسرار السبعة،وتقديس العذراءوالقديسين، وان يقيم الصلاة باللغة اللاتينية • وتبقى السلطة العليا بيد البابا ، وقد دعمت اكثر من السابق • وقبل المبدأ ، بأن البابا وحده قادر على اتخاذ قرارات فيما يخص الايمان ، وهو « الراعي العالمي للكنيسة » •

وهكذا انقذ (الاصلاح المضاد) الكنيسة الكاثوليكية • الا ان صفته الصارمة ، والرجعيه ، منعت كل تقارب بين الكاثوليك والبروتستانت • وكان

اليسوعيون يخوضون ، في كل مكان في اوربا ، معركـة فكرية حاميـة الوطيس ، للاختلاف الجوهري في المعتقد ، واستطاعوا ان ينجحوا ، في ايطاليا والنمسا ، والمانيا الجنوبية . كما عمل هؤلاء اليسوعيون في مجال (التبشير الخارجي) للدين المسيحي الكاثوليكي ، في (الهند) و (اليابان) و (البرازيل) . وكرسوا جهودهم للتعليم ، حيث كانوا مثقفين ثقافة دينية عميقة ، وفي الوقت ذاته ، ثقافة حديثة ، تحيط بجميع المنجزات العصرية للعلوم . ولذلك نجحوا في استقطاب عدد كبير من المسيحيين ، والوثنيين على السواء . ولاسيما عندما اكدوا ، ان في قدرة الانسان ان ينقذ نفسه بأعماله في هذا العالم ، فتجاوبوا مع قلق العصر الذي كانوا يعيشون فيه .

وبالاضافة الى نشاط « الجمعية اليسوعيـة » ، « ومجمع ترانت » ، فقـد استنجدت الكنيسة بالفرق الدينية المختلفة . وقد عمل عدد من تلك الفرق علـى اصلاح نفسه كالكرمليين ، والفرنسيسكان . وظهرت فرق جديدة ، أسهمت هـي الاخرى في دعم المذهب الكاثوليكي ، ونشره في العالم .

وصفوة القول لقد عملت الكنيسة الكاثوليكية على اصلاح نفسها ، وتجميع الكاثوليك حولها ، الا انهـا اخفقت في اعادة وحدة الكنيسة .

الفصل السادس

ملامح الحياة السياسية في اوربا في القرن السادس عشر

٢ ـ العلاقات الدولية وتطورها :

يتميز القرن السادس عشر بتطور في **مفهوم العلاقات الدولية** ، أو بمعنى آخر **بظهور بنى جديدة في السياسة الخارجية لكل دولة** . وفي الحقيقة ، لقد ادخل الامراء والملوك في السياسة الاوربية ، تغييرات ، وممارسات جديدة ، اقتبسوا اغلبها من ايطاليا • فقد شرع هؤلاء الامراء ، يتبادلون السفراء ، على نمط ماكانت تفعله البندقية • وبذلك نشأت **(الدبلوماسية الدائمة)** . وقبلها ، كانت السفارات ، أو البعثات الدبلوماسية ، ذات طابع استثنائي • الا انه منذ القرن السادس عشر ، اصبحت تلك البعثات هي التي تفاوض ، وتعطي معلومات عن سياسة الدول التي تقيم فيها • ففيليب الثاني ملك اسبانيا مثلا ، كان له في فرنسا وانكلترة بعثات دبلوماسية نشيطة •

ومثلما طرأ تغيير في (العلاقات السياسية) للدول اثناء (السلم) فانه جرى تطور في **(العلاقات الحربية) وفنون الحرب** ذاتها • من المؤكد ، ان ادوات الحرب السائدة في العصور الوسطى ظلت باقية ، كالدرع والزرد ، والخوذ ، والرماح ، والسيوف ، وكذلك تقاليد الفروسية • الا ان ملامح جديدة بدأت تتثبت:فالجيوش عدت اكثر فاكثر جيوشا مرتزقة ، وتناقصت قيمة سلاح الفرسان لصالح المشاة ، الذين أصبحوا اكثر عددا • وشرعت المدفعية تلعب دورا متزايدا في المعارك ،كمعركة (مارينيان) التي اشرنا اليها سالفا ، في الحروب الايطالية • وفي الواقع ، لقد كانت

تلك العناصر العسكرية المتغيرة مترابطة فيما بينها : وقد تمكن محارب من ايطاليا هو (غونزالف القرطبي) ان يوجد (وحدة تكتيكية) اطلق عليها اسم ال (كورونيليا) ، وكان لها الفضل في التفوق العسكري الاسباني •

ونادرا ما كانت العمليات العسكرية حاسمة : فحروب القرن السادس عشر لا تشبه ابدا حروب اليوم • فهي اما معارك ، أو حصارات ، ولا جبهات فيها ، والانتصار فيها لا يضمن النجاح بشكل نهائي •

ويرجع هذا الى ان الجيوش كانت قليلة العدد ، وتنهك بسرعة ، وغير قادرة على استثمار النصر • لقد كانت الحروب تكلف غاليا ، فاذا طال امدها ، فان الامراء يصبحون عاجزين عن دفع اجور جيوشهم • ان هذه الصعوبات المالية ، بالاضافة الى بطء المواصلات ، كانت هي العامل الرئيسي في تلك الانتصارات المؤقتة التي لاغد لها ، وفي معاهدات الصلح ، التي ليس فيها منتصرون ومقهورون ، والتي ميزت صراعات القوى الكبرى في القرن السادس عشر •

والاضافة الى ماذكر آنفا ، فان **اهداف السياسة الاوربية** ، أو بتعبير آخر اهداف العلاقات بين الدول ، قد تغيرت • فقد كان الهدف في العصور الوسطى هو « وحدة المسيحية » • وقد سعى البابا ، والامبراطور ، لتأكيدها ، بممارستهما سلطة عالمية ، كما بيّنا في مناسبة سابقة • أما الآن فقد غدا ذلك المسعى مستحيلا ، لان حركة (الاصلاح الديني) جاءت لتجز السلطة « الروحية للبابوية » من ناحية ، واصطدمت « السلطة الامبراطورية » التي عمل (شارلكان) على تدعيمها في القرن السادس عشر بمقاومة (الدول القومية) ، من ناحية اخرى •

بل ان **(الفكرة العالمية)** قد حل محلها فكرة حديثة ، وهي **(الامبريالية)** • وكانت تعني في ذلك الوقت ، محاولة توسع دولة على حساب الاخرى : فهناك توسع ملوك فرنسا باتجاه ايطاليا ، وتوسع شارلكان ، بغرض انشاء دولة بورغونية قوية ، وتوسع فيليب الثاني ملك اسبانيا في البحر المتوسط واوربا الغربية • الا ان جمعيهم اخفقوا ، لانهم اصطدموا بمقاومة **الدول القومية** لهم ، التي لم يتردد امراؤها عن الاستنجاد **بالراي العام** ، وهذا ما فعله الملك فرنسوا الاول بعد معركة (بافيا) •

وخلاصة القول ، ان السياسة الدولية في اوربا توصلت الى ما كانت الدويلات الايطالية قد اكتشفته قبل قرن ، وهو **مبدأ توازن القوى** . وغدت انكلترة اختصاصية به ، ولاسيما في عهد الملكة اليزابيت ، حتى كان يقال ان القوة الانكليزية تشبه مؤشر الميزان ، الذي حملت كفتاه اسبانيا وفرنسا . وسياسة التوازن هذه ، استخدمتها الدول الاوربية ضد التوسعات ، التي أشرنا اليها ، لاجهاضها ، ومنها توسع شارلكان وامبراطوريته .

ب ـ اخفاق فكرة التوسع الامبريالي ـ حكم شارلكان :

ارث شارلكان : لقد تكونت في النصف الاول من القرن السادس عشر ، قوة ضخمة في اوربا الغربية : فقد ورث (شارل) من (آل هابسبورغ)ممتلكات بورغونية ، ونمسوية ، واسبانية . وعندما توفي والده الامبراطور (ماكسمليان) عام ١٥١٩ ، رشح نفسه للامبراطورية الرومانية المقدسة ، تجاه منافسه ملك فرنسا (فرنسوا الاول) . وتمكن بفضل المال ، ان يكتسب المنتخبين الى جانبه ، ومن ثم غدا امبراطورا في ٢٨ نيسان عام ١٥١٩ تحت اسم (شارلكان) أي (شارل الخامس) .

الامبراطور شارلكان : يمثل شارلكان وجها بارزا في تاريخ اوربا في مطلع العصور الحديثة . وعلى الرغم من صحته الهشة ، وثقافته المحدودة ، فانه ظهر في مستوى المهمة الموكولة اليه . ولقد احاط نفسه بمستشارين قادرين ،ومخلصين، واتقياء ، ومؤمنين بوحدة الكنيسة . ولقد كان لديه شعور قوي بواجباته ، ومسؤولياته .

وان مجرد النظر الى خريطة ممتلكاته ، يوضح الاسباب ، التي فرضت عليه سياسة اخضاع ايطاليا لنفوذه ، اذ انه لاغنى له عنها في مواصلاته . وبالاضافة الى هذا الهدف السياسي فقد كان يدغدغ نفسه حلمان : **اولهما** انتزاع (دوقية بورغونيا) من آل فالوا ملوك (فرنسا) وهو حلمه البورغوني ،**وثانيهما** ان يعيد للسلطة الامبراطورية قوتها السابقة وهيبتها ، أي العودة الى فكرة امبراطورية تقوم فوق الممالك الاوربية وتوحدها ، وتكون الممثلة لوحدة

المسيحية في وجه (الكفار) • ومن ثم ، فانه نظر الى نفسه ممثلا لتلك المسيحية . وبذلك كان لا بد ان يصطدم بالقوى الاوربية الاخرى المنافسة له ، والمضادة لاهداف سياسته •

حروب شارلكان : لقد اصطدم اولا بالفالوا في فرنسا ، وذلك منذ ١٥٢١ • وكان امرا لا يمكن تفاديه ، بسبب مطامعه في بورغونيا ، وبسبب العداء الناجم ، عن المنافسة السابقة على منصب الامبراطورية بينه وبين فرنسوا الاول، وخشية هذا الاخير من قوته ، ولاسيما ان ممتلكاته ، كانت تطوق فرنسا من الشرق ، والجنوب ، والشمال • وقد فكر (فرنسوا الاول) في التحالف مع ملك انكلترة (هنري الثامن) ، واجتمع معه ، ذلك الاجتماع الفخم في معسكر (الجوخ الذهبي) ، عام ١٥٢٠ • الا ان (هنري الثامن) ، وجد مصلحته مع الامبراطور (شارلكان) ، الذي سعى بدوره للقائه ، انما بمظاهر اقل بريقا ، من معسكر الجوخ الذهبي •

وقد قامت الحرب بين الطرفين : (شارلكان) و (هنري الثامن) من ناحية ، و (فرنسوا الاول) من ناحية ثانية • وكانت ظروف فرنسا فيها سيئة ، اذ انضم اكبر الامراء الاقطاعيين الفرنسيين وهو « الكونيتابل دوبوربون » ، الى الامبراطور ، نتيجة حكم غير عادل ، كان قد اصدره ضده ، ملك فرنسا • كما ان قائد الجيوش الفرنسية (بايار) ، قتل اثناء انسحاب الجيش الفرنسي من ايطاليا ، في عام ١٥٢٤ • ومع ذلك فقد استطاع (فرنسوا الاول) ان يوقف الزحف الاسباني، وقوات الامبراطور ، في شمال شرقي فرنسا (شمبانيا) ، وان يتصدى للزحف الانكليزي في الفلاندر •

وعندما حاول (فرنسوا الاول) استعادة (مقاطعة ميلانو) ، فانه هزم واخذ اسيرا في معركة بافيا عام (١٥٢٥) • واضطر ، وهو في الاسر في اسبانيا ، ان يوقع (معاهدة مدريد) ، التي تنازل فيها عن مطامحه في ايطاليا ، وعن الفلاندر ، والارتوا ، وبورغونيا •

الا انه عندما حرر ، رفض تنفيذ هذه الاتفاقية • وكون (عصبة) مع البابا والبندقية ، والامراء الايطاليين ، الحريصين على التخلص من الوصاية الامبراطورية•

ولم يتردد في التحالف مع الامراء اللوتريين (البروتستانت) الالمان • بل ومع الاتراك العثمانيين ، وعقد معهم معاهدة عام ١٥٣٥ ، ضمنت له امتيازات تجارية ، في بلاد الامبراطورية العثمانية ، وهي معاهدة « الامتيازات » المشهورة • وفي الوقت ذاته ، اتفق على أن تكون القوتان الفرنسية والتركية ، في تحالف ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة • وقد اثار هذا التحالف ضجة كبيرة في اوربا ، اذ رأت فيه عارا على فرنسوا الاول ، الذي وضع يده في يد السلطان التركي المسلم ، وكان بالنسبة اليهم هو عدو المسيحية الاكبر • هذا بالاضافة الى تقاربه مع الملك (هنري الثامن) ملك انكلترة •

وعادت الحرب ، وقام شارلكان بمهاجمة « روما » مقر البابوية ، واعمل جنوده النهب فيها عام (١٥٢٧) • واخيرا وقع (صلح كامبره) عام ١٥٢٩ • وتنازل الملك (فرنسوا الاول) بموجبه ، عن وصايته على (الفلاندر)،(والارتوا)، وعن مطامحه في ايطاليا • كما تنازل الامبراطور ، عن احلامه في (بورغونيا)، واصبح شارلكان هو السيد في شبه الجزيرة الايطالية •

واصطدم شارلكان ثانية ، مع (الامراء الالمان البروتستانت) ، الذين شكلوا عام ١٥٣١ (عصبة سمالكاد) • وكانت مقاومة هؤلاء الامراء لشارلكان ، مقاومة دينية وسياسية معا ، طالما انهم كانوا يخشون أي نمو للقوة الامبراطورية على حسابهم • ومع انه انتصر عليهم في معركة (مولبرغ) ، في عام ١٥٤٧ ، لكنه لم يستطع أن يفرق جمعهم ، اذ عادوا الى تكوين العصبة ثانية بعد بضع سنوات، واتفقوا مع ملوك فرنسا • وفي عام ١٥٥٢ ، استدعوا (هنري الثاني) ،لاحتلال « متز » و « تول » و « فردان » ، من ارض الامبراطورية • وعندما أراد شارلكان استعادة « متز » اخفق •

وكان شارلكان قد اصابه المرض فشرع يتبع سياسة التنازل والتفاهم : ففي عام ١٥٥٥ ، وقع (**صلح اوغسبورغ**) ، واعترف في (الدييت) الذي انعقد في تلك المدينة ، بالمذهب البروتستانتي في امبراطوريته • وسمح لكل امير ، ان يختار المذهب الذي يريده في امارته • الا ان هذا لا يعني منح الحرية الدينية

للافراد ، اذ لم يعترف الا بالمذهب اللوتري من البروتستانتية ، كما لم تعط حرية انتقاء المذهب اللوتري ، أو الكاثوليكي ، الا للامراء فقط ، اما الافراد فعلى دين ملوكهم ، وامرائهم • ونص (صلح اوغسبورغ) ايضا ، ان أي امير ديني يتخلى عن الكاثوليكية بعد ١٥٥٥ ، فانه ملزم على تسليم ارضه • وبعد (صلح اوغسبورغ) بعام (١٥٥٦) ، تنازل شارلكان عن العرش واعتكف في دير في اسبانيا ، اقام فيه حتى ١٥٥٨ ، حيث توفي • وبوفاته **مات ذلك الحلم الوسيط في تكوين امبراطورية عالمية** •

وكان شارلكان قبل اعتكافه ، وتنازله عن العرش ، **قد** قسم امبراطوريته بين اخيه (فردينان) وابنه (فيليب) • فاعطى لاخيه املاكه النمساوية ، ولقب امبراطور ، وماتبقى وهو كثير ، (اسبانيا وممتلكاتها ، ماوراء البحار ، وما يملك في ايطاليا ، والاراضي المنخفضة) الى ابنه الذي تسمى بعده بـ (فيليب الثاني) •

ولم تتوقف الحرب بين فرنسا واسبانيا ، بل غدت بين ملك فرنسا (هنري الثاني) و (فيليب الثاني) • واستطاع الاخير ان يهزم الفرنسيين ويستولي على « سان كنتان » في شمالي فرنسا عام ١٥٥٧ • الا ان الفرنسيين تمكنوا ، في العام التالي ، من انتزاع ميناء (كاله) على بحر المانش ، من يد انكلترة ، حليفة اسبانيا •

واخيرا ، توقف ذلك النزاع الطويل بين فرنسا واسبانيا ، بعقد (**معاهدة** كاتو كامبريزيس) عام ١٥٥٩ • وفيها تنازلت فرنسا نهائيا عن اطماعها في ايطاليا ، وانكلترة عن (كاله) ، وفيليب الثاني عن بورغونيا ، وكان سلام من انهكته الحرب • الا ان هذا السلام ، كان محاولة في الواقع ، للتقارب بين المملكتين : فرنسا ، واسبانيا ، الكاثوليكيتين ، لمحاربة « الهرطقة البروتستانتية » • وبذلك اتخذت السياسة الاوربية مجرى آخر •

ج ـ الاخفاق النسبي لآخر تجمع اوربي ضد الدولة العثمانية :

لقد تدعم بناء الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ، وتوسعت فتوحاتها فالسلطان **سليم الاول** (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) بعد ان هزم الفرس ، واستولى

على بلاد الشام ومصر ، غدا سيد الشرق كلـه ، وبعث لصالحه الامبراطوريـة البيزنطية . وجاء بعـده ابنه (**سليمان القانوني**) (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ليطـرح ثقله ، وتهديده الرهيب ، لاوربا الوسطى . فاستولى عام ١٥٢١ على **بلغراد** ، واتبعهـا **بهنغاريـا** عام ١٥٢٦ . وفي عام ١٥٢٩ ، وصلت جيوشه الى اسوار (فينا) وعسكرت خلفها . واخيرا ، وضع الاتراك قدمهم في البحر المتوسط ، فاستولوا عام ١٥٢٢ **على رودس** ، ودعموا حمايتهم لخير الدين بربروس في الجزائر . وعلى الرغم من الحملة ، التي وجهها شارلكان الى تونس ، عام ١٥٣٥ ، والـى الجزائر ، عام ١٥٤٢ ، فان الجزائر بقيت تحت نفوذ الدولة العثمانية . وبـذلك ظل الوجود التركي قائما في المتوسط المغربي ، ويهدد اسبانيا ، وممتلكاتها ، في صقلية وجنوبي ايطاليا . كمـا ان النشاط البحري الجزائـري ، والتونسي ، والليبي ، كان يلبلب مواصلات اوربا والامبراطورية . وفي عام ١٥٧٠ ، استطاع العثمانيون استخلاص **قبـرص** من البنادقة ، وازالة كل نفوذ اوربي في شرقي البحـر المتوسـط .

ان احتلال العثمانيين لقبرص ، وهي آخر ممتلكات الغرب في الشرق ، اثار الروح الصليبية الاوربية ، وكان المحرك لها البابا (بيوس الخامس) ، وانضم اليه كل من البندقية ، واسبانيا . وفي السابع من شهر تشرين الاول عام ١٥٧١ ، حـدثت **معركة (ليبانتو)** ، بين الاسطول الاوربـي المتحـالف ، والاسطول العثماني ، وانتصر الاسطول الاول . وكانت فرحة اوربا كبيرة بهذا النصر . ولكن بعـد ثلاث سنوات ، استطاع الاتراك استعادة تونس في عام ١٥٧٤ . فحملـة التجمع الاوربي السالفة الذكر كانت آخر صليبية ضد التقدم العثماني ، وهـي وان استطاعت ان توقف ذلك التقـدم ، الا انها لـم تتمكن من القضاء علـى الوجود التركي في شرقي اوربـا .

د ـ يقظة القوميات في اوربا :

لقد شاهد القرن السادس عشر **تكون الدول القومية الاوربية** وبروزهـا على مسرح السياسة الدولية ، ولا سيما في اوربا الغربية . ومن هذه الدول الكبرى ، اسبانيا ، وانكلترة ، وفرنسا .

اولا ـ الدولة الاسبانية وحكم الملك فيليب الثاني

تتميز الفترة التي اعقبت عام ١٥٥٩ ، في ميدان السياسة الاوربية ، بالتفوق العسكري الاسباني ، وبالاهمية الكبيرة للقضايا الدينية .

وكان على عرش اسبانيا خلالهـا الملك **(فيليب الثاني)** ابـن الامبراطور (شارلكان) وقد حكم خلال الاعوام (١٥٥٦ـ١٥٠٨) . وكان اقوى ملك فـي اوربا الغربية ، بسبب ارثه الواسع : ففي **اوربـا** ، له ممتلكات في ايطاليا ، وله الاراضي المنخفضة ، وفرانش كونته ، وفي **امريكا** ورث المستعمرات الاسبانية في امريكا الوسطى ، وامريكا الجنوبية ، وفي **آسيا** ، جزر الفليبين . وكان يملك جيشا قويا بالاضافة الى المعادن الثمينة ، ولا سيما الفضة ، التي كانت تزوده بهـا مستعمراته في امريكـا .

واذا كان شارلكان والده ، قد قضى قسطا كبيرا من حياتـه في الاراضي المنخفضة ، فانه على نقيضه، كان ملكا اسبانيا ، قلبا وقالبا . ولم يغادر ابدا قصره في (الاسكوريال) ، الذي بناه على بعد (٤٠) كم من عاصمته الجديدة (مدريد). وقد كان معروفا بهدوئه ، وكبريائه ، فلا يكلمه احد الا وهوراكع على ركبتيه . وكان ملكا بوروقراطيا ، يريد أن يفحص كل شيء بنفسه وكاثوليكيا متعصبا، وقد وضع كل ثقله في خدمة (الاصلاح الديني الكاثوليكي المضاد) . وكان من اول اعماله حرق (١٢) مهرطقا في الساحة العامة . **واضطهد ما يقارب نصف مليون من الموريسك** ، (وهم العرب المسلمون الذين الزموا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة عام ١٤٩٢) كانوا مقيمين في جنوب اسبانيا ، ونفى ، وشرد (٥٠،٠٠٠) منهم ، بعد قيامهم بثورة في غرناطة عام ١٥٦٧ .

وفي البحر المتوسط ، فان « فيليب الثاني » ، دخل في صراع مـع الاتراك العثمانيين . وكانت قواته قد سيطرت على (وهران) في الجزائر ، وعلى (تونس)، وحاربت بحارة بلاد المغرب المجاهدين ، واصطدمت مع الاسطول العثماني ـ كما اشرنا الى ذلك سابقا ـ في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ ، مشتركة مع حلفائها، ومنهم البابا.

وفي عام ١٥٨٠ ضم اليه البرتغال : ووحد بذلك شبه الجزيرة الايبرية ، وغدا ملكا للبرتغال ، وسيدا للامبراطورية البرتغالية ، وظلت البرتغال تحت جناح اسبانيا

حتى عام ١٦٤٠ • ولكن مثلما لاقى فيليب الثاني في سياسته مظاهر النجاح تلك ، فانه عانى الفشل وذلك في الاراضي المنخفضة ، حيث اندلعت ثورة لاهبة ضدحكمه.

ثورة الاراضي المنخفضة :

لقد تطايرت شرارة الثورة في آب عـام ١٥٦٧ • وكانت لها اسباب عديدة ومعقـدة ، فمنها : فرض ضرائب جديـدة ، واعادة تنظيم الـدوائر الكنسية ، وتسلل اليسوعيين ، واضطهاد البروتستانت ، منعا للكالفنية من الانتشار • وفوق كل ذلك ، سياسة لا حكيمة ، في فرض الاسبان على البلاد ، حكاما وموظفين ، مما اثـار استياء كبار النبلاء ، الذين كان على رأسهم (ويليام دورانج) ، الملقب بـ(الهادىء) • ولم تلبث ان تدخلت في تلك الاسباب قضايا اجتماعية ودينية : فصناع المدن الشهيرة ، بصناعة الصوف ، انتشر بينهم المذهب الكالفني ، فأخذوا يطالبون بالحرية لمذهبهم • ويمكن القـول ان فيليب الثاني لـم يفهم الوضـع الاقتصادي ، والسياسي الخاص ، للاراضي المنخفضة • ففعالياتها الاقتصادية ، والفنية ، ونشاطها البحري ، واسطولها التجاري القوي ، دعم شعورها القومي ، وكذلك فعل حكم شارلكان ، الذي كان يرى فيهـا ، مع بورغونيا ، موطنـه الاصلـي •

وعندما قامت الاضطرابات ، ارسل الملك لتهدئتها (دوق دالب) الذي أوجد نظاما ارهابيا عنيفا • ومع أنه اعدم (٨٠٠٠) ثائر ، فانه لم يستطع ان يقمع الثورة فاستدعي الى اسبانيا عام ١٥٧٣ • وحل محله الحاكم (فارنيز) ، الذي تمكـن ان يعيد الى التـاج الاسباني ، **(المقاطعات العشر) في الجنوب ،** وكانت قـد بقيت على المذهب الكاثوليكي ، وذلك تحت اسم (اتحاد آراس) • بينما تابعت **(مقاطعات الشمال)** كفاحها تحت زعامة **(ويليام دورانج)** ، وكان عددها سبع مقاطعـات ، وكونت اتحادا فيما بينهـا اطلقت عليه اسم **اتحاد اوترخت** عام ١٥٧٩ • وقد تحول هذا الاتحاد الى « **جمهورية المقاطعات المتحدة** » التي اعلنت عزل الملك عام ١٥٨١ ، وتحالفت مع انكلترة ، وفرنسا • وبعد كفاح قاس جدا ، كان على الاسبان أن يمنحوا للثوار هدنة من ١٢ عاما تبدأ من عام ١٦٠٩ •

الا أن اسبانيا ، لم تعترف باستقلال « جمهورية المقاطعات المتحدة » ، الا في (معاهدة وستفاليا) عام ١٦٤٨ .

اما الاخفاق الثاني الذي لاقاه فيليب الثاني ، فقد **كان في صراعه مع انكلترة عام ١٥٨٨** . وكان على عرشها الملكة (اليزابيت) ، التي تدين بالبروتستانتية . فقد قدمت العون للكالفنيين الايقوسيين ، وللهوغنوت الفرنسيين ، وكان هذا كافيا كي يحيك الملك (فيليب الثاني) ضدها ، عددا من المؤامرات ، بمساعي سفيره فيها . وكان منها ، سعيه لاحلال (ماري ستيوارت) ، ملكة ايقوسيا الكاثوليكية، محلها . ولكن اليزابيت استطاعت القبض عليها ، واعدامها .

واضيف الى تلك الخصومة الدينية ، **التنافس البحري** . ففي الوقت الذي كان فيه فيليب الثاني يضيف الى الممتلكات الاسبانية في امريكا،الامبراطورية البرتغالية ، فان الانكليز كانوا قد ابتدؤوا **حرب القرصنة** ، ضد التجارة الايبرية، ووجهوا قراصنتهم (من أمثال هوكنز ، ودريك) ضد السفن الاسبانية ، بل شرعوا يقومون بغارات على المدن الاسبانية نفسها . وبذلك تبدى الصراع من أجل السيادة على المحيطات .

ولما كانت انكلترة قد غدت ملجأ لثوار الاراضي المنخفضة ، فقد قرر (فيليب الثاني) أن يهاجمها أولا ، ثم يلتفت ضد المقاطعات الثائرة في الاراضي المنخفضة . فاذا ما نجح ، فانه يقضي بضربة واحدة ، **على المنافسة البحرية** ، والهرطقة البروتستانتية. ولهذا الغرض جمع في لشبونة (١٣٠) **سفينة** ، و(٢٠٫٠٠٠) جندي ، وقذف هذا الاسطول الكاثوليكي ، أو **« الارمادا التي لا تغلب »** لغزو مملكة اليزابيت عام ١٥٨٨ . الا ان العواصف شتتت السفن،التي هاجمها القراصنة الانكليز بدورهم ، وتحولت الحملة الى كارثة بالنسبة لاسبانيا ، ونصر مؤزر للانكليز ، أي نصر للبروتستانتية ، وفي الوقت ذاته ، نصر لامة تبدت في أوج تفتحها ، وقوتها .

علاقة فيليب الثاني بفرنسا :

لقد كانت فرنسا منذ مذبحة (سان بارتلمي) عام ١٥٧٣ ، غارقة في فوضى

كبيرة ، أراد ملك اسبانيا أن يستفيد منها • فمنذ تكون (العصبة) التي اوجدها (الحزب الكاثوليكي) ، فانه قدم لرئيسها (الدوق دوغيز) كميات ضخمة من المال • وأرسل في عام ١٥٨٩ جيشا اسبانيا ، لانقاذ باريس ــ التي تحالفت مع العصبة ــ من حصار ملكها الشرعي (هنري الرابع) لها • بل فكر في وضع ابنته (ايزابيل) ، من زوجته الفرنسية (ابنة الملك هنري الثاني) ، على عرش فرنسا ، اذ كان يرى انها احق بوراثة عرش فرنسا الكاثوليكي من « هنري الرابع » ذي الاتجاه البروتستانتي •

وهنا ايضا اخفقت سياسته : لان مهارة (هنري الرابع) ملك فرنسا ، وتحالف بعض الكاثوليك معه ، اديا الى وثبة **الشعور القومي الفرنسي** • وفي معاهدة (فيرفان Vervins) عام ١٥٩٨ ، اضطر فيليب الثاني للتنازل عن مطامحه الفرنسية •

ففيليب الثاني حاول إذاً أن يحقق التفوق لاسبانيا ، والنصر للكاثوليكية • ولكنه اخفق في كل مكان ، امام ملوك ، كانوا يدافعون عن مصالح اممهم ، ويسعون لاقامة توازن بينها ، بمنع أية واحدة منها من فرض سيادتها وسيطرتها على الاخرى •

ومع ذلك ، بدت اسبانيا في عهد الملك (فيليب الثاني) دولة ضخمة وقوية ، ولها امبراطورية شاسعة • وتمتلك قوى اقتصادية كبيرة ، وقوى عسكرية تعتبر الاولى في اوربا • وفي عهده حققت شبه الجزيرة الايبرية وحدة ارضها بضم البرتغال الى اسبانيا ، ووحدتها الدينية على حساب المورسك ، واليهود •

وقد وصل عدد سكانها الى عشرة ملايين نسمة ، واقامت بعض صناعات مكينة **كالنسيج** ، **والتعدين** في طليطلة • وكانت تنتج **الصوف** بكميات وافية ، وتمارس نشاطا ماليا واسعا (مثل اسواق مديناديل كامبو) • وفوق كل ذلك ، فقد كان بامكان المعادن الثمينة التي تمتلكها ، والتجارة مع امريكا ، أن تدفعها بقوة الى طريق الرخاء •

ولكن ، ومع كل تلك الامكانات الاقتصادية ، فان اسبانيا لم تبلغ الشأو

المنتظر ، اذ يبدو انها لم تستثمرها الاستثمار الصالح : **فالزراعة** فيما تأثرت تأثرا كبيرا باخراج الموريسك منها ، ولا سيما منطقة الاندلس • ويضاف الى ذلك ، الاساءة التي ألحقها (الميستا) ، أي اتحاد « رعاة الغنم » المتنقلين ، بالاراضي الزراعية ، حتى ان اسبانيا اضطرت لاستيراد قمحها من الخارج • **والصناعة** ما عدا بعض النسيج ، والتعدين ، المشار اليه ، لم تنطلق نحو الامام • لان التجار بقوا يفضلون بيع المواد الخام على المصنوعة • أما (**الامور المالية**) ، فقد تبلبل وضعها بسبب افلاسات الملك (فيليب الثاني) في اعوام (١٥٥٧–١٥٧٥–١٥٩٧) ، الناجمة عن مصروفات البلاط ، ومرتبات كبار الامراء ، والحروب الخارجية ، وثورة الموريسك ، والاراضي المنخفضة • وكان من نتيجة ذلك ، أن حل الصناع الفرنسيون ، وتجار أوربا كلها ، والمصرفيون الايطاليون ، محل الاسبان ، الذين اتجهوا الى اعمال غير منتجة •

وهذا الاخفاق الخطير يترجم ذاته ، في اختلال التوازن في المجتمع نفسه : فالبلاط الاسباني ، الذي كان ذا تقاليد قاسية ، فرضت نفسها على كل اوربا ،كان في الواقع واجهة فخمة فقط : فخلف بعض عشرات من أسر (النبلاء الكبار) ، و (رجال الدين) ، كان هناك شعب كامل من (الهيدالغو (Hidalgos (اولاد النبلاء الفقراء نسبيا الذين لا يقومون بعمل) • ومن ثم فان ظاهرة (الفقر) ، التي تسم اوربا بشكل عام في نهاية القرن السادس عشر ، اتخذت في اسبانيا ابعادا غير عادية •و البورجوازية لم تنم النمو الملاحظ في بلاد أوربا الاخرى ولم يكن من هم لها ، الا الوصول الى المراتب الشرفية (القاب النبلاء ومناصبهم) •

ويمكن ان تعزى عوامل ذلك التدهور ، بالاضافة الى ما ذكر ، الى كبرياء الارستقراطي الاسباني ، والى التقاليد والافكار الرجعية السائدة حول مفهوم العمل الزراعي ، والصناعي ، والتجاري • والى جانب ذلك ، هناك سياسة « الملك الكاثوليكي » (فيليب الثاني) ، التي لم تكن تتناسب مع القوى الحقيقية لاسبانيا • فحتى تدفق المعادن الثمينة كان له نتائج سلبية ، لانه كان غير قادر على تحريك اقتصاد فعال ، فبلبل المجتمع بارتفاع الاسعار ، واعطاه

مظهر رخاء لا وجود واقعي لـه • وهكذا ، لم يكن باستطاعة تلك الامبراطورية الواسعة ، أن تزود البلاد بحاجتها من السلع المختلفة ، كما ان الثروة الضخمة المتدفقة ، كانت تتبدد بشراء تلك السلع من الخارج • وبالاضافة الى ذلك ، لـم تكن المستعمرات الاسبانية تحصل على السلع المصنوعة من اسبانيا ، مقابل المـواد التي تبعثها لهـا ، ولـذا نشطت تجارة التهريب فيها مع اعداء اسبانيا •

إذا ، ما معنى أن يقال ان اسبانيا عاشت في القرن السادس عشر قرنا ذهبيا ؟ وفي الحقيقة ، في الوقت الذي شرعت فيه العظمة السياسية لاسبانيا تميل الـى انحدار ، فان الحضارة فيها تسنمت قمة عالية • ففي كل ميدان من ميادين الفكر ، كان لاسبانيا رواد مبدعون ، اكان في التيئولوجيا ، أو التاريخ ، أو جغرافية العالم الجديد ، أو الادب المسرحي • كما ان بناء **الاسكوريـال** الفخم ، ورسوم الفنان (**لوغريكو**) يوضحان كيف تمثلت قشتالة ، الدروس الفنية الايطالية ، اكان في الاجسام العارية المصورة ، أو في وقدة الروح البادية في الوجوه •

وقد ظهر فيها في ميدان الادب الديني التصوفي (تيريز دافيلا) ، والشاعر الكبير (جـان دولا كروا) • كمـا انبثقت **القصة البيكاريـة** ، أي القصـة الشعبية ، التي اتخذت موضوعا لهـا حياة المتآمرين والمخادعين والتي ستزدهر في القرن السابع عشر •

وابرز ادباء اسبانيا في هذا العهد ، (**سيرفانتس** Cervantès) ، الجندي القديم المحارب في معركة « ليبانتو » ، الـذي اوجد نوعا ادبيـا جديداً هـو (الرواية) • وقد اتحف عالم الادب بمؤلفه (**دون كيشوت**) الذي يوضـح فيـه كيف ان اخفاقات الانسان ، لا تحطم كرمه ، ولا امله •

ثانيا ــ تكون انكلترة الحديثة

لقد عرفت انكلترة في القرن السادس عشر تطورا رئيسيا اعطاها اصالتهـا الدينية ، وثبت قوتها البحرية • ويمكن اجمال مظاهر تطورها بالنقاط التالية :

١ ــ **دعم السلطة الملكية** : أن ضعف عدد النبلاء في انكلترة ، نتيجة لحرب

الوردتين السالفة الذكر ، اتاح تقدم الملكية فيها . وفي الواقع ان دعم النظام الملكي في انكلترة ، يرجع الى شخصية ملكها الاول من اسرة (تيئودور) ، وهو (هنري السابع) الذي اورث ابنه « **نظاما قضائيا** » قويا ، بايجاده (الغرفة المنجمة) ، وهي محكمة من سبعة قضاة ، خمسة منهم يعينهم الملك . كما ترك له **فيضا ماليا** ، ناجما عن ضم الاقطاعات الشاغرة بموت اصحابها ، الى التاج . وهذا اعطى (لهنري الثامن) سلطة ، واستقلالا شبيهين بما كان يتمتع به (فرانسوا الاول) ملك فرنسا .

ولكن حتى تبقى تلك السلطة والاستقلال قائمين ، كان من الضروري الا يحتاج الملك الى الكثير من المال . لان فرض ضرائب كثيرة يتطلب دعوة البرلمان ، الذي يراقب مبدئيا مبادرات الملوك ، ويحد منها . ولهذا السبب لجأ (هنري الثامن) الى **مصادرةاملاك الكنيسة** ، واتبعت الملكة اليزابيت **سياسة مالية حكيمة** في ادارتها للشؤون الانكليزية . فهذان الامران لم يكونا اجراءين فرضتهما الظروف فحسب ، وانما كانا وسائل في خدمة حكم أكثر فردية ، واشد مركزية .

وفي الواقع استطاعت (**الملكة اليزابيت**) خلال حكمها الطويل (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ان تتصرف بتلك الحكمة الحذرة . وهي ابنة (هنري الثامن) من زوجته (آن دوبولين) . وقد كانت تعيش خلال حكم اختها (ماري تيئودور) ، في خوف مستمر على حياتها . وكانت ذكية ، ولكنها قاسية وسلطوية ، وقد سعت لايجاد ملكية مطلقة . وحتى لاتجمع البرلمان ، فانها كانت تحكم بقرارات ، وقد ساعدها على ذلك ، « **الصبغة القومية** » ، التي احاطت بها الملكية ، اثناء صراعها مع ملك اسبانيا « فيليب الثاني » . فاستطاعت ان تمارس حقوقها الاستثنائية ، في القضاء ، وفرض الضرائب ، مستندة الى « **مجلس خاص** » ، والى رجال اكفياء من امثال **ولسنغهام** منظم كل عمليات القمع ، و **ويليام سيسيل** ، ابي السياسة الاقتصادية، والمستشارين نيقولا ، وفرنسيس بيكون .

ومع كل ذلك ، فقد كان آل تيئودور يحسبون حساب **البرلمان** ، الذي يعتمد على تقليد عريق ، والذي كان يعارض الملك أحيانا . ومنذ عام ١٥٨٨ ، اخذ

« مجلس العموم » يظهر ارادته في الدفاع عن بروتستانتية متطرفة ، وفكر في الحد من السلطة الملكية .

٢ ـ **دين قومي** : ان طرافة الاصلاح الديني البريطاني تأتي من الدور الرئيسي الذي لعبه فيه الملوك ، كما تأتي من الحلول التي تبنوها .

فقد اشرنا سابقا ، ان الامر ابتدأ بقضية طلاق ارادها الملك هنري الثامن . الا ان البابا رفض الغاء زواجه بكاترين داراغون (خالة شارلكان) ، فعمل الملك على فصل الكنيسة الانكليزية عن البابوية ، وجعل (البارلمان) يصوت عام ١٥٣٤ على (قرار السيادة) ، الذي جعله رئيسا اعلى للكنيسة القومية . وبعمله هذا ارضى نزعات الشعب البريطاني ، الذي لم يكن يثق كثيرا ببابا روما ، وبرجال الدين . الا انه بالنسبة لكل ما تبقى من الدين ، والكنيسة ، فانه ابقاهما كما هما في العقيدة الكاثوليكية .

ولكن هذا الحل ، المفيد للتاج ، لم يكن بالامكان استمراره في حقبة مملوءة بالتقلبات الدينية . فانكلترة اتجهت مع (ادوار السادس) (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) ، نحو اصلاح اكثر جذرية ، وفي عهد الملكة (ماري تيئودور) نحو ردة كاثوليكية . وفي هذا الوقت كانت (الكالفنية) تنتشر تحت تأثير ايقوسيا (سكوتلاندة) ، واللاجئين ، والوافدين ، من القارة . فازدادت الانقسامات السياسية ، واشتدت الخلافات ، مما هدد وحدة المملكة بالخطر .

ـ وجاءت (الملكة اليزابيت) لتوجد حلا وسطا . فقد اكدت ثانية (قرار السيادة) في عام ١٥٥٩ . ومنحت (مجلس العموم) المتطرف في البروتستانتية ، حق تبني « كتاب الصلوات » ، « واعتراف الايمان » ، اللذين يحملان الروح الكالفنية . وهذا حل لم يرض في الواقع احدا : فالكاثوليك التفوا حول ملكة ايقوسيا (ماري ستيوارت) ، واخذوا يسعون كي تكون مليكتهم بدلا من اليزابيت . وهذا ادى الى سياسة قمع قاسية ، وصلت الى اوجها ، بتنفيذ حكم الاعدام بالملكة (ماري ستيوارت) عام ١٥٨٧ ، بعد ان ابقيت اسيرة لدى اليزابيت (١٩) تسعة عشر عاما . وكذلك فان الكالفنيين كانوا غير راضين ، ويعترضون باستمرار على الحل الانغليكاني .

الا ان هذا « الدين الجديد » ثبت سلطة التاج على الكنيسة القائمة ، وسمح للاصلاح بامتداد عالمي ، مواز لامتداد الامبراطورية الانكليزية في المستقبل. ولكنه كان يحمل كذلك ، بذرة الصراعات الدينية ، التي أغرقت الجزيرة الكبيرة بالدماء ، مترابطة مع الاختلافات السياسية •

٣ ـ **ازدهار اقتصاد حديث** : يمثل حكم الملكة اليزابيت اتجاها جديدا في التاريخ الانكليزي : فعلى الرغم من ان انكلترة بقيت بلدا ريفيا زراعيا ، الا ان **المجتمع الزراعي كان يتطور بوضوح** • فالاستيلاء على اراضي الابرشيات ، والطلب المستمر على الصوف من أجل الصناعة ، دفع ملاك الاراضي لتنمية **تربية المواشي** • ولهذا السبب ، سيجوا ممتلكاتهم ، مما ادى الى فقر الفلاحين الذين كانوا يعيشون من المراعي المشتركة •

واهم من ذلك التطور ، **نمو الصناعة** التي نظمها « ويليام سيسيل » • وساعده على ذلك هجرة العمال من الاراضي المنخفضة ، واستثمار رؤوس الاموال، المتجمعة من بيع املاك الكنيسة ، ومن دخول التجارة • وقد استفادت من ذلك التطور الصناعي **صناعة النسيج ، والتعدين** ، واستثمار **مناجم الفحم الحجري** ، الذي حل محل فحم الخشب ، ولاسيما في التدفئة • ومايجب تذكره دائما في هذا التطور ، هو **الاتجاه المركنتيلي** لسياسة ويليام سيسيل ، أي تنمية الصناعة الوطنية للحد من اخراج النقد خارج البلاد • ومن ناحية اخرى ، استخدام **تقنيات جديدة** أوجدت **ثورة في انتاج الحديد ، والحديد المصهور** ، وسمحت نتيجة استخدامها للفحم الحجري ، بظهور صناعات ، كصناعة الزجاج ، والقرميد ، ونموها •

ولنجاح مثل تلك السياسة الاقتصادية ، كان لابد من دعم مالي صلب ، وتوسع تجاري • اما **الدعم المالي** فقد وفره (توماس غريشام (Th. Gresham مالي البلاط ، الذي اوجد (بورصة لندن) عام ١٥٦٦ • وحول **التوسع التجاري** ، فيكفي ان يقال ، انه في هذه الحقبة تأسست **العظمة البحرية لانكلترة** : فالمكتشفون والقراصنة الانكليز (من امثال « هوكنز » و« دريك » و « فوربيشر » ، و

« كافنديش » ، وغيرهم) كانوا يشقون عباب البحار ، ويهاجمون الاسبان ، ويحملون الى انكلترة غنائم ضخمة. كما ان الدولة انشأت **شركات التجارة الكبيرة** ، كشركة الليفانت ، وشركة الهند الشرقية ، أو شجعت على انشائها ، واعطتها احتكارات واسعة ، فشرعت تنافس تجار البلطيق ، والبنادقة ، والبرتغاليين .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد اتجهت انكلترة نحو **استعمار اراضي جديدة في العالم الجديد** : فأسست في امريكا الشمالية (عن طريق والترراله) (مقاطعة فيرجينيا) (احدى ولايات الولايات المتحدة الامريكية اليوم) ، وكذلك مستعمرة « الارض الجديدة » .

وقد مارس الانكليز في عهد « اليزابيت » **« تجارة الرقيق الاسود »** اذ كانوا ينقلون الزنوج العبيد من الشاطىء الافريقي الى امريكا .

وفي الواقع ، ان ما يميز التطور الاقتصادي الانكليزي في هذه المرحلة ، هو انعدام الافكار المسبقة المضادة لمثل تلك الفعاليات الجديدة ، التي رأينا وجودها في اسبانيا . وهذا جعل الجميع ، من بورجوازيين ، ونبلاء ، ينطلقون للعمل في هذه الميادين . بل ان الملكة نفسها ، بتوظيفها (٤٠٫٠٠٠) ليرة في تأسيس (شركة الهند الشرقية) عام ١٦٠٠ ، جعلت من الرخاء التجاري عملا قوميا كبيرا .

وقد رافق ذلك التطور الاقتصادي ، **تطور اجتماعي** : فطبقة النبلاء التي ضعف دورها السياسي ، اخذت تمد طبقتها على الاقتصاد . فحصلت على حق تسييج املاكها ـ كما ذكرنا ـ على حساب طبقة الملاك الصغار (اليومن) . فاضطر قسم من الريفيين ان يهاجر الى المدن ، ولاسيما الى (لندن) العاصمة ، التي كانت في تنافس مع (انفرس) ، و (امستردام) ، في الاراضي المنخفضة . واصدرت الحكومة **« قانون الفقراء »** عام ١٦٠١ ، تمنع فيه التشرد ، والتسول ، وتلزم المدن على وضع ضريبة لصالح الفقراء ، وتنظيم ورشات للعمل لهم .

٤ ـ واخيرا فان (العهد الاليزابيتي) في انكلترة كان هو **مرحلة النهضة الانكليزية** : وتتبدى بعض مظاهرها ، **بالترف** ، الذي اخذ يلاحظ في قصور نبلاء الريف ، وبيوت الفلاحين ، وفي البلاط . ولكن يجب أن

لاينسى ابـدا وجود عديد من المشردين ، والعاطلين عن العمل ، الذين حاولت الدولة تشغيلهم في ورشات العمل المنظمة في المدن •

وفي ميدان **الناحية الفنية** من العسير التحدث عن نهضة انكليزية :فالرسامون الكبار من امثال (هولباين) و (فان ديك) كانوا من اصل اجنبي • والمهندسون المعماريون بقوا مخلصين للفن الغوطي •

اما الميدان الذي لمعت فيه انكلترة في عهـد النهضة ، فكـان **ميدان الادب** وذلك تحت تأثير الانسانيين ، والكتاب الفرنسيين • وابرز ما قدمته فيـه الادب المسرحي • والاسم الذي كان يغطي جميع الاسماء ، كان« **شكسبير** » (١٥٤٦ ـ ١٦١٦) الاديب ، والممثل في (مسرح غلوب) الشهير ، والذي استطاع ان يبـدع عالما من الخيال ، والمعارك ، والاعمال النفسية ، والمآسي • وكان عمله « عملاقا وقويا كنهر في حالة الفيضان ، وناعما رقيقا كنـدى الصباح » ، وفيـه تجلت (انكلترة الجديدة) • ومسرحياته كثيرة ، منها على سبيل المثال (عطيل) و(ماكبث و (هاملت) و (روميو وجولييت) وغيرها •

ويجب الا ينسى ان بدايات **النهضة العلمية والفلسفية** ، ترجع كذلك الى عهـد اليزابيت ، وفي زمنها بدأ اسم(**فرنسيس بيكون**) (١٥٦١ــ١٦٢٦) يتألق ، وهو الفيلسوف الذي ثبت (الطريقة التجريبية) في العلوم ، وجعل البحث العلمي مستقلا عن الطريقة السكولاستيكية •

ثالثا ــ فرنسا في القرن السادس عشر

آ ــ ملوك فرنسا في القرن السادس عشر : لقد تولى على عرش فرنسـا ثمانية ملوك من عام ١٤٨٣ الى ١٦١٠ • واولهم كان (شارل الثامن) (١٤٨٣ ــ ١٤٩٨) ، وهو ابـن الملـك (لويس الحادي عشر) • وكان شابـا ضعيفا ، واهتماماته موجهة بالذات الى غزو ايطاليا • وكان يؤمن بامكان حرب صليبيـة جديدة ، تعيده الى الاراضي المقدسة في بلاد الشام ، والى احتلال القدس • وكان زواجـه من (آن دوبريتانيا) ــ كما أشرنا سابقـا ــ مـدعاة لضم مقاطعـة (بريتانيـا) لفرنسـا •

وخلفه على العرش ابن عمه (لويس الثاني عشر) (١٤٩٨ ــ ١٥١٥) ، الذي تزوج من ارملته • وعلى الرغم من اخفاقه في ايطاليا ، فانه استطاع تخفيف الضرائب، ونشر العدل ، ولذا لقب بـ (أبي الشعب) •

وعند وفاته انتقل العرش الى ابن عمه (دوق دانعوليم) الذي اصبح ملكا تحت اسم (فرنسوا الاول) (١٥١٥ــ١٥٤٧) • وقد ربته ام طموح جدا ، فنشأ اميرا يمثل عهد النهضة اكبر تمثيل : فقد كان يحب الترف ، والفخامة ، والمجد • وكان شجاعا ويميل الى الانفاق بسعة ، ولاسيما انه كان صديقا للفنون والملذات • وبذلك تألقت حياة البلاط الفرنسي في اجواء « فونتينبلو » الفخمة ، أو في قصور « ضفاف اللوار » •

ومع انه كان ذكيا وحيويا ، الا انه لم يظهر انكبابا على القضايا السياسية • وكانت معظم تصرفاته ، نابعة من مزاجه ، اكثر من اعتمادها على حسابات مسبقة ، وتخطيط •

وجاء بعده ابنه (هنري الثاني) (١٥٤٧ــ١٥٥٩) • وكان فكرا مغلقا ، يشبه في كثير من نواحيه (فيليب الثاني) في اسبانيا • فتابع سياسة تثبيت السلطة الملكية وقد توفي اثر جرح ، اصابه اثناء مباراة ، وخلف ثلاثة اولاد ، توالوا على الحكم تباعا وتوفوا دون وريث • فتابعت القبض على السلطة من بعده ، الملكة الام (كاترين دومديتشه) •

والولد الاول هو (فرنسوا الثاني) (١٥٥٩ ــ ١٥٦٠) وكان زوجا للملكة (ماري ستيوارت) • ولم يحكم سوى عام واحد ، وكان ذا ذهن ضعيف ، وجسم مريض ، فقد توفي في السادسة عشر من عمره •

والثاني هو (شارل التاسع) (١٥٦٠ــ١٥٧٤) وقد ترك والدته (كاترين دومديتشه) تحكم حتى بعد انتهاء فترة وصايتها عليه • وتوفي بعد عامين من مذبحه (سان بارتلمي) ، وقد اثقلت ضميره ذكرى المآسي الدموية ،التي سمح بارتكابها خلال تلك المذبحة •

والثالث هو (هنري الثالث) (١٥٧٤ـ١٥٨٩) ، الذي انتخب في الوقت نفسه ملكا لبولونيا ، عام ١٥٧٣ . ومع ان الذكاء والشجاعة لم يكونا لينقصاه الا انه عاش حياة تمثل التناقض بأجلى صوره : فهو من ناحية ، منصرف الى اشد انواع التقى المعتمد على الخرافات ، ومن ناحية ثانية ، الى اكثر انواع الملذات فسادا. ولم يكن ملكا محترما . وعندما قل المال في يده اضطر لدعوة « الجمعية العمومية»، التي فرضت عليه سياسة حرب ضد البروتستانت ، وقد كان قلقا ، وغيورا ، من نجاح الرئيس الكاثوليكي « هنري دوغيز » ، فعمل على اغتياله . وتوفي هو نتيجة طعنة من خنجر ، وجهها اليه القس (جاك كليمان) .

وترك العرش لابن عم بعيد له هو ، (هنري الرابع) . وكان ابن (انطوان دوبوربون) و (جان دالبره) ملكة النافار . ولكن هذا الملك كان عليه ان يكافح للحصول على ملكه هذا .

ب ـ فرنسا خلال النصف الاول من القرن السادس عشر :

تتميز هذه المرحلة من تاريخ فرنسا الداخلي ، بالاضافة الى ما ذكر عن بدايات الاصلاح الديني فيها ، بأمر هام هو :

ـ دعم السلطة الملكية : لقد رأينا سابقا ان فرنسا غدت موحدة تقريبا في القرن السادس عشر ، وكان الملك هو الذي يجسد هذه الوحدة القومية . وكانت السلطة الملكية فيها ، اقوى مما هي عليه في أي بلد آخر ، وكان شعار المشرعين فيها ، (ملك ، أي قانون) .

وكانت الحكومة تتألف من« **المستشار** » وهو رأس القضاء ، والقابض على اختام الملك . ثم « **الكونتابل** » وهو قائد الجيوش ، واربعة من **سكرتيري الدولة** ظهروا في عهد الملك (فرنسوا الاول) ، وبالتدريج اصبح لهم صفة « وزراء » .

وكان (**مجلس الملك**) او (**المجلس الخاص**) يتألف من كبار الشخصيات ، الا انه أخذ يفقد تدريجيا اهميته لصالح (**مجلس الشؤون**) ، الذي كان اضيق تركيبا .

الا ان أثر المقربين من الملك ، والاصدقاء ، والاشخاص اصحاب النفوذ ، ظل ينوء بثقله على قرارات الملك ، ويؤثر فيها .

وليوسع الملك سلطته ويدعمها ، فانه اجبر « الكبار » من الامراء الاقطاعيين على الطاعة ، ولم يدع ابدا « الجمعية العمومية » . وقد قوى **سلطته القضائية ،** بانشاء (٦٠) محكمة عامة ، تحد من سلطة « القضاء الكنسي » و«الاقطاعي» . كما نشأت « ستة **بارلمانات »** جديدة في الارياف . ولكن هذه البارلمانات ، التي « تسجل » الاوامر الملكية ، يمكنها احيانا ان ترتفع الى مستوى معارضة الملك ، « بتقديم اعتراضات » رصينة على تلك الاوامر . وفي هذه الحالة يجد الملك صعوبة في فرض ارادته .

وفي المقاطعات ، اقيم على رأس التقسيمات الادارية الوسيطة (من العصور الوسطى) التي بقيت ، « حكام » ، ذوو سلطات عسكرية في الدرجة الاولى ، ويراقبهم الملك عن كثب . كما انه كان يرسل « مفوضين » الى تلك المقاطعات ، يمثلون السلطة الملكية ، ويكلفون بتفتيش الادارات المختلفة ، وبالسهر على تنفيذ قوانين القضاء ، والشرطة ، والمال .

وفي عام ١٥٣٩ ،اصدر فرنسوا الاول (مرسوم فيلر كوتورة Villers-Cotterêt) ويتضمن قرارين هامين ، لتوحيد المملكة : فقد امر ان تكتب جميع قرارات القضاء **باللغة الفرنسية** لا اللاتينية،وان ينشيء رجال الدين **سجلات للتعميد ، والوفيات ،** وبذلك اوجد سجلات الاحوال المدنية .

ان تلك الاجراءات التي قوت الملكية المطلقة ، لم تمض دون مقاومة : فطبقة النبلاء ، التي مست مصالحها المادية ، لم تحتمل ان تفقد دورها السياسي ، ومن ثم فقد كانت مستعدة دائما لامتطاء جواد المغامرة ، وبخاصة ان السياسة الخارجية، وترف البلاط يكلفان غاليا ، والقدرات المالية الملكية ، في عجز مستمر . وهكذا يلاحظ ، ان الملكية ، وجدت نفسها ملزمة على **بيع مناصب الدولة** لمن يدفع لها سعرا اعلى ، فتقدم البورجوازيون وسعوا لشراء مناصب القضاء،والاعمال الادارية.

جـ ـ الاصلاح الديني في فرنسا ونتائجه : لقد اوضحنا سابقا كيف انتشرت مبادىء الاصلاح الديني في فرنسا ، وكيف قام فرنسوا الاول بملاحقة الذين دانوا بالمذهب الجديد ، واعدامهم • ففي عام ١٥٤٥ ، اعدم بأمر من (بارلمان ايكس) ، (٣٠٠٠) فرنسي من جبال (فوكلوز) اعتنقوا البروتستانتية ، وارسل البقية ليعملوا في التجذيف ، وبيع اطفالهم عبيدا للاتراك • وفي عام ١٥٤٦ ، احرق الانساني ، العامل في الطباعة ، (اتيين دولة E. Dolet) ، في الساحة العامة •

وقد قام الملك ، (هنري الثاني) بتنظيم عملية القهر ، وخنق صوت البروتستانتية ، بأن أوجد محكمة خاصة هي « **الغرفة الحارة** » • فخلال اثنتي عشرة سنة ، هي مدة حكمه ، صدر ستون حكما بالموت • وبتوقيعه مع « فيليب الثاني » عام ١٥٥٩ « الصلح الكاثوليكي » في (كاتوكامبريزيس) ، كان الملك هنري الثاني يسعى لجعل يديه حرتين ، في القضاء على المهرطقين البروتستانت •

ولكن على الرغم من القمع والارهاب ، فان « الكالفنية » انتشرت بسرعة في فرنسا ، وانعقد في باريس ، عام ١٥٥٩ ، اول (مجمع ديني) للكنيسة الكالفنية • وفي عام ١٥٦١ كان في فرنسا اكثر من الف كنيسة بروتستانتية •

وبعد ان اعتنق الصناع والتجار المذهب الجديد ، اذا بعديد من النبلاء يتبنونه ايضا • ومن بينهم **(انطوان دوبوربون) ملك النافار ، وامير (كونده) ، والامير (كوليني)** • وكوّن هؤلاء « **حزبا حقيقيا** » ، قرر الا يخضع للارهاب ، وان يمتشق الحسام للدفاع عن حرية العقيدة الجديدة • ومقابلهم كان هناك فئة النبلاء من الكاثوليك ، ويكونون فئة قوية ، تدعمها الدولة والملك ، لان الكاثوليكية بقيت الدين المتأصل في فرنسا • وكان على رأس هذه الفئة **(فرنسوا دوغيز)** •

وقد حاولت الملكة (كاترين دومديتشه) ، الملكة الام ، ان تنظم حوارا في (بواسي Poissy) بين الطرفين ، الا انه بدا ، أن أي تفاهم بين الكاثوليك والبروتستانت ، غدا مستحيلا ، وان الصراع الدموي لابد آت •

ورافق تلك **الازمة الدينية** في فرنسا **صعوبات اقتصادية خطيرة** : كانتشار المجاعة والاضطراب ، بسبب ارتفاع الاسعار ، والاحتكارات الملكية ، وضعف

التجارة البحرية • ولقد تأثر بتلك الصعوبات بعض المدن ، مثل ليون ، وصغار النبلاء ، والفلاحون ، قادة الاضطرابات في المستقبل • ولم تكن الملكة كاترين بقادرة على مجابهة الموقف ، ولا سيما ان الصراع لم يكن ذا مضمون ديني فحسب ، بل اتخذ صورة من صور صراع الاقطاعيين ضد السلطة الملكية • فكل من الحزبين « البروتستانتي » و « الكاثوليكي » ، كان حريصا على نصر معتقده ، الا انه في الوقت نفسه كان يود القبض على السلطة ، ولذا لم يتردد في الاستعانة بقوة اجنبية • فالبروتستانت سلموا ميناء (الهافر) الى الانكليز ، والكاثوليك استنجدوا بالاسبان • وهكذا عاشت فرنسا **حربا اهلية مروعة** ، في القرن السادس عشر وفي نصفه الثاني ، عرفت بالتاريخ باسم **« الحروب الدينية »** •

الحروب الدينية : تتابع على فرنسا من (١٥٦٢–١٥٨٩) ثماني حروب دينية ، فصلت بينها « فترات سلام » ، لم تكن سوى هدن مؤقتة ، مشفوعة بقرارات تسامح ، لم يعقد احد العزم على احترامها • وقد جرت العمليات الحربية في كل مكان ، وفي وقت واحد • وفي الواقع كانت تلك العمليات كمائن ، وحصارات ، ومذابح ، ومناوشات ، وصدامات دموية ، بين الفئات الدينية المتصارعة • وهكذا كانت فرنسا في حالة اجتياح من الطرفين •

ويمكن تمييز ثلاث مراحل في تلك الحروب :

١ ـ ١٥٦٢ ـ ١٥٧٢ : أي من **مذبحة (واسي** Wassy **)** ـ في الاول من آذار عام ١٥٦٢ ، حيث قتل رجال « الدوق دوغير » (وهو رئيس التجمع الكاثوليكي)، وجرحوا مئة من الكالفنيين، وهم يؤدون طقوسهم الدينية ـ الى مذبحة (سان بارتلمي) في ٢٤ آب ١٥٧٢ • وكان الدافعون الى تلك المذبحة، هم (آل غيز) و (كاترين دومديتشه) الملكة الام • اذ رغب الطرفان في التخلص من (كوليني) البروتستانتي ، الذي دخل في مجلس الملك ، واخذ يحرضه على محاربة الاسبان • وقد استطاعت الملكة الام ، ان تقنع ابنها الملك (شارل التاسع)، بقتل زعماء البروتستانت • وبالفعل جرت مذبحة (سان بارتلمي) ، حيث قتل (٣٠٠٠) بروتستانتي في باريس ، وكان منهم (كوليني) • ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة « استحالة التوافق » ، الذي كانت ترغب به الملكة الام

« كاتريــن دومديتشه » ، ويشجعها عليه اعتـــدال « كوليني » ، الا ان الفئتــين المتصارعتين رفضتاه •وجاء ت مذبحة « سان بارتلمي » لتنتهي هذه المرحلة •

٣ – (١٥٧٢–١٥٨٤) وخلال هذه الفترة كانت الفوضى مستشرية • ومن خلال الحرب ، التي لـم تكن لتنقطع الا لعدم توافر المال بين ايدي احد الطرفين ، بـرز وجـه (هنري دوغيــز) رئيس الحــزب الكاثوليكي المسيحي ، المسمى « بالعصبة المقدسة » . ولقــد حاول الملك (هنري الثالث) ان يكون على رأس تلك العصبة ، الا ان السلطة خرجت من يده ، لصالح الاقطاعيين ، والمدن • وبذلك تحول الصراع الى صراع سياسي ، بدا واضحا في المرحلة الثالثة •

٣ – بعد عام ١٥٨٤ : وخلالها توفي شقيق الملك ، وكان امرا خطيرا ، اذ انتقل حق وراثة العرش الى (هنري دو ناڤار) ، وكان رئيسا للحزب البروتستانتي• وفكر (هنري دوغيز) ان يبعد الملك عن العرش ، ويستولي على السلطة ، مستندا الى ان أغلبية الفرنسيين يرفضون أن يكون ملكهم بروتستانتيا ، ولا يعترفون له بحقه الشرعي في الملك •

وحاول الملك ان يمنـــع (هنري دوغيز) من دخـــول العاصمة ، وان يسيطر بجيوشه على المدينة ، الا ان الشعب تسلح ، واقــام المتاريس في وجهه • فهيــأ (هنري الثالث) عملية انتقامية من (هنري دوغيز) ، بأن استدعاه اليه ، ثــم أمر حرسه بقتله عام ١٥٨٨ • وكتب في مذكراته قائلا : « انني الآن أنا الملك ، وقد قررت ألا احتمل بعــد الآن أية اهانات أو مظاهر عنف » • ولكــن ما أن انتشر نبأ مقتل (دوغيز) ، حتى ثارت مدينة باريس ، واجتمع «مجلس»من ممثلي احياء العاصمة (وعددهم ١٦ عضوا) ، واعلن خلع الملك ، وأحــل الكاردينال (شارل دوبوربون) محله ، وسمي (دوق دومايين (Duc de Mayenne) وكان أخــا ا (هنري دوغيز) ، قائدا عامــا للملكة • ولعلنت اغلبيــة المقاطعات الفرنسية ولاءها للعصبة المقدسة •

وأمام هــذه المحنة ، تصالــح (هنري الثالث) مــع (هنري دو ناڤار) ،وحاصرا مدينة باريس • ولكن قسا كاثوليكيا شابا هو (جاك كليمان) ، اصاب الملك بجرح

مميت في أول آب عام ١٥٨٩ • وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة ، اوصى لهنري دو ناقار بالعرش من بعده •

د ـ هنري الرابع ونهضة الملكية من كبوتها :

١ ـ اعادة دعم السلطة الملكية : لم يكن (هنري الرابع) في البداية سوى ملك دون مملكة ، اذ لم يعترف به سوى البروتستانت ، وقسم من النبلاء ، والجيش • وكانت العصبة تسيطر على شمال فرنسا ، وشرقها ، ومدينة باريس • وكان المتطوعون الكاثوليك في باريس قد استدعوا القوات الاسبانية لنجدتهم • وكانوا يعملون على اسناد عرش فرنسا الى احدى بنات الملك فيليب الثاني (ايزابيلا) • ومع أن (هنري الرابع) انتصر على خصومه في عدة معارك ، الا انه عبثا حاصر مدينة باريس •

ومع ذلك فان تطرف الكاثوليك في العصبة واستدعاءهم قوات اجنبية جعل سكان باريس يستاؤون ، بل والمعتدلين من العصبة يقلقون • وهذا ما أدركه هنري الرابع ، واراد استغلاله ، ولا سيما أن نشرات الدعاية كانت لصالحه •وأمام ذلك ، فانه لم يتوان عن التنازل عن البروتستانتية في ٢٥ تموز ١٥٩٣ ، وفي ابرشية (سان دونيس) • وبعد ذلك بقليل توج ملكا في (شارتر) •

وفي ٢٢ آذار عام ١٥٩٤ ، دخل الى باريس حيث حياه الشعب • ولم تلبث المقاطعات أن اعلنت ولاءها له شيئا فشيئا •

٢ ـ ولحل المشكلة الدينية ، اضطر هنري الرابع أن يداري اصدقاءه البروتستانت القدماء ، الذين نقموا عليه لتنازله عن البروتستانتية • وكان يريد بصفة خاصة ان يحل السلام بين الفرنسيين ، وان يجعل الكاثوليك والبروتستانت يتعايشان الى جانب بعضهما بعضا • ومن ثم كان اصداره **(المنشور نانت)** الذي اعلنه عام ١٥٩٨ ، وحمله حلولا واقعية • فقد تضمن عفوا عن البروتستانت الثائرين ، (بعد تنازله عن البروتستانتية) ومنحهم حق ممارسة ديانتهم • وانشأ في بعض البارلمانات محاكم بستة قضاة بروتستانت وعشرة قضاة كاثوليك ،

للنظر في قضايا البروتستانت • واعطى لهم الحق في عقد « مجالس مقاطعات » أو « مجالس وطنية » على مستوى فرنسا كلها • واخيرا فقد اعطى البروتستانت حق حراسة عدد من الاماكن الحصينة (قلاع امن) لمدة ثمانية اعوام • ومع ان هذا المنشور كان له خطورته ، اذ ان تلك الاجراءات قد تهدد بانشاء دولة ضمن دولة ، فان هنري الرابع نجح في تنظيم التعايش بين المذهبين ، وهذا حدث فريد في اوربا ، في ذلك الوقت •

ثم انصرف (هنري الرابع) بعد ذلك ، الى تمتين السلطة الملكية بمختلف الوسائل :

اولا ـ باعادة النظام ، حيث اعاد النبلاء الى اراضيهم ، وقضى على قطاع الطرق •

ثانيا ـ بالتهديد ، حيث الزم (البرلمانات) على تسجيل (المنشور) ، ونفذ حكم الاعدام بالمتآمرين • وأهم من ذلك ، فانه سعى **ثالثا ـ** الى ايجاد التوازن بين الفئتين المتعاديتين ، بأن ألزم البروتستانت على البقاء في الاطار الذي حدده المنشور ، واعطى للاخرين ادلة على ولائه للكاثوليكية ، بأن سمح بعودة اليسوعيين المنفيين • كما انه عمل على اتخاذ مستشارين له من المعسكرين •

٣ ـ انهاض الاقتصاد وفي هذا الميدان وضع ثقته برجلين : (سولي Sully) وهو نبيل ريفي ، وجعله الرقيب العام للمالية ، و (لافما Laffemas) وهو من « المتنبلين » ، وقد عينه مراقبا عاما للتجارة •

أما (سولي) فكان صادقا ومخلصا • وقد أعاد **النظام الى حسابات الدولة** ، واوقف السرقات ، ودفع الديون ، وانقص الضرائب المفروضة على الفلاحين ، وزاد من الضرائب غير المباشرة التي يدفعها الجميع • بل انه استطاع ان يوفر من ميزانية الدولة ، وان يودع الوفر في كهوف الباستيل • وللحصول على المال ، توسع في بيع الوظائف ، ومنح للموظفين حق توريث وظائفهم ، مقابل رسم خاص •

وقد وجه عنايته كلها **للزراعة** . وكان يقول « ان المرعى والزراعة هما الثديان اللذان تتغذى منهما فرنسا » ، « وهما يعادلان مناجم البيرو وكنوزها » • ومنع

موظفي المالية من مصادرة ادوات الفلاحين ، وشجع الزراعات الجديدة كشجرة التوت ، وجفف المستنقعات ، وحسن اخيرا طرق النقل ، ولا سيما الطرق المائية ، التي كانت تنقل بصفة خاصة المواد الغذائية .

أما (لافمـا) فكان من مؤيدي **السياسة الصناعية** ، المنبثقة من تفكير مركنتيلي ، وهدفها منع استيراد المنتوجات المصنعة وبخاصة المنسوجات الحريرية. ومن اجل ذلك أراد (لافمـا) ان ينمي تربية دود القز ، وانشأ المصانع الحريرية ، ولا سيما في (ليـون) و (تـور) . وفرض قواعد شديدة على الصناعة . وفي الواقـع تقدمت الصناعة ، الا ان نتائجها الآنيـة بقيت ضئيلة ومحدودة ، وظلت (فرنسا هنري الرابع) بلدا زراعية .

وفي ميدان **التجارة البحرية** قامت محاولات لايجاد « شركات كبيرة » الا انهـا اخفقت .

٤ ــ في ميدان السياسة الخارجية : لقد كان على (هنري الرابع) عند تسلمه العرش ان ينهي الحرب مع الخارج . ففيليب الثاني الذي اتى لمساعدة (العصبة)، تابع الحرب لصالحه الخاص ، واكتسح بورغونيا ، وبيكارديا . الا ان (هنـري الرابع) استطاع الانتصار عليه عام ١٥٩٥ . ووقعت بين الطرفين ــ كما اشرنا سابقا (معاهدة فرفان) عام ١٥٩٨ ، وهي سنة وفاة فيليب الثاني ، وحصلت فيها فرنسا على الجلاء الكامل عن اراضيها .

واذا كان (هنري الرابع) قد تنازل نهائيا عن الاحلام الايطالية ، التي دغدغت اذهان سابقيه من ملوك فرنسا ، فانه كان قلقا مثلهم ، من قوة آل هابسبورغ ، الذين كانت ممتلكاتهم تحيط بمملكته وتحاصره . ولذا فكر بفك هذا الحصار ففي عام ١٦٠١ انتزع من (دوق سافـوا) بعض المناطق (البريس Bresse والبوجه Bugey) ، وحمى الدول الايطالية الصغيرة ، وتحالف مع المقاطعات المتحدة (هولاندة) ، والامراء الالمان البروتستانت . وفي عام ١٦١٠ كان مستعدا لتحـدي اسبانيـا .

الا ان السياسة ضد اسبانيا ، كانت تعني في ذلـك الوقت السياسة ضـد

الكاثوليك • ولذلك فان سياسته هذه ، المتحدية لاسبانيا ، اثارت الاهواء الدينية التي لما تهدأ بعد ، ودفعت الكاثوليكي المتعصب (رافياك Ravaillac) لقتله في عام ١٦١٠ •

وغاب (هنري الرابع) عن فرنسا ولما ينه عمله الكبير في الترميم ، الذي ابتدأه • ونسي الفرنسيون ، حتى الكاثوليك منهم ، احقادهم تجاه سياسته الخارجية ، ولم يحتفظوا الا بصورة (الملك الطيب هنري) الذي كان يريد أن يكون لدى كل اسرة ، يوم الاحد ، « دجاجة في قدر طعامها » •

رابعا ـ اوربا في أواخر القرن السادس عشر

ومن العرض السريع لتطورات اوربا في القرن السادس عشر ، يمكن استنتاج ما يلي :

١ ـ لقد كان القرن السادس عشر **قرن تحولات عميقة :** فكشف القارة الامريكية ، واستثمار الامبراطوريات الاستعمارية ، والنهضة الفنية ، والادبية، والعلمية ، ونجاح الاصلاح البروتستانتي ، تمكنت كلها اخيرا من تفجير العادات وانماط التفكير ، التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، وزحزحتها ، ثم ازاحتها •

٢ ـ **غدت اوربا مركز العالم :** من الصحيح انها لا تزال تجهل الكثير عن افريقيا ، ووقفت لها آسيا بالمرصاد ، وقاومت توسعها فيها ، الا انها سادت امريكا •

٣ ـ تميز القرن السادس عشر من الوجهة السياسية **باخفاق محاولة شارلكان لاقامة امبراطورية عالمية** • وفي الوقت نفسه طغت **« المصالح القومية »** على **المصالح المسيحية** • فلم تتردد فرنسا في توقيع تحالف مع الاتراك العثمانيين ،ومع الامراء البروتستانت في المانيا • وبذلك انقسمت اوربا المسيحية على نفسها •

٤ ـ **انتقلت القوى البحرية من الايدي الاوربية المتوسطية الى ايد اوربية اخرى** ففي القرن الخامس عشر ، كان كبار البحارة الاوربيين من الجنويين أو البنادقة ،

وفي مطلع القرن السادس عشر كانوا برتغاليين او اسبان • وحوالي ١٦٠٠ انتقلت سيادة البحار الى الهولنديين •

٥ ـ رأت نهاية القرن السادس عشر **انحطاط المانيا** : فقد مزقتها الصراعات الدينية ، وجزأها النظام الاقطاعي ، فلم تعد المحرك لاوربا • ومالت مدن الهانس ، والراين ، والدانوب ، الى خراب ، نتيجة توسع الدول المطلة على المحيط الاطلنطي ، وانحطاط طرق التجارة التقليدية ، وضعف السوق الداخلية ، وتدفق الذهب والفضة الامريكيين •

٦ ـ عادت البلاد السكاندينافية الى الانفتاح من جديد على الاقتصاد الغربي بعد ان قطعتها عنه السياسة الاقتصادية ، والسياسية ، للعصبة الهانسية على بحر البلطيق • فحلت (كوبنهاغن) محل (لوبيك) ، وغدت مستودعا للتوابل المتجهة الى المانيا • وسادت الدانمارك بلاد النرويج ، ومدت (السويد) نفوذها على فنلندة وفكر لفترة من الزمن بامكان جمع تاج السويد الى بولونيا ، التي كان على رأسها آل (الجاجلون) • وبذلك كاد بحر البلطيق ان يصبح « بحيرة سويدية » •

٧ ـ وفي الشرق **كانت روسيا تكون حدا بين اوربا وآسيا** : فقد نظر اليهاكوريثة لبيزنطة منذ ان احتل العثمانيون القسطنطينية ، وفتحت ابوابها لتجارة الهولنديين ، والانكليز • وتحت حكم «ايفان الرابع» أو (ايفان الرهيب) (١٥٣٣ـ١٥٨٤) ، توسعت في جميع الاتجاهات ، ضامة اليها الامارات المستقلة في السهل الروسي ، وتجاوزت شرقا جبال الاورال • وفي عام ١٥٧٤ ، اضاف « ايفان الرهيب » للقبه « امير موسكو الكبير » لقب « قيصر » • الا انه في عام ١٥٨٤ انقرضت سلالته الحاكمة ، وابتدأت بالنسبة لروسيا « مرحلة الاضطرابات » ، التي لم تنته ، الا في عام ١٦١٣ عندما تسلم عرش روسيا (ميخائيل رومانوف) ، الذي يفتتح تلك السلالة التي حكمت روسيا حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ •

٨ ـ **تمت الوحدة الفرنسية** ، اذ ان المقاطعات التي كانت خارجة عن سيادة الملك ، عادت فضمت اليه •

٩ ـ **اتحدت مملكتا ايقوسيا وانكلترة منذ عام ١٦٠٣** ، حيث وصل الى عرش انكلترة (جيمس السادس) ملك ايقوسيا ، وابن ماري ستيوارت ، وذلك بعد وفاة اليزابيت • واتخذ اسم (جيمس الاول) ملك انكلترة •

١٠ ـ ان المقاطعات السبع من الاراضي المنخفضة ، طرحت السيادة الاسبانية وشكلت « **جمهورية المقاطعات المتحدة** » عام ١٥٩٧ ، واعترف باستقلالها رسمياً في عام ١٦٤٨ •

١١ ـ ضمت **البرتغال بالقوة الى اسبانيا في ١٥٨٠** ، وبقيت كذلك حتى ١٦٤٠ • حيث قامت ثورة نظمها (جوريبيرو J. Ribeiro) الاستاذ في جامعة (كوامبره) ، وأيده فيها النبلاء ، ورجال الدين ، وفرنسا • وكان من نتائجها الاستقلال ، ووصول (آل براغنزا) الى عرشها •

١٢ ـ هزم **الاتراك العثمانيون** النمساويين في بلغراد ١٥٢١ ، والهنغاريين في (موهاغز) ١٥٢٦ وحاصروا (فينا) في ١٥٢٩ • وتوقف تقدمهم في البحر المتوسط في معركة (ليبانتو) ١٥٧١ ، ووقعوا في عام ١٥٨٥ ، صلحا مع اسبانيا ، اعترف فيه بالوضع الراهن آنذاك • وبدأت مظاهر الضعف تبدو واضحة على الدولة العثمانية بسبب ضعف سلاطينها ، وترك شؤون الحكم للوزراء وانتشار الرشوة والفساد ، وانحطاط التنظيم العسكري ، وتلاعب العسكر بمقدرات السلاطين • ومقابل ذلك كان الفرنسيون ، والهولنديون ، والانكليز ، يوسعون نشاطهم التجاري في الشرق •

الباب الثاني

القرن السابع عشر ١٦١٠ ـ ١٧١٥

الفصل الأول

السمات العامة للقرن السابع عشر

لقد كان القرن السابع عشر في اوربا « مرحلة ازمة » اصابت كلبة الانسان في جميع فعالياته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسة ، والدينية ، والعلمية ، والفنية ، بل في كل كيانه ، والى اعمق اعماق قوته الحيويه ، واحساساته ، وارادته، وقد كانت الازمة شبه دائمة ، مع تغبيرات عنيفة متفاوتة في شدتها • وقد تعايشت فيه الاتجاهات المتناقضة : فتارة تتهادن وتتمازج ، واخرى تتصارع ، وبذلك تمزق المجتمع بكل مناحي حياته • ولقد عملت الدولة وكل فريق اجتماعي ، وكل طبقة ، والفرد نفسه ، لاعادة النظام والوحدة للنفس والمحيط • وكانت المعركة لاهثة ، وشديدة ، للوصول الى توازن[1] ، واستطاعت اوربا خلال تلك الازمة أن تحقق تغبيرا حاسما ، وان تخطو خطوة الى الامام ، وتتخلص نهائيا من آثار العصور الوسطى •

ففي الميدان الاقتصادي عانت اوربا ازمة اقتصادية : فما خلفته « الثورة الاقتصادية » في القرن السادس عشر ، وحركة الاستعمار الجديدة ، تفاقم ،

(1) Mousnier, Le XVI^{e} et XVII^{e} siècle . Paris 1961.P. 159.

وابــرز بشكل اوسع ، العيوب القائمــة في **البنيتين الديموغرافية ، والزراعية** اللتين بدا انهما لــم تتغيرا في خطوطهما العامة ، من القرن السادس عشر وحتــى اواخر القــرن الثامن عشر ، ما عــدا في بعض المناطــق كالاراضي المنخفضة ، والمقاطعات المتحــدة ، وانكلترة الوسطى ، حيث تابعت انكلترة بالذات ثورتها الصناعية الاولى ، التي ابتدأت في القرن السادس عشر •

فالاقتصاد بقي زراعيا بالدرجة الاولى ، وفاض عدد السكان عن امكانات الزراعة ، وانتشرت المجاعة بين حين وآخر • وترجع تلك الازمة الاقتصادية فــي اساسياتها ، الى **التغيرات المناخية** التي اثرت على الزراعة ، واضعفت محصولاتها ، وكذلك الى **عدم تطوير التقنية الزراعية** ، والى **تذبذب حركة الاسعار** • ويمكن ارجاع السبب الاخير بدوره ، الى عوامل عدة ، منها التذبذب في المواسم الزراعية، وزيادة عدد السكان ، وقلة النقد المتداول • فبعد ان عاشت اوربا في بحبوحــة من الذهب والفضة ، خــلال القرن السادس عشر ، نتيجة اكتشاف مناجمهما في القارة الامريكية فانانتاج هذين المعدنين تضاءل في تلك القارة ، بينما كان حجم البضائع المتبادلة في تزايد ، فهبطت الاسعار ، وتباطأت التجارة •

ويجب ان لا ينسى في اسباب هذه الازمة الاقتصادية ، الحروب التي عاشتها اوربا خلال هــذا القرن ، وما نجم عنها في البلاد المشتركــة فيها ، والتي تجري العمليات الحربيــة على ارضها •

ولمــا كان الاعتقاد السائد في دول اوربا الحديثة آنذاك ، ان اقتصاد أي بلد مرتبط بكمية الذهب والفضة التي يملكها ، فقد برز مظهر اقتصادي تبنتــه الدول ، وحاولت أن تجد حلا فيه لتلك الازمة ، وهــو « المذهب المركنتيلي » • ففي نطاقه كان على كل دولة ، ليكون لها التفوق الاقتصادي ، ان تشن علــى الدول الاخرى « **حربا نقدية** » •

ويترتب على ذلك اتباع السياسة الاقتصادية التالية :

١ ــ جذب اكبر كمية من الذهب الى داخل البلاد ، وذلك بالتغلب علــى

المنافسة الاقتصادية ، وبالتصنيع ، وتحسين نوعيــة السلع المباعــة ، وتشجيــع التصديــر .

٢ ـ تجنب اخراج المعادن الثمينة خارج البلاد ، وذلك بايجاد اقتصاد اكتفائي ذاتــي وبوضع رسوم جمركية مرتفعة على البضائع المستوردة .

وهكذا سعت الدول الاوربية **لانشاء مستعمرات لها** خارج اوربا . تدر عليها الذهب والفضة ، وتبيع لها منتوجاتها الصناعية ، وتأخذ منها موادها الخام ،وبذلك ربطت اقتصادها بها . كما اسست **شركات تجارية** ، ومنحتها امتيازات كثيــرة لتنشيط فعالياتها ، ومنافسة الفعاليات الاقتصادية للدول الاوربية الاخرى .

وفي الميدان الاجتماعي تفاقمت العداوات الاجتماعية ، التي غذتها النهضــة الاقتصادية في القرن السادس عشر . ففئات من البورجوازية تابعت بروزها بالنسبة للطبقات الاخرى ، وان كان ذلك ببطء اكبر ممــا كان عليه الامر في القرن السادس عشر .

ومن فئات البورجوازية هــذه **موظفو المال ، والممولون** ولا سيما المشرفون الكبار على الخزينة في فرنسا مثلا . فمنهم من كان يقرض الملك بفائدة ضخمة ، منتظرين جمع الضرائب . وكان يشترك في هذه العملية الاعيان ، وكــان هؤلاء (الماليون) يوقعــون الاتفاقات مــع الملك ، ويوجهون الاحتكارات ، ويبيعــون الوظائف العامة . وكان يسهم معهم ، نبلاء ، وقضاة ، وتجار .

ويضاف الى موظفي المال ، **(التجار ـ الصناع)** الذين شرعوا يبرزون في هذا القرن بشكل واضح ، ويعملون في صناعة المدافع ، والاسلحة ، والحريــر ، والسجاد ، والصوف ، والمؤسسات المعدنية .

وكان هم هذه الفئات البورجوازية الغنية ، الوصول الى الالقاب النبيلة ، والى تقليد طبقة النبلاء في جميع مظاهر حياتها . ويلاحظ ان الملك في هذا القرن ، اخذ يسلم الوظائف لهذه الطبقة ، بدلا من النبلاء . بل أن بعضهم ، ممن نال القاب النبالة ، انخرط في سلك الجيش ، وبذلك بدأ الصراع بين النبلاء ، والبورجوازيين .

وفي الوقت ذاته قوي الخلاف والخصومة بين النبلاء ، والموظفين ، والتجار ، والماليين من ناحية ، وكلهم يملكون اقطاعات ، وبين **الفلاحين** من ناحية اخرى . اذ ان ارتفاع الاسعار جعل من الصعب على الفلاحين ، والمزارعين ، دفع الضرائب المتوجبة عليهم ، أكان ذلك للدولة ، أو لاسياد الارض ، ولاسيما في فترة المواسم السيئة ، والمجاعات .

وهكذا كانت **تتنامى اللامساواة بين الطبقات ، وتقوى المعارضة** ، اذ ان الضرائب والواجبات المالية الاخرى كانت تتجاوز وسائل المستثمر الصغير . وكان من جراء ذلك ، **الثورات الفلاحية ، وحروب الفلاحين** .

واذا كان النبلاء والموظفون والماليون ، في خلاف وتعارض مع الفلاحين ، فانهم كانوا في خلاف متزايد مع **صغار العاملين في الحرف** ، بسبب ما كان يصيب هؤلاء الاخيرين من الضرائب، ولان النبلاء والماليين والموظفين، كانوا يعملون بشكل عام لصالح (التجار ـ الصناع) على حساب صغار الحرفيين ، كالخبازين واللحامين وغيرهم .

كما ان الدولة كانت تشجع **اصحاب العمل** (معلمي الصنعة) **ضد العمال** ، في جهودهم الساعية للقضاء على المنافسة ، وتخفيض الاجور ، والحصول على الحد الاقصى من العمل والربح . وبذلك غدت النقابات اداة في أيدي اصحاب العمل ، لقمع العاملين لديهم .

وفي الواقع ، لقد شرعت **« الراسمالية البورجوازية »** تبين معالمها تماما، ولا سيما في انكلترة ، حيث كان صراع الطبقات مختلفا عما هو عليه في فرنسا ، بسبب النمو المتسارع للرأسمالية فيها ، ولان قسما من طبقة النبلاء انخرط في اعمال الزراعة ، والصناعة ، والتجارة . فطبقة النبلاء التي بقيت بعقليتها السابقة ، تعيش على ارضها ، وضمن عاداتها ، اخذت تحسد النبلاء الذين اغتنوا ، والبورجوازية التي تسلقت سلم النبالة .

ويضاف الى تلك الخصومات الاجتماعية العديدة ، التي كان يعيشها المجتمع الاوربي الغربي ، **العداوات الدينية** بين الكاثوليك والبروتستانت ، وما نجم عنها

من محاولات كل فريق ايقاع الاذى والضرر بالفريق الآخر . وقد وجد المفهوم البورجوازي دعما له في « الكالفنية » ، بل ان المسيحية غدت لبعض البروتستانت ، « **فردية نفعية** » : أي أن كل انسان مدعو للقيام بعمل خاص ، من اجل مجد الله ، والخير المشترك . والربح الذي يجنيه صاحبه منه دليل على النجاح ، وعلى ان الانسان قام بواجبه خير قيام . ومن ثم ، فالواجب بحسب اعتقادهم ، هو الربح ، ويكون الله في هذه الحالة قد بارك داك الذي استجاب لنداء العمل . اما الفقر والشقاء فهما عقاب الذنوب والخطايا . وبذلك وصلت الفردية الى مرحلة القسوة ، وذروة الانانية .

ويلاحظ في هذا القرن ، **ان الزيادة السكانية كانت ضئيلة** . ومع ذلك فقد خضعت لتذبذبات عديدة خلاله ، يمكن ان تمثل بخط بياني على شكل اسنان المنشار . فالحروب من جهة ، والمواسم السيئة من جهة أخرى ، والاوبئة من ناحية ثالثة ، (كما حدث خلال الفترات التالية ١٦٣٠–١٦٣١–١٦٤٩–١٦٥٢–١٦٦١ – ١٦٦٢–١٦٦٣–١٦٩٤–١٧٠٩–١٧١٠) أدت كلها الى وفيات مروعة . وقد كان نصف الاطفال في المتوسط يتوفون قبل الوصول الى سن العشرين . ولم تكن اوربا لتملك من السكان في هذا القرن ، سوى (١٠٠) مليون نسمة ، تضم فرنسا وحدها منها (١٨ – ٢٠) مليونا .

واخيرا ومع ان « الصراع الطبقي » لم يكن قائما بمعناه الذي تتفهمه اليوم ، الا ان صراعا بين مختلف الفئات ، كما اشرنا ، كان موجودا . وكانت حصيلته اضطرابا داخليا في مختلف الدول الاوربية ، وثورات عديدة : ثورات جوع ، وثورات ضد الضرائب ، وثورات سياسية .

إذا كان القرن السابع عشر **عصر تثبيت السلطة المطلقة للملوك** ، في معظم الدول الاوربية الكبرى ، وكانت الملكية المطلقة للملك (لويس الرابع عشر) في فرنسا ، هي رمز هذا التطور ، فانه منذ عام ١٦٨٠ أخذت الامور تتغير في اوربا الغربية . **فحركة الافكار ، والتقدم العلمي** ، كانا يهيئان تغيرات القرن التالي . وجاءت ثورة ١٦٨٨ في انكلترة ، لتضع حدودا واضحة لسلطة الملك ، وكانت

الانتقادات الشديدة ضـد سلطة الملك لويس الرابـع عشر نفسه ، تعبيرا عن طليعـة تلـك التغيرات •

وفي الميدان الادبي والفني : من المعروف ان الآداب والفنون هـي انعكاس لتطورات المجتمع ، ومن ثـم يلاحظ في هذين الصعيدين وجود تيارين متمايزين ، يتمازجان تارة ، ويتعارضان اخرى : **(تيار الباروك)** [1] الذي نشأ في روما في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وسمته الاساسية حب الحركة ، والانطلاق ما وراء القياس والمحدود ، و **(التيار الكلاسيكي)** وهمـه الانسجام ، والمحدود والقياس ، ويمثله (قصر فرساي) •

ولقد امتد التيار الاول على ايطاليا ، وشبه الجزيرة الايبرية ، واوربا الوسطى وروسيا ، وامريكا اللاتينية • ودام قرنين من الزمن أي خلال السابع عشر والثامن عشر • وفي الواقع ان استطالة تأثيره تختلف بحسب البلدان ، فقد عاش مدة اقصر في فرنسا • وهذا التيار انبثق من النهضة الاولى ، ثـم ابتعد عن الذوق الوثني ، ووضع حبـه للفخامة ، ورغبته في الادهاش ، والاثارة ، في خدمـة الكاثوليكية المنتصرة • ففي كل ركن انتشر فيه فن الباروك ، أكان في الكنائس ، أو الحدائق ، أو الاثاث ، أو تزيين المدن ، أو القصور ، كان يمثل الابهة ، والحرص على التزيينات الكثيرة ، والفتنة ، وخداع البصر ، وانتصار الحياة • وموضوعات هذا الفن مثيرة ، وتسعى لايقاظ العواطف ، اكثر مما تسعى لارضاء العقل • فالخطوط تتلوى بلطف ، وتتعانق وتتداخل •

واشهر ممثلي هذا الفن ، النحات (لوبرنان Le Bernin ١٥٦٨ـ١٦٨٠) في **ايطاليـا** حيث اوجد منبر كنيسة القديس بطرس، وجسد على الرخام نشوة التصوف « عند القديسة تيريز » •

وفي اسبانيا ظهرت الكنائس ، التي غالى الفنانون في تزيينها ، بل واستوحى اصحابها من الفن الاسلامي والفـن الغوطي • ومـن اشهـر الفنانين الاسبـان

---

(١) الباروك كلمة اسبانية (Barucco) ، وتعني لؤلؤة غير مستوية ، ولهـا نتوءات •

(موريللو Murillo) (١٦١٨–١٦٨٣) ، الذي كان يرسم صور اطفال شحاذين ممن كانت تعج بهم المدن الاسبانية وأهم لوحاته (الشحاذ) • و(ڤيلاسكويز Velllasquez) (١٥٩٩–١٦٦٠)، وهو الرسام العبقري للملكية الاسبانية ، وهي في ألقها الأخير •

أما في **فرنسا** فقد برز الفنان (روبنز Rubens) ، الفلاماني الاصل ، الذي تأثر بالفن في ايطاليا ، حيث مكث فيها ثمانية اعوام • ولقد اشتهر بالوانه القوية ، التي فاق بها الالوان الفلامانية ، وبحسه الحركي ، وبرسومه التي تفيض بحب الحياة • ومن اشهر لوحاته « تتويج الملكة ماري دومديتشه » •

وظهر فن **العمارة الباروكي** في **فرنسا** في بعض الكنائس ذات القبب (الصوربون) ، وفي القصور كقصر اللوكسمبورغ • الا انه مقابل تيار الباروك هذا ظهر تيار معاكس يميل الى البساطة ، والواقعية ، وهو **التيار الكلاسيكي** المتمثل ببعض القصور ذات الاسقف القرميدية والخطوط البسيطة (قصر كورانس) •

وفي الادب فان « المسرحية » ، وبخاصة الملهاة ، فرضت نفسها ، بعرضها للعواطف ، والاهواء العنيفة • ويمثل هذا التيار في **اسبانيا** (لوب دوفيغا) الذي كان انتاجه خصبا (اكثر من ١٥٠٠ مؤلف كما يقال) • ويظهر في كتاباته ، احتقاره للقواعد المتعارف عليها ، ومزجه المضحك والمأساوي •

وفي **فرنسا** ظهرت فئة من الادباء ايضا ، امتعت المجتمع المثقف بقصص حب على نمط العصور الوسطى ، وسرد لمغامرات بطولية ، ومآس دموية • الا ان فرنسا في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، خضعت لمؤثرات اخرى ، هيأت الجو لتثبيت (التيار الكلاسيكي) •

ففي هذا القرن ، ظهر « ماليرب » الذي سعى في كتاباته كي ينقي اللغة الفرنسية ، ويبشر بذلك بالكلاسيكية ، هذا في الوقت الذي انشأ فيه (الكاردينال ريشليو) **المجمع العلمي الفرنسي** عام ١٦٣٥ ، وكلفه بايجاد معجم اللغة ، وكتاب قواعد • وبرز الشاعر (كورني Corneille) (١٦٠٦–١٦٨٤) ، الذي

طبق في (المسرحية المأساوية) القواعد التي تميز المرحلة الكلاسيكية : وهي (وحدة المكان) ــ أي أن المسرحية يجب أن تدور في مكان واحد ــ ، (ووحدة الزمان) ــ أي أن تتم في ٢٤ ساعة ــ ، و (وحدة العمل) أي ان الاحداث يجب ان تدور حول بطل واحد بارز • وجاء (بوالو Boileau (١٦٣٦ــ١٧١١) ليثبت تلك القواعد الكلاسيكية ، في كتابه « الفن الشعري » ، وليضع في المرتبة الاولى ، العقل ، وليبتعد عن تصوير الحالات الخاصة او وصفها • فهدف الادب الكلاسيكي هو « **العام و العالمي** » ، ففي الانساني العـام يكمن الجمال • ويفضل الادب الكلاسيكي من الموضوعات ، تلك المستوحاة من العصور القديمة ، بدل المستوحاة من الحياة اليومية • ولا يميل الى الحديث عن اناس من العوام او للعوام ، وانما عن الطبقة الارستقراطيـة ولها • كما ان ديـدنه ان يلجم العواطف ، والاهواء ، العنيفه ، التي تبدت في (فن الباروك) صارخة ، وان يعتمد العقل ، والانتظام ، والا يستخدم على المسرح لغة ، او حركات غير ملائمة • فالانسان يجب ان يكون سيد جسمه ، وعواطفه ، وان يعبر عن ذاته ببساطة ووضوح •

ومن اشهر ادباء الكلاسيك في فرنسا ، بصفة خاصة ، (موليير) و (راسين) و (لافونتين) •

العلم والفلسفة واذا كان القرن السابع عشر (قرن الباروك) ، والاضطراب ، والشك ، فان الفكر الاوربي حاول ان يخرج من هـذا الشك ، وان يدخل عصر البحث العلمي ، و (الثورة العلمية) • وبدت هذه المحاولة في **الفلسفة الديكارتية** التي انبثقت من فكر العالم والفيلسوف الفرنسي (ديكارت)(١٥٩٦ــ١٦٥٠) • فقد اعلن ان واجب كل انسان ، ان يسعى للوصول الى معرفة واضحة ، واكيدة ، لكل ما هو مفيد في الحياة ، كقوة النار وعملها مثلا ، وكذلك الماء والهواء والكواكب والسماوات ، وجميع الاجسام التي تحيطنا • ولقد عمل لهذا الهدف طيلة حياته • وقـد كتب كتابه الشهير « محاضرة عـن الطريقة « Discours de la Méthode الذي نشره عام ١٦٣٧ ، وبحث فيه عن الوسيلة المثلى للوصول الى محاكمة عقليـة صحيحة • وكان يود الوصول الى المبادىء الاولى للعلم الجديد وهو « الفيزياء الرياضية » ، وان يقيم منها علمـا عالميا • فالفلسفة كلهـا اشبه بشجرة جذورها

الميتافيزيك ، وجذعها علم الطبيعة ، واغصانها المتفرعة من الجذع ، هي بقية العلوم الاخرى التي يمكن تلخيصها في ثلاثة : « الطب ، والميكانيك، والاخلاق » •

ولقد اوصله شكه بعد التأمل ، الى اثبات وجوده ، بوجود فكره • وبذلك اعطى للانسان اسبابا للحياة ، والكفاح ، والابداع • وأكد حرية ارادة الانسان ، وآمن بعقله وبقيمة العلم ، والحياة الاخرى ، وبذلك أوجد « الفلسفة الحديثة » •

ولقد انتشرت آراء ديكارت في كل مكان ، وعلمت مبادئه في معظم البلدان، وكان لها آثارها المختلفة على عدد من الفلاسفة،ومنهم (سبينوزا) (١٦٣٢—١٦٧٧) الهولندي ، كما كانت دفعا للعلوم ونموها •

فالقرن السابع عشر قرن تطور علمي رائع ، أكان ذاك في ميدان « طرائق البحث » او على صعيد « الكشوف العلمية » : ففي هذا القرن ، ظهر (غاليله) (١٥٦٤—١٦٤٢) ، الذي اكتشف عام ١٦٠٤ قانون سقوط الاجسام،وهو اول قانون ديناميكي ، واوجد بذلك « الفيزياء الرياضية » • وسعى كي يثبت أن بنية العالم هي بنيه رياضية ، وان كل شيء يمكن ان يقاس ، ويعدّ ، ويوزن • وكان هذا الانتقال من **الفكر الوصفي** الى **الفكر الكمي ،** أي الى الدقة ، **ثورة فكرية ضخمة •** فمنها انبثق فكر ديكارت نفسه ، والعلماء ، والفلاسفة الكبار ، التالين ، من أمثال (نيوتن) الانكليزي (١٦٤٢—١٧٢٧) ، الذي نجح في تفسير حركة الكواكب ، بالجاذبية التي يؤثر بها كل واحد في الآخر ، أي بقانون الجاذبية الكونية ، ومنها كذلك ، كان فكر فلاسفة عصر الانوار أي (القرن الثامن عشر) ، وفكر اوغست كونت ، وداروين ، وكارل ماركس في (القرن التاسع عشر) ، ومدام كوري ، واينشتاين في (القرن العشرين) أي كل الفكر العلمي والتقني في الحقبة المعاصرة • وقد عاصر غاليله ، في كشفه الكبير ذاك ، الفلكي « كيبلر » (١٥٧١—١٦٣٠) ، الذي وضع قوانين حركة الكواكب السيارة حول الشمس ، وبذلك اصلح نظرية كوبرنيك واخصبها •

كما عاصره كذلك الانكليزي (فرانسيس بيكون) (١٥٦١—١٦٢٦) الذي أراد ان يبني بحثا متكاملا عن «العلم الجديد » ، واقسامه ، وطريقته ، وشروطه • وقد هاجم اريسطو ، وافلاطون ، ودعا للتوجه مباشرة الى الطبيعة ، ومعرفة قوانينها **بالملاحظة ، والتجربة ، وبذلك وضع أسس (منهجية العلم الحديث) •**

ولا بد من التأكيد اخيرا ، ان هذا القرن كان زاخرا باسماء العلماء الذين دفعوا العلم قدما،من امثال الايطالي (توريشلي) (١٦٠٨-١٦٤٧) ، صاحب قانون (الضغط الجوي) ، والانكليزي (هارفي) (١٥٧٨-١٦٥٧) ، الذي يعزى اليه كشف الحركة الكبرى لدوران الدم عام ١٦١٨ (وكان الطبيب العربي ابن النفيس قد اشار الى اساسيات دوران الدم في الجسم قبله) ، والفيلسوف العالم ، (باسكال) (١٦٢٣-١٦٦٢) الفرنسي ، الذي اخترع أول آلة للحساب ، وتابع اعمال (توريشلي) عن الضغط الجوي . والهولاندي (هويغنز) (١٦٢٠-١٦٩٥) ، الذي درس (النور) ، ووضع نظرية التموجات الضوئية ، وغيرهم .

وخلاصة القول لقد ولد العلم قويا في القرن السابع عشر بفضل نخبة من العلماء ، وكان هذا دون شك اهم تطور في تاريخ الفكر الاوربي ، والانساني .

الفصل الثاني

التطورات السياسية والحضارية في الدول الاوربية الكبرى في القرن السابع عشر

لقد اشرنا سابقا ضمن السمات الكبرى للقرن السابع عشر ، انه كان قرن أزمات سياسية كما كان قرن أزمة اقتصادية ، واجتماعية ، وفكرية ، وفنية .ويطلق احيانا على هذا القرن من الوجهة السياسية اسم ((**عصر الحكم المطلق**)) ، على اعتبار ان السلطة المركزية في دول اوربا ، وسلطة الدول بعامة اخذت بالتزايد خلال هذا القرن ، ولا سيما في فرنسا بالذات . اذ ان الحروب الطويلة التي عاشتها تلك الدول ، جعلتها بحاجة مستمرة للمال ، مما دفع ملوكها الى تأكيد مركزية السلطة اكثر فأكثر ، والى التدخل المتواصل في حياة الامة .

ومن السمات السياسية الاخرى في تاريخ هذا القرن **بروز دول اوربية جديدة** الى الوجود ، اولها ، **المقاطعات المتحدة** ، او ما نسمية اليوم (هولاندة) ، التي انتزعت استقلالها كما رأينا في اواخر القرن السادس عشر . وقد رأت هذه الدولة اكبر رخاء لها خلال الربع الثالث من القرن السابع عشر . ولعبت دورا هاما في التوسع الاستعماري والتجارة العالمية ، وعرفت مع الرخاء الاقتصادي نهضة فنية وادبية غنية .

أما الدولة الثانية التي برزت قوية في الربع الاخير من القرن السابع عشر ، ولعبت منذ ذلك الوقت ، دورا خطيرا في التاريخ الاوربي والعالمي ، فكانت **(روسيا)** بزعامة قيصرها (بطرس الاكبر) (١٦٨٢—١٧٢٥) .

والدولة الثالثة الصغيرة المساحة فهي **(بروسيا)** التي قامت في الشمال

الشرقي من اوربا ، واستطاع اميرها ان يحصل من الامبراطور الجرمني المقدس على لقب ملك في مطلع القرن الثامن عشر عام ١٧٠١ ٠

اولا ــ تطور فرنسا في القرن السابع عشر

ان اكبر ما يميز التاريخ السياسي الفرنسي من الناحية الداخلية ، هو السير في **طريق دعم الملكية الاستبدادية المطلقة** ٠ وقد تم هذا في عهد الملكين **لويس الثالث عشر ، ولويس الرابع عشر** ٠

١ ــ عهد الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠ــ١٦٤٣)

آ ــ بدايات حكم الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠ــ١٦١٧) لم يكن الملك لويس الثالث عشر ليبلغ من العمر سوى تسعة اعوام عند وفاة (هنري الرابع) أبيه ، ولذا عينت والدته (ماري دومديتشه) وصية عليه ٠ ولم تكن لها تلك القدرة السياسية التي كانت لكاترين دومديتشه قبلها ، ولذا فانها لم تلبث أن وقعت تحت تأثير بعض المغامرين الايطاليين ، من امثال (ليئونوره غاليغاي) ، وزوجها (كونشيني) ٠ وقد عينت الملكة الاخير مارشالا لفرنسا ، واعطته لقب مركيز ، ولعب دور الوزير الاول ، ولم يكن من هم له سوى الاغتناء والحصول على الثروة ٠

وبينما سعى الملك الراحل (هنري الرابع) لمقاومة قوة البيت النمسوي ، ونفوذه بالتحالف مع جميع خصومه ، فان « ماري دومديتشه » ، وقعت تحت تأثير الكاثوليك الموالين لاسبانيا ، فزوجت ابنتها لملك اسبانيا ، وابنها الملك لويس الثالث عشر من (حنا النمساوية) اخت ملك اسبانيا ٠

وقد احس (**الهوغنوت**) اي (**البروتستانت**) بالقلق من جراء هذه السياسة فاخذوا ينظمون صفوفهم ، ويقوون مراكزهم الحصينة التي منحت لهم في « مرسوم نانت » ويجندون الجيوش ، وجعلوا على رأسهم « دوق روهان »صهر الوزير السابق (سولي) ٠

ومثلما شعر الهوغنوت بالاستياء ، فان « **النبلاء الكبار** » ، الذين اخضعهم الملك السابق ، واجبرهم على الطاعة ، وجدوا ان الوقت قد حان ليكون لهم

دور فعال في الحكم • فقام عدد من « امراء الدم » ، كالامير (كونده) ، بالمطالبة بالمناصب ، والمال • وحتى تهدىء ماري دومديتشه هذه الفئة ، فانها شرعت بدفع المال لهم ، مما كان (سولي) قد جمعه ووفره في خزينة الدولة • وعندما نفذ ذلك الاحتياطي المالي ، ادعى اولئك الامراء ، اسراف الملكة في النفقات وضغطوا عليها **لدعوة (الجمعية العمومية) عام ١٦١٤** • وكانت تضم نوابا عن النبلاء ، ورجال الدين ، وبورجوازية المدن • وقد اراد النبلاء استغلال هذا الاجتماع ، ليخصوا انفسهم بمناصب الدولة • فبدلا من دراسة الحالة المالية للدولة ، اصطدم نواب النبلاء مع نواب الطبقة الثالثة بعنف • ولم تصل مناقشاتهم الى نتيجة ما ، فطردتهم الملكة عام ١٦١٥ ، وصرفت المجلس •

وبدا عندها (كونشيني) في ذروة مجده • وادخل في «مجلس الملك» الرجال الذين يريدهم ، ومنهم (اسقف لوسون Luçon)أي (ريشليو Richelieu) الذي لعب دوره الكبير في تاريخ فرنسا •

ب ـ الحكم الفعلي للملك وريشليو (١٦١٧ ـ ١٦٤٢)

وامام تلك الاضطرابات،رأى الملك،وقد بلغ السن الشرعية لتسلم العرش(١٤ عاما) ، ان يتحرك بنفسه ويخرج من عزلته ، واستضعافه ، فأمر قائد حرسه ، بقتل (كونشيني عام ١٦١٧) • ونفى والدته الى (بلوا) ، واجبر (ريشليو) على مغادرة البلاط ، واسلم رئاسة الوزارة الى واحد من اصدقائه ، وهو (البير دولوين Albert De Luynes) • ولقد اصطدم الاخير بتمردين : **احدهما** ، قام به النبلاء (الاعيان) بتحريض من (ماري دومديتشه) واستطاع ان يقضي عليه عام ١٦٢٠ ،**وثانيهما** فجره البروتستانت في الجنوب • وتوفى دولوين عام (١٦٢١) •

وحاول لويس الثالث عشر ان يحكم وحده ، وقد تردد بين نصائح أمه ، التي استدعاها ثانية الى البلاد ، ونصائح الامير (كونده) قريبه • ولثلاث سنوات من (١٦٢١ــ١٦٢٤) كان ريشليو ، الذي عاد مع الملكة ، وله نفوذ كبير عليها،يهيء الجو لكي يعود الى السلطة • ولقد استطاع ان يتقرب من الملك ، حتى شعر هذا الملك انه لاغنى له عنه • ونجح ريشليو في دخول مجلس الملك عام ١٦٢٤ ، ولم يلبث ان تصرف كرئيس له •

وصل ريشليو الى السلطة ، وهو في الاربعين من عمره • وهو من اسرة نبيلة من (بواتو) ، دخل سلك الكهنوت ، ليحافظ للاسرة على اسقفية لوسون .

وكان ريشليو فكرا محيطا ، ونفاذا ، ويمتلك قدرة عجيبة على العمل • وقد احاط نفسه بمستشارين اكفياء ومخلصين ، مثل (الاب جوزيف) • واخضع كل شيء للسلامة العامة ، « فاذا كانت الجريمة ضد أمن الدولة ، فيجب اغلاق بـاب الرأفـة » • وقد قام بينه وبين مليكه ، تعاون وثيق مكنته الايام • واخذ الملك يحس بود حقيقي لريشليو ، ولكنـه كان يشعره دائما بانـه هو الرأس • وكان ريشليو يقول « ان غزو الاقدام الاربعة المربعة التي هي مساحة قاعة الملك ، كان اصعب علي من غزو جميع ميادين القتال في اوربا [1] » •

ومنذ وصول ريشليو الى السلطة ، فانه طرح امام الملك برنامج عمله ، الذي يتلخص في جملته التالية :

« القضاء على حزب الهوغنوت ، وسحق كبرياء النبلاء (الاعيان) ، وتوجيه رعايا الملك كل الى واجبه ، ورفع اسم الملك بين الامم الخارجية الى المكان الذي يجب ان يكـون فيـه[2] » .

ج ـ ريشليو والبروتستانت

منذ ان صدر منشور (نانت) ، الذي اعطى للبروتستانت حرية العبادة ، كان تحت تصرف هؤلاء الاخيرين عدد من الاماكن الحصينة ، ويكونون «جسما» منفصلا عن الدولة ـ بحسب قول ريشليو ـ • وقد اوضح سابقا كيف حاولوا أن ينظموا انفسهم عسكريا ، وكيف تمردوا على الملك في عام ١٦٢٠ ، مما اضطر الملك عام ١٦٢٢ ، وبعد عدة معارك ، أن يترك لهم اماكنهم الحصينة ، ويعـود فيؤكد لهم امتيازاتهم الممنوحة لهم في مرسوم نانت .

وما ان وصل ريشليو الى الحكم حتى واجهته ثورة اخرى منهم ، في منطقة (بريتانيا) وفي وسط فرنسا (السيفين) • فتفاوض معهم ريشليو ، الا انه كان يتهيأ للقضاء عليهم (١٦٢٥ـ١٦٢٦) •

---

(١) ، (٢)
E. Bruley, R. Cloet, S. et P. Coquerelle, avec la collaboration de Genet, La fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne (1328 - 1715) Paris 1963 P. 165.

وفي عام ١٦٢٧ ، وعندما نزل الانكليز الذين كانوا في نزاع مع فرنسا ، في جزيرة (ره) ، فان زعيم البروتستانت (سوبيز Soubise) ، الذي اتى معهم نزل في المدينة البروتستانتية الحصينة (لاروشيل) ، واستقبله السكان بالترحاب . فقرر ريشليو ان ينتهي من الطرفين . وقد استطاع ان يطرد الانكليز من جزيرة (ره) ، ثم حاصر مدينة (لاروشيل) . وحتى يمنع الانكليز من تموين المدينة، اغلق المرسى بسد ضخم من الخشب ، والمدفعية . وبعد حصار دام عاما ، اضطرت المدينة الجائعة للاستسلام عام ١٦٢٨ ، ولم يتبق من سكان المدينة البالغ عددهم ٢٧,٠٠٠ نسمة سوى ٥٠٠٠ .

الا انه على الرغم من سقوط المدينة ، فان البروتستانت تابعوا ثورتهم في اللانغدوق ، حتى عام ١٦٢٩ ، حيث هزمتهم القوات الملكية،واضطرتهم للخضوع.

وانتهت الحرب باصدار الملك (عفو آله Grâce d'Alé) عام ١٦٢٩ . وفيه احتفظ البروتستانت بالضمانات المدنية ، والدينية ، المحددة في منشور نانت، الا انهم فقدوا اماكنهم الحصينة ، وحق عقد مجامع دينية دون تصريح من الملك. أي غدوا رعايا فرنسيين كغيرهم .

د ـ **ريشليو والنبلاء الاقطاعيين** : لم يكن كفاح ريشليو للبروتستانت سوى المرحلة الاولى من برنامجه . فقد اراد ان يدعم السلطة الملكية في الداخل ، عن طريق اخضاع النبلاء لها ايضا . فعمد الى ارسال مراقبين مؤقتين ، لمراقبة الحكام والموظفين في المقاطعات . ولم يلبثوا ان اخذوا لقب (مراقبي العدالة ، والامن ، والمالية) . وامر بازالة تحصينات القصور الاقطاعية ، ومنع المبارزة ، واستخدم مع المتمردين ، والثوار ، من هؤلاء النبلاء ، اشد انواع القسوة . وعندما حاول احد النبلاء الشباب ، تحدي امر الملك بمنع المبارزة ، قطعت رأسه عام ١٦٢٧ . ودفع كل من حاول رفع رأسه من نبلاء الاسر الكبيرة ــ وفي معظم الاحوال كانت تشجعه اسبانيا على ذلك ــ حياته ثمنا لتلك الجرأة . وهكذا لما ثار (هنري دومونتمرنسي) ، حاكم اللانغدوق ، في عام ١٦٣٢ ، فان رأسه قطعت . ولاقى مصيرا مماثلا حظي الملك (سان مارس Cinq-Mars) ، لانه تآمر ضد ريشليو وتفاوض مع اسبانيا .

ولم يكتف بذلك ، بل فرض الطاعة على البارلمان . حتى ان الملك خاطب احد

رؤساء البارلمان عام ١٦٢٨ قائلا : «على ركبتيك امام مليكك، ايها الرجل الصغير». وفي عام ١٦٤١ حدد حق ابداء الاعتراضات ، الذي كان للبارلمانات .

وقد سعت (ماري دومديتشه) ، لابعاد ريشليو ، عندما رأته هي وحاشيتها قد منح (صلح عفو آله) للبروتستانت ، بعد ان كانت تظن انه سيكون عونا لها في سياستها الكاثوليكية . وكادت تنجح في عام ١٦٣٠ ، الا ان الملك الذي اثرت فيه وشاية الملكة على ريشليو في بادىء الامر ، لم يلبث ان ارتد على نفسه، واعاد لوزيره ثقته بـه . وعندها اضطرت الملكة ، الى مغادرة المملكة ،والالتجاء الى الاراضي المنخفضة .

وبذلك قوى ريشليو السلطة المركزية الملكية ، وقضى على جميع التحركات الداخلية ، حتى **ثورات الفقراء** التي اندلعت في الغرب (نورمنديا) ، نتيجة زيادة الضرائب ، وذلك بشدة وقسوة ، ودون اية رحمة .

هـ ـ القوة العسكرية والمستعمرات : وقد عمل ريشليو على تطوير مايثبت وينمي عظمة الملك ، الا وهو **الجيش** ، فجعله يتألف من (١٥٠٫٠٠٠) جندي . **وقوى الاسطول الحربي** لتحقيق سياسته الخارجية من ناحية ، ولدعم التوسع الاقتصادي لفرنسا ، وتأسيس المستعمرات ، التي هي مصدر للثروات من ناحية أخرى . ووسع موانىء الهافر ، وبريست ، وطولون ، وحصنها . وانشأ **الشركات التجارية** على صورة الشركات الهولاندية . واقام مؤسسات تجارية في السنغال (سان لويس ١٦٣٨) ، وفي كندا (مونتريال ١٦٤٢) ، وفي مدغشكر . وعند وفاته كان هناك بضع مئات من المستعمرين في كندا ، واكثر من (٧٠٠٠) فرنسي في الانتيل (غواد لوب ، والمارتينيك) . الا ان هذه الاندفاعة البحرية ضعفت فيما بعد ، وكبح جماح التوسع الاستعماري .

و ـ الدعاية للملك وحكمه : واراد ان يكون الموجه للرأي العام وللفكر . فمنح حمايته لجريدة فرنسا (الغازيت Gazette) . وهي جريدة انشئت عام ١٦٣١ من قبل الطبيب (تيئوفراست رنودو Th. Renaudot) وكانت اول صحيفة فرنسية. وأسس عام ١٦٣٥ « **الاكاديمية الفرنسية** » كوسيلة لمراقبة الادباء من ناحية ، والظهور بمظهر المشجع للآداب من ناحية أخرى .

ز ـ حروب ريشليو : وبعد ان ازاح ريشليو العقبات التي وقفت في وجه السلطة الملكية ، اراد ان يثبت قوة الملك في الخارج ، كما ثبتها في الداخل •

فعاد الى **الصراع مع آل هابسبورغ ،** بان ارسل ضدهم الجيوش الى ايطاليا• وقد اصطدمت سياسته هذه باتجاهات الحزب الكاثوليكي ، والملكة الام ، والملكة حنا النمسوية نفسها • وقد اشرنا الى نتائج ذلك الصدام ، الـذي كاد ان يكلف ريشيلو فقدان حظوته عند الملك ، وابعاده عن منصبه (عام ١٦٣٠) • الا انـه بقي قائما ، وتابـع سياستـه الخارجيـة ، في **حرب الثلاثين عاما ،** التي سنبحثها مفصلا فيمـا بعـد •

وفي عام ١٦٤٢ توفي ريشليو ، وتبعه بعد ستة اشهر فقط الملك لويس الثالث عشر • وفي الواقع ، لقد خلف ريشليو فرنسا ، وقد توسعت حدودها ، وسارت في طريق الرأسمالية التجارية • الا انه كان رجل دولة ، اكثر منه رجلا اداريا • وقد قام باصلاحات تتطلب مالا ، وهو لا يملك هذا المال ، مما اضطره الى فرض ضرائب ثقيلة ، وصم آذانه عن انات البؤساء • ومع كل القسوة التي ضرب بهـا ثورات اولئك الفقراء في المقاطعات ، فان تلك الثورات لم تتوقف ، بل توالت وتفاقمت بعد ١٦٣٥ ، بسبب الحرب الطويلة ، (حرب الثلاثين عاما) ، وما حملته مـن ضرائب جديدة • فعندما توفي ريشليو ، تنفس الفرنسيون الصعداء ، ولم يكـن العمل الذي ابتدأه قد انجز بعد • لقد اخاف خصوم السلطة الملكية ، ولكنـه لم يستطع ان يجعل الملـك قويا الا في الظاهر • ولـذلك فان الاضطرابات عـاودت سيرتها ، منذ وفاة الملك لويس الثالث عشر في عام ١٦٤٣ •

٢ ــ عصر الملك لويس الرابع عشر ١٦٤٣ــ١٧١٥

يقسم عهد الملك لويس الرابع عشر الذي خلف لويس الثالث عشر ، الـى مرحلتين رئيسيتين :

المرحلة الاولى : وتمتـد مـن (١٦٤٣ ــ ١٦٦١) • وخلالهـا كـان **الكاردينال مازاران** الذي حل محل ريشليو ، هو المسير للسياسة الفرنسية •

المرحلة الثانية : وتمتد من (١٦٦١ ــ ١٧١٥) • وفيها تسلم زمام المبادرة **الملك لويس الرابع عشر** وكان **((هو الدولة))** •

المرحلة الاولى (١٦٤٣ – ١٦٦١) :

آ – مازاران : لقد كان لويس الرابع عشر ، في الخامسة من عمره ، عندما حضرت والده الوفاة ، فاخذت الوصاية عليه والدته « حنا النمسوية » . ولم تكن لها خبرة بالسياسة ، واحابيلها ، آنذاك ، فاسلمت الامر الى الكاردينال مازاران الايطالي الذي كان موضع ثقتها . وكان الوضع في البلاد متأزما ، والاستياء من حكم ريشليو السابق عاما . فكبار النبلاء ، الذين قصقص ريشليو اجنحتهم ، ناقمون ، والبورجوازيون الذين تضررت مصالحهم متململون ، والشعب الفقير الذي سحقته الضرائب ممتعض ، والفلاحون المعرضون لنهب المحاربين ، ورجال المال ، قلقون .

وكانت الصعوبة الكبيرة التي تعانيها الدولة ، هي حاجتها للمال ، بسبب نفقات الحرب ، واعطيات النبلاء ، الذين كان مازاران يفضل ان يشتريهم بدلا من ان يحاربهم .

ومازاران، الحاكم الجديد،كان سياسياكبيرا ،ورجلاحازما ، كونه ريشليو ، الا انه لم يكن مشابها له . ولكن على الرغم من الصفات التي لا تنعته بالاستقامة، والشرف ، فانه تابع باصرار السياسة التي يريدها ، واوصلها الى هدفه منها ، دون ان يكترث بالعداوات التي اثارها ، والاحقاد التي ولدها . ويمكن القول بايجاز ، انه كان « الثعلب بعد الاسد » ، أي تابع سياسة ريشليو ، انما بوسائل مختلفة .

ب – حروب الفروند : ولقد اصطدم مازاران اول ما اصطدم بالبارلمان الذي لم يحرك ساكنا قبلا ، خلال الوصاية على الملك لويس الثالث عشر . ويرجع ذلك الى انه فرض ضرائب خاصة جديدة على البضائع الداخلة الى مدينة باريس، وعلى المساكن الجديدة المبنية في العاصمة . واوجد مناصب جديدة ، وانقص المرتبات ، وبذلك اغضب البورجوازية . وفي الواقع تجمعت عوامل النقمة لدى جميع فئات الشعب ، ووحدت بينها ، من نبلاء وبورجوازيين ، وشعب مدينة باريس العاصمة . واخذ الناس يتجولون في الطرقات وهم ينشدون ، ويغنون ، تلك المقاطع الشعرية التي تهدد مازاران ، والتي أطلق عليها اسم (المازاريناد) . وفي هذا المناخ المتوتر ، انفجرت مايسمى في التاريخ الفرنسي بـ (حروب الفروند)

أو (حروب المقلاع) • وقد سميت بذلك تشبيها لها بلعبة الاطفال المشاغبين ، المعروفة بهذا الاسم • الا انها في الحقيقة كانت ثورة خطيرة مهددة للملكية الفرنسية•

اما « بارلمان باريس » ، فقد كان مجلسا من القضاة ، اشتروا مناصبهم من الملك ، ويطبقون القانون ، ويقيسون العدالة باسمه • وقد كانوا متعلمين ، واثرياء ويريدون ان يلعبوا دورا سياسيا ، مماثلا لدور البارلمان في انكلترة • وقد ابتدأت (حروب الفروند) عندما اصدر البارلمان « اعلانا من ٢٧ بندا » أيار ١٦٤٨) ، يطالب فيه بتحديد السلطة الملكية • وصفق الشعب لهذا الموقف لان من ضمن المطالب كان انقاص الضرائب • وتبدى له البارلمان ، وكأنه هو المدافع عن الحرية ضد الاستبداد • وتظاهر مازاران بالقبول ، ولكن لم يلبث بعد فترة قصيرة ، ان اوقف مستشارا من بارلمان باريس • فنصب شعب باريس المتاريس ، وبدأ مايسمى بـ « **فروند البارلمان** » ، الذي جاء ليضيف الى البلبلة الناجمة عن الحرب الخارجية ، تمزقا جديدا في قلب المجتمع الفرنسي •

واضطر مازاران ، والعائلة الملكية (الملكة والملك الطفل) ، للفرار والاقامة في قصر (سان جرمان آن له) ، اذ غدا البارلمان سيد مدينة باريس • الا ان القوات الملكية برئاسة (كونده) ، حاصرت المدينة ، واضطرتها ان تستسلم في آذار ١٦٤٩ ، ووقع البارلمان مع مازاران (صلح روئي Rueil) وخضع الثائرون، وانتهى (فروند البارلمان) •

فروند الامراء :

ولكن مطامع (كونده) في الحكم ، والحلول محل مازاران ، اشعلت الثورة من جديد • فقد كان (كونده) اقوى الاقطاعيين في المملكة ، وقد اعتبر نفسه بانه انقذ الملك • وقد بلغت تطاولاته حدا ، دفع مازاران للقبض عليه في عام ١٦٥٠ • فقام اقرباؤه ، واصدقاؤه ، باثارة المقاطعات (نورمنديا ، وبورغونيا ، والبوانو ، والغويين) •

وغدا الاضطراب عاما : اذ اوجدته تلك المؤامرات ، والتنافسات ، والخيانات، التي كانت تجري كلها ، على ارضية من الحرب ، والبؤس • ووصلت البلبلة الى ذروتها ، عندما افصح (بول دوغوندي (P. De Gondi ـ الذي اصبح فيما

بعد « كاردينال ريتز » ـ عن مطامعه في الحلول هو الآخر محل مازاران ، مما اثار مدينة باريس ثانية ضد الملك ، والبت البارلمان ضد مازاران • فاضطر هذا الاخير للهرب الى المانيا في عام ١٦٥١ ، بينما كانت جيوش الملك في كل فرنسا ، تتقاتل مع الفرونديين • فكبار الامراء والقادة ، وجدوا متعة كبيرة في العودة الى عادات الازمنة الاقطاعية ، ومناوشاتها العسكرية ، واسعد كبريات النبيلات ان يلعبن دورا مماثلا لما اتى في الروايات الشائعة آنذاك ، وان يسهمن في الصراع. وقد شوهدت « الاميرة الكبيرة » ابنة عم الملك ، وهي تطلق مدفع باريس على الجيوش الملكية • كما تفاهم امير (كونده) مع الاسبان ضد الملك • ان هذه الصورة المضطربة لفرنسا ، توضح ان الدولة التي سعى ريشليو لتكون قوية ، قد انحلت ، وشرع كل واحد يدافع عن مصالحه الخاصة فحسب •

اخفاق الفروند : لم يكن الملك ، في الواقع ، قادرا على قهر (الفرونديين). الا ان هؤلاء بدورهم ، لم يكونوا قادرين على تنظيم انفسهم • وهذا هو السبب الاساسي في اخفاق الفروند • هذا علما ان الشعب اخذ يتحرك ، لينضم الى هذه « الثورة » • فالبلاد كانت تعاني ازمة اقتصادية ، واجتماعية ، خطيرة آنذاك : فالمواسم الزراعية سيئة ، والمجاعة والوباء منتشران•وفي الواقع اختلف الفرونديون فيما بينهم ، فالبورجوازيون الحريصون على املاكهم ، وارباحهم ، وحرياتهم ، خافوا الحرب الطويلة ، ولا سيما انهم رأوا (كونده Condé) يحاول ان يفرض الارهاب على مدينة باريس ، و « غونـدي » المتآمر ، يلف ويـدور لتحقيق مطامحه • وخشي البارلمان نفسه الرجلين ، كما خشي التفجرات الشعبية ، التي لا يمكن التنبؤ بمدى سعتها • ولعب مازاران دوره في هذه الانقسامات بين الفرونديين ، وتمكن اخيرا بمساعدة (تورين) ، ان يجبر (كونده) على الفرار الى اسبانيا عام ١٦٥٢ ، وان يعيد الهدوء الـى العاصمة ، التي دخلها الملك لويس الرابع عشر ، ووالدته حنا النمسوية وسط تصفيق الشعب وتهليله • ولحق بهما مازاران ، الذي استقبل هو الاخر من الباريزيين ، استقبال ترحاب وحفاوة •

لقد ولدت سنوات الفروند الاربع ، بؤسا عاما ، وعميقا في كل فرنسـا • فبالاضافة الى المجاعات ، والاوبئة ، واكتساحات الحروب ، كان هناك الـدمار

الذي لحق الغلات الزراعية حول مدينة باريس ، حيث جرت المعارك الكبيرة ، ونهب الجنود • لقد تعب الفرنسيون من الحروب المتواصلة وفقدوا ثقتهم بالنبلاء ، وبالبارلمانيين ، على حد سواء • ولذا عاد الحكم المطلق يثبت اقدامه ثانية ، دون ضجيج ، وسط البؤس ، واليأس ، العامين •

لقد كانت (حروب الفروند) اكبر من انتفاضة لا جدوى منها : فهي تجربة حاسمة ، قبل تثبيت دعائم الاستبدادية المطلقة • وقد وقفت فيها البورجوازية المحتقرة من النبلاء ، موقفا دفاعيا ، وكان الملك حاميها الطبيعي • لقد ارادت اصلاحا للدولة ، والمالية ، ولكنها لم تكن مستعدة للاسهام في ثورة شعبية ، أو في ثورة للاقطاعيين •

وهكذا لم يستطع الفرنسيون ان يحددوا سلطات الملك ، وهذا خلاف ما جرى عليه الامر في انكلترة • فبمحاربة ريشليو ، ومازاران ، للعقبات القائمة في وجه الارادة الملكية ، فتحا الطريق واسعا للملكية المطلقة • فمازاران بعد عودته الى باريس ، تابع سياسة ريشليو ، وظل حتى وفاته عام ١٦٦١ ، هو المعلم السياسي للملك لويس الرابع عشر ، الذي جاء في عام ١٦٥٥ ، وهو بلباس الصيد ، وسوطه في يده ، ليلزم بقسوة البارلمان على الطاعة • واعيد « المراقبون » الذين الغيت وظائفهم اثناء (حرب الفروند) ، وبسلطات اوسع ، ومنع النبلاء من التجمع دون تصريح ، وكوفيء العاملون المخلصون •

ومع ذلك ، ففي فرنسا التي عاد اليها السلام والهدوء مؤقتا ، كانت هنالك مشكلتان هامتان ، هما الموارد المالية غير الكافية ، والخرائب التي زرعتها الحرب الاهلية والخارجية •

المرحلة الثانية من حكم لويس الرابع عشر (١٦٦١ – ١٧١٥) :

أولا – الحكم السياسي المطلق :

لقد كان لويس الرابع عشر ، عندما استلم السلطة فعليا بعد وفاة مازاران ، في الثانية والعشرين من عمره • ولما كان قد انتظر طويلا ساعة حكمه الفعلية هذه ، فانه اراد ان يكون السيد الحقيقي • لقد كان ذا قامة متوسطة ، وملامح توحي بالهيبة (الشكل ٢٤) • وفي الواقع لم تلعب الكتب والمطالعة دورا كبيرا في تربيته ، الا ان مازاران قد كونه تكوينا عمليا على ممارسة اعمال الدولة •



الشكل — ٢٤ — الملك لويس الرابع عشر

ولقد ابدى في بادىء الامر تنبها واعيا للامور . واستطاع دائما ان يسيطر على نفسه وان يجيب سائليه بكلمة « سأرى » . وكان يسيطر على شخصيته امران : **وجدان يقظ وصامد ،** تجاه ايـة تجربة ومحنة ، فكان يقول « **بالعمل يحكم ،** ومن اجله يحكم » . ثم **كبرياء شديـدة** يعبر عنها رمزه (**الشمس**) وشعاره : « **متفوق علـى الكـل** » .

وقد كان « الملك لويس الرابع عشر » يعتقد كما يعتقد معاصروه ان سلطته مستمدة من الله ، ومن ثم فيجب ان يطاع كما يطاع اللـه نفسه ، وان يتمتع « بسلطة مطلقة » في جميع الميادين • الا انه كان يرى ان من واجبه كذلك ان يحكم لصالح مملكته وخيرها • كما آمن بان الملك يجب ان يطيع قوانين الله ، وقوانين المملكة ، أي التقاليد التي احترمها الملوك قبله ، وهي القيود الوحيدة لسلطتـه اللامتناهية : كبعض الامتيازات التي تمتعت بهـا بعض المقاطعات ، أو المـدن أو المجالس سابقا ، ومنذ ازمنة بعيدة •

ان هذا المفهوم للملكية المطلقة كان يؤيده كثير من مفكري ذلك العصر • « فبوسوه Bossuet »[1] مثلا شرحه في كتاب عنوانه « سياسة منبثقة من كلمات الكتاب المقدس » واوضح ان الله نفسه قد اراده •

ب ـ استئناس لويس الرابع عشر للنبلاء ـ والبلاط الملكي :

وحتى يطاع الملك من الجميع ، فانه كان يجب ان يطاع من « كبار النبلاء» ، فلويس الرابع عشر لم ينس ثورات النبلاء اثناء (الفروند) • وحتى ينزع نفوذهم من المقاطعات التي يمتلكون فيها ارضا ، فانه جذبهم اليه ، واجبرهم على الانفاق بسعة ، ومن ثم على الافلاس المادي ، عن طريق حياة اللذة والفخفخة التي اتاحها لهم ، أي بشراء الملابس الفخمة ، وبالانهماك في الاحتفالات ، أو اللعب بالقمار • وقد كانوا مجبرين على ذلك حتى يظهروا بمظهر يتناسب مع حياة البلاط ، التي كان يعيشها الملك نفسه • وبـذلك لم يعد لهم من هم سوى الحصول على حظوة لدى الملك ، ولا رغبة لديهم اكبرمن رغبة احساسه بوجودهم ، وتقويمه لهـم ، اذا ما وضعوا انفسهم في خدمته • فقد كانوا سعداء مثلا اذا ماتلقوا دعوة منـه الى قصره في (مارلي) ، أو اذا ماسمح لهم بحضور لحظة ذهابه الى النوم •

وحتى يترك الملك اثرا قويا في نفوس رعاياه ، بانه الملك القادر ، والقوي ، فانه عاش في بلاطه وسط ترف لايصدق • فكل لحظات وجوده : نهوضه مـن النوم ، وذهابه اليه ، ووجبات طعامه ، كل هذا كان خاضعا لاحتفالات منظمـة

---

(١) بوسوه (١٦٢٧ـ١٧٠٤) : اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه ومراثيه وبلاغته . وكان مربي ولي عهد فرنسا ، ومن اجله كتب كتابا « عن التاريخ العالمي » . ولديـه حس تاريخي عميق .

بدقة • وكان المركز الرئيسي للبلاط (قصر فرساي) ، حيث تـم الاستقرار فيـه نهائيا عـام ١٦٨٢ •

ولم يكن البلاط بالنسبة للويس الرابع عشر مجتمعا متألقا فحسب ، وانما كان تجمعا لكل « النبالة » التي روضها واستأنسها • ففي البلاط كان النبلاء معروفين منه ، فظهورهم فيه يعني استلام معاشاتهم المخصصة لهم • ويقضى على النبيل ، اذا قال الملك عنه بأنه لايود رؤيته بعد الآن • وقـد كانت الشرطة تراقبهم ، وتفتح رسائلهم ، وبذلك كان على النبلاء ان يتنازلوا عن كل ادعاء سياسي ، او مطمع •

جـ ـ الحكومـة : ولمـا كانت سلطة الملك تنبثق من الله ، فانهـا لا تقتسم ابـدا • ولذلك فانه لم يتخذ ، بعد مازاران ، وزيرا ، لانـه اراد ان يحكم بنفسه • ولكن هذا لايعني استغناءه عن المساعدين • فقد كان يعاونه مجموعة من (المستشارين) ، ولكنه يحتفظ بالقرارات لنفسه ، بل ان اكثر معاونيه تأثيرا عليه ـ (كولبير) أو (لوفوا) ـ لم يكن له من حق ، سوى تنفيذ اوامر الملك • وكان يجتمع مع مستشاريه في « **المجلس الاعلى** » (وسمي بهـذا الاسم لانه كان يجتمع في الطابق الاعلى من قصر فرساي) • وكانت شؤون الدولة العليا موزعة مبدئيا بين ستة معاونين له : « **المستشار** » وهو رئيس شؤون القضاء » ، وحارس الاختام ، و « **المراقب العام للشؤون المالية** » ، وكان هو « كـولبير » ، **واربعة من سكرتيري الدولة المختصين** • وكـان واحـدهـم **للشـؤون الخارجيـة** ، وثـانيهـم **للحـرب** ، وثـالثهـم **للبحـريـة** ، ورابعهم **لمنزل الملك** • وكانوا الى جانب اهتمامهم باختصاصاتهم ، يدير كل واحد منهم جزءا من المملكة • واكثر المعاونين أهمية (مراقب الشؤون المالية) ، لانـه لـم يكن يدير تلك الشؤون وحدها ، وانما الاقتصاد كله ، وادارة الدولة •

وكان هناك مجالس اكثر اختصاصا ، وهي فروع من المجلس القديم للملك ، مثـل ، (**مجلس الرسائل السريعة**) ويهتم بالشؤون الداخلية ، ولاسيما العلاقات مع المراقبين ، وادارة المقاطعات ، و (**مجلس الشؤون المالية**) ويشرف على خزينة

الدولة والضرائب ، و (**مجلس الخصومات**) الذي كان بمثابة محكمة ادارية عليا، ومحكمة استئناف ، ويجب ان يلاحظ ان جميع هذه المجالس لا تنعقد الا بحضور الملك ماعدا (مجلس الخصومات) ، وان « المجلس الاعلى » يلعب دورا اساسيا اذ تتخذ فيه كل القرارات • وكان لويس الرابع عشر حكيما عندما ابعد عنه اعضاء اسرته ، وكبار الاعيان ، وقصره على بضعة اشخاص كبار •

د ـ الادارة في المقاطعات : ان فوضى المؤسسات الادارية في الاقاليم بقيت قائمة وعديدا من الحكام الاقطاعيين ، الذين كان لهم دور عسكري بصفة خاصة ، وغالبا شرفي ، استدعوا للبلاط وظلوا فيه • ان التجديد في حكم المقاطعات ، يتمثل في المكانة التي شغلها (المراقبون) للشؤون القضائية ، والامن ، والمالية• فقد كانوا في بادىء الامر مفتشين ، ينتقلون من اقليم الى آخر ، ثم اصبحوا خلال حكم لويس الرابع عشر موظفين ثابتين • فهم من ناحية مرتبطون بمقاطعة ادارية، ومن ناحية أخرى مرتبطون ارتباطا قويا بالملك • وفي الوقت ذاته كانت سلطتهم تتضخم تضخما كبيرا ، فا (المراقب) كان ملكا في مقاطعته ، له حق القضاء ويهتم بجميع مظاهر الحياة الاقتصادية ، ويتدخل في الحياة الخاصة للناس عندما تتطلب المصلحة الدينيةذلك ، كما يتدخل في شؤون البلديات •

هـ ـ القضاء : لقد كان في الاساس وظيفة ملكية ، وكان يؤدى باسم الملك حتى في بعض الاقطاعات المتبقية • وكان يقوم به « القضاة » الذين اشتروا مناصبهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال حقيقي • وكان بعضهم اداريين الى جانب عملهم القضائي • واهم المحاكم كانت البارلمانات ، وكان عددها عشرة في بدء الحكم ، ويكون اعضاؤها ارستقراطية قضائية حقيقية • وكان القضاء بطيئا ، ويكلف غاليا •

و ـ الجيش والشؤون العسكرية : لقد كان هدف لويس الرابع عشر الاساسي خلال حكمه تأكيد اولوية التاج الفرنسي وسيادته في اوربا • فالملكية اذاً يجب ان تكون عسكرية قبل كل شيء ، أي يشغل الجيش فيها المكان الاول • وقد اهتم الملك به بنفسه ، الا ان بناة ذاك الجيش الحقيقيين كانوا ثلاثة : (لوتيلية Le Tellier) وكان سكرتير الدولة للشؤون الحربية ، ومتواضعا ومجدا

في عمله • وابنه (لوفوا Louvois) وكان عونه ، ثم حل محله • وكان قاسيا ، وسريع الغضب ، ومحبا للمجد والشهرة • واخيرا (ڤوبان Vauban) ، وكان محاربا في جيش (كونده) اثناء الفروند • وقد شعر مازاران بتفوقه ، فجعله مهندسا للملك • وكلفه الملك عام ١٦٦٢ بتحصين مدينة (دونكرك) • ومنذ ذلك الوقت اسهم في جميع الاعمال العسكرية ، والحصارات التي جرت خلال حكم لويس الرابع عشر • وكان رياضيا متفوقا ، ومخططا حربيا من الدرجة الممتازة•وكان يعرف كيف يستفيد من التضاريس ، والانهار ، والمستنقعات ، وحتى السدود ، ليجعل الاماكن الحصينة ممتنعة على العدو • وحتى تتمكن تلك الاماكن من مقاومة المدفعية ، فانه انشأ نظاما من التحصينات الخفيـة تحميها الخنادق ، ومرتفعات صغيرة من التراب المغطى بالحشائش • وقد بنى خلال اربعين عاما (١٦٦٧-١٧٠٧) أو اعاد بناء ، ١٦٠ مكانا حصينا ، هذا بالاضافة الى الموانىء العسكرية ، مثـل « بريست » و « طولون » • كما اوجد طريقة جديدة في الحصار دون ان يريـق دماء كثير من الجنود • حتى اصبح يقال « مدينة يدافع عنها فوبان لا تؤخذ ، ومدينة يحاصرها فوبان تؤخذ » • وقد عين عام ١٧٠٣ مارشالا لفرنسا •

وعرف (فوبان) الى جانب اعماله العسكرية تلك ، بأنه اهتم **بالاحصاء السكاني** كمـا **بحث في الضرائب** • وقد عزا بؤس الشعب الى فساد العاملين في الشؤون الماليـة ، والى سوء توزيع الضريبة • وقد اقترح احلال ضريبة وحيدة ، هـي العشر على الدخل ، على جميع رعايا الملك دون استثناء • وقد قدم عمله مخطوطا للويس الرابع عشر ، وغضب الملك مما اتى فيه ، الا انه مع ذلك ، استوحى منـه لايجاد ضريبة جديدة هي (العشر) •

وقد طبع فوبان كتابه عـام (١٧٠٧) سرا ، الا ان الكتاب صودر ، وصب الملك سخطه عليه ، وتوفي بعد مدة قصيرة •

ويمكن القول اخيرا ، بالنسبة للناحية العسكرية ، ان الجيش فقـد صفته الاقطاعية • ومع ان الرتب العسكرية بقيت خاضعة للبيع والرشوة ، الا انهم اوجدوا للضباط الفقراء درجات لاتباع • ووجه اللوم للضباط ، الذين يقيمون في البـلاط

اكثر من اقامتهم على رأس عملهم ، وعوقب النهب الذي كان يمارسه العسكريون. وقد ثبت تسلسل الرتب العسكرية حتى تمنع المنافسات عند ممارسة القيادة ، وعمم اللباس العسكري على جميع العسكريين .

وقد بلغ عدد الجيش في هذه الحقبة قدرا كبيرا ، اذ وصل الى ٤٠٠ر٠٠٠ جندي في عام ١٧٠٣ .

وقد كان كل قائد فرقة هو الذي يجمع الجنود لفرقته بطرقه الخاصة . ودعم هذا النظام في عام ١٦٨٨ **بانشاء (الميليشيا)** ، وهي محاولة لايجاد خدمة عسكرية الزامية **تمد جيشا احتياطيا** . وكان افراد هذه الميليشيا يختارون بالقرعة ، من بين العازبين الذي تتراوح اعمارهم بين ٢٠ــ٤٠ سنة .

وبالاضافة الى كل ذلك ، فان **تسليح الجيش** قد تحسن ، واستخدمت البندقية السهلة في الحشو ، التي ارفقت بها الحربة . ودعم سلاح الفرسان الخفيف، ونظمت فرق خاصة للمدفعية .

وهكذا اصبح لفرنسا **جيش قوي** ، قادر على الحركة والعمل ، على الرغم من ان ضباطه كانوا غير مدربين الدربة الكافية . ومع كل عيوبه فقد بدا الجيش الاول في اوربا .

وفي الوقت ذاته ، انشأ (كولبير) **اسطولا حربيا** ففي عام ١٦٦١ لم تكن فرنسا تملك سوى (١٨) مركب حرب وستة غليونات ، وفي عام ١٦٧٣ اصبح لديها (٢٥٨) سفينة.واوجد كولبير عام ١٩٧٣ (الخدمة البحرية) وهي نوع من الخدمة العسكرية الالزامية ، طبقت على سكان السواحل . وشجع القضاة على اصدار احكام قضائية بالعمل في تجديف السفن . واعتنى بالموانىء الحربية ، وبخاصة (بريست) و (طولون) و (الهافر) ، وانشئت ترسانة (روشفور) لصنع السفن .

ز ــ تنظيم الشؤون المالية : لقد كان (نيقولا فوكه N. Fouquet) هو المشرف العام على الشؤون المالية ، عندما استلم السلطة الملك لويس الرابع عشر . ولقد اكتسب ثروة ضخمة من عمله ، فغضب عليه الملك ، وعزله بعد ان سجنه .

وعهد الى (كولبير) ذي الشخصية القوية بهذا العمل ، الذي بقي يديره لعشرين عاما . وقد عمل قبلا مع مازاران ، واوصى بـه هذا الاخير مليكه . وقد عين في منصبه هذا عام ١٦٦٥ ، واضيف اليه عام ١٦٦٩ سكرتارية الدولة للبحرية ، وشؤون الملك .

وقد اوجد كولبير طرائق صارمة ودقيقة للحسابات المالية ، فهناك : سجل يسجل يوما بيوم واردات الدولة ونفقاتها ، وفي آخر العام توضع قائمة بذلك . وبذلك اصبح باستطاعة الملك ان يعرف الحالة المالية في كل لحظة،وان يقوم كولبير بسد العجز ، بل وبتوفير احتياط كما فعل (سولي) في عهد الملك هنري الرابع . وكان باستمرار يلح على مليكه بالاقتصاد من النفقات ولا سيما اثناء بناء (فرساي) .

وقد كانت **واردات الدولة** تتكون اولا من واردات الاملاك الملكية ، وهذه الاملاك كانت معطاة في معظم الاحوال لاشخاص خاصين . ثم هناك الضريبة المباشرة ، وهي **ضريبة الدخل** La Taille . وكان الاقطاعيون ورجال الدين ، والمتسلمون للمناصب الملكية، معفيين منها . وكانت تثقل قبل كل شيء كاهل الفلاحين ، اذ لم تكن متساوية التوزيع بين المدن ، والمقاطعات ، وفي بعض المناطق كانت تفرض على كل واحد بحسب ثرائه الظاهر .

اما **الضرائب غير المباشرة** فهناك **ضريبة الملح ،** وكانت نسبتها تختلف اختلافا كبيرا بحسب الاقاليم ، مما ادى الى عملية تهريب واسعة لهذه المادة . ثم هناك **ضرائب على المشروبات** Les Aides **والرسوم الجمركية** traites القائمة بين كل مقاطعة واخرى . ولما لم تكف هذه الضرائب فقد اوجد كولبير ضريبة (الطابع) ، واحتكر بيع (التبغ) . ولم يتوصل الى اصلاح نمط جباية الضرائب ، ولم يستطع التخلص من ملتزمي الجباية ، الذين يقدمون المال الى الملك ، مقابل ارباح ضخمة يحصلون عليها .

ح ـ السياسة الاقتصادية لقد كان كولبير مثل معظم معاصريه يعتقد ان كمية النقد المتداولة في اوربا هي ثابتة ، وان قوة الدولة وعظمتها يقاسان باحتياطيها

من النقد •فيجب اذاً تجنب الاستيراد من الخارج ، وتصدير اكبر كمية ممكنة • وهذا لا يمكن ان يقوم بـه الا اذا وضع يده على التجارة البحرية الكبيرة ، التي اغنت الهولانديين ، وقام بصنع المنتجات التي كانت فرنسا تستوردها من الخارج •

الصناعـة : فكر كولبير في ان يدخل في المملكة تقنيات **الصناعة الاجنبية** واسرارها • فجذب امهر العمال ، واكبر معلمي الصنعة في البلدان المجاورة الـى فرنسا • وشجع تأسيس ((**المصانـع**)) : فقد اسس بعضها بتمويل من الدولة ،لانتاج كمية كبيرة من السلع ، فهي ((**مصانع دولة**)) تعود للملك وتعمل لـه ، كمصنع السجاد ، والاثاث ، المسمى ((مصنع الغوبلن)) • وهناك ((**مصانع ملكية**)) يحميها الملك من المنافسة ، ويعينها بكميات من المـال • وبذلك انشئت مصانع للمرايا ، والحرير ، والجوخ • وكان على رأسها غالبا صناع اجانب ، او تستخدم عمـالا اجانب ، شجعهم كولبير للمجيء الى فرنسا ، للتعرف على اسرار صنعتهم ، بينمـا منع العمال الفرنسيين من الذهاب الى الخارج •

وحتى تباع المصنوعات الفرنسية للخارج ، يجب ان تكون من نوعية ممتازة• ومن ثم نشر كولبير مجموعة من «التنظيمات» بطرق صناعة هذه السلع،حتى بتفصيلاتها الدقيقة جدا • واوجد مفتشين ليتحققوا من تطبيق تلك التنظيمات ، وعاقب بقسوة الذين لا يحترمونها •

وقد اثمرت سياسة كولبير اذ امتدحت الدول الاجنبية صناعة فرنسا • الا ان التنظيمات التي اوجدها ، اعاقت فيما بعد تطور الصناعة وقيدتها ، ومنعت المبادرة الفردية • هذا في الوقت الذي كانت فيه تلك المصانع تتقهقر ، اذا ما قطعت عنهـا المعونـة الماليـة •

الزراعة : واذا كان كولبير قد اهتم بتنمية الصناعة ، فانه لم يظهر اهتمامـا مماثلا بالزراعة • وكان هدفه ان تكتفي كل مقاطعة بنفسها • ولـذا قيـد تجارة الحبوب ، ولم يسع الا لتشجيع «الزراعات الصناعية» الضرورية لنمو المصانع : كالنباتات الضرورية للنسيج ، مثل الكتان ، والقنب ، وشجرة التوت • او (النباتات الصباغية) كنبات الغارانس ((اللون الاحمر)) ، والنيلج (الازرق) ، هذا علمـا

بأن فرنسا كانت بلادا زراعية ، والازدهار الصناعي غير ممكن دون رخاء زراعي.

التجارة والاستعمار : وليحمي كولبير الصناعة من منافسة المنتوجات الهولندية، فانه فرض رسوما جمركية عالية (١٦٦٧) ، ولم تلبث ان قلدتها الدول الاخرى ، ففرضتها على المنتوجات الفرنسية • « وحرب التعرفة الجمركية » هذه ، ساعدت على توليد العداوة بين فرنسا وهولاندة • ومن ثم ، ففي « معاهدة نيميغ «Nimègue» » عام ١٦٧٨ ، اضطر كولبير ان يعود الى رسوم جمركية معتدلة.

ولكي يسهل سبل انتقال البضائع في داخل البلاد ، فانه الغى الرسوم الجمركية في ١٢ مقاطعة (في حدود الحوض الباريسي Les Cinq Grosses fermes وشجع الانتقال بالطرق المائية لرخصها ، هذا علما انها بطيئة نسبيا ، وشق عدة قنوات • الا أن أكثر ما اهتم به كان الطرق الاستراتيجية ، والطرق المؤدية الى الموانىء الكبيرة •

ان جميع اعماله السابقة في ميدان **التجارة الداخلية** ، كانت تهدف الى تهيئة **الازدهار للتجارة الخارجية** .وقد اتبع ، ليضمن ذلك الازدهار ، بالاضافة الى الامور السابقة ، النقاط التالية ، مقلدا بذلك الهولنديين :

أسس بين (١٦٦٤—١٦٧٠) (شركات تجارية) ، اخذت احتكار النقل مع المستعمرات ، او مع بلاد اخرى ، ومنحها امتيازات مالية ، مثل (شركة بلاد الهند الشرقية) التي كانت تقوم بالتجارة بين المحيط الهادىء ، والمحيط الهندي ، و (شركة بلاد الهند الغربية) التي عملت من مركزيها في مدينتي «نانت» و«بوردو» على تنظيم **التجارة المثلثة**(١) • وكانت هذه التجارة تدر ارباحا كبيرة ، من تجارة السكر ، والعبيد • و (شركة الشمال) التي احتفظت لنفسها بالتجارة في (بحر الشمال ، والبلطيق) • واخيرا (شركة الشرق أو الليفانت) التي اتخذت مركزا لها مرسيليا ، وكانت تستثمر الاحتكار الفرنسي لتجارة الامبراطورية العثمانية •

---

(١) التجارة المثلثة هي المتاجرة مع افريقيا الزنجية ببيعها سلعا مختلفة ، وكحولا مقابل العبيد . وهؤلاء كانوا يحملون لبيعهم في جزر الانتيل ، او جزر المحيط الهندي ، حيث يأتي التجار الاوربيون منها بالتوابل ، وسكر القصب ، وغيرها.

ومع ذلك فان التجار الفرنسيين الذين كانوا يريدون (التجارة الحرة) وعلى هواهم ، لم يدخلوا برضاهم في هذه الشركات • وعندما ساءت الاحوال بعد (عصبة اوغسبورغ) فانهم استعادوا استقلالهم •

تاسيس المستعمرات : لم يكن بمقدور رجال السياسة في ذلك العصر ان يتصوروا التجارة البحرية دون « زرع استعماري » ، يدر على فرنسا التوابل ، والمواد الاولية التي تحتاجها•وهنا اراد كولبير انينظم ايضا كل شيء••ففي **كندا** جهد لزيادة السكان بنظام الاسكان ، وسعى حكامها للتوسع غربا • وكان عدد السكان في كندا عند وفاة كولبير ١٠٫٠٠٠ نسمة • وقد سعى المبشرون الدينيون نحو خليج المكسيك ، الا ان الملك ، كان يركز اهتمامه بخاصة على المسيسبي ، كطريق يوصل الى ذهب المكسيك • وقد استطاع (كاڤليه دولاسال Cavalier de la Salle) مثلا ، الذي خرج من كندا ، ان يهبط المسيسبي حتى دلتاه عام ١٦٨٢ ، واعطى اسم (لويزيانا) للبلاد التي قطعها (نسبة الى الملك لويس الرابع عشر) •

وفي **مدغشكر** لم تنجح عملية الاستيطان ،اذ عمل السكان عام ١٦٧٢ على قتل المستعمرين الذين استقروا فيها منذ عهد ريشليو•وبعد عامين اسس الفرنسيون (بوند يشيري) و (شاندرناغور) في **بلاد الهند** • وفي **امريكا الوسطى** **(الانتيل)** تابع الفرنسيون اهتمامهم ب(المارتينيك) و (الغوادلوب) • واستقر قراصنة فرنسيون في الجزء الغربي من (سان دومنغ) •

وخلاصة القول تبدى الاقتصاد الفرنسي في ايام كولبير ، بواجهة متألقة ، كما تبدى اقتصادا موجها ، بل مسيرا من السلطة الملكية • وفي الواقع ان (الكولبيرتية) هي الصورة الاقتصادية للحكم الاستبدادي المطلق •

ط ـ السياسة الدينية للملك لويس الرابع عشر :

كان الدين بالنسبة للويس الرابع عشر من شؤون الحكم • او بتعبير آخر طالما انه قد استمد سلطته من الله فتسيير الكنيسة غدا من واجبه • بل انه مال

في اواخر حياته الى الورع والتقى ، تحت تأثير (بوسوه) ، و (مدام دومانتون) التي تزوجها بعد وفاة الملكة في عام ١٦٨٣ ، ومن ثـم فهو نادرا ما كان يفصل بين اهتماماته الدينية ، ومصالحه السياسية .

١ ـ **الملك والبابوية** : وقع الملك في خصومة مع البابا لعشرين عاما . فقد طلب استقلال الملكية تجاه روما ، على صعيد السلطة الزمنية ، كما طالب كذلك بالقبض على ادارة الكنيسة في فرنسا . وكان يؤيده في مطلبه (الغاليكاني) هذا ، البارلمانات المعادية لتدخلات البابا . الا ان اغلبية الاساقفة كانوا ضـد اضعاف السلطة البابوية ، ومن ثـم فانهم لم يكونوا الى جانبه .

وقد توترت العلاقات،عندما تفجرت قضية «الحق الملكي بواردات الكنيسة» المسمى (ريغال Régale) . وهـو حق السلطة الملكية بجني واردات اسقفية خلال شغورها ، وباجراء تسميات كنسية فيها خلال الوقت نفسه . ولم يكن الملك ليتمتع بهذا الحق في جميع انحاء المملكة . فجاء لويس الرابع عشر في عام ١٦٧٣ ، وادعى تعميمه على كل فرنسا ، على الرغم من معارضة البابـا . واراد الملك ان يتخذ موقفا حاسما بدعم (الغاليكانية) أي استقلال الكنيسة الفرنسية عن البابا، مستندا الى تأييد الكنيسة الفرنسية . وقام « مجمع من الاساقفة » تحت دفـع « بوسوه » باصدار (اعلان البنود الاربعة) ، الذي يؤكد استقلال الملك علـى الصعيد الزمني ، وتفوق سلطة المجامع على سلطة البابوات ، وان بدت الناحيـة الاخيرة غير واضحة تماما في ذلك الاعلان .

وغضب البابا لهذا الاجراء ، ورفض مباركة الاساقفة الذين عينهم الملك . وساءت الاحوال في عام ١٦٨٧ ، حتى ان البابا حرم سفير فرنسا في روما . هـذا بينما كانت الجيوش الفرنسية تحتل (افينيون) التابعة للبابا . ولكن لويس الرابع عشر لم يصمد تجاه البابا ، بل انهى الامر بالغاء الاعلان السابق عام ١٦٩٣ ، وذلك تحت تأثير الارهاق الذي اصابه من الحرب الخارجية ، وتحت تأثـير حياته التقية جدا ، الجديدة . وبالمقابل اعطاه البابا حق (الريغال) على فرنسا . الا ان (الغاليكانية) ، أي المطالبة باستقلال الكنيسة الفرنسية ، لم ينته امرها ، بـل ستبقى حتى نهاية القرن التاسع عشر تنوء بثقلها على علاقات فرنسا والبابوية .

٢ ـ **مهاجمة الجانسينية :** لقد رأت فرنسا منـذ وفاة الملك هنري الرابـع **يقظة كاثوليكية ،** عملت على تغيير فكر المجتمع الفرنسي ، وموقفه تغييرا عميقا. فقد تكونت **جمعيات دينية جديدة ،** سعت **لتعليم الشبيبة على المذهب الكاثوليكي ،** هذا بالاضافة الى تعليم رجال الدين الصغار • وقامت في عـام ١٦٠٣ « جمعية التكريس المقدس » بتنظيم الدعاية الكاثوليكية ، وراقبت البروتستانت ، وحاربت مساوىء الاخلاق ، ولا سيما في المدن • وقد كان لها اثرهـا المحـرك ، حتى أن مازاران منعها في ١٦٦٠ •

وفي هذا الوقت ، كانت ادارة الكنيسة الكاثوليكية قـد اصلحت بحسب مقررات «مجمع ترانت» ، وبعثت حياة الاديرة السابقة ، وتأسست طوائف دينية تأملية • وقد تميزت في هذه الفترة شخصية (القديس فانسان دوبول) ، وقد سادت النصف الاول من القرن السابع عشر • وكانت حياته صراعا ضد البؤس ، وجهدا متواصلا لكثلكة الارياف • وقد سعى لانقاذ الاطفال الذين يهجرهم اهلهم فأسس لهم ما يأوي اربعة الاف طفل • وحتى يقطع دابر التسول والتشرد اوجد «المستوصف العام »، الذي استقبل في السنوات الخمس بعد الفروند ، ما يقارب (٦٠٠٠)متسول وعلمهم مهنة يعيشون منها •

وهذه النهضة الكاثوليكية تجسدت صافية في جماعـة عرفت بالجانسينية Jansénistes • فهم كانوا يعتنقون عقيـدة (القديس اوغسطين) ، كما كتبها باللاتينية (جانسينيوس Jansénius) (١٥٨٥ــ١٦٣٨) • وفي هذا الكتاب الـذي نشر عام ١٦٤٠ فقط ، أيد « جانسينيوس » الفكرة القائلة بأن الانسان منـذ الخطيئة الاولى ، غير قادر على ان يصل الى خلاصه وحـده • وان الله لا يمنـح مغفرته ، الا لعدد ضئيل من المختارين ، الذين انتقوا مسبقا • وهذه هي « النظرية الجبرية » التي كانت تتطلب اخلاقا صلبة ، وايمانا عميقا •

وقد مثل الجانسينية في فرنسا ، في بادىء الامر ، الاسقف (سـان سيران S. Cyran) ، الذي سجنه ريشليو عام ١٦٣٨ • وكان رجل الدين الذي تعترف اليه راهبات (بورروبال) في باريس ، والذي حول (بورروبال) الى مركز للفكر

والاخلاق الجانسينية • ولم تلبث ان انتشرت العقيدة الجديدة بسرعة : ففي عام ١٦٤٣ عرض (انطوان ارنولد) وجهة النظر الجانسينية المعارضة لوجهة النظر اليسوعية • وقام اليسوعيون بالمقابل بالاعلان بأن الجانسينية هي بعث للكالفنية • وشعر الملك بقوة الجانسينية عندما مال اليها رجال الدين في المقاطعات ، ورئيس اساقفة باريس • فطلب الملك من البابا شجبا رسميا لها ، وشن حملة شديدة ضد (بور رويال) • فاغلق الدير ، وطردت قوات الامن الراهبات الاثنتين والعشرين فيه ، وهتكت حرمة المقبرة •

وعاد البابا في ١٧١٣ فشجب مرة اخرى الجانسينية بصك • ولكن رئيس اساقفة باريس رفض استلامه ، وايده البارلمان في ذلك • وفكر لويس الرابع عشر بدعوة مجمع ديني قومي ، ولكنه توفي قبل ان يستطيع القيام بالامر • ومنذ ذلك الوقت تكون حزب جانسيني ، وقف في وجه السلطة الملكية ، وذلك اثناء القرن الثامن عشر كله •

٣ ـ لويس الرابع عشر والبروتستانت : لقد عاش البروتستانتيون في فرنسا منذ (منشور آله) عام ١٦٢٩ رعايا موالين مخلصين • وفي الواقع ان امكان قيامهم بثورة عامة غدا صعبا ، فقد فقدوا كل ما يمكن ان يجعلهم دولة ضمن الدولة • لقد كانوا اقلية ، أي حوالي مليون من السكان فقط ، وكانوا مبعثرين بين كالفنيين ولوتريين ، وينتمون الى كل الاوساط • ومع انهم لم يحركوا ساكنا اثناء (حروب الفروند) ، ليستعيدوا امتيازاتهم السياسية السابقة ، فان الملك لويس الرابع عشر قرر مهاجمتهم • فقد رأى ان عليه وهو « الملك الكاثوليكي جدا » أن يكون المدافع عن الكاثوليكية ، وكان يعتبرهم رعايا غير صالحين • فهو لا يزال يؤمن بالشعار القديم القائل **« عقيدة واحدة وشريعة واحدة »** ، وكان يعتقد ان الاختلاف في الدين يشوه الدولة •

ويمكن تقسيم سياسة الملك تجاه البروتستانت الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : وتمتد من ١٦٦١ــ١٦٧٩ ، اكتفى فيها الملك بتطبيق دقيق لمنشور نانت ، وابعد تدريجيا البروتستانت من مناصب الدولة • وفي الوقت ذاته

سعى لاعادتهم للكاثوليكية ، بطريق الاقناع ، ثم بطريق المال ، حتى انه اوجد صندوقا خاصا لهذا الغرض •

المرحلة الثانية : وتمتد من ١٦٧٩–١٦٨٥ ، وفيها لم يعد الملك يحترم ابدا منشور نانت ، وذلك تحت تأثير « مدام دومانتنون » • فالغى المحاكم المشتركة ، وهدم عدة كنائس بروتستانتية ، ومنع البروتستان من الوظائف العامة ، ومن بعض المهن الحرة ، كما حظر الزواج بين الكاثوليك والبروتستانت •

وابتدأ على أثر ذلك سياسة العنف • بل ان « لوفوا » استخدم نظاما اطلق عليه (نظام الدراغوناد) ، ويعني اسكان جنود عند جميع العائلات البروتستانتية فكانوا ينهبونهم ، ويسلبونهم ، ويعذبونهم • وعندما كان يقترب هؤلاء الجنود من قرية ما ، فان جميع سكانها كانوا ينقلبون الى الكاثوليكية •

وكان الملك لويس الرابع عشر ، الذي لم يكن يعلم بحقيقة ما يجري ، يسر لانباء تحول البروتستانت للكاثوليكية ، حتى انه اعتقد ان عدد الباقين في المذهب البروتستانتي غدا قليلا في مملكته • ولذا فقد رأى ألا فائدة من الابقاء على منشور نانت ، فالغاه في ١٨ تشرين الاول عام ١٦٨٥ •

المرحلة الثالثة : وتمتد بعد عام ١٦٨٥ • وفيها منع البروتستانت من ممارسة دينهم ، واجبر رجال دينهم على الخروج من المملكة الفرنسية •

ولقد امتدح معظم الناس الملك لانه ثبت وحدة الدين ، ما عدا بعض الافكار الجريئة من امثال « فوبان » و « سان سيمون »[1] • وقد فر كثير من البروتستانت (ربما ١٠٠٠٠٠ او ٢٠٠٠٠٠) الى الخارج على الرغم من حظر الدولة عليهم هذا الخروج • ولما كان عديد منهم من الصناع ، والبورجوازيين ، فإن بعض المهن، والصناعات ، قد اقفرت تماما من اصحابها •

وفي السيڤين (شرق الكتلة المركزية في فرنسا) ، قام البروتستانت بثورتهم

---

(١) لويس سان سيمون (١٦٧٥–١٧٥٥) . اديب فرنسي ، ومؤلفه المشهور هو (مذكرات) ويتحدث فيها عن الاحداث بين ١٦٩١–١٧٢٣ . واكثر ما اهتم به حياة البلاط بكل دقائقها .

عــام ١٧٠٢ ، وكانت الحرب المسماة « بحرب اصحاب القمصان Camisards » ، وهي نوع من حرب دينية قادها (جان كافاليه) ودامت ثمانية اعوام على الرغم من القمع القاسي • وقد ارسل الملك لويس الرابع عشر « الماريشال دوفيلار » مع عشرين الفا من الرجال للقضاء عليها • وقد مارس هذا الاخير سياسة حازمة ، الا انها عادلة ، وحصل على خضوع جان كافاليه • ومنذ ذلك الوقت لــم يعد العنف يستخدم ضد البروتستانت • ويمكن القول ان الكنيسة الكالفينية عادت فنظمت نفسها عند وفاة الملك •

ويتبدى مما ذكر عن سياسة لويس الرابع عشر تجاه الجانسينية، والبروتستانت انها كانت سياسة مخفقة ، اذ جعلت كثيرا من القــوى الفكرية معارضة لحكمه ، وناقمــة عليــه •

ى ــ نهاية حكم لويس الرابع عشر وصعوباته :

لقد تبع الفترة المجيدة من حكم لويس الرابع عشر (١٦٦١ــ١٦٨٥)، وهي التي تحتوي المرحلة الاولى من حكمه الفعلي ، مرحلة صعوبات ناتجة من الحروب ، والضائقة المالية (١٦٨٥ــ١٧١٥) •

فعلى الرغم من تدخل الدولة في الاقتصاد ، فانهــا كانت في ازمــة اقتصادية خانقة ، اذ ان المواسم الزراعية السيئة ، والاوبئة المنتشرة ، اثقلت كاهل فلاحي اوربا الغربية كلها • ومرتين عرفت البلاد مجاعات مروعة ، وذلك في عام ١٦٩٣ ـ ١٦٩٤ ، وفي عام ١٧٠٩ــ١٧١٠ على اثــر « الشتاء الكبير » • هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فقد اعاقت الحرب ، التجارة البحرية ، وعانت شركات التجارة صعوبات جمــة •

وحتى قبل موت كولبير في ١٦٨٣ ، فان العجز في الاموال الملكية كان واضحا، بسبب بناء قصر فرساي ، والحروب المتواصلة ، والمرتبات الكبيرة ، التي خص بهــا المقربون من الملك • ولذا فقد اضطرت الدولة للجوء الى الامور غير العادية ، « او غير المشروعة » : كتخفيض قيمة النقد ، والقروض الالزامية ، واليانصيب ، وانشاء مناصب جديدة لا فائدة منها •

ولما كانت هذه الاجراءات غير كافية لملء الخزينة ، فانه فكر في ايجاد **(ضرائب جديدة)** ، ومنها **(ضريبة العشر)** ، التي وضعت عام ١٧١٠ ، اثناء «حرب الوراثة الاسبانية»،وتمثل عشر واردات كل فرد ٠و **(ضريبة الرأس)** ، التي وضعت عام ١٦٩٥ ، اثناء حرب عصبة (اوغسبورغ) ، وكانت تؤخذ على الرأس • الا ان هاتين الضريبتين وقعتا مرة اخرى على كاهل الفلاحين ، اذ انالوسيلة الوحيدة للحصول على المال،دون ارهاق الفلاحين،كان بجعل اصحاب الامتيازات يدفعون ، وهذا ما اقترحه فوبان عام ١٧٠٧ في كتابه « مشروع عشر ملكي » ، الا انه كان من غير الممكن تطبيقه ، ولقد اشرنا سابقا الى ما كان قد اصاب فوبان من اقتراحه هذا •

ان جميع تلك الصعوبات قد اثارت رد فعل ضد الحكم المطلق ، لا عند البروتستانت فحسب ، الذين كانوا يهاجمون الملكية المطلقة ، وانما عند الكاثوليك ايضا ، من امثال « فينلون » معلم (دوق بورغونيا) ، الذي نقد في كتابه «تليماك» بشكل صريح ومفتوح السياسة الملكية ، ومن امثال بعض النبلاء ، الذين وضعوا مخططات للاصلاح ، تهدف لالغاء المراقبين ، والوزراء ، واعادة السلطة لكبار الاقطاعيين ، ومن هؤلاء (سان سيمون) •

وقد بدا الملك في اواخر حكمه غير شاعر بهذه التحركات ولا بالبؤس المنتشر• ولقد رنا على سنواته الاخيرة حزن عميق ، بسبب الوفيات التي اصابته في اسرته: فقد توفي ابنه ولي العهد ، عام ١٧١١ ، وبعده بعام ، دوق بورغونيا وزوجه،واولاده الصغار • وفي عام ١٧١٤ توفي حفيده •

وعندما توفي الملك نفسه عام ١٧١٥ ، فان موته لم يثر ألما في نفس الشعب ، وانما ارتياحا ، وكأن كابوسا قد ازيح عن صدر البلاد •

ك ـ حضارة قرن لويس الرابع عشر في فرنسا :

الاوضاع الاجتماعية : بقي المجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر متأثرا تأثرا عميقا بالمسيحية ، وفي الوقت ذاته بقي قائما على اللامساواة :

فرجال لدين ، والنبلاء ، يشكلان طبقتين متميزتين ، فهم لا يدفعون ضريبة الدخل مثلا ، بينما الطبقة الثالثة ، لا تتمتع باي امتياز ، هذا علما بأن كبار رجال الدين وحدهم ، هم الذين يدخلون ضمن الطبقة العليا من النبلاء ، بينما صغار رجال الدين ، ينعطفون نحو الطبقة الثالثة ويتعاطفون معها .

أولا ـ عالم الريف : وفي الواقع كان « عالم الريف » يفوق بقية المجتمع بعدده ، اذ يشكل اربعة اخماس الفرنسيين ، الا انه لا يلعب سياسيا أي دور . وفي عالم الريف هذا ، يمكن التمييز بين الفئات التالية :

١ ـ الفلاحون : وهؤلاء كانوا دوما على ابواب المجاعة ، لان الزراعة كانت تتصف آنذاك بالانحطاط والركود . فالادوات المستخدمة فيها هي ذاتها الخشبية القديمة ، واستخدام السماد ضئيل ، لقلة الحيوانات ، والطرق متخلفة (ومنها طريقة اراحة الارض) ، وكلها تهدف لانتاج القمح ، أو أي حبوب تصلح لصنع الخبز ، وانواع الحساء . واذا كانت زراعة (الذرة) قد بدأت في بعض الاجزاء ، وكذلك (البطاطا) (في الالزاس) ، فهي لاتزال محصورة في مناطق محدودة وصغيرة . واذا كانت فرنسا متقدمة زراعيا على اوربا الوسطى ، فانها كانت متأخرة عن انكلترة والمقاطعات المتحدة . ويضاف الى الاعمال الزراعية للفلاح ، بعض العمل الحرفي ، كالغزل على المغزل ، والنسيج . وكان اذا ما اتى صيف غير ماطر ، فهذا يعني المجاعة ، ويصبح الاتصال بين المناطق بطيئا وصعبا ، بسبب انخفاض الماء في الانهار ، لانها كانت هي طرق المواصلات . أما في الشتاء فالطرق البرية موحلة وصعبة السلوك . وكان من الضروري اصلاح الطرقات قبل اية رحلة يقوم بها الملك ، ناهيك عن ارتفاع سعر المواصلات .

وكان يرى في الريف نماذج مختلفة من المناظر فهناك حقول مفتوحة واسعة مع قرى كبيرة وهناك حقول مسيجة مع مزارع مبعثرة . والفلاحون فئات : فمنهم المأجورون ، الذين يستخدمون في مواسم الحصاد ، أو قطاف الثمر ، وهم يعيشون في دين دائم . والمزارعون وقد يكونون ملاكين ، أو اصحاب

مزارع ، أو عاملين على الارض مقابل جزء من محصولها ، ولديهم محراث ، وحيوانات جر • وبعضهم قد يستدين اذا كان الموسم سيئا ، أو الضرائب ثقيلة جدا • وكانوا يدفعون ضرائب للملك (الدخل ، الرسوم على المشروبات ، وضريبة الملح) ، وللسيد الاقطاعي ، ولرجال الدين (ضريبة العشر) • وكان اكثرهم ثراء اداة طيعة في يد السيد الاقطاعي ، وهو الذي يقوم بجباية الرسوم له من بقية الفلاحين • وكان كل الفلاحين اناسا ، لم يصقلهم لين المدنية • وكانت تحركهم عقيدة دينية راسخة • واذا ما كانت هناك ازمة اقتصادية ، فان عددا من المتسولين ، والجنود العاطلين ، كانوا يجوبون الريف ، ويضيفون الخوف من قطاع الطرق ، الى الجوع ، والاوبئة ، التي كان يعانيها الفلاحون •

٢ ــ النبلاء في الريف : لقد افتقروا نتيجة الحروب الدينية ، والازمة الاقتصادية ايام لويس الرابع عشر • ولذا فقد تركوا قسما من اراضيهم دون استثمار ، وباعوا جزءا آخر الى البورجوازيين • ولم يكونوا مثقفين ثقافة رفيعة، فظلوا يحتفظون بعقليتهم البورجوازية ويزعجهم كل جديد ، ولاسيما المراقبين الذين ارسلتهم الدولة •

٣ ــ رجال الدين في الريف : وكان لهم تأثير كبير على رعاياهم ، وقد كان راعي الكنيسة يعيش في بحبوحة بالنسبة للقس الصغير • وفي الواقع ، لقد كانت القرية تعيش تحت توجيه راعي الكنيسة (القس) ، فهو الذي يمسك بالسجل المدني ، وينظم التعليم الاولي ، ويوزع الاعانات وقت المجاعة والاوبئة ، ويحصل (العشر) على المحصول •

ثانيا ــ الحياة في المدن وتطورها : لقد كان التطور في حياة المدن بطيئا ، وتزايد عدد السكان فيها قليلا • فخلال القرن السابع عشر كان هناك ٥٠ــ٦٠ مدينة فقط ، يتراوح سكانها بين ١٠ر٠٠٠ ــ ٨٠ر٠٠٠ ، اما باريس فقد بلغ عدد سكانها ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة • وكانت كل مدينة تمثل عالما صغيرا ، يعيش في حمى الاسوار ، وما وراءها تمتد الضواحي • والصفة المميزة لسكان المدن ، انهم جميعا ، يدخلون ضمن (جماعات) • فالحرف منتظمة غالبا في (نقابات) ، مترابطة فيما بينها ، ضمن جمعيات متعاونة ، وتحركها روح دينية ، أي منتظمة

ضمن « اخوات » • ان نصف سكان المـدن كان من **(العاملين الصغار)** • وكانت الاسرة تتكدس في غرفة ، أو اثنتين ، مع بعض الاثاث ، وهي غارقة في الديون • وكان هؤلاء (العاملون الصغار) ، لا تتاح لهم فرصة العمل الدائم ، فقد كانوا يشتغلون بمعدل يومين من ثلاثة ، ونادرا ما يأكلون كفاية جوعهم ، حتى ولو كانت نساؤهم واولادهم من العاملين • ومن ثـم فانهم كانوا على استعداد للثورة بمجرد الاعلان عن ضريبة جديدة ، ويكونون فئة سكانية مضطربة دائما ، وغير مستقرة •

والى جانب (العاملين الصغار) في المدن هناك **الطبقة الوسطى** مـن (اصحاب الحوانيت والحرفيين الصغار ، والاطباء ، والصيادلة ، ورجال الـدين المنبثقين عن هذه الطبقة) • وهذه الطبقة كانت احسن حالا ، واكثر استقرارا ، وتعرف القراءه والكتابـة •

لقد كان يسود المدينة ويديرها **البورجوازية العليا** وتضم **التجار والصناع وأصحاب الدخول الكبيرة ، والمناصب العالية** • وهؤلاء لهـم ثقافتهم الواسعة • وقد يكونون من المحسنين لوازع ديني في نفوسهم ، الا انهم يحتقرون الشعب ، الذي يخافون « اهواءه » • واغنى هؤلاء هم **اصحاب المال** الذين يقرضون الملك ، ويمونون الجيش ويستوردون المواد الغذائية في حالـة المجاعات ، ويحتكرونها ، ويكونون ثروات خيالية • وهؤلاء كانوا محتقرين ، الا ان المجموع يتملقهم • وفي المدن التي لها (بارلمانات) ، فـان **« نبـلاء الثـوب »** كانوا يشغلون اعلى السلم الاجتماعي ، وكانوا يعيشون حياة اكثر صرامة ، وترفا ، من حياة نبالة البلاط •وقد احتفظوا بروح (طبقة خاصة) ، دعست ذاتها ، بتزاوج بين بعضها بعضا ، ولاسيما بين اسر القضاة • وكان لها مطامع سياسية ، الا ان هذه الطبقة كبحت جماح مطالبها ، اذ ان الملك لم يترك لها فرصة التعبير عن ذلك • ولكنها ستعمل عبر « البارلمانات » التي سادتها ، لابداء معارضتها ، وبصفة خاصة بعـد ان ضعفت السلطة الملكية في القرن الثامن عشر •

كبار النبلاء والبلاط : وليعطي الملك لويس الرابع عشر ألقا اكبر لحكمه ،

وليخضع هؤلاء النبلاء الذين اقلقت مؤامراتهم طفولته ، فقد جمع حوله وحول الملكة ، والامراء الكبار ، عددا كبيرا من نبلاء السيف ، وكبار رجال الدين . وكان يسيّر اقطاعات هؤلاء ، مشرف ، يعمل دائما على نهبهم ، وهم يقيمون في باريس ، أو في الاقاليم . ولما كان من الصعب على كثير منهم ان يتابعوا حياة الترف والفخفخة ، التي فرضها الملك في بلاطه ، فانهم كانوا سعدا جدا ، اذا ما زوجوا ابناءهم من بورجوازيات غنيات ، واستفادوا بخاصة من المعاشات التي يوزعها الملك على المقربين منه .

واعتبارا من عام ١٦٨٢ تثبت البلاط في اطاره الفخم في قصر (فرساي) ، الذي عمل في عمارته ، المهندسان (لوڤو Le vau) و (هاردوان مانسار H. Mansart) ، وخطط حدائقه (لونوتر Le Nôtre) ، تلك الحدائق الجميلة بنافوراتها المائية ، واحواضها ، واشجارها ، وزهورها . أما الذي اشرف على التزيين الداخلي للقصر ، فكان (لوبران Le Brun) . ففي هذا القفص الذهبي الجميل ، عاش لويس الرابع عشر مع نبلائه ، تلك الحياة اللاهية المملوءة بالاحتفالات ، والحافلة بالمؤامرات ، والتي وضع فيها كبار النبلاء تحت ابطه ، وروضهم حتى يكونوا دائما تحت امرته .

لويس الرابع عشر والحياة الثقافية :

لم يرد لويس الرابع عشر ان يسود اوربا بقوة السلاح ، ومجده ، فحسب وانما ببريق الحضارة الفرنسية ولألائها . ومثلما كان حاكما مطلقا في الميادين التي اشرنا اليها سابقا ، فانه كان كذلك في مجال الآداب والفنون . وقد عمل الملك على اغداق هداياه ، وكرمه ، على الشعراء ، والفنانين . وشجع كولبير الفنون الجميلة ، ونظمها ، وانشأ الاكاديميات . وهكذا ازدهرت ، حوالي منتصف الحكم الشخصي للويس الرابع عشر ، **(الحركة الكلاسيكية)** ، التي كان تتاجها منارة مشعة على كل اوربا . وفي الواقع ، من الخطأ أن ينسب نمو هذا التيار الى الملك ، لان (الكلاسيكية) هي مرحلة نضج لحركة كانت تنمو منذ القرن السادس عشر ، عندما عاد الادباء ، والفنانون ، الى تقليد النماذج الادبية والفنية من

العصور القديمة • فقد انبثق من تلك الحركة ، مذهب يخضع الخيال للعقل ، ويتخذ مثلا اعلى ، الجمال المتسق ، والمنسجم ، الصالح لكل زمان ولكل مكان . **فقواعد الكلاسيكية** ـ كما ذكرنا سابقا ـ **هي التوازن ، والجدية ، والقياس** ، وهي التي فرضها الفنانون ، والادباء على انفسهم •

وقد شغل « الانسان » ، وهو اكرم مخلوقات الله لاتصافه بالعقل ، الادب الفرنسي كله في هـذه المرحلة ، وخضع **هذا الادب** لقواعد عرضها (بوالـو) (١٦٣٦ـ١٧١١) في كتابه « الفن الشعري » • ودرس الشاعر (راسين Racine) (١٦٣٩ـ١٦٩٩) في **مسرحياته المأساوية** ، و (موليير) (١٦٢٢ـ١٦٧٣) فـي **مسرحياته الهزلية** الساخرة ، اهواء الانسان ، وبحثا عما فيها من عام وشامل . وكان (لافونتين) (١٦٢١ـ١٦٩٥) ، و (لاروشفوكو) (١٦١٢ـ١٦٨٠) و (لابرويير) (١٦٤٥ـ١٦٩٦)،من الادباء الاخلاقيين•وصورت(مدام دوسيفينيه Mme de Sévigné (١٦٢٦ـ١٦٩٦) في رسائلها ، مجتمع النبلاء والبلاط • وان الاهمية الكبيرة التي اعطيت للقضايا الدينية ،تفسر التأثير الذي مارسه (بوسوه) (١٦٢٧ـ١٧٠٤) الواعظ ، والفقيه في اللاهوت ، والمؤرخ •

وفي الفـن ، ظهر (شارل لوبران) (١٦١٩ـ١٦٩٠) ، الذي كان في ميدانه كما كان (بوالو) في ميدان الادب ، اذ ثبت لـه قواعده • وهو الـذي زيـن (قصر فرساي) ، بتلك الطنافس الفخمة ، التي وضع رسوماتها •

ان **فن العمارة الفرنسي** هو الذي رفع اسم الفن الفرنسي عاليا : كاستخدام الاعمدة فيه ، والافاريز في الواجهة على الاسلوب القديم ، والبحث عن العظمـة والانسجام • ويلاحظ هـذا بخاصة في « واجهة الاعمدة في اللوفـر » ، وفـي « كنيسة المحاربين القدماء » (الانفاليد) وفي « قصر فرساي » •

وفي الموسيقى نبـغ (لولي Lulli) (١٦٣٢ـ١٦٨٧) ،الذي بفضل حظوته لدى الملك ، لعب الدور نفسه الذي لعبه (لوبران) • وقـد جعل مـن (مسرح الاوبرا) ـ وهو نوع ادخل من ايطاليا ـ اول مسرح في اوربا •

الاان اواخر انقرن السابع عشر كانت افولا للكلاسيكية : فبين (١٦٩٠ـ١٦٩٩)

توفي لوبران ، ولافونتين ، ولابروبير ، ومدام دوسيفينيه ، واتى جيل جديد رفع لـواء الثورة على الكلاسيكية •

ثانيا ـ المقاطعات المتحدة في القرن السابع عشر

من الدول التي برزت قوية في القرن السابع عشر دولة « المقاطعات المتحدة »• وقد كانت في نشأتها الاولى سبع مقاطعات ، مستقلة واحدتها عن الاخرى ، ولكل واحدة حكومتها الخاصة • وقد تجمعت تلك المقاطعات ، في نهاية القرن السادس عشر ، لتدافع عن نفسها ضد ملك اسبانيا•وعندما تحررت فانها كونت (جمهورية)، واوجدت مؤسسات مشتركة ، تقوم على ادارتها وتوجيهها •

وقد كانت دولة تبلغ مساحتها (٢٥٫٠٠٠ كم٢) ، وعدد سكانها في مطلع القرن السابع عشر ، مليونا ونصف ، الا انه غدا في منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٠) حوالي (١٫٨٥٠٫٠٠٠) نسمة •

وكانت هذه المقاطعات تحكم من قبل **« جمعية عمومية »** تضم مندوبين عن المقاطعات السبع • وكان لا يمكنها ان تتخذ قرارات ، الا اذا كان جميع النواب متفقين • وتجتمع في العاصمة (لاهاي) أو (لاهاغ) كما ينطقها سكان البلاد • وفي الواقع ، كان لكل مقاطعة **مجلسها ، ورئيسها ،** المسمى (صاحب المعاش le Pensionnaire) ، (وسمي كذلك لانـه كان يتقاضى اجرا او معاشا) أو ال (شتيتها ودر Stathouder) ، وكان **قائدا للجيش ، وحاكمهـا** ويعين من بين النبلاء • وكانت (هولاندة) هي المقاطعة السائدة في الجمعيةالعمومية، لانها اغنى المقاطعات ، واكثرها سكانا ، وتضم اكبر المـدن النشيطة ، مثل ميناء « امستردام » ، و « روتردام » ، والعاصمة « لاهاي » • وتدفع نصف النفقات المشتركة ، وتقدم اكبر قسم من الاسطول ، وتعتمد على الصيـد ، والتجارة • وكان رئيس « المقاطعات المتحدة » هو رئيس هولاندة ، ويدعى « بصاحب المعاش الكبير Le Grand Pensionnaire» ، كما كان « الحاكم العام » لمجموع المقاطعات هو حاكمها • وكان يؤخذ دائما من اسرة (اورانج ــ ناساو) ، وهي اسرة (ويليام

الهادىء) ، بطل الاستقلال • ولقد نجح بعض افراد هذه الاسرة في الوصول الى منصب (الحاكم) في بعض المقاطعات ، وغدوا في الوقت ذاتــه رؤســاء للجيش ، والبحرية • وكانت هناك شكوك في اذهان النبلاء ، من أن « الحاكم العــام » يسعى لاقامة « ملكية وراثية » لصالحه • وكان (الحاكم العام) هو القائد العام للجيش ، والاميرال العام للاسطول •

وعلى الرغم من اتحاد تلك المقاطعات مع بعضها ، فان الانقسامات الداخليـة كانت قائمة بين سكانها • ففيها من الوجهة الدينية ، عناصر كاثوليكية ، واخرى يهودية ، الا ان ثلاثة ارباع السكان من البروتستانت • وكــان هؤلاء الاخيرون غير متفقين فيما بينهم ، فمنهم المتشددون ومنهم المعتدلون •

وبالاضافة الى تلك **الانقسامات الدينية** كانت هناك **الانقسامات السياسية** : فقد كان يشق البلاد حزبان متعارضان ، فمن جهة هناك (انصار آل اورانج) ، ونزعتهم مركزية ، ويؤيدون (الحاكم العــام) ، وينتشرون بخاصة في الجيش ، وبين طبقة النبلاء ، وضمن الشعب نفسه المعادي للطبقة البورجوازية • وكــان يعيش معظم هؤلاء من الزراعة ، وتربية المواشي • وكانوا يدفعون نحو الحرب ، التي تساعد (الحاكم العام) ، على دعم سلطته على المقاطعات • ومن الطــرف الآخر ، هناك (الجمهوريون) ، المؤيدون للرئيس العام (صاحب المعاش الكبير) ، وهم البورجوازيون ، والتجار ، واصحاب السفن • وهؤلاء كانوا يريدون السلام الضروري للازدهار الاقتصادي ، ويؤيدون فكرة احتفاظ كل مقاطعة باستقلال ذاتــي كبيــر •

وبعد انتهاء « حرب المقاطعات المتحدة » مع اسبانيا عام ١٦٤٨ ، وزوال الخطر ، فقدت (اسرة اورانج) فجــأة السلطة • فــان « الحزب الجمهوري » نشــط ، وانتخب (جان دوويت (J. De Witt) عــام (١٦٥٣) رئيسا للمقاطعات المتحدة ، والغي منصب الحاكم العام وحكم (جان دوويت) البلاد حتى عام (١٦٧٢) حكمــا رصينا ، وعرفت المقاطعات المتحدة في عهده اوج ازدهارها ورخائها الاقتصادي •

الا انه عندما عاد الخطر الخارجي يهددها ، وهاجمها لويس الرابع عشر عــام

١٦٧٢ ، فقد حدثت انتفاضة شعبية ، اجبرت (الجمعية العمومية) على تسمية « ويليام الثالث » من اسرة اورانج (حاكما عاما) . وكانت لغضبة الشعب كبيرة لدرجة انها قتلت (دوويت) ، وجرت جثته في الطرقات .

وبذلك عاد لآل اورانج نفوذهم وسيطرتهم ، ولا سيما عندما جابه (ويليام الثالث) الملك لويس الرابع عشر من (١٦٧٢-١٧٠٢) . ورفع من شأنه ،صعوده على عرش انكلترة عام ١٦٨٩ مع زوجته ابنة ملك انكلترة . الا ان هذا الامر ، اجبره على ان يترك السلطة الحقيقية « لرئيس المقاطعات المتحدة » ، وكان آنذاك « هاينسيوس Heinsius» .

وبوصول آل اورانج الى السلطة ثانية ، تكون السلطة السياسية للبورجوازية الهولاندية قد تضعضعت ، ومعها الرخاء الاقتصادي للمقاطعات المتحدة ، واخذت انكلترة حليفتها الجديدة تبرز محلها .

حضارة المقاطعات المتحدة في القرن السابع عشر :

ان القرن السابع عشر زاخر بالمشروعات ، والنشاطات الابداعية ، لسكان اراضي « المقاطعات المتحدة » . فقد كانت هذه البلاد **القوة الاقتصادية الاولى في العالم آنذاك ،** مع ان الشروط الطبيعية لم تكن ملائمة ابدا لذاك النشاط : فاراضيها يغرقها البحر ، ولذا فان سكانها بجهد عدة قرون استطاعوا ان يكسبوا ارضا من البحر . وكان شعار « الاسد الزيلاندي » ، « اكافح وابرز من البحر ». وقد بنوا لهذه الغاية السدود ، وجففوا المستنقعات (ال Polders) واوجدوا ارضا صالحة للزراعة محلها ، ومكان المياه المالحة الراكدة . وقد ازدهرت **الزراعة** على هذه الارض المستصلحة ، وغدت هونده شهيرة بخضرها ، واجبانها ، وازهارها ولاسيما (التوليب) ، التي كانت ابصاله تباع باسعار خيالية . وبالاضافة الى هذا المورد الاقتصادي ، فان الهولانديين كانوا يعملون بصيد الاسماك في المياه الباردة لبحر الشمال ، وكون هذا مصدرا اساسيا من مصادر رخاء مدينة (امستردام) .

واذا كانت الزراعة قد نشطت في القرن السابع عشر ، فان **الصناعة** هي

الاخرى قد استفادت من المعارف التقنية ، للعمال اللاجئين ، من مدن (بروج) ، و (غانـد) • وغدت (اوترخت) ، و (هارلم) ، و (لايدن) ، تصنع الاقمشة المتنوعة ، مثل ، المخمل ، والاجواخ ، والاقطان • واشتهرت (ديلفت Delft) بخزفها ، الذي قلدت بـه الخزف الصيني • وكان لامستردام مصانعها للتبـغ وتكرير السكر ، وصناعة الماس •

ان ثروة هولاندة الكبرى ، كـانت في الحقيقة **التجارة البحرية العالمية** • فقد عرف عن الهولانديين انهم «قادة البحار» وكانوا يمتلكون (١٠٫٠٠٠) سفينة يسيرها (١٦٨٫٠٠٠) بحار ، أي اكثر من اسبانيا ، وانكلترة ، وفرنسا مجتمعة • ولقد استفادت (امستردام) من انحطاط مدينة (انفرس) ، التي نهبها الاسبان ، وحرمت من مصبها على البحر • أما البرتغال ، وهي دولة بحرية ناشطة في القرن السادس عشر ، فانها لم تعد منافسا خطرا • وعمل الهولانديون على الدفاع عن حريـة البحار بمسلكهم ، وبكتاباتهم •

وقد انشأ الهولانديون مراكز تجارية لهم على كل شواطىء العالم • واقاموا في المستعمرات البرتغالية القديمة ، فأنشؤوا في الكاب (جنوبي افريقيا) مستعمرة هي اصل اتحاد جنوبي افريقيا الحالي ، وبذلك قبضوا على ناصية طريق الهنـد • وفي امريكا الشمالية اسسوا (امستردام الجديدة) ، التي اخذها الانكليز منهـم عام ١٦٦٤ ، واسموها (نيويورك) • واستقروا في الانتيل (كوراشاو) ، وفي (غويانا) (سورينام) • وقد امتد نشاطهم حتى (جاوا) حيث اسسوا باتافيـا (اليوم جاكرتا) التي غدت عاصمة الهند الهولاندية • واستقروا في (سيـلان) و (مالاقا) ، وتاجروا حتى مع الصين ، واليابان •

ولم تكن تلك التجارة لتجري عشوائيا ، وانما عملوا على تنظيمها عن طريـق (**الشركات الكبيرة**) مثل : « شركة بلاد الهند الشرقية » التي أسست عام ١٦٠٢ وكان لها احتكار التجارة من افريقيا الجنوبية الى جنوب امريكا ، و « شركة بلاد الهند الغربية » التي اسست عام ١٦٢١ للتجارة بعبيد افريقيا ، وسكر جزر الانتيل واخيرا « شركة الشمال » و « شركة الليفانت او الشرق » • وكان لهذه الشركات

الحق في التفاوض مع السكان الاصليين ، وفي بناء الحصون ، وتسمية الحكام في المستعمرات .

وكانت القدرة المالية ترتكز في جزئها الاكبر على **« مصرف امستردام »** الذي اسس عام ١٦٠٩ ، والذي كان تحت تصرفه **اكبر كمية من المعادن الثمينة في العالم** . وكان التجار يودعون فيه رؤوس اموالهم ، ويحصلون منه على قروض لمشروعاتهم . وبذلك اصبحت « امستردام » ، وهي « بندقية الشمال » ، سيدة كل الاماكن التجارية الاوربية الاخرى .

الحياة الفكرية والفنية المتالقة : لقد عرفت « المقاطعات المتحدة » في القرن السابع عشر تألقا في الميدان الثقافي . فغناها الاقتصادي،والسمات الخاصة للمجتمع الهولاندي ساعدا على تفتح الاشكال الجديدة للحضارة . ومن هذه **المظاهر الحضارية نشاط فكري** : اذ كانت «المقاطعات المتحدة» في الواقع ، ملجأ لاولئك الذين يبحثون عن اجواء الفكر الحر . فبعد جو التزمت الديني ، المملوء بالاحقاد الذي سادها من (١٦١١–١٦١٩) ، وكانت فيه البلاد على شفا حرب اهلية ، فان البورجوازيين الكبار دعمواسياسة **(التسامح الديني)** ، التي كانت مختلف المذاهب الدينية بحاجة لها . وقد تمتع بها الجميع حتى اليهود ، الذين رفع عنهم الاضطهاد السابق . ويمكن ان يعزى تسامحهم ذاك ، لرغبة منهم في السلام ، وفي تنمية اقتصادهم ، ولان ضرورات التجارة قد وضعتهم بتماس مع اوساط متنوعة جدا ، وبذلك خففت من غلوائهم الديني . وهكذا فان العقول الحرة الاوربية ، وجدت في (المقاطعات المتحدة) ركنها المفضل ، وبخاصة (ديكارت) الذي اقام في (لايدن) عشرين عاما . وفي هولاندة نشرت الكتب ، التي لم يكن مستطاعا نشرها في فرنسا ، بسبب المراقبة . بل ان الفيلسوف (سبينوزا) ، وهو لاجيء برتغالي الى امستردام (١٦٣٢–١٦٧٧) ، قدم في كتابه (اللاهوت الادبي Ethique) ، فلسفة عقلية من اجرأ ما عرف في ذلك العصر ، وقد شجعت الحرية الفكرية على البحث العلمي : فالهولانديون استخدموا الميكروسكوب استخداما دقيقا . ونبغ (هويغنز Huyghens) (١٦٢٩–١٦٩٥) الذي كان اكبر فيزيائي في عصره ، ودرس القوة النابذة للكواكب السيارة .

ومثلما نشط العلم نشطت **الصحافـة** ، وكانت تطبع الصحف ، بصفة خاصة، باللغة الفرنسية ، وتقرأ في جميع انحاء اوربا •

٢ ـ **ازدهار فن الرسم** : وهذا ما اعطى لهولاندة شهرتها في القـرن السابع عشر،فالبورجوازيون كانوا يطلبون لوحات من الفنانين تعالج موضوعات محسوسة ومناظر عائلية ، وصور اشخاص ، ونماذج من الحياة اليومية ، ولهذا السبب انعطف فن الرسم نحو موضوعات ، من السهل فهمها وتعرفها ، لا نحو مركبات فنيـة واسعة ، دينية ، أو اسطورية • وقد سادهذا الفن في هذه المرحلة ثلاثة اسمـاء كبيـرة : **اولهـا** (رامبرانت Rembrandt) (١٦٠٦ــ١٦٦٩) • وكانت رسومه كلها واقع ، ورصانة ، وقوة مثيرة • لقد استخدم جوا معتما ، ينبثق منه نور مشع، يعطي لرسومه حيوية فائضة • فقد كان لـه قدرة عجيبة على استعمال تقنيةالاضاءة الباهتة ، التي تشبه النور الشاحب في هولاندة نفسها ، ومـن اشهر لوحاتـه (نقابة صانعي الجوخ) • أمـا **الاسم الثاني** فكان (فرانز هالز) (١٥٨٤ــ١٦٦٦)، ومن لوحاته صورة للفيلسوف (ديكارت) ، ولوحة (مأدبة ضباط جماعة سـان ادريان) ، وهي جماعة هولاندية من المحاربين الاثرياء ، كانوا يقيمون كل عـام مأدبة يشترك فيها كل الاعضاء • **والاسم الثالث** هـو (ڤيرمير Vermeer) (١٦٣٢ــ١٦٧٥) ، الذي اغرق رسومه في نور مخملي ، واشهر لوحاته « السيدةذات الثوب الازرق » •

ولكن مثلما مالت القوة السياسية والتجارية للمقاطعات المتحدة نحو انحدار في القرن السابع عشر ، فان مدرسة الرسم الهولاندية اصيبت بالضعف في الوقت نفسه ، وفقدت ألقها •

ثالثا ـ انكلترة في القرن السابع عشر

آ ـ سير انكلترة نحو الحكم المطلق في ظل آل ستيوارت :

لقد توفيت (الملكة اليزابيت) عام ١٦٠٣ دون وريث مباشر ، فانتقل العـرش الى ملك ايقوسيا (جيمس السادس) ، ابن (ماري ستيوارت) ، الذي اتخذ اسم

(جيمس الاول) ملك انكلترة (١٦٠٣–١٦٢٥) . وكان ملكا مثقفا جدا ، ولكنه كان قبيح الصورة ، وسكيرا ، ومهمل الهندام ، ولا هيبة له في نفوس الانكليز : فهو غريب عنهم ، في عرفهم ، ولا يعرف الكثير عن بلادهم . وتبعه على العرش ابنه (شارل الاول) (١٦٢٥–١٦٤٩) ، وكان رقيق الحاشية ، ضعيف الطباع كأبيه، وقد اسلم الحكم لمستشاريه . وكان هم الملكين ان يفرضا على انكلترة الملكية المطلقة القائلة بالحق الالهي المقدس . وقد اساءا التصرف ، عندما اختار الاثنان مستشارين لا يحبهم الشعب ، من امثال : « باكينغهام Buckingham » الذي اثارت نفقاته الجنونية الرأي العام . و « سترافورد Strafford » ، و « لود laud » رئيس اساقفة كانتربري . وليثبت الملكان سلطتهما ، فانهما دخلا في صراع مع شعبهما على **الصعيد الديني ، والاقتصادي ، والسياسي** .

الصعيد الديني : لقد دعم الملكان « الكنيسة الانغليكانية» ، ورأيا ، أنَّ تعوّد الناس على الطاعة للاساقفة ، يقودهم بالتالي الى إطاعة ملوكهم . فقد كان (جيمس الاول) يقول : « حيث لا اساقفة ، لا ملك » . ولقد وافق (شارل الاول) رئيس اساقفة كانتربري (ويليام لود) ، على دعم الامور المتشابهة بين العبادة الانغليكانية ، والعبادة الكاثوليكية ، وتوسيعها . ولذا فانه اضطهد « البوريتان Puritains » . أو « الانقياء » وهم من البروتستانت، الذين قيدوا انفسهم باخلاق صارمة ، وبتفسير حرفي ، ودقيق للكتاب المقدس . وكانوا يريدون (دينا دون اسقف واحتفالات) ، وانما يصلي كل واحد لربه على طريقته . وقد سجن هؤلاء « البوريتان » وجلّدوا ، وفضل كثير منهم الفرار من انكلترة ، من امثال « حجاج زهرة مايو Mayflower » (اذ ركبوا السفينة المسماة ، بذلك الاسم) ، الذين هاجروا الى امريكا ، حيث أسسوا اول مستعمرة انكليزية فيها عام ١٦٢٠ ، وهي مستعمرة (ماساشوستس) . كما هاجر بعضهم الآخر الى « جمهوريةالمقاطعات المتحدة » . ولم يكن الكاثوليك راضين عن الحكم أيضا ، فقد اضطهدوا ، ولا سيما بعد ان حاولوا في (مؤامرة البارود) عام ١٦٠٥ ان يقضوا على البارلمان ، والملك .

وعلى الصعيد الاقتصادي : لم يعمل الملكان على حماية مصالح رعاياهما :

فقد سمحا للهولانديين بطرد الانكليز من تجارة التوابل ، في الشرق • وللحصول على المال ، ضاعفا « الرسوم الجمركية » ، « والاحتكارات » التي اربكت التجارة • فقد اعطيت شركات التجارة للمقربين منهم ، وحرم منها التجار ، وقبضوا على الصناعة واسعارها ، وارسلوا ببعثات للريف لمراقبة النبلاء ، الذين عملوا على انشاء الاسوار حول مزارعهم الواسعة • وهذا يعني في الواقع افقار المزارعين الصغار الذين لم يعد امامهم من مصدر للرزق ، ولذا هاجروا بحثا عن العمل الى المدن • اذ ان كبار الملاكين الانكليز ، ضموا الى اراضيهم اثناء التسوير ، المراعي المشتركة • وبذلك أثار الملكان غضب التجار ، والصناع ، الذين اغتنوا من نمو الصناعة والتجارة ، وكذلك نبلاء الارياف • ويلاحظ أن أكثر الاوساط تضررا كان ، على الغالب ، « البوريتان » • وبذلك تجمعت المصالح الدينية ، والمادية ، لتولد النقمة ضد الحكم الملكي •

ب ـ الثورة الانكليزية والقضاء على الحكم الملكي (١٦٤٠ـ١٦٤٠)

وعلى الصعيد السياسي : ان صغار النبلاء في الريف ، وكبار التجار في الموانيء (ومعظمهم من البوريتان) ، كانوا يكوّنون اغلبية « مجلس العموم »[١]• وقد سعى الملكان كي يحكما دون دعوة البارلمان ، كما فعلت الملكة اليزابيت ، قبلهما • ولكنهما لم يكونا يتمتعان بنفوذ كنفوذ الملكة ، ولذا فان النواب اخذوا

---

(١) كان يراقب السلطة الملكية في انكلترة (البارلمان) . وقد تثبتت دعائمه في اواخر القرن الثالث عشر . وكان يتألف من مجلسين : **مجلس اللوردات ، ومجلس العموم** • ويضم **مجلس اللوردات** ٨٢ عضوا من كبار نبلاء المملكة و ٢٦ اسقفا من الكنيسة الانغليكانية . ومع انه ظل يلعب دورا تشريعيا اساسيا حتى بداية القرن العشرين ، الا ان دوره في الصراع التشريعي في القرن السابع عشر كان ثانويا . اما **مجلس العموم** فكان يمثل نظريا مجموع الامة ، الا ان اعضاءه كانوا يختارون من فئة قليلة من الناخبين ، ومن الملاكين . وكان يخص الارياف ٩٢ نائبا ، والمدن ٤٠٠ نائب. ان هذه السيادة الظاهرة للمدن كانت تخفي حقيقة، وهي ان معظم ممثلي المدن ـ عدا الكبيرة ـ ، كانوا ينتخبون من بين صفوف ملاكي الارض النبلاء ، والبورجوازيين .

Charles A. Endress, History of Europe 1500 - 1848. New York - London 1975.P . 98 - 99.

بنقد السياسةالملكية ، اذ ان البارلمان كان يرى ان أية ضريبة جبيت دون موافقته ، هي ضريبة غير قانونية • ومثل على ذلك ، الضريبة المخصصة لتقوية الاسطول ، التي عممت على كل البلاد • وقد ذكّر البارلمان الملك (شارل الاول) بحقوق الامة الانكليزية ، بالوثيقة التي قدمها له عام ١٦٢٨ ، والتي عرفت باسم « مطلب الحقوق Petition of Rights»

الا ان خوف « البوريتان » من ان يعيد رئيس اساقفة كانتربري (لود)، الكاثوليكية الى الكنيسة الانكليزية ، ضاعف النفور من الملك • ولذا قرر البارلمان ان يتخذعام ١٦٢٩ موقفا حاسما • وعندما حاول الملك ا نيحله ، اغلق الاعضاء الابواب ، واصدروا ثلاثة قرارات هي : شجب أية تجديدات كاثوليكية في الدين ، واعتبار جميع الضرائب السابقة غير شرعية ، وكل من يدفعها خائنا • وعلى أثر ذلك اجّل اجتماع مجلس العموم •

وحكم (شارل الاول) لاحدى عشرة سنة ، وحتى ١٦٤٠ ، دون بارلمان • ومع انه كانحرا من نقد البارلمان ، الا انه كان بحاجة للمال • واشتدت حاجته اليه عندما ثار عليه (الايقوسيون) ، بعد ان قرر (لود) عام ١٦٣٧ ، ادخال الكنيسة الانغليكانية الى ايقوسيا • فالايقوسيون المتعلقون بكنيستهم « البريسبيتيريانية Presbytérienne» ، المماثلة للكالفنية الىحد كبير ، هبوا ضد ذلك الاجراء •

وامام ذلك اضطر (شارل الاول) الى دعوة البارلمان عام ١٦٤٠ • ولكن البارلمان رفض الموافقة على أي مال قبل اصلاح الامور • فاضطر الملك الى فض البارلمان ، بعد ثلاثة اسابيع فقط ، فسمي « بالبارلمان القصير » • الا ان انتصارات الثوار الايقوسيين اجبرته على اجراء انتخابات جديدة ، وبذلك ابتدأ عهد « البارلمان الطويل » ، الذي بقي (١٣) عاما (١٦٤٠ ـ ١٦٥٣) • وفي هذه المرة اتخذ النواب موقف الهجوم : فقد اتهموا « سترافورد » مستشار الملك ، وقبضوا عليه ، وحكموا عليه بالاعدام عام ١٦٤١ • وطبقوا المصير نفسه على « لود » عام ١٦٤٥ •

وفي عام ١٦٤١ ، وافق البارلمان على « **الاحتجاج الكبير** Great Remontrance» ونشره ، **وكان يحوي خلاصة لمساوىء الحكم** .

وفي عام ١٦٤٢ حاول الملك ان يقوم بردة فعل ، فجاء بنفسه الى البارلمان كي يقبض على النواب المعارضين له . ولكن هؤلاء فروا قبلوصوله ، وقام الشعب بحمل السلاح ليزود عنهم . فاضطر الملك لمغادرة العاصمة ، وكان هذا **بداية الحرب الاهلية** .

الحرب الاهليـة : وقد دامت ثلاثة اعوام (١٦٤٢ — ١٦٤٥) . وكان الطرفان المتحاربان هما : « **الفرسان** » من ناحية ، وقد دافعوا عن سلطةالملك ، وكانوا يمثلون الارستقراطية ، ويقف لجانبهم فئة من الطبقة الفقيرة ، التي تحميها الطبقة الارستقراطية . ومعظم هؤلاء مـن الانغليكان ، وبعضهم من الكاثوليك ، وكلهم يريدون كنيسة بطقوس واساقفة .

و « **اصحاب الرؤوس المستديرة** » من ناحية أخرى ، (وسموا كذلك لان شعورهم كانت قصيرة بالنسبة لشعـور النبلاء) . وهؤلاء كانـوا مناصرين للبارلمان ، وكان يشاهد بينهم بعض النبلاء الصغار ، الذين اثروا عن طريـق تسوير الاراضي من امثال « **اوليفيه كرمويل** » . الا ان اكثرهم ، من التجار ، والصناع ، في المدن . ولقد كانوا مـن « البوريتان » ، ويريدون دينـا يستند للكتاب المقدس ، ودون كهنوت وطقوس .

وكانت الحرب الفعلية بين الطرفين ، وتميزت فيها شخصية (**كروموبل**) الذي نظم جيشا صغيرا عرف بـ (**اصحاب الملابس الحديدية**) . وقد جمع افراده من الفلاحين الاغنياء ، الذيـن كانوا يملكون الجيـاد ، واخضعه لتدريب قاس . بل انـه قبل بدء المعركة ، دعا جنوده ، لقراءة الكتاب المقدس ، وانشاد التراتيل الدينية . وكان مقتنعا بانه موحى لـه من الله ، وانه وجد لخدمة الله ، ومن ثم فلن يوقفه شيء دون غرضه ، بل لم يتردد امام أية قسوة . وفي عام ١٦٤٥ ، احرز « كروموبل » نصرا حاسما على الجيش الملكي ، عنـد « نزبـي

Naseby : ففر (شارل الاول) الى ايقوسيا ، ولكن الايقوسين باعوه للبارلمان ، مقابل حفنة من المال .

ج ـ اخفاق الجمهورية في انكلترة والعودة الى النظام الملكي

اعلان الجمهورية : بعد أن تم سجن شارل الاول ، ابتدأت مرحلة تردد طويلة . فالبارلمان الخائف من انتصاره ذاته ، لم يتخذ أي قرار حاسم ، بل كان يميل للصلح مع الملك . وفي هذا الوقت كان الانكليز قد تعودوا الحرية ، وشرعوا يتناقشون بشكل مفتوح ، حول الافكار الدينية ، والنظام السياسي ، بل وحتى توزيع الثروات . إلا أن الجيش وضع حدا لمرحلة الحرية هذه ، بفرض ارادته ، وبمنح السلطة لرئيسه « كرومويل » ، الذي قرر أن يتخذ موقفا حازما من البارلمان ، بعد أن أيد بأغلبيته اتفاقا مع الملك . فتقدم بجيشه عام ١٦٤٨ الى لندن ، واحتلها . وأوقف ، أو طرد ، معظم أعضاء البارلمان ، وكون الباقون ما سمي (**بالبارلمان الأبتر**) . وصوت هذا البارلمان على اتهام **الملك** (**شارل الاول**) بالخيانة ، والحكم عليه بالاعدام . ونفذ الحكم في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩ . وفي اليوم التالي أعلن **النظام الجمهوري** .

وفي عام ١٦٥٣ طرد (كرومويل) أعضاء (البارلمان الابتر) . ومنذ ذلك الوقت غدا السيد الوحيد لانكلترة مع لقب « اللورد الحامي » ، وحكمها مع أعوانه وضباطه حكما دكتاتوريا .

عهد كرومويل ١٦٤٩ ـ ١٦٥٩

ويتميز عهد كرومويل بظاهرتين ايجابيتين : **الازدهار الاقتصادي وارتفاع شان بريطانيا في العالم** . ففي عام ١٦٥١ صدر (قانون الملاحة) الذي ينص على أنه لا تقبل في الموانىء الانكليزية سوى المراكب البريطانية ، أو تلك التي تحمل بضائع بلادها . وبذلك وضع حدا للنقل البحري الهولاندي المثمر ، الذي كان يقوم باعادة توزيع منتوجات المناطق الحارة في أوربا . وأدى هذا لحرب بين الدولتين ، كانت لفائدة الانكليز . فقوة بحريتهم ، جعلتهم قوة تخشى ، حتى

في البحر المتوسط . كما أن تحالف « كروموبل » مع فرنسا ، مكّنه من انتزاع (جامايكا) ، و (دونكرك) من اسبانيا عام ١٦٥٨ .

ولكن كروموبل أخفق في حل المشكلات الداخلية : فقد فشل في اقامة « كنيسة بوريتانية » للدولة ، واصطدم بصعوبات مالية خطيرة ، حتى اضطر الى القبض على السفن الاسبانية المحملة بالذهب ، حتى يتجنب دعوة البرلمان . وعندما اضطر لدعوته فانه أسرع بحله .

وقمع ثورة ايرلندة بعنف دموي شديد ، وأجبر عديدا من الايرلنديين على ترك أراضيهم للانكليز . وعندما توفي عام ١٦٥٨ ، لم يبق في ذهن الانكليز من حكمه سوى ذكرى سنوات من القهر ، والحزن ، والاستبداد .

وقد ترك العرش من بعده لابنه (ريشار) الذي لم يلبث أن تنازل عنه ، بعد بضعة أشهر عام ١٦٥٩ . فجمع الجنرال (مونك) ، وكان على رأس جيش ايقوسيا ، بارلمانا ، قرر أن يستدعي الابن المنفي للملك (شارل الاول) . فتوج باسم (شارل الثاني عام ١٦٦٠) ، واعيدت بذلك الملكية الى انكلترة .

د ـ الملكية العائدة ١٦٦٠ ـ ١٦٨٨ وتثبيت الحريات الانكليزية

لم يلبث الملك (شارل الثاني) أن وقع في صدام مع البارلمان ، ويرجع ذلك الى الاسباب التالية :

اسباب سياسية : لقد اتخذ الملك نموذجا له ، ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وحلم بأن يحكم على غراره ، كملك مطلق . ومن ثم ، فقد تحالف معه ضد الهولانديين .

اسباب دينية : كان الملك نصيرا للكاثوليكية ، وقد حاول التقرب منها ، باصدار « اعلان الغفران » لصالحها ، وصالح الفئات البروتستانتية الاخرى غير الانغليكانية . بل ان أخاه (دوق ديورك) ، المرشح لولاية العهد ، اعتنق الكاثوليكية . وكان التجار ، والصناع ، في لندن ، يكرهون (البابويين) ،

حتى انهم عدوهم مسؤولين عن الطاعون ، الـذي أصاب المدينة عـام ١٦٦٥ ، والحريق الذي خربها عام ١٦٦٦ •

اسباب شخصية : لقـد كان الملك كثـير الانفاق للمال ، وعندما قلّت موارده ، رحب بأخذ المال من لويس الرابع عشر ملـك فرنسا ، مقابل اعـادة الكاثوليكية لانكلترة •

وهنا انقسمت انكلترة لحزبين : **اولهما :** نبلاء الارياف ، وقد اطلق عليهم اسم « **التوري** » (الكلمة في أصلها الاول كانـت تطلق علـى قطّاع الطرق الايرلنديين) • وهؤلاء بقوا أنصارا لسلطة الملك القوية ، **وثانيهما :** اللندنيون البوريتان واسموا بـ « **الهويغ** » (وكانت تطلق في الاساس على المتعصبين مـن الايقوسيين البريسبيتيريان) • وهم أكثرية في البارلمان منذ ١٦٧٩ ، وكانوا لايثقون بالملك • وقد استطاعوا اجباره على توقيع صلح مع هولاندة • وفي عام ١٦٧٩ ، صوتوا على (صك الاختبار Test Act) ، الذي يجبر الموظفين على طرح الكاثوليكية • وبذلك اضطر دوق ديورك للتنازل عن منصبه كأمير •

وليحرموا الملك من جزء من سلطته ، صوتوا على الصك ، الذي يحظـر ايقاف أي انسـان دون سبب ، ويجبر السلطة عـلى أن تقدم للمحاكمة كـل انسان موقف •

وغضب (شارل الثاني) من هذا الموقف ، فلم يدع البارلمان للانعقاد بعـد ذلك ، (أي من ١٦٨١) • واعتنق الكاثوليكية ، وعاش حتى ١٦٨٥ ، معتمدا على المال الذي قدمه له لويس الرابع عشر •

جيمس الثاني وثورة ١٦٨٨ :

بعد وفاة (شارل الثاني) ، خلفه على العرش أخوه (دوق ديورك) ، باسم « جيمس الثاني » • وقد اتبع سياسة أثارت شعور الانكليز : فقد أراد فرض ارادته السلطوية ، واعادة الدين الكاثوليكي • فقد أوقف العمل « بوثيقـة الاختبار » وسمح لليسوعيين بالعودة ، وعين موظفين من الكاثوليك في مناصب

الدولة • وعلى الرغم من غضبة الانكليز على هذه الاجراءات ، فانهم سكتوا ، ولو على مضض ، لانهم كانوا يأملون بالمستقبل فللملك ابنتان ، قد تزوجتا من بروتستانتيين ، وهما اللتان ستخلفانه على العرش • لكن الامور جرت بسرعة ، وعلى غير ماتوقعوه ، إذ رزق الملك عام ١٦٨٨ بولد ذكر ، يرث العرش ، وقد عمده كاثوليكيا •

عندها طلب (الهويغ) من صهر (جيمس الثاني) ، وهو (ويليام من أسرة اورانج) « الحاكم العام » للمقاطعات المتحدة ، والذي كان ينظر اليه في أوربا على انه زعيم البروتستانت فيها ، بطرد الملك ، وبتنصيب زوجته (ماري) ، ابنة جيمس الثاني على عرش انكلترة • وبالفعل ، هبط (ويليام الثالث) على أرض انكلترة عام ١٦٨٨ ، واتجه نحو لندن • ولما أحس الملك ، بأن الجميع انفضوا من حوله ، وانه غدا وحيدا ، فر الى فرنسا ، حيث استقبله لويس الرابع عشر • واجتمع بارلمان ، تسوده أغلبية من الهويغ ، واعلن اسقاطه عن الحكم • وأصبح (ويليام دورانج) ، مع زوجته (ماري) ، ملكين معا على انكلترة • وذلك بعد أن صوت البارلمان على وثيقة **(اعلان الحقوق)** ، التي عرّف فيها بالاسس السياسية للملكية الجديدة ، وذكر بالحريات الانكليزية • ومنذ ذلك الوقت ، غدت سلطات الملك مقيدة جدا ، ودور البارلمان واضحا ، فهو الذي يحكم • وقد جرى العرف ، بألا يبقى الوزراء في السلطة ، الا اذا كانت أغلبية النواب في صفهم • وهكذا **تثبت (النظام البارلماني) الحقيقي** ، دون أية معارضة من ويليام ، الذي كان في صراع مع لويس الرابع عشر • واصبحت الموازنة تناقش كل عام ، وأخذ البارلمان على عاتقه تثبيت رسوم الجمرك ، والنقد ، ومراقبة الجيش •

وينظر الانكليز لثورة ١٦٨٨ ، بأنها **« الثورة المجيدة »** ، في تاريخهم لانه في بضعة أشهر ، وبقليل جدا من الدماء ، حل قادة انكلترة السياسيون المعضلات التشريعية للقرن ، وتوصلوا الى ترتيب يكون أساس نظام الحكم في بريطانيا •

وبعد موت الملكة (ماري) عام ١٦٩٥ جاء **« مرسوم التثبيت »** ليبعد

نهائيا عن العرش جميع مدعي العرش الكاثوليك • وعندما توفي ويليام بـدوره ، انتقل التاج الى (آن) الابنة الثانية لجيمس الثاني •

وقد قامت مفاوضات على اثر ذلك مع الايقوسيين ، الذين رفضوا مرسوم التثبيت ، وهددوا باستدعاء ابن جيمس الثاني • وفي عام ١٧٠٧ صدر (مرسوم الاتحـاد) ، الـذي كرس الوحـدة السياسـية للمملكتـين تحـت اسـم **« مملكة بريطانيا العظيمة المتحدة »** • وعندما توفيت الملكة (آن) عام ١٧١٤ ، انتقل التاج دون صعوبة الـى **(جورج الاول)** من **(مقاطعة هانوفر الالمانية)** ، وهو مؤسس الاسرة التي لا تزال تحكم انكلترة الى اليوم •

لقد حققت انكلترة اذا في القرن السابع عشر ، نموذجا **لنظام ملكي معتدل** ، قام فيه التوازن بين سلطات الملك ، وحقوق البرلمان ، وقضي فيه تماما على فكرة الملكية المطلقة • وتمتع المواطنون في ظله بالحرية الدينية ، عدا الكاثوليك ، وبالحرية الفرديـة ، التي كان البارلمان هـو الضامن لها • وفي هـذا الحكم الدستوري ، كان الوزراء وحدهم هم المسؤولين أمام الملك • الا أن هذا التوازن سيعود للاختلال في القرن الثامن عشر •

الرخاء الانكليزي : نمـت التجارة البحرية الانكليزية نموا كبيرا بفضـل قوانين الملاحة ، وأصبح لدى انكلترة عام ١٧٠٠ (١٣٠٠٠) سفينة ، وبذلك غدت القوة البحرية الاولى في العالم ، وفي كل مكان حل الانكليز محل الهولانديين •

ونتيجة تحالفهم مع البرتغال ، فقد تزودوا بالذهب من البرازيل ، وشرعوا يقيمون المستعمرات على شواطىء أمريكا الشمالية ، حتى أنهـم أسسوا (١٢) مستعمرة ، بالاضافة لمستعمرة ماسا شوستس ، التي أسسها البوريتان سابقا • ثم مدوا امبراطوريتهم الى كنـدا ، وجزر الانتيل • واغتنت الشركات البريطانية ، بفضل تجارة السكر ، والروم ، والتبغ ، والعبيد ، الذين كانوا يخطفونهم مـن شواطىء افريقيا ، ليبيعونهم في أمريكا • واستقرت شركتهم للهند الشرقية ، في الهند ، التي كانت مسرحا سابقا لنشاط الهولانديين •

ان كل ذلك الثراء ، يفسر تأسيس « بنك انكلترة » عام ١٦٩٤ ، من قبل

التجار الهويغ • وبذلك ، أصبح بمقدور التجار أن يودعوا فيه أموالهم ، والمصرف ، بالمقابل ، يقرض الملك بفائدة منخفضة ، وكذلك التجار الذين يريدون توسيع أعمالهم • وغدت لندن المركز المالي الاول في العالم ، والجنيه الاسترليني أمتن عملة في أوربا •

ان الرخاء الانكليزي ، وانهاء الحروب الاهلية ، أعطيا الحياة اللندنية بريقا شديدا : فبعد حريق لندن عام ١٦٦٦ ، أعيد بناؤها على نمط الابنية الفرنسية ، والايطالية ، وتحولت لمدينة حديثة • وقد جذبت (المقاهي) اليها التجار ، والنبلاء ، الذين أغنتهم التجارة • وكانوا يجلسون فيها لقراءة الصحف ، والتعليق على الاحداث ، ومناقشة أفكار العصر •

وقد عرفت انكلترة ، في أواخر القرن السابع عشر ، مفكرين كبارا ، كان أشهرهم (جون لوك J. Lcke) (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ، الذي نشر كتابه « مقال عن السلطة المدنية » • وفيه طالب بصوت مرتفع ، بالحقوق الطبيعية للفرد ، وبسيادة الشعب ، وبالتسامح الديني • وتزهو انكلترة في هذه الحقبة بعالم كبير ، هو (اسحق نيوتون I. Newton) ١٦٤٢ ـ ١٧٢٧ ، الرياضي ، والفيزيائي ، والفلكي ، الذي اشتهر بكشفه عن قوانين الجاذبية الكونية ، وتحلل الضوء •

رابعا ـ دولة بروسيا

شاهد القرن السابع عشر بروز دولة في الشمال الاوروبي،هي **دولة بروسيا** ، التي ستلعب دورا هاما ، في القرنين الثامن ، والتاسع عشر ، وهي التي ستأخذ على عاتقها في القرن الاخير توحيد ألمانيا •

نشاتها : يقع اقليم (بروسيا) بين نهري (الفيستولا) و (النيمن) شرقي أوربا • وكان يسكنه قديما (البروسيون) وهم شعب بلطيقي • الا انه تعرض في القرن الثالث عشر ، لهجمات (طائفة التيوتون) من الالمان ، وهي طائفة دينية ـ عسكرية ، من بقايا الحروب الصليبية • وقد استطاعت هذه الطائفة ،

اجبار البروسيين على اعتناق المسيحية ، ووزعت أرضهم على مستعمرين ، من المهاجرين الالمان .

وفي القرن الرابع عشر ، ومطلع الخامس عشر ، عمل (التيوتون) على الامتداد في الارض البولونية . الا أن البولونيين هزموهم في عام ١٤١٠ ، في معركة (تانتبرغ) ، وأجبروهم في عام ١٤٦٦ ، بعد حرب أخرى بينهم ، على الاعتراف بتبعيتهم لبولونيا ، وباحتفاظهم **ببروسيا الشرقية** فقط ، بصفتها اقطاعا

وفي القرن السادس عشر ، وبعد انتشار الاصلاح الديني البروتستانتي ، اعتنق رئيس الطائفة التيوتونية (البيردوبرانديبورغ)،من أسرة(هوهنزولرن) ، المذهب البروتستانتي :وحول املاك طائفة التيوتون الدينية الى املاك زمنية ، وغدت (بروسيا الشرقية) دوقيةزمنية ووراثية تابعة للتاج البولوني .

وفي ١٦١٨ ، اسلمت بولونيا ادارة الدوقية الى (منتخب براند يبورغ) من الاسرة نفسها . وبذلك امتدت (مقاطعة براند يبورغ) في شمالي المانيا — وهي المتمركزة حول عاصمتها (برلين) ، وتمتلك في الوقت ذاته مقاطعة (كليف) على نهر الرين ، غربي ألمانيا — فاحتوت (بروسيا الشرقية) . واشتركت (براند يبورغ — بروسيا) في (حرب الثلاثين عاما) في أوربا ، (١٦١٨ — ١٦٤٨) ، ونالت في صلح (وستفاليا) عام ١٦٤٨ ، الذي أنهى الحرب ، مقاطعة (بوميرانيا الشرقية) ، المجاورة لبروسيا من الغرب ، واسقفيات (مندن) و (هالبرشتات) و (ماغد يبورغ) ، الواقعة غرب امارة براند يبورغ ، وفي جنوبها الغربي . (انظر خريطة تكون بروسيا وتطورها في آخر الكتاب) .

وتتيجة اسهامها في الحرب البولونية — السويدية (١٦٥٥ — ١٦٦٠) ، حصلت على استقلالها عن التبعية البولونية عام (١٦٥٧) ، وتثبتت سيادة برانديبورغ عليها . ومنذ (١٦٦٠) ، غدت بروسيا مندمجة في الدولة البرانديبورغية .

ميلاد دولة بروسيا القوية : بوصول « المنتخب الكبير » (فردريك ويليام) الى العرش ، (١٦٤٠ — ١٦٨٨) ، دخلت بروسيا وبراند يبورغ في طريق الاصلاح

والرفعة • فقد عمل هذا المنتخب لصالح دولته ، على الرغم من تبعثرها • وآنشأ جيشا قويا من (٣٠٫٠٠٠) جندي ، وفرض على ضباطه ان يدربوه تدريبا قاسيا ، وان يطبقوا عليه نظاما من حديد • وجبى ضرائب جديدة من الشعب لتحقيق ذلك ، وقضى على المعارضة بالقـوة • وأصلح الادارة في المقاطعات ، وتبنى السياسة الاقتصادية المركنتيلية ، وانشأ اسطولا قويا ، واستدعى التقنيين من الاجانب ، وبصفة خاصة الفرنسيين البروتستانت ، للعمل في الصناعة ، واستثمار الارض • وقد تجلت قوة بروسيا واضحة ، في الهزيمة التي ألحقتها بالجيش السويدي ، في معركة (فيربيلن Fehrbellin) عام ١٦٧٥ •

وهذه القوة العسكرية ، هي التي دفعت (لويس الرابـع عشر) ، للتقرب من المنتخب الكبير ، وتوقيع معاهدة سرية معه عام ١٦٨١ • والقوة نفسها ، هي التي دفعت أمير بروسيا (فردريك الاول) ، الذي خلف أباه المنتخب الكبـير (١٦٨٨ ــ ١٧١٣) ، للمطالبة بلقب (ملك) • ولكن للحصول عليه ، كان لابد من موافقة الامبراطور • فعندما خاضت الامبراطورية الحرب ضد (لويس الرابع عشر) ، كانت القوة العسكرية البروسية تحت تصرف الامبراطور (١٦٨٩ ــ ١٦٩٧) • وليضمن الامبراطور عونها في (حرب الوراثة الاسبانية) ، قرر في عام ١٧٠٠ ، أن يمنح (دوق بروسيا) اللقب الملكي • وتوج (فردريك) ملكا في عام ١٧٠١ ، باسم (فردريك الاول) وباحتفال فخم •

وقد قلد ملك بروسيا ملك فرنسا في أن يكون راعيا للفنون والعلوم ، إلا أنه لم يهمل الجيش • وعندما خلفه ابنه (فردريك ويليام الاول) (١٧١٣ ــ ١٧٤٠) ، فانه لم يكرس جهـده الا للجيش ، الذي أوصل عـدد جنوده الى (٦٠٫٠٠٠) ، وكان يلوم ابنه (فردريك) لانه كان منصرفا الى دراسة الأدب ، والفلسفة • واستطاع أن يفرض عليه حياة قاسية ليكتسب ممارسة الاعمـال السياسية والحربية •

وتابعت (بروسيا) تطورها الارتقائي في القرن الثامن عشر ، حتى أصبحت من الدول التي تحسب لها الدول الاوربية التقليدية ألف حساب • وقد أثقلت على النمسا ، بمنافستها لها ضمن الامبراطورية ، إذ غدا ملكها فوق جميع الامراء الالمـان •

خامسا ـ دولـة روسيا

ومن الدول التي برزت قوية أيضا في أواخر القرن السابع عشر **(دولة روسيا)** . وقد كنا أشرنا عند حديثنا عن أوربا في أواخر القرن السادس عشر ، ان روسيا بعد ان اشتد عودها ، مرت بفترة اضطراب شديدة ، بين عامي (١٥٨٤ ــ ١٦١٣) ، وذلك بسبب سوء المواسم الزراعية وتبلبل أحوال الفلاحين ، الذين كان النبلاء الاقطاعيون الروس (البويار Boyards) يسعون لتثبيتهم على الارض • وقد تعرضت الارض الروسية خلالها لتدخل البولونيين ، والسويديين ، ولهجمات القوزاق ، مستفيدين من ادعياء العرش ، حيث كان كل دعي منهم ، يطلب مساعدة واحد أو أكثر من الفرقاء • الا ان الامور بدأت تميل الى الاستقرار في مطلع القرن السابع عشر ، حينما انتخب (المجلس الوطني) في روسيا ، في عام ١٦١٣ (ميخائيل الثالث) قيصرا (١٦١٣ ــ ١٦٤٥) • وهو مؤسس سلالة (رومانوف) ، التي ستحكم روسيا حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ • وقد استطاع هو وابنه (ألكسي) (١٦٤٥ ــ ١٦٧٦) ، وحفيده (فيدور) (١٦٧٦ ــ ١٦٨٢) ، أن يعيدواتثبيت السلطة الملكية في روسيا •

وقد نجم عن البنية المضطربة في شرقي اوربا **حروب لا تنتهي** ، بين بولونيا وروسيا ، والدولة العثمانية ، خلال القرن السابع عشر • وفي واحدة من هذه الحروب ، استطاعت روسيا ، أن تنتزع من بولونيا (سمو لنسك) ، واقليم (كييف) عام ١٦٦٧ ، وبذلك تقدمت نحو الغرب •

وبالاضافة الى الاعداء الخارجيين ، كان على القياصرة أن يقفوا في وجه **(القوزاق)** ، على حدودهم الجنوبية ، والجنوبية الشرقية ، (عند نهر الدون والدنيبر) • والقوزاق جماعات سلاڤية كانت تعيش شبه مستقلة •

كما تعرضت روسيا في القرن السابع عشر ، **لازمة دينية** ، تمثلت في انشقاق في الكنيسة الارثوذكسية السائدة في روسيا • فقد كلف القيصر (ألكسي) ، البطريرك (نيكون) ، باصلاح الطقوس الدينية ، واخلاق رجال الكنيسة ، وذلك باعادة تلك الطقوس الى ما كانت عليه في الكنيسة اليونانية • إلا أن (نيكون) (١٦٥٢ ــ ١٦٦٦) ، اصطدم بمعارضة (المؤمنين القدماء Raskolniki) وبكثير

من فئات الشعب . وقد استخدم (نيكون) وسائل العنف مع المعارضة ، الا ان الصراع انتقل الى صراع بينه ، وبين القيصر نفسه . اذ احس هذا الاخير ، بان (نيكون) يريد أن يتجاوز بسلطته سلطة القيصر . ويشبه الصراع بين الطرفين ذلك الذي قام في العصور الوسطى في أوربا ، بين البابا والامبراطور . وانتهى الامر بابعاد نيكون عن البطركية ، وانتصار السلطة الزمنية ، وغدا الاساقفة ورجال الدين ، مجرد موظفين في الدولة .

وعندما توفي البطريرك عام ١٧٠٠ م ، وكان القيصر (بطرس الاول) على العرش ، فانه لم يعين بدلا منه ، واحل محله (مجمعا من الاساقفة) هو (المجمع المقـدس) .

ومن الصعوبات التي عانتها روسيا في القرن السابع عشر **ثورات الفلاحين** : فقد وقع عبء المجتمع الروسي على كاهل الفلاحين ، الذين كانوا بحسب قانون ١٦٤٩ ، أشبه ما يكون بالعبيد . بل هم اقنان الارض ، بالمعنى الواسع للكلمة . وكانوا يعانون الامرين من حياة العبودية تلك ، مضافا اليها ما كان يصيبهم من كوارث ، كالمجاعات ، والاوبئة ، والحروب ، والضرائب . ولذلك فانهم قاموا بعـدة ثـورات ، كـان أكبرها **ثورة ١٦٦٧ بقيادة القوزاقي (ستينكا رازين** Stenka Razin) .ولم يكن هدف تلك الثورات ، القيصر ، وانما النبلاء (البويار) ، الذين كانت الارض بيدهم . وقد نجحت هذه الثورة في بادىء الامر ، إلا أن القوات الروسية هزمتها ، واعدم (ستينكا) . ولمـا لم تحرك الحكومة ساكنا للتخفيف من أعباء الفلاحين ، فان مثل تلك الثورات الفلاحية كانت ظاهرة مستمرة في الحياة الروسية .

وفي الحقيقة كانت روسيا في القرن السابع عشر لاتزال بعيدة عـن الحضارة الاوربيةالغربية ، والمجتمع فيهايعيش تناقضات قاسية . ففي موسكو مثـلا « كان ينتصب (قصر الكرملين) بكبرياء ، بقبابه المذهبة ، وابراجه الجميلة . ويتناقض منظره ومنظر قصور النبلاء ، تناقضا صارخا مع الاحياء الفقيرة فـي موسكو ، بمنازلها الخشبية ، وفقرها المدقع ، وحانات السكيرين فيها ، وأناسها

لذين كانوا يعيشون كالخنازير »[1] •

ولكن الاثر الغربي شرع يتسرب في القرن السابع عشر الى روسيا ، والى موسكو بالذات ، وذلك عبر (**الحي الالماني**) فيها ، الذي كان يتجمع فيه الاوربيون • وكان هذا الحي بمثابة (جامعة) من الاجانب من الدول الغربية ، كالسكوتلنديين ، والانكليز ،والهولانديين ، تنال فيه الطبقات العليا من المجتمع الروسي ، الثقافة العربية ، عن طريق الاحتكاك ، والجوار •

ونتيجة لهذا التأثير ، ظهر تيار قوي بين حاشية القيصر ، يدعو الى **ضرورة تطوير البلاد على النمط الغربي** • وبالفعل ، قام القيصر (ألكسي) ، بارسال بعثات لاوربا الغربية ، كما استدعى رجالا منها ، للخدمة في روسيا • الا أن ادخال الحضارة الغربية لروسيا بشكل فعال ، كان في عهد القيصر (بطرس الاكبر) •

روسيا في عهد بطرس الاكبر (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) : ان (بطرس) هو ابن القيصر (ألكسي) ، وقد حكم مع أخيه (ايڤان الخامس) (١٦٨٢ ــ ١٦٨٩) • وكانت الوصية عليهما أختهما (الاميرة صوفيا) يعاونها حرس القيصر المسمى (سترلتسي Streltzy) • وفي عام ١٦٨٩ استطاع أنصار بطرس أن يزيحوا (صوفيا) عن الحكم ، وان يصبح (بطرس الاول) هو الحاكم الوحيد ، على الرغم من أن أخاه (ايڤان) بقي حيا حتى عام ١٦٩٦ •

لقد نال (بطرس الاول)ثقافة عشوائية ، من اتصالاته مع التجار والاجانب في (الحي الالماني) • ويبدو أن هذه الثقافة الاولية والاحتكاك مع الغربيين ، واعجابه بمظاهر حضارتهم ، قد دفعته الى التفكير جديا بحمل مظاهر تلك الحضارة الى روسيا ، ونشرها بكل الوسائل • علما أنه كان وهو في السابعة

١ ــ Carl Grimberg & Ragnard Svanstorn L'hégémonie Anglaise et la fin de l'Ancien Régime - Adaptation française - Verviers 1964. P. 86 - 87.

عشرة من عمره ، عملاق القامة ، قاسيا ، وسكيرا ، بل وبحسب تعبير احدى الاميرات الالمان « متوحشا ، وانما متوحش موهوب » .

وفي عام ١٦٩٧ ، قام بزيارة غربـي أوربا وهو متنكر . وكان يقـول « انا متمرن واطلب معلمين » . وقـد اظهر خـلال زيارته فضولا لتعرف كـل شيء . فكان يسأل ، ويسجل ، ويشتري ، ويجرب . وعمل في هولاندة اسبوعا ، وهو يتدرب على استخدام الفأس ، في ترسانة لصنع السفن ، وهو بلباس البحارة . واضطر ان يقطع رحلته الاولى عام ١٦٩٨ ، عندما علم بثورة حرسه المتمردين (السترلتسي) ، فعاد ، وقمع حركتهم بعنف لا يوصف ، بل حول القمع لشبه مجزرة ، مع أنهم أظهروا خضوعهم .

وخلال العشرين سنة التالية ، كان كل شيء موجها لضرورات الحرب ضد السويديين ، والاتراك . ولكن الاوضاع ساءت في عام ١٧١٥ ، فاضطربت الحياة الاقتصادية ، واقفرت بعض الاقاليم من سكانها ، وتبـدى كأن الثورة علـى الابواب . عندها قام القيصر برحلة ثانية الى أوربا الغربية ، وهذه المرة بصفة رسمية (١٧١٦ ـــ ١٧١٧) . وعند عودته أعدم ابنه (ألكسي) (١٧١٨) ، وكانت المعارضة قد التفت حوله ، وبذلك قضى على كل مقاومة .

واتصفت السـنوات الاخـيرة مـن حكمه **باقامة النظام** فقـد أعـاد **تنظيم الحكومة المركزية** ، وألف عشر لجان ، اختصت كل واحدة بحق مـن حقوق الادارة . وكان مـن المنتظر أن تعمـل بصفتها لجانا ، الا ان الرؤساء المسؤولين عن بعض الحقول الهامة ، كالمال ، والجيش ، فرضوا سيادتهم . وفي عام ١٧١١ ، أوجد (مجلسا خاصا) بمثابة مستشار له ، ونائب عنه في غيابه .

واعاد **تنظيم المقاطعات** فقسم البلاد الى (١٢) (اقليما Gubernii) قسمت بدورها الى (محافظات) .وكان يشغل المناصب موظفون ملكيون ، وتساعدهم الارستقراطية . وقد زادت الخزينة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، للضرائب الجديدة التي فرضها ، وللاحتكارات التي طبقها ، كاحتكار التبغ ، والملح . وساعده هذا على تقوية الجيش ، والاسطول .

واجبر النبلاء على أن يخدموا في الادارة والجيش ، وبالمقابل أعطاهم كل السلطة على الفلاحين في ممتلكاتهم ، مما **قوى العبودية ورسخها** .

وأخضع الكنيسة الارثوذكسية لسلطته باحلال (المجمع المقدس) محل (بطريرك موسكو) ، وكان يمثل القيصر في ذلك المجمع (مدع عام) .

وشجع الزراعة ، ونمى الصناعة : الصناعة التعدينية في الاورال ، وصناعة الاسلحة ، والصناعات النسيجية . وحفر قنوات بين نهري (الفولغا) و (النيفا) . **ودفع التعليم قدما ،** وافتتح مدارس عليا لتخريج رجال قادرين واكفياء ، لان البلاد كانت تفتقدهم . وهيىء في زمنه مشروع (أكاديمية العلوم) .

وقوى الجيش حتى وصل في ١٧٢٥ ، وقبل وفاته الى (٢٠٠ر٠٠٠) جندي . **وبنى مدينة (سان بطرسبورغ) ،** التي تعتبر رمزا لفعالية القيصر المتدفقة . فعلى الرغم من الصعوبات استطاع أن يفرض بناء المدينة ، التي حلت محل (موسكو) ، عاصمة للبلاد . فقد ألزم كل نبيل غني أن يبني فيها منزلا ، وكل سفينة ترسو عندها ، عليها أن تحضر احجارا للبناء . وفي عام ١٧٢٥ ، كان عدد سكانها (١٠٠ر٠٠٠) نسمة ، وغدت في منتصف القرن الثامن عشر ، مدينة ذات شوارع عريضة ، وقصور فخمة .

وقد اصطدم القيصر بمقاومة كبيرة ، لم تتوقف ، على الرغم من قضائه على ثورة حرسه ، وعلى ابنه . وفي الواقع لقد ولّدت اصلاحات (بطرس الاكبر) شقا في المجتمع : فمن ناحية هناك **اقلية حاكمة تقبل تلك التغييرات ،** ومن ناحية **أخرى أكثرية الشعب التي ترفضها .** وقد ضحى بطرس الاكبر بكل شيء من أجل عظمة الدولة ، وطبق تنظيما جديدا على المجتمع الذي تغير في بعض مظاهر حياته ، الا ان التغيير لم يمس الاعماق ، ولكنه بالمقابل جعل من روسيا قوة تهابها أوربا والعالم .

الفصل الثالث

العلاقات الدولية في القرن السابع عشر

عاشت أوربا في القرن السابع عشر علاقات متوترة ، وعانت حروبا كبيرة كاسحة ، ويمكن تصنيف تلك الحروب بحسب زمانها ، ومكانها ، والدول المتصارعة فيها ، الى أربع حروب :

اولها ـ حرب الثلاثين عاما ، ومسرحها الاساسي وسط أوربا

ثانيها ـ حروب لويس الرابع عشر في غربي اوروبا

ثالثها ـ الحروب مع الدولة العثمانية في شرقي اوربا

رابعها ـ الحروب في منطقة بحر البلطيق

١ ـ حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨)

بينما كانت أوربا في مطلع القرن السابع عشر تتسنم قمم (النهضة) (بشكسبير) الانكليزي ، و (سيرفانتس) الاسباني ، فانها تردت في أعنف صراع دموي مزقها لثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) ، بل بالاحرى لواحد واربعين عاما ، أي حتى ١٦٥٩ • وقد بدأ الصراع في أولياته ، صراعا دينيا ، ومحدودا بالارض الالمانية ، الا انه مالبث أن امتد بعد ذلك ، حتى شمل أغلبية الدول الاوربية • ولم تصطدم خلاله الجيوش الكاسحة فحسب ، وانما **تصارعت فيه مفهومات** ، ذات أهمية أوربية قصوى آنذاك ، مثل **الوحدة الكاثوليكية ، ضد مفهوم الكنائس البروتستانية ، والسلطة الامبراطورية ،**

ضد السلطات الخاصة للامراء ، والاستقلال الوطني القومي ، ضد الدعاءات الملكية العالمية الشاملة ، التي تبناها آل هابسبورغ .

الاصول الاولى للحرب ترجع الحرب في جذورها الاولى الى الانقسام والتجزؤ ، اللذين كانت تعانيهما (ألمانيا) ، على الصعيدين السياسي ، والديني :

فمن **الناحية السياسية :** كانت ألمانيا ، جزءا من الامبراطورية الجرمنية الرومانية المقدسة ، وكانت تضم مجموعة من الدويلات الصغيرة ، المدنية ، والدينية ، التي قد يصل عددها الى (٣٥٠) دويلة . وكان الامبراطور لا يملك سوى سلطة اسمية عليها ، فلا يمكنه ان يتخذ أي قرار دون موافقة (الدييت) . وهو المجلس الذي يحوي ممثلين عن ذلك العدد الكبير من الامراء الالمان .

ومن **الناحية الدينية ،** فقد كانت ألمانيا في مطلع القرن السابع عشر ، لاتزال تحمل أقدم جراح الاصلاح الديني ، وأعمقها ، إذ كانت موزعة بين ثلاثة مذاهب دينية : (اللوترية) ، التي اعترف بها صلح (اوغسبورغ) عام ١٥٥٥ . ذلك الصلح ، الذي أعطى للامراء ، الحرية في أن يكونوا من الكاثوليك ، أو البروتستانت ، وان يفرضوا الدين الذي اختاروه على رعاياهم . على أن أي تحول أمير الى البروتستانتية بعد ١٥٥٥ ، لا يجيز له ابدا مصادرة الاملاك الكنسية . وقد انتشرت اللوترية في ألمانيا حتى عام ١٥٧٦ ، الا انها توقفت ، حوالي نهاية القرن السابععشر ، أمام تقدم (الكاثوليكية) ، التي وجدت دعما قويا لها في « اليسوعيين » . فقد عمل هؤلاء بحماسة ، وحشيثا ، لاعادة بعض الامارات الالمانية الىالكاثوليكية ، كباڤاريا مثلا . والىجانب الكاثوليكية واللوترية ، كانت هناك (الكالڤنية) . ولم يكن لها وجود شرعي ، لان (صلح اوغسبورغ) لم يعترف بها ، الا أن بعض الامراء الالمان اعتنقها ، مثل منتخب بالاتينا ، ومنتخب براندیبورغ . وقد ادى هذا الانقسام الديني الخطر ، الى تنظيم الكاثوليك ، والبروتستانت ، أنفسهم عسكريا . ففي عام ١٦٠٨ قام منتخب بالاتينا الكالڤني ، بتجميع قسم من البروتستانت حوله في **(الاتحاد الانجيلي)** . وقد رفض منتخب ساكسونيا الانضمام اليه . كما أن دوق بافاريا الكاثوليكي ، أوجد بالمقابل عام ١٦٠٩ **(العصبة الكاثوليكية**

المقدسة) ، وهكذا فروح الحرب كانت ماتزال كامنة بين الاطراف المتصارعة دينيـا .

السبب المباشر للحرب وموقف الدول الاوربية

وقد تفجر الموقف بين الطرفين ، عندما اندلعت **ثورة بوهيميا** . فقد وصل لعرش بوهيميا في ١٦١٧ (فردينان دوهابسبورغ) ، وكان تلميـذا لليسوعيين ، وقرر أن يعيد الكاثوليكية الى مملكته ، حيث كان البروتستانت كثيري العدد . وكان الامبراطور (رودلف الثانـي) (١٥٧٦ ــ ١٦١٢) ، قـد منـح أولئك البروتستانت في ١٦٠٩ ، صكا ملكيا ، بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وحريات اخرى ، وذلك ليضمن تحالفهم معه ، ضد أخيه (ماتياس) ، الذي الزمه عـلى التنازل عن هنغاريا ، والنمسا ،ومورافيا . وكان الجو في (بوهيميا) قد توتر في الواقع ، منذ ١٦١٢ ، عندما أجبر الامبراطور (ماتياس) أخاه على التنازل عن عرش بوهيميا ، وأخذ يعمل على مركزة الحكم في يده ، لا في بوهيميا وحدها ، وانما في مجموع الامبراطورية . وازدادت النقمة في بوهيميا ، عندما ضمـن لابن عمه (فردينان) ، عرش بوهيميا وهنغاريا ، وهو الذي عرف بكاثولكيته .

واندلعت شرارة الثورة في (بوهيميا) ، عندما قام رئيس أساقفة (براغ) بهدم كنيسة بروتستانتية ، كانت قد بنيت على أساس الحريات الدينية التي منحها الامبر اطور (رودولف الثاني) للبروتستانت . وتبع ذلك تبديل حكام بعض المقاطعات البروتستانت ، واحلال كاثوليك محلهم . فعقد البروتستانت مجمعا ، وقرروا المقاومة في براغ . وفي ٢٣ أيار ١٦١٨ ، قام بعض النبـلاء البروتستانت بمهاجمة القصر الملكي ، وقذفوا باثنين من الحكام ، ممثلي الملك ، من النافذة . ثم خلعوا (فردينان) ، عندما علموا بوفاة الامبراطور عام ١٦١٩ ، وعينوا بدله على بوهيميا (منتخب بالاتينا الكالفني) (فردريك الخامس) ، الذي كان صهرا لملك انكلترة (جيمس الاول) ، وفي الوقت ذاته رئيسـا لـ (الاتحاد الانجيلي) .

وكان هذا تحديا كبيرا ، فثورة كهذه ، لا تهز بنية الامبراطورية الجرمنية

الرومانية المقدسة فحسب ، بل الملكيات الاوربية نفسها ، وذلك عبر روابط الاسر المالكة فيها • فالناظر لهذا الخلاف لاول وهلة ، قد يرى فيه (قضية داخلية) ، بين بوهيميا ومنتحب بالاتينـا • الا ان القضية كانت تمثل في ذلـك الوقت (قضية دينية كبيرة) لان نصر الامبراطورية فيها ، أو نصر بوهيميا ، كان يعني نصر الكاثوليكية ، أو البروتستانتية • كما انها (قضية سياسية) ذات بال ، لان انتصار الامبراطورية ، يعني ضعف سلطةالامراء ، والنبلاء البروتستانت ، وارتفاع شأنها ، واختلال التوازن الاوربي القائم •

فلهذه الاسباب ، تجاوز الصراع حدود الامبراطورية المقدسة : فملـك اسبانيا (الكاثوليكي جدا) ، والذي يرجع في نسبه الى آل هابسبورغ ، وكان آنذاك الملك (فيليبالثالث) دفع الامبراطور (فردينان الثاني) للتحـرك ، ووقفت البابوية كذلك الى جانبـه ، لانها تريد عـودة الامبراطورية كلها الى الكاثوليكية • أما ملك فرنسا (لويس الثالث عشر) ، فقد خشي ، اذا ماانتصرت الامبراطورية ، ان تبعث السيادة الهابسبورغية على أوربا ، كما كان عليه الامر في عهد شارلكان • الا انه تلكأ في تأييد بوهيميا ، اذ قد يفهم من ذلك التأييد ، مخاصمة الكاثوليكيـة • وتتبع ملك انكلترة (جيمس الاول) الحوادث دون تدخل ، على الرغم من بروتستانتيته ، وقرابته لامير بالاتينا ، لانه كان منشغلا ـ كما رأينا ـ بدعم ملكه •

الا ان (دول الشمال السكاندينافية) لم تقف مكتوفة الايدي ، أو مجرد مراقبة للاحداث ، بل حشرت نفسها في ذلك الصراع الدامي ، لدوافعها الدينية ـ كما سنرى ـ ولرغبة كل واحدة منها ، في تأكيد سيادتها على بحر البلطيق ، بعد زوال نفوذ العصبة الهانسية • فالتنافس على سيادة ذلك البحر كان حادا بين السويد ، والدانيمارك ، وبولونيا •

ويمكن تتبع ذلك الصراع الدموي ، وتحوله من صراع داخلي محلي ، الى صراع أوربي واسع ، من ملاحقة مراحله الاربع :

المرحلة الاولى وهي المرحلة التشيكية البالاتينية (١٦١٨ – ١٦٢٥)

وخلالها لم يكن الامبراطور (فردينان الثاني) ، ليملك القوى الكافية لدحر التشيك ، والبالاتينيين معا ، الا انه حصل على عونين هامين : **اولهما** عون (العصبة الكاثوليكية المقدسة) ، القلقة من النفوذ ، والمكانة ، اللذين قد يتمتع بهما البروتستانت في المستقبل . فكون ملك بوهيميا بروتستنتيا ، يجعل عدد أصوات المنتخبين البروتستانت ، في انتخاب الامبراطور الجرمني الروماني المقدس ، اربعة أصوات مقابل ثلاثة اصوات للكاثوليك[1] .

وثاني العونين ، عون منتخب « ساكسونيا اللوتري جدا » (جان جورج الاول) الذي كان معاديا للكالفنيين التشيك . وفي الثامن من شهر تشرين الثاني عام ١٦٢٠ ، هزمت القوات الامبراطورية جيش (فردريك الخامس) ملك بوهيميا ، في معركة (**الجبل الابيض**) . وتبع ذلك سياسة قمع ارهابية شديدة ، نفذها الامبراطور في بوهيميا . فقد اراد أن يستعيدها للكاثوليكية وفي الوقت ذاته « جرمنتها » . فأمر جميع البروتستانت بمغادرة البلاد ، وصادر أملاك النبلاء الثائرين ، واعطاها للنبلاء المخلصين له ، وجعل بوهيميا ملكا وراثيا لاسرة هابسبورغ ، واحتل (بالاتينا) ، واعلن عزل فردريك الخامس من منصبه كمنتخب ، واعطي المنصب مع جزء من بالاتينا الى أمير بافاريا .

وهكذا غدا المجلس الانتخابي للامبراطورية ، يضم خمسة أصوات كاثوليكية (بوهيميا ، بافاريا ، كولونيا ، مايانس ، وتريف) وصوتين بروتستانتيين (ساكسونيا وبرانديبورغ) .

المرحلة الدانيماركية (١٦٢٥ – ١٦٢٩)

وهي المرحلة الثانية من الحرب . وقد شاع في الاوساط الاوربية ان

(١) كلن يتم انتخاب الامبراطور من قبل سبعة منتخبين : هم رئيس اساقفة تريف ، ورئيس اساقفة كولونيا ، ورئيس اساقفة مايانس ، (وهؤلاء من الكاثوليك) وكونت بالاتينا الرينانية ، ودوق ساكسونيا ، وامير براندبورغ ، وملك بوهيميا (وهؤلاء من البروتستانت) .

(فردينان الثاني) ، وهو تلميذ قديم لليسوعيين ، وكاثوليكي متحمس جدا ، ينوي القضاء نهائيا على البروتستانتية في جميع انحاء الامبراطورية • ولذا فان اللوتريين ، أسرعوا لطلب مساعدة ملك الدانيمارك (كريستيان الرابع) ، البروتستانتي ، الذي كانت له اطماعه في مصبات نهر الالب ، والويزر ، شمالي ألمانيا •

وامام اجتياح القوات الدانيماركية لالمانيا الشمالية ، اتفق الامبراطور مع النبيل التشيكي (فالنشتين Wallenstein) ليكون قائدا لقواته ، على ان يقوم هو بجمع الجنود اللازمين • واستطاع (فالنشتين) ان يجمع (٣٠،٠٠٠) جندي ، اعتمد في تمويلهم على السلب ، والنهب • واستطاع بهذا الجيش ان يهزم ملك الدانيمارك ، في موقعة (جسر ديسو Dessau) عام ١٦٢٦ ، واكتسح ارض (هولشتاين) ، التابعة للدانيمارك ، وكذلك جوتلاند • واضطر ملك الدانيمارك لعقد (معاهدة لوبيك) مع الامبراطور عام ١٦٢٩ ، لانهاء الحرب • وتعهد ملك الدانيمارك فيها ، بألا يتدخل في المستقبل بالشؤون الالمانية ، وان يترك حلفاءه •

وشعر الامبراطور بعد ذلك النصر ، بأنه غدا حر اليدين للتصرف بألمانيا ، وفرض قانونه عليها كلها • فأصدر في عام ١٦٢٩ (مرسوم الارجاع) Edict of Restitution وهو يلزم الامراء البروتستانت ، الذين استولوا على الاراضي التابعة للكنيسة ، بعد (صلح اوغسبورغ) عام ١٥٥٥ ، على ارجاعها • ووضع القائد (فالنشتين) على رأس الجيش ، الذي نفذ ذلك المرسوم • وكانت استعادة تلك الاراضي ، تعني وضعها تحت تصرف الامبراطور ، ومن ثم انتقال ملكية تلك الاراضي ، لصالح أسرته ، وحلفائه الكاثوليك ، مما يعطي الامبراطور قوة كبيرة ، ويوسع سلطته • وقد أصدر الامبراطور مرسومه بصفة شخصية ، أي دون اتفاق مسبق مع الدييت ، أو مع المجلس الانتخابي ، على الرغم من انه اجراء هام ، وعميق الاثر ، في بنية الامبراطورية • كما نص المرسوم أيضا على عدم الاعتراف بالمذاهب البروتستانتية الاخرى غير اللوترية • وبذلك كان المرسوم تحديا للبروتستانت ، الذين ظلوا يرفضون تلك البنود من صلح اوغسبورغ • وفي الحقيقة ان تصرف الامبراطور

كملك مطلق ، جعل جميع الامراء الالمان يستاؤون ، ولاسيما أن قائده (فالنشتين) ، وجنده ، سلكوا سلوكا قاسيا ، ورهيبا ، على الارض الالمانية ، مما دفع الامارات الالمانية الكاثوليكية نفسها ، لطلب عزله • واستجاب الامبراطور للطلب •

المرحلة الثالثة ـ المرحلة السويدية ١٦٣٠ ـ ١٦٣٥

وسميت بذلك لدخول السويد الحرب الى جانب البروتستانت ، وضد الامبراطورية • ويرجع تدخل السويد الى الاسباب التالية :

١ ـ حماية البروتستانت المقهورين ، وبخاصة بعد (مرسوم الارجاع) •

٢ ـ رفض الامبراطور وساطتها في معاهدة لوبيك •

٣ ـ اعادة بعض الامراء ، من أقرباء ملك السويد ، الى اماراتهم التي طردوا منها •

٤ ـ قلق السويد من المشروعات البحرية للامبراطور ، في تأكيد سيادته على بعض موانىء البلطيق •

٥ ـ مطامع السويد في سيادة بحر البلطيق ، عن طريق الاستيلاء على بروسيا ، وبوميرانيا •

٦ ـ تحريض فرنسا للسويد :فقد خشيت فرنسا قوة الامبراطور ،واعتقد (ريشليو) ان الامبراطور سيتفق حتما مع ابن عمه ملك اسبانيا (فيليب الرابع) ، بحجة اعادة الكاثوليكية الى الامبراطورية ، فيبعث من جديد مفهوم (الملكية العالمية) السائد في العصور الوسطى ، والذي أراد شارلكان في القرن السادس عشر ، أن يعيده للواقع السياسي الاوربي • وجاء ترشيح (فردينان الثاني) لابنه ، كي يخلفه على العرش الامبراطوري ، تأكيدا لهذا الاعتقاد • وأمام هذا الخطر المنتظر ، أرسل ريشليو مبعوثا في عام ١٦٣٠ ،

الى (راتسبون) حيث كان دييت الامبراطوريـة مجتمعا ، كي يقنع الناخبين ، بعدم انتخاب ابن فرديناند ، خلفا للامبراطور • وقـد نجح المبعوث الفرنسي في مهمته ، لان الامراء الكاثوليك ، والبروتستانت ، على حد سواء ، كانوا قلقين جدا من ازدياد السلطة الامبراطورية • وفي الوقت الذي كانت فيـه فرنسا تبعث بمندوبها ، فانها كانت توقع مع ملك السويد (غوستاف آدولف) ، معاهدة لتمويله في حملته التي ينوي القيام بها ضد الامبراطورية •

وبالفعل انزل ملك السويد قواته على ساحل بوميرانيا في تموز ١٦٣٠ • وكان قد جمع جيشه من فلاحي السويد ، المتحمسين للبروتستانتية • وكان هذا الجيش من أفضل جيوش أوربا ، لحسن نظامه ، ودربته على القتال ، واخلاص أفراده • وقد دخلوا المعركة وهم يرتلون الاناشيد الدينية •

وكان قد تحالف مع السويد ، الامراء البروتستانت ، الذين كانوا قد بقوا على الحياد ، كدوق ساكسونيا ، وامير براند يبورغ • وتمكن الجيش السويدي من هزيمة القوات الامبراطورية في (برايتينفيلد Breitenfeld) ، قرب ليبزيغ (١٦٣١) ، واندفع نحو الرين غربا ، واحتل بافاريا ، واستقبله البروتستانت ، وكأنه مبعوث الله اليهم ، بل أوحوا اليه كي يسعى للمطالبة بالتاج الامبراطوري •

وهنا استدعى الامبراطور (فالنشتين) ثانية ، وسلمه قيادة الجيش ، ومنحه سلطات واسعة ، وقذف به في وجه (غوستاف آدولف) • وكان لقاء الجيشين في (لوتزن) من أعمال ساكسونيا • واضطر فالنشتين أن يوقف المعركة لخسائره الكبيرة ، الا ان الملك (غوستاف آدولف) قتـل في المعركة (١٦ تشريـن الثاني ١٦٣٢) •

وتتالت المعارك بين (فالنشتين) والقوات السويدية ، والالمانية البروتستانتية • الا ان الامبراطور قرر عزل فالنشتين لانه كان يتآمر عليـه ، ويعقـد مفاوضات سرية مع السويديين ، والساكسون ، وغيرهم ، وانتهى أمر هذا القائـد بالقتل عام ١٦٣٤ •

وتمكن الامبراطور بعد ذلك من توقيع (صلح براغ) عام ١٦٣٥ مـع

ساكسونيا ، منحها فيه بعض المقاطعات ، كما سمح بابقاء أراضي الكنيسة المصادرة من البروتستانت ، بأيدي مصادريها ، لمدة (٤٠) سنة • ونص في الصلح على العفو العام عن الثائرين ، ماعدا الذين أسهموا في الاضطرابات في بوهيميا ، وبالاتينا • كما وافق أمير ساكسونيا على التحالف مع الامبراطور ضد السويد . وقد قبل بهذا الصلح ، أمير براند يبورغ ايضا ، وبقية الدويلات البروتستانتية .

المرحلة الرابعة ـ المرحلة الفرنسية ـ السويدية (١٦٣٥ ـ ١٦٤٨)

ان مقتل (غوستاف آدولف) في الحرب ، ونصر الامبراطورية ، دفع فرنسا للتدخل مباشرة في الصراع لمقاومة (الخطر الهابسبورغي) الذي ينسج خيوطه حولها • فمنذ وقت طويل ، والملك (فيليب الرابع) ، ملك اسبانيا ، يؤيد ابن عمه (فرديناند الثاني) • وفرنسا من ناحيتها كانت تقوم بحرب « خفية » ضدهما ، عن طريق الدبلوماسية ، وتمويل أعدائهما • الا انها في عام ١٦٣٥ تحالفت مع هولاندة ، واحتجت بخطف منتخب تريف ، وكانت هي التي تحميه ، لتعلن الحرب على اسبانيا والنمسا معا .

ولم تكن بدايات الحرب نصرا لفرنسا ، إذ اكتسحت أراضيها من الشمال ، والشرق ، والجنوب ، واقترب الفرسان الاسبان من باريس • وفي ١٦٣٧ ، فقدت فرنسا مواقعها في الالب ، وايطاليا • الا ان اليأس لم يدب الى نفس ريشيليو ، ومليكه • وقد أثمر صبرهما اذ تمكنت فرنسا انطلاقا من عام ١٦٣٨ ، ان تحتل (الروسيون) (جنوب شرق فرنسا) و (الارتوا) (شمال غرب فرنسا) ، وان تثير على الاسبان (كاتالونيا) • وبعد موت ريشيليو (١٦٤٢) ، ولويس الثالث عشر (١٦٤٣) ، أحرزت فرنسا النصر تلو الآخر ، وكان آخر المعارك في (لينز Lenz) في عام ١٦٤٨ ، وفي الاراضي المنخفضة ، وكان النصر فيها لفرنسا ، وتحطمت السيادة العسكرية للامبراطور • وعندما هدد القائد الفرنسي (تورين) ، (فيينا) عاصمة النمسا ، قبل الامبراطور نتيجة المفاوضات ، التي كانت قد ابتدأت منذ بضع سنوات ، ووقع (**صلح وستفاليا**) •

صلح وستفاليا (٤ تشرين الاول عام ١٦٤٨) : لقد وقع الصلح العام في

وستفاليا (مقاطعة في غربي ألمانيا) ، وكانت القـوى الكاثوليكية مجتمعـة في (مونستر) ، والبروتستانتية في (اوزنابروك) • ورفضت اسبانيا وحدها التوقيع، الا انها منذ مطلع ١٦٤٨ ، كانت قد اعترفت باستقلال « المقاطعات المتحدة » (هولاندة) • وقد ضمنت كل من فرنسا والسويد تنفيذ تلك المعاهدات • ومن البنود الرئيسية في هذا الصلح :

١ ــ الاعتراف بالمذاهب الثلاثـة المسيحية في ألمانيـا : الكاثوليكية ، واللوترية ، والكالفنية ، وكلها تتساوى بالحقوق • ويمكن للامراء أن يفرضوا مذهبهم على رعيتهم ، ومن ثم فقد بقيت بوهيميا كاثوليكية •

وتنيجة لهذا الاعتراف ، هدأت ألمانيا من الناحية الدينية ، وعاد التوازن بين الكاثوليك ، والبروتستانت • وتنازل الامبراطور عـن (مرسوم الارجـاع) ، واستعاد ابن (فردريك الخامس) جزءا مـن أراضي أبيه ، مـع احتفاظه بلقب (منتخب) • وكذلك احتفظ أمير بافاريا هو الآخر بلقبه كمنتخب مع جزء مـن بالاتينا •

٢ ــ حددت سلطة الامبراطور في ألمانيا : وهذا قضاء على ادعاءاته ، وحفاظ على التجزؤ الالماني ، وضمانة لسلامة فرنسا • فالامبراطور غدا ينتخب من ثمانية منتخبين : خمسة من الكاثوليك وثلاثة من البروتستانت • واعيد تركيب (الدييت)، واعترف باستقلال الامراء الثلاثمائة والستين ، الذين تتألف منهم ألمانيا • واعطوا الحق في أن يعقدوا تحالفات مع الملوك والامراء الاجانب • وقد بقيت ألمانيا مجزأة على الصورة المذكورة ، حتى القرن التاسع عشر ، عندما نجحت عام ١٨٧١ ، بتكوين (الاتحاد الالماني) •

٣ ــ تقلص الامبراطورية : فقـد اعترف باستقلال الاراضي المنخفضة ، والمقاطعات السويسرية •

٤ ــ انتقال بعض الاراضي الى ملكية يـد أخرى بصفتها غنيمـة حـرب للمنتصرين : فقد تلقت السويد الاراضي التي تسمح لها بالسيطرة على مصبات الانهار الألمانية الكبرى مثل (بوميرانيا الغربية) ، و (مصب الاودر) ، وميناء

(شتيتن) ، واسقفيات (بريمن) و (ڤردن) • وبذلك أصبح للسويد ، مقعد في الديت الالماني •

واعترف بسيادة فرنسا على الاسقفيات الثلاث ، التي كانت قد استولت عليها منذ قرن ، وهي : متز ، وتول ، وفردان • كما نالت فرنسا في (الالزاس) حقوقا واقطاعات •وقد فضل (مازاران) الالزاس على (اللورين) ، لتستطيع فرنسا أن تراقب ، وهي على نهر الرين ، آل هابسبورغ ، مراقبة أفضل • وبذلك بلغت فرنسا ، ولاول مرة في تاريخها ، حدود نهر الرين •

واعطيت بروسيا ، تعويضا لها عن بوميرانيا مقاطعات (هالبرشتات)و(مندن) و (ماغد يبورغ) •

ينظر الالمان عادة الى (صلح وستفاليا) على انه **كارثة قومية** ، إذ يرون فيه تكريسا للانقسام ، والتجزؤ الالمانـي ، ونصـرا (للحريات الجرمنية) ، أي للانفصال ، والمصالح الخاصة ، على حساب المحاولات الامبراطورية التوحيدية •

وفي الواقع ، لم يكن مصاب ألمانيا ، من هذه الحرب ، في استمرار تفككها فحسب ، وانما بما نكبت به خلال الحرب : فاجتياح الجيوش الامبراطورية ، والسويدية ، والدانيماركية ، والفرنسية لاراضيها ، رمى اقتصادها بسهام قاتلة • ولا سيما انها عانت في هذا الوقت نفسه ، مواسم زراعية سيئة ، ومجاعات ، وأوبئة ، مما أدى الى « أكبر هزة ديموغرافية في تاريخها »[1] •

وقد كان اقليم الرين ، وهو محور العمليات العسكرية ، أكثر المغاطق تأثرا بتلك الحرب • وتقدر الخسائر البشرية في ألمانيا بـ ٤٠٪ من سكانها في الارياف ، و ٣٠٪ من سكانها في المدن • وقد دفع هذا **النزف السكاني** ، الناس الـى الهجرة نحو المناطق ، التي تضاءل عـدد سكانها • وكانت عملية اعادة التعمير بطيئة ، لان أوربا كلها كانت تمر بمرحلة من الصعوبات الاقتصادية الخطيرة •

---

١ — S. Pillorget, Apogée et déclin des Sociétés d'ordre (1610 - 1787) Paris 1969, P. 144.

وفي الواقع تلقت ألمانيا ضربة اقتصادية رهيبة ، ماعدا اللهم بعض المناطـق ، كسيليزيا مثـلا •

نهاية السيادة الاسبانية : ظلت الحرب قائمة بين فرنسا واسبانيا بعد توقيع (صلح وستفاليا) ، إذ رفضت اسبانيا توقيعه • واستفادت اسبانيا مـن أزمة (حروب الفروند) في فرنسا ، فاجتاحت شمالها ، وشرقها • الا أن فرنسا مارست تأثيرا قويا في ألمانيا ، بعد توقيع (صلح وستفاليا) ، حتى فكر مازاران لفترة ، أن يطرح ترشيح الملك لويس الرابع عشر ، لعرش الامبراطورية ، بعـد وفاة الامبراطور (فرديناند الثالث) عام ١٦٥٧ • الا انه سرعان ما عدل عن ذلـك ، وتمكن من التأثير في الناخبين الثمانية ، حتى انهم طالبوا الامبراطور الجديد وهو (ليوبولد الاول) ، بألا يقدم أي عون للاراضي المنخفضة الاسبانية ، المهددة آنذاك بالجيوش الفرنسية • وللحصول على ضمان أكبر ، فقد تجمع الامراء الالمان في منطقة الرين ، في (عصبة الرين) ، التي وضعت نفسها تحت حماية فرنسا ، وسدت الجبهة شرقي الاراضي المنخفضة • كما أن مازاران وقع تحالفا مع انكلترة (كرومويل) • وهكذا استطاعت فرنسا ، الانتصار على القوات الاسبانية ، في معركة (دون Dunes) في حزيران (١٦٥٨) ، فاضطرت اسبانيا لطلب الصلح ، **ووقعت (معاهدة البيرنـة) في ٧ تشرين الثاني ١٦٥٩ التي كـانت نهايـة السيادة الاسـبانية •**

وفي هذا الصلح نالت فرنسا مقاطعة (الارتوا) ، و (الروسيون) ، وبعض الاماكن على الحدود الشمالية • وتزوج الملك لويس الرابع عشر مـن (مـاري تيريز) ابنة ملك اسبانيا ، على ان تتنازل عن عرش اسبانيا ، مقابل بائنة كبيـرة تقدر بـ (٥٠٠٫٠٠٠) قطعة ذهبية • وكان مازاران ينتظر من هذا الزواج ، وراثة فرنسا لعرش اسبانيا ، لان ولي العهد الاسباني مريض جدا ، واسبانيا غير قادرة على دفع البائنة المطلوبة •

وهكذا **وكان فرنسا في ١٦٦٠ ، هي التي كانت توجه اوربا كلها :** فمقابل اسبانيا المتدهورة ، والمانيا المحطمة ، والامبراطور الذي عاد الاتراك يهددونه ، برزت فرنسا قوية بتحالفاتها ، وبجيشها الدائم وسكانها الكثر (١٩ مليون) ،

وفرضت نفسها قوة اولى في اوربا ، بينما كانت حليفتها السويد ، تسود اوربا الشماليـة •

٢ـ لويس الرابع عشر واوربا
١٦٦١ – ١٧١٥

عاشت اوربا بين ١٦٦١ـ١٧١٥ تسعة وعشرين عاما من الحرب ، تصارعت خلالها القوى الاوربية • وقد خرجت اوربا من ذلك الصراع ، مختلفة عن اوربا التي أراد لويس الرابع عشر ان ينظمها بحسب مزاجه •

السياسة الخارجية للويس الرابع عشر : لقد اراد لويس الرابع عشر ، وقد استلم الحكم بنفسه عام ١٦٦١ ، ان يفرض نفسه على اوربا ، التي لم تكـن تأمل آنذاك الا بالسلام • وان الميداليات التي سكها ، والتي تمثله سيدا متوجا ، طامعا بالمجـد ، لدليل على تطلعاته تلك •

وفي الواقع ، لقد كانت فرنسا ، تتمتع برصيد معنوي كبير في اوربا ، عبـر انتصاراتها،واشعاعها الفني ،والادبي•ويضاف الى ذلك قوتها العسكرية المتماسكة التي يقودها (تورين) ،و (كونده) ، ودبلوماسيتها الفعالة ، التي كان يسيرهـا اقطاب سياسيون ، أهمهم (كولبير) ، وتدعمهـا شبكة مـن السفراء والعملاء البريين • واخيرا هناك الاموال التي كانت توزعها بسخاء بين الامراء ، والوزراء، والاجانب ، لكسبهم الى جانبها •

واذا ما تساءل الفرد ، عن اهداف لويس الرابع عشر ، من سياسته الخارجية، فانـه يمكـن القول انـه لـم يكـن ليحمل مخططا كبيرا متكاملا ، وانمـا اهتمامات تختلف بحسب الظروف : فهو يتمنى التـاج الامبراطوري ، ويريـد ان يتطاول الى العرش الاسباني ، كما يرغب في الاسهام ضد الاتراك ، والبروتستانت دفاعا عن الكاثوليكية والمسيحية • ومع ذلك فهناك فكرتان سائدتان في سياسته الخارجية :

ـ ضمان سلامة الحدود التي يمكن لڤوبان ان يحصنها : فمقاطعة فرانش كونته ، واللورين (وقد احتلها بين ١٦٦٢ـ١٦٩٧) ، والاراضي المنخفضة ، كانت كلها تثير لعابه ، إذ بها يضمن لفرنسا حدودها الطبيعية ، وهي نهر الرين •

ـ تحقيق الفخار الشخصي والمجد : فهو كأمثاله من النبلاء الشبان ، كـان يحب الحرب (فهي تسلية لذيذة) ، الا انه مـع ذلك كان يخشى الصـدف في المعارك • ولذا فانه فضل في سنيه الاولى المفاوضات للوصول الى اغراضه • ولكن الكبرياء سرعان ما طغت على نفسه ، وشيئا فشيئا ، شرع يثير تحالفات معادية له ، كان يمكن تجنبها • بل بدا انه لم يكن لينزعج من وجوده وحيدا ، ضـد الجميع•

١ ـ سياسته من ١٦٦١ـ١٦٦٧ وقد اتبع في هـذه المرحلة سياسة ابهـة ومظاهر ، أراد ان يبدو فيها انه السيد الاعلى على اوربا : فقـد وقف مخاصما ، ومجابها ، لكل مـن ، ملك اسبانيا ، وملك انكلترة ، نتيجة مشاحنات ، حول اسبقية تقدم سفرائه في الاحتفالات ، على سفراء دولتيهما • لانه كان يصر دائما ، على ان يكون لسفرائه الاسبقية على سفراء بقية الدول • وكان يمنع ان تكون مراكبه هي البادئة بتحية المراكب الانكليزية • بل انه طلب من البابا ، ان يقدم لـه الاعتذار ، على اثـر مماحكة بـين سفير فرنسا ، وحرس البابـا • ان هـذه الارضاءات الصغيرة لغروره ، توّجها العون الذي قدمه للامبراطور،لماهدده هذا الاخير بالهجوم العثماني • وبذلك مهد لنصر المسيحية في معركة (سا نغوتار) عام ١٦٦٤ على ابواب فينا •

كما نجح في عقد **تحالفات عديدة** : مع براندیبورغ ، واكثرية الامـراء الالمان ، والدانمارك ، والمقاطعات المتحدة •

وفي عام ١٦٦٢ اشترى (دنكرك) من الملك (شارل الثاني) ملك انكلترة ، الذي بقي متحالفا معه • ولكن عندما قامت الحرب بين المقاطعات المتحدة (هولندة) وانكلترة ، بسبب التنافس على السيادة البحرية ، شعر لويس الرابع عشر بالحرج، وتجنب منح تأييد كبير ، وواضح ، لهولندة ، حليفته • ولقد عانى الانكليز فترات سيئة وصعبة ، فقد اجتاح البلاد الطاعون الاسود عام ١٦٦٥ ، وقام حريـق لندن الكبير عام ١٦٦٦ ، وهدد الاميرال الهولندي (رويتر) العاصمة الانكليزيـة • وسعى لويس الرابع عشر للسلام بين حليفتيه ، وتم توقيع صلح بريده« «Bréda» عام ١٦٦٧ • وفيه احتفظت انكلترة (بأمستردام الجديدة) ، التي احتلتها فـي امريكا الشمالية ، والتي اصبح اسمها (نيويورك) •

الا أن لويس الرابع عشر كان قد انخرط في حرب مع اسبانيا ، وهو يسعى للصلح بين حليفتيه .

٢ ـ انتصارات لويس الرابع عشر في حروبه (١٦٦٧ـ١٦٧٩) :

آ ـ حرب حق وراثة الاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) :

في عام ١٦٦٥ توفي ملك اسبانيا (فيليب الرابع) ، حمو لويس الرابع عشر، وخلفه على العرش (شارل الثاني) . الا ان لويس الرابع عشر الذي لم يقبض بائنة زوجه النقدية ، طالب باسم زوجته (ماري تيريز) ، بحق وراثة الاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) . واستند على عرف بلجيكي قديم ، يعطي حق الوراثة للولد الاكبر ، من الزواج الاول ، من اولاد الملك المتوفي ، اكان ذكرا أم انثى . ولما رفضت اسبانيا طلبه ، فانه هاجم الاراضي المنخفضة ، كما هاجم في الشرق فرانش كونته . الا ان السويد ، وانكلترة ، والمقاطعات المتحدة ، قلقت للامر ، وكونت (التحالف الثلاثي البروتستنتي) ، وضغطت على لويس الرابع عشر ، الذي وقع (صلح ايكس لاشابيل) عام ١٦٦٨ . وفيه تنازل عن فتوحاته ، مع احتفاظه بـ (ليل) ، وباحدى عشرة قلعة على حدود الاراضي المنخفضة ، سعى فوبان بسرعة لتحصينها . وبذلك قوى لويس الرابع عشر حدوده الشمالية .

ب ـ حروب لويس الرابع عشر مع هولاندة (١٦٧٢ـ١٦٧٨)

لم يغفر ملك فرنسا « للمقاطعات المتحدة » تدخلها للضغط عليه ، وكان لا يحب هذه الجمهورية البروتستانتية ، التي قامت ضده بدعاية « صحفية » مهينة والتي كانت تنافس فرنسا صناعيا ، وتجاريا . وشجعته بطانته وكولبير على محاربتها ، وكان يعتمد على تأييد بعض الدول ، مثل ، انكلترة ، والسويد . وكانتا قد تحالفنا معه ، اما خوفا ، واما جشعا ، وسعيا وراء المال الذي كان يغدقه عليهما ، واما لرغبتهما في كسر شوكة المقاطعات المتحدة ، المنافسة لهما اقتصاديا . وبالفعل فقد ابتدأ حربها عام ١٦٧٢ باجتياز نهر الرين . وفي بضعة ايام استطاع الفرنسيون الاستيلاء على اكبر قسم من البلاد . وادت تلك الهزيمة ،

الى ثورة في المقاطعات المتحدة ، فقد اغتيل رئيسها (جان دوويت) • ونصب (ويليام دورانج) حاكما عاما ، وقد بقي هذا الاخير طيلة حياته ، عدوا لدودا للويس الرابع عشر • وحتى ينقذ ويليام بلاده من المحنة التي حاقت بها ، امر بفتح السدود التي تحمي الاراضي المنخفضة الهولندية من خطـر البحر ، فاضطر الفرنسيون للتوقف امام الفيضان • وفي الوقت ذاته تمكن (ويليام اورانج) ، من جـذب حلفاء لويس الرابع عشر اليه ، ما عدا السويد، التي هزمت امام براندبيورغ فـي معركة (فيربلين) عام ١٦٧٥ : فتحالف مـع ملك اسبانيا ، ومـع الامبراطور ، واغلبية الامراء الالمان • واجبر الانكليز ، الذين احسوا بخطر التوسع الفرنسي، الارضي ، والاقتصادي ، مليكهم على التخلي عن لويس الرابع عشر عام ١٦٧٤ • وغدت الحرب صعبة على فرنسا ، واضطرت ان تحـارب في الاراضي المنخفضة وفرانش كونته وفي الالزاس ، حيث قتل القائد (تورين) ، وكذلك على البحر ، حيثتمكن الاسطول الفرنسي من الهولندي ، في البحر المتوسط •

وفي االواقع لقد كانت الحرب منهكة للطرفين ، فوقعا اخيرا صلح (نيميغ Nimègue) عام ١٦٧٨ ، الذي لم تفقد فيه « المقاطعات المتحدة » أي شبر من الارض ، كما حصلت على تنازل كولبير عن التعرفة الجمركية ، التي وضعها لحماية الصناعة الفرنسية عام ١٦٦٧ • الا ان اسبانيا بالمقابل تنازلت لفرنسا في ذلـك الصلح ، عن اماكن جديدة من الاراضي المنخفضة ، وعـن فرانش كونته • وتلقى لويس الرابع عشر من مدينة باريس لقب (لويس الكبير) ، وشعر الفرنسيون بالفخار لسيادة بلادهم اوربا ، ولعلو كعبها بين الدول •

جـ سياسة جمع المقاطعات أحس لويس الرابع عشر بعد (صلح نيميغ) بان لا قوة قادرة على مقاومته • ولذا فانه اخذ يطالب بجميع الاقاليم ، التي كانت تابعة في وقت ما لمناطق ضمت حديثا لفرنسا • وهذه هي **« سياسة التجميع »** التي كان من نتائجها تقوية الحدود الشمالية ، والشمالية الشرقية لفرنسا ، وذلك بضمها اليهـا **جزءا من السار ، واللوكسمبورغ ، وستراسبورغ ،** وذلك دون حـرب •

وشعر ملوك اوربا وامراؤها بالقلق من هذا « الصلح القاضم والكاسح » ،

فاخذوا يثيرون ضده الاحقاد ، هذا ، بينما كان لويس الرابع عشر يظن نفسه انه قد غدا سيد اوربا .

٣ ـ اخفاق لويس الرابع عشر ونهاية السيادة الفرنسية في اوربا (١٦٨٨ـ١٧١٤)

آ ـ حرب عصبة اوغسبورغ (١٦٨٩ـ١٦٩٧) منذ ١٦٨٥ اخذ الموقف الاوربي ينعطف ضد لويس الرابع عشر :

ـ فقد غضب الامراء الالمان من سياسة « التجميع » التي اتبعها لويس الرابع عشر ، واخذت تساورهم الشكوك حول نواياه ، ولا سيما ما يظهر من رغبته في سيادة المانيا . كما ان البروتستانت منهم ، شعروا بالنقمة عليه لالغائه منشور نانت عام ١٦٨٥ ، واضطهاده للبروتستانت . ولذا فانهم التفوا حول الامبراطور ، حتى ان امير براندييورغ استغنى عن مال لويس الرابع عشر ، وانحاز الى صف الامبراطورية .

وفي هذا الوقت ، كان الامبراطور ، بمساعدة ملك بولونيا (جان سوبيسكي) قد ابعد نهائيا الخطر التركي عام ١٦٨٣ ، وبذلك اصبح اقوى على الجبهة الغربية. وبالفعل فقد ضم اليه في (عصبة اوغسبورغ) اكثر الدول الاوربيةومنها انكلترة. اذ ان ثورة ١٦٨٨ فيها ، قد ابعدت عن العرش (جيمس الثاني) الكاثوليكي ، واتت بعدو لويس الرابع عشر اللدود (ويليام اورانج) ، الذي اصبح في الحقيقة الروح المحركة للتحالف .

وابتدأت العمليات الحربية ، باجتياح القائد الفرنسي (لوفوا) مقاطعة بالاتينا وذلك ليرهب الالمان ، وليضع منطقة مجتاحة بينه وبين اعدائه . الا ان عمله هذا، ولد في الواقع حقدا دائما لدى الالمان.وقد تمكن الفرنسيون ان يحققوا انتصارات في الاراضي المنخفضة ، وفي ايطاليا، الا ان الاساطيل الهولاندية ، والانكليزية مجتمعة ، هزمت الاسطول الفرنسي عام ١٦٩٢ . وانهكت الحرب جميع الاطراف، ولا سيما ان سوء المحاصيل الزراعية ، جاء ليزيد الوضع سوءا (١٦٩٢ـ١٦٩٣ و ١٦٩٤) . ووقع الصلح في (ريزويك Ryswick)عام ١٦٩٧ . واعترف لويس

الرابع عشر فيه بويليام اورانج ملكا على انكلترة ، وتنازل عن المناطق التي ضمها ما عـدا (ستراسبورغ) •

وشعرت اوربا بعد (صلح ريزويك) ، ان لويس الرابع عشر ، ليس ذلـك الملك الذي توهموا انه لا يغلب ، كمـا شعرت فرنسا بخيبة الامل نتيجة ذلـك الصلح التراجعي •

ب ـ **حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ـ١٧١٤)** : عندما حضرت الوفاة الملك (شارل الثاني) ملك اسبانيا ، ولم يكن له ولـد يرثه على العرش ، فانه اوصى بالعرش من بعده لدوق آنجو ، حفيد لويس الرابـع عشر ، شريطة ان يتنازل عن عرش فرنسا • وقبل لويس الرابع عشر الوصية • الا انه ارتكب ثلاثة اخطاء ، **اولهـا** : انه احتفظ بحقوق دوق آنجو (وقـد اصبح فيليب الخامس ملك اسبانيا) على العرش الفرنسي • **ثانيهـا** : وضـع جيوشا فرنسية في الاماكـن الحصينة الاسبانية ، في الاراضي المنخفضة • **ثالثهـا** : اعترف بابـن (جيمس الثاني) المنفي ، ملكا على انكلترة عند وفاة ابيه ، الذي طرد مـن عرش انكلترة ولجـأ اليـه •

لم يسع اوربا ان تقبل الوضع الخطير المخل بالتوازن الدولي ، الذي يجعل تاجي فرنسا واسبانيا ، متحدين يوما ، على رأس واحدة ، هي الرأس الفرنسية ، ولم يسعها كذلك ان تقبل احتكار التجار الفرنسيين للسوق الضخمة في امريكا الاسبانيـة •

ولذلك فقـد كونت انكلتـرة ، والامبراطورية ، والاراضي المنخفضـة ، « **تحالف لاهاي الكبير** » الذي اعلن الحرب عام ١٧٠٢ على فرنسا • وقد انهـزم الفرنسيون في بادىء الامر ، حتى ان فرنسا كلها اكتسحت عام ١٧٠٨ ، وباتت على وشك الاستسلام . كما استولى الانكليز على (جبل طارق) و (برشلونة) ، وطرد (فيليب الخامس) مـن مدريد • ولكـن فرنسا عادت فجمعت قواهـا ، واستطاعت ان تحرز النصر عام ١٧١٢ ، كما تمكن (فيليب الخامس) من استعادة مملكته اسبانيـا •

واخيرا وقدا تعبت الحرب الجميع، وقع صلحان ، انهاء لهـا : **الصلح الاول صلح (اوترخت) عام ١٧١٣ .** وهو بين فرنسا من طرف ، وانكلترة ،وهولندة ، من طرف آخر ، **والثانـي** بين فرنسا والامبراطور، وهو صلح راشتات عام ١٧١٤. وبموجب الصلحين يبقى « فيليب الخامس » ملكا على اسبانيا ، شريطة ان يتنازل عـن عـرش فرنسا ، وان يعطي للنمسا كـل الممتلكات الاسبانية في الاراضي المنخفضة ، وايطاليا (ميلانو ، نابولي ، سردينيا) ، وان يتنازل للانكليز عـن (جبل طارق) ، ويسمح لهم بالقيام ببعض تجارة مع المستعمرات الاسبانيـة في امريكا . أما صقلية فتعود الى دوق سافوا .

وفي هذين الصلحين فقدت فرنسا بعض الحصون على الحدود مع الاراضي المنخفضة،وتنازلت عن (الارض الجديدة)، و (اكاديا) ،و (خليج الهدسون) في امريكا الشمالية ، لانكلترة .

واهم من ذلك ، لقداضطر (لويس الرابع عشر) ان يتراجع امام اوربا ، التي تحالفت ضده . واذا كانت فرنسا قد خرجت من الحرب ، ولم تفقد اجـزاء من ترابها ، فانها خرجت منهكة اقتصاديا ، واجتماعيا ، وقد فقدت سيادتها علـى اوربـــا .

وفي الواقع لم يدرك (لويس الرابع عشر) ان للقوة البحرية ، والاستعمارية وزنا لا يقل ابدا عن وزن الجيوش البرية ، والسيادة على القارة . ولذلك فـان انكلترة التي كانت تطمح لسيادة البحار ، انتصبت قوة عاتية في وجـه فرنسا ، وكانت هي الدولة ذات النفوذ الاقوى في اوربا ، والعالم ، في القرن الثامـن عشر .

٣ ـ حروب اوربا مع الدولـة العثمانية

ان الحروب بين الدولة العثمانية والعالم الاوربي ، لـم تتوقف في القـرن السابع عشر ، على الرغم من مظاهر الصداقة ، التي كانت تبديها بعض الـدول

الاوربية ، كفرنسا مثلا ، لتلك الدولة . فبعد ان انتهت الحرب بين الدولة العثمانية واسبانيا في عام ١٥٨٥ ، عادت ثانية الى الاشتعال بين النمسا ، والدولة العثمانية، واسبانيا في عام ١٥٩٣ ، ودامت حتى عام ١٦٠٦ . وقد تمكنت الدولة العثمانية ، من الانتصار على النمسا في معركة (اكري) (قرب ايرلاو في المجر) ، الا انها لم تنجح في حسم الحرب نهائيا، بسبب انشغالها بالحرب مع فارس ، التي استطاعت بدورها ان تستعيد قسما من المدن التي فقدتها سابقا . واخيرا وقعت مع النمسا صلح « تزيتفا توروك Zsitva - Torok »، وهو اول صلح توقعه الدولة العثمانية خارج القسطنطينية . وبموجبه ، يترك النمسويون مقاطعة «ترانسلفانيا» لحليف الاتراك « بوكسكه Bocskay » ، وتعفى النمسا من دفع الجزية عن حصتها المتبقية لها من هنغاريا (المجر) .

وعندما وقعت « حرب الثلاثين عاما » في اوربا ، ارادت الدولة العثمانية ان تستغلها ، الا ان جيشها كان غير قادر على الحرب ، على جبهتين : فقد كان عليه ان يحارب ضد الفرس الشيعة الصفويين في الشرق ، وضد اوربا في الغرب . الا ان السلطان « مراد الرابع »(١٦٢٣-١٦٤٠) قرر ان يضع حدا لحرب الشرق، فوجه قواته كلها ضد فارس ، واستعاد مدينة بغداد عام ١٦٣٨ . وجاء بعده حكم « ابراهيم الاول » (١٦٤٠-١٦٤٩) ، الذي قرر ان ينتزع « جزيرة كريت » ، من يد البنادقة . الا ان الحرب ، التي بدأت عام ١٦٤٥ ، دامت ما يقارب ربع قرن ، دون ان تستطيع الدولة العثمانية ان تسيطر على جميع معاقلها ، على الرغم من الرقعة المحدودة للجزيرة ، والمسافة القصيرة التي تفصل الجزيرة عن سواحل آسيا الصغرى . وفي الواقع شرع الضعف يصيب من الدولة العثمانية مقتلا ، ولاسباب عديدة ، منها : ضعف السلاطين ، وسوء جباية الضرائب ، وفساد نظام الجيش الانكشاري ونظام الفرسان ، وتفشي بيع الوظائف ، والوهن الاقتصادي ، الى غير ذلك من امور . فظهر التمرد في صفوف الجيش ، واخذ ينتفض على السلاطين في العاصمة ، وعلى الولاة في الاقاليم . كما عمل على ممارسة الاعمال التجارية ، والحرفية ، الى جانب عمله العسكري ، مما حوله الى فئة بورجوازية ، لها مصالحها الخاصة ، التي تسعى الى تحقيقها . علما انه على الرغم من هذا الضعف الذي اصاب الدولة ، فان الدولة العثمانية بقيت في اعين

الاوربيين عام ١٦٦٠ ، تمثل قوة يخشى بأسها ، وظل كل من يكسب نصرا عليها من امراء اوربا ، وملوكها ، يتمتع بمكانة رفيعة في اذهان الاوربيين • ولهـذا الغرض ، ارسل الملك «لويس الرابع عشر»،ملك فرنسا ، فرقة الى «كاندية » في جزيرة كريت ، لتساعد البندقية في حربها ، واخرى الى هنغاريا ، لتحارب الى جانب جيوش النمسا ، عندما قامت الحرب مرة اخرى بين الدولة الاخيرة والدولة العثمانية عام ١٦٦٣ م • وقد اسهمت تلك الفرقة في النصر الذي احرزته النمسا في معركة « سان غوتار » عام ١٦٦٤ ، وكان من نتائجها « صلح فاسفار Vasvar» وينص على هدنة بين الطرفين لعشرين عاما ، وتمتنع الدولة العثمانية عن التدخل في تعيين امير « لترا نسلفانيا » ، ويصبح هذا الامر من عمل الدويلات المحلية •

الا ان ملكا اوربيا آخر ، بدا وجها اكثر « صليبية » ، وتحقيقا لاماني اوربا المسيحية ، من الملك لويس الرابع عشر ، وهو **ملك بولونيا** « **جـان سوبييسكي** Jean Sobieski» فقد قامت حرب بينه وبين العثمانيين ، نتيجة الغارات على الحدود ، وتنيجة التنافس في السيطرة على اوكرانيا •ومع ان الاتراك توغلوا حتى « ليمبرغ » الا ان الملك البولوني استطاع ان يهزمهم مرتين • وعلى الرغم من هذه الهزائم ، فانه اضطر الى توقيع صلح « زورافنا Zuravna» » ، عام ١٦٧٦ الذي حصل فيه الاتراك على معظم بودوليا ، وعلى اوكرانيا البولونية • وبذلك اصبحوا بتحاك مع روسيا •

وبالفعل قامت اول **حرب عثمانية مع روسيا ١٦٧٧-١٦٨١** اثر **هجمات القوزاق** على الارض العثمانية ، وانتهت بمعاهدة « رادزين Radzin» »عام ١٦٨١ ، التي الزمت الاتراك على التنازل عن معظم اوكرانيا ، وعلى اعطاء (القوزاق) حقوقا تجارية في البحر الاسود •

ان احتفاظ الدولة العثمانية ببعض مظاهر قوتها العسكرية ، على الرغم من الضعف الذي كان ينخر في مؤسساتها الادارية ، يرجع في الواقع الى وجود « أسرة كوبرلي » على رأس الصدارة العظمى • فمحمد كوبرلي (١٦٥٦ — ١٦٦١)، استطاع أن يسيطر على الانكشارية ، باعدام قادتهم الفاسدين ، وطهر البلاط ،

وأصلح الاحوال المالية • وتابع ابنه احمد (١٦٦١ ــ ١٦٧٨) سيطرته على الموقف • وخلف الاخير في الصدارة العظمى ، « قره مصطفى » ، صهره ، وهو وان لم يكن بمقدرة الاثنين اللذين سبقاه ، الا انه كان طموحا • وكان تدخله في المجر ضد النمسا ، سببا لحرب جديدة مع هذه الاخيرة ، استمرت (١٨) عاما (١٦٨٢ ــ ١٦٩٩) •

وقد تحالفت النمسا مع بولونيا ، وملكها « جان سوبييسكي » ، ووصلت جيوش العثمانيين الى أبواب (فينا) عام ١٦٨٣ ، وحاصرتها من ١٧ تموز الى ١٢ ايلول • الا أن جيشا ألمانيا ــ بولونيا موحدا ، استطاع أن يخلص المدينة • وكون البابا « اينوسان الحادي عشر » (عصبة مقدسة) ضد الاتراك العثمانيين ، دخلت فيها البندقية • وقد هاجمت هذه الاخيرة الدولة العثمانية بحرا ، واستولت على كورنثا ، وحاصرت أثينا • واحتل الروس (مدينة آزوف) ، واستولت النمسا على (بودابست) عام ١٦٨٦ • ونتيجة لذلك ، قدم « دييت المجر » في السنة التالية ، تاج « القديس ايتيين » ، وهو تاج المجر ، الى اسرة هابسبورغ ، بشكل وراثي ، وحققت النمسا نصرا آخر في « موهاغز » عام ١٦٨٧ ، واحتلت بلغراد عام ١٦٨٩ •

الا أن الاتراك العثمانيين عادوا فسيطروا على الموقف بعد استلام « مصطفى كوبرلي » الصدارة العظمى عام ١٦٨٩ (وهو أخو أحمد كوبرلي) ، وتمكنوا من دحر النمسويين ، واخراجهم من بلغاريا وترانسلفانيا ،واستعادة بلغراد • ولكن النصر لم يستمر ، فالقوات الاوربية المتضافرة عادت فأوقعت الهزيمة بالدولة العثمانية ، وبخاصة في (معركة زنتا) عام ١٦٩٧ • وانتهت الحرب بتوقيع (معاهدة كارلوتز Karlowitz) عام ١٦٩٩ • وتمثل منعطفا خطيرا في حياة الدولة العثمانية ، يفصح عن الضعف ، الذي أصابها ، وتنص على ما يلي :

١ ــ مدة المعاهدة ٢٥ عاما •

٢ ــ تأخذ النمسا كل المجر (ما عدا بنات تمسفار) ، و (ترانسلفانيا) ، و (كرواتيا) و (سلاڤونيا) •

٣ ـ تأخذ البندقية كل (شبه جزيرة المورة) ، ومعظم (دالماسيا) •

٤ ـ تحصل بولونيا على (بودوليا) •

٥ ـ تنال روسيا (آزوف) •

لم يستسلم العثمانيون لما فرض عليهم في (كارلوتز) ، فعادوا الى الحرب بعد (١٢) عاما ، وكانت موجهة ضد روسيا (١٧١٠ ـ ١٧١١) • وقد أثار الاتراك للقيام بها ملك فرنسا « لويس الرابع عشر » ، وملك السويد « شارل الثاني عشر » ، الذي كان قد فر الى تركيا لاجئا ، بعد هزيمته أمام الروس في (معركة بولتاڤا Poltava) عام ١٧٠٩ • ولقد أظهر قيصر روسيا (بطرس الاكبر) نفسه ، وكأنه بطل تحرير لمسيحي شبه جزيرة البلقان ، من حكم الدولة العثمانية المسلم ، فسعى لاثارة الثورات بينهم ضد الدولة العثمانية • الا انه أحيط عام ١٧١١ ، وعلى نهر « بروث » بجيش عثماني قوي ، وكان عليه أن يفدي نفسه من الاسر •وفي معاهدة « بروث » عام ١٧١١ أجبرت روسيا على التنازل عن آزوف ثانية •

ووجهت الدولة العثمانية قواتها أيضا ضد البندقية (١٧١٤ ـ ١٧١٨) ، وانتزعت منها « كورنثا » في اليونان ، وما كان قد تبقى لها من محطات بحرية في كريت • الا أن النمسا رفدت البندقية ، بمحاربة العثمانيين على الحدود المجرية ، واستطاعت أن تستعيد « بلغراد » عام ١٧١٧ ، وان تعقد صلحا جديدا مع الدولة العثمانية ، هو (صلح بساروينز Passarowitz) • وفقد فيه الاتراك « بنات تمسفار » ، ومنطقة الافلاق الغربية (فالاشيا) الا انها احتفظت بشبه جزيرة المورة •

وهكذا انتهت الحروب الاوربية العثمانية في القرن السابع عشر بتفوق أوربا على الدولة العثمانية ، واقتطاع أجزاء من امبراطوريتها •

٤ ـ الحروب في منطقة البلطيق

لقد بدا في عام ١٦٦٠ أن « بحر البلطيق » قد تحول فعلا الى « بحيرة

سويدية » • فقد سيطرت السويد على معظم أجزائه : فامتلكت « سكانيا » نهائيا ، واجزاء من المانيا مثل بريمين ، وفردن ، وبوميرانيا الغربية ، كما كانت سائدة على الشاطىء الشرقي للبحر ، من فنلندة الى ريغا • وظهرت السويد دولة ذات شأن في السياسة الاوربية ، وتحالفت مع فرنسا في حرب لويس الرابع عشر مع الاراضي المنخفضة • الا أن ملكها « شارل الحادي عشر » (١٦٦٠ ــ ١٦٩٧) ، عمل على اجتياح مقاطعة « براند يبورغ » ، وتمكن « المنتخب الكبير » من هزيمته في معركة « فيربلين Fehrbellin » عام ١٦٧٥ • وكانت هذه الهزيمة ضربة قوية للقوة العسكرية السويدية • وتبع الهزيمة استيلاء « المنتخب الكبير » (أمير بروسيا) على بوميرانيا السويدية ، وعدة مدن تابعة لها في شمال المانيا • ولكن السويد استطاعت أن تسترد ما فقدته ، بفضل تدخل فرنسا ، وفرضها معاهدة « سان جرمان آن له » عام ١٦٧٩ •

وقد تمكنت السويد خلال حكم ملكها « شارل الحادي عشر » أن تثبت « الحكم المطلق » : فقد شل الملك يد « المجلس » ، وأخضع « الجمعية العمومية »، حتى انها أصدرت قانونا عام ١٦٨٠ ، بعودة جميع الاقطاعات الكبيرة الى العرش • وبذلك ضربت الارستقراطية السويدية ضربة قوية •

وعندما وصل « شارل الثاني عشر » الى العرش (١٦٩٧ ــ ١٧١٨) فانه كان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ولكنه أثبت ، بأنه كان أحد العباقرة العسكريين في العصر الحديث • ولقد غطت عصره كله « الحرب الشمالية الكبرى » (١٧٠٠ ــ ١٧٢١) ، التي كانت في الواقع وجها من وجوه الحرب العامة في أوربا ، خلال السنوات الـ (١٥) الاولى من القرن •

وترجع أسبابها لمعارضة روسيا ، وبولونيا ، والدانيمارك ، للسيادة السويدية في منطقة البلطيق : « فبطرس الاكبر » كان مصمما على أن يجعل بلده بلدا بحريا ، وان يستولي على الموانىء على بحر البلطيق • وملك بولونيا ، كان يحلم بضم ليثوانيا الى بولونيا • وملك الدانيمارك ، بالاضافة لرغبته في اضعاف السويد ، كان يحقد عليها ، لتأييدها دوق هولشتاين في صراعه مع الدانيمارك • وقام

تحالف سري بين الملوك الثلاثة عام ١٦٩٩ ، وابتدأت الحرب عام ١٧٠٠ ، باجتياح الدانيمارك لمقاطعة شلزويك ، والبولونيين لليفونيا ، ولكن « شارل الثاني عشر » استطاع أن ينتصر على الدانيماركيين ، والبولونيين ، والروس ، والزم الدانيمارك على الخروج من الحرب . وتابع حربه مع بولونيا ، وتمكن من فرض صلح على ملكها « أغسطس الثاني » عام ١٧٠٦ ، تنازل فيه هذا الملك عن العرش لصالح « ستانيسلاس ليكزنسكي » مرشح السويد لعرش بولونيا .

وبعد ذلك اتجه « شارل الثاني عشر » لمحاربة روسيا . الا انه هزم امام القوات الروسية في معركة « بولتاقا عام ١٧٠٩ » ، واضطر للجوء الى تركيا ، حيث حرضها على حرب روسيا ، وبقي فيها (٥) سنوات حتى ١٧١٤ . وخلال تلك الفترة عاد (الحلف الثلاثي) يحقق مبتغاه ، ويستولي على الممتلكات السويدية ، التي كان يبغيها . ولكن « شارك الثاني عشر » ، عاد الى ملكه ثانية ، عن طريق هنغاريا ، وألمانيا . وعاد لمحاربة خصومه ، روسيا ، وساكسونيا ، وبولونيا ، والدانيمارك ، وبروسيا ، وهانوڤر (مقاطعة ألمانية شمالي ألمانيا) ، التي تحالفت كلها ضده . وسقط ملك السويد صريعا خلال حملة حربية على النرويج عام ١٧١٨ ، وخلفته على العرش أخته « اولريكا اليانورا » (١٧١٨ ــ ١٧٢٠) . وصفيت حرب الشمال بثلاث معاهدات ، خرجت فيها السويد ، وقد احتفظت ببوميرانيا ، وبفنلندة ، وسكانيا . وضمت روسيا استونيا ، وليڤونيا ، ومقاطعات أخرى . كما ربحت بروسيا جزءا من بوميرانيا . وتنازلت الدانيمارك عن كل فتوحاتها ، مقابل غرامة مالية كبيرة . وسمح لهانوفر بضم « ڤردن » ، مقابل دفع تعويض مالي للسويد .

ان النتيجة الكبرى لهذه الحروب الطويلة ، والطاحنة ، كان تحطيم السيادة السويدية في بحر البلطيق ، وظهور روسيا دولة أوربية قوية .

الخاتمة

وعند الخروج من دراسة القضايا السياسية في القرن السابع عشر ، تتبدى حقيقة جديدة ، لم تكن ظاهرة في القرن السادس عشر ، وهي أن « سلطة الحكام

الوراثيين » قد أخذ يضعف شـأنها • وهـذا يتضح بدكتاتورية كروموبل في انكلترة ، وسيادة ريشليو ، وكولبير في فرنسا • فرؤساء الدول الفعليون هؤلاء ، هم من نوع جديد • ومع انهم كانوا مدفوعين غالبا ـ كما هو حال الملوك الذين حلوا محلهم أو نابوا عنهم ـ بدوافع شخصية ، الا انهم أظهروا انقيادا أكبر للمصالح العامة للامة ، التي حملتهم السلطة ، أو ساعدتهم في الوصول اليها • فكان لهم اذا « حقوق » ، بصفتهم يمثلون الى حد ما « **الراي العام** » • تلـك القوة التي لم تكن الحكومات لتهتم بها في الماضي ، الا انها بدأت تسمع صوتها حتى في الشؤون الدولية • وفي الحقيقة لم تلعب هذه القوة في القرن السادس عشر دورا ، الا في انكلترة ، حيث كان لها ممثلون شرعيون • فهنري الثامن ملك انكلترة ، وبطل الاصلاح الديني فيها ، ماكان بامكانه الوصول الى النتائج المتطرفة لحادث طلاقه ، لو ان سياسته لم تنـل موافقة المثلين الذين انتخبتهم الامـة الانكليزيـة •

أما فرنسا ، فانه لم يكن لتظاهرات (الرأي العـام) فيها ، تلك القـوة القاهرة : فالسياسة الخارجية مجال ، لا تغامر فيه « الجمعية العمومية » ، التي تمثل طبقات الشعب • إذ أن تلك السياسة هي حكر للملك دون غيره • الا ان المنشورات الشعبية أخذت تتـرى ، لتكون قيـدا ، أو دعما ، لسياسة الملـك الخارجية • وقد تنامت هذه المناقشات العلنية حول السياسة الخارجية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، أي خلال فترة (حرب الثلاثين عاما) •

وتلاحظ ظاهرة اخرى جديدة في القرن السابع عشر ، يمكن ضمها الى ظاهرة بدء « مشاركة الرأي العام » ، وهي **استخدام الصحافة** ، في مناقشة القضايـا الدولية • ولم تكن فرنسا وحدها في هذا المجال ، فقد ظهرت في بعض أنحاء أوربا الصفحات الاولى ، للدوريات الاسبوعية ، التي بشرت بـ « عصر الصحافة » • فخلال عـام ١٦٠٩ ظهـرت تلـك الدوريات في ستراسبورغ ، واوغسبورغ ، وأمستردام • وفي الواقع ان (**الراي العام**) كان متعطشا للتعرف على الانباء ، ومشجعا لتلك البدايات الصحفية • ولاقى هذا التجديد نجاحا كبيرا ، وامتـد بسرعة نحو مدن اخرى ، في المانيا ، والاراضي المنخفضة • الا ان العواصم الكبيرة

لم تتبع هذه الحركة إلا متأخرة نسبيا ، فلم يكن للندن صحيفتها الا في عام ١٦٢٢ ، وباريس في عام ١٦٣١ .

ولكن لابد من الاشارة الى أن تأثير (الرأي العام) ، وقد استوحى ردود فعله غالبا من الشعور القومي « الغريزي » للجماهير ، لم يكن ليمارس بشكل عام ، في صالح تقارب الدول واتحادها ، وانما في تحقيق وتعميق خلافاتها . ولم يكن هذا (الرأي العام) قادرا ، على اقتراح حلول ناجعة لآلام الحرب ، التي تعود كل مرة لتكتسح القارة . إذ بقي أمر الحرب والسلم ، منوطا برجال الدولة . هذا علما بأن مآسي الحروب ، في القرن السابع عشر ، كانت ذات نتائج خطيرة ، في حياة الدول : من نقص في عدد السكان ، واقفار للقرى ، والارض الزراعية ، وخراب ودمار في كل ركن .

ولم يجد رجال الدولة ، من مبادىء لسياستهم الخارجية ، سوى (توازن القوى) . ومن ثم ، فان هذا المبدأ ظل سائدا في القرن السابع عشر ، ولا سيما عندما قام لويس الرابع عشر ملك فرنسا بتوسعه ، وحروبه . فالحفاظ على (التوازن الاوربي) في السيادة الاوربية ، كانت كلمة النداء المشترك لجميع خصوم القوة الفرنسية . ويبقى هذا المبدأ عنصرا أساسيا في العلاقات الدولية حتى في القرن التالي ، والقرون بعده .

وأخيرا ، أغلق القرن السابع عشر (قرن الازمات في أوربا) ، وخرجت منه فرنسا (سيدة ذلك القرن) ، وقد تضعضعت قواها ، وبدأت المعارضة تشتد على الحكم الاستبدادي المطلق الذي سعى لتثبيته الملك لويس الرابع عشر . كما أن انكلترة خرجت منه ، وقد دعم فيها (النظام الحر) ، وغدت نموذجا سياسيا يطمح للوصول اليه مفكرو فرنسا . ونقيض هذا الاتجاه التحرري ، كان يشاهد في الدويلات الالمانية ، وروسيا : « فالنظام الاستبدادي المطلق » كان يرسخ قدمه فيها . وقد بقيت المانيا مجزأة ، الا ان الصراعات الدينية هدأت .

ومن الناحية الاجتماعية ، بدأت شروط الحياة تتحسن ، على الرغم من اجتياحات الحروب ، وذلك من النصف الثاني من القرن السابع عشر .

ومن الناحية الفكرية تابعت الثورة العلمية خط سيرها الصاعد ، ودعمت فلسفة العقل ، مما سيعطي القرن الثامن عشر تسميته بـ **(عصر الانوار)** .

الباب الثالث

القرن الثامن عشر في اوربا

تمهيـد

القرن الثامن عشر هو الوحدة الزمنية الثالثة من (العصر الحديث) . ويغلق هذا القرن بقيام **الثورة الفرنسية** عام ١٧٨٩ ، التي نظر اليها على أنهـا مطلـع (الحقبة المعاصرة) . ويمد بعض المؤرخين هذا القرن حتى عام ١٧٧٠ فقط ، أي قبـل انبثاق الثـورة الفرنسـية ، أو بالاحـرى ، حتـى بدايـة انطـلاق ثورة (**المستعمرات الانكليزية**) في أمريكا الشمالية ، ناظرين الى ذلك العام ، على أنه بداية (**عصر الثورات**) في **اوربا وامريكا** على السواء ، ذلك العصر الذي دام قرنا من الزمن (١٧٧٠ ــ ١٨٧١) ، وكانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، قمة شامخة فيه . فالوحدة الزمنية الثالثة من العصر الحديث ، لا تكوّن قرنا كاملا بل هي بضع قرن .

وقد أشير سابقا ، الى أن أوربا ، خرجت مـن القرن السابع عشر بعـد الازمات العنيفة التي هزتها ، وقد ارتسم في أفقها بعض معالم التغيير ، التـي ستتسع وتنمو في القرن الثامن عشر ، حتى أن القرن لم يصل الى نهايته ، الا وكانت أوربا قد تخلصت من تقليديتها السابقة ، وقضت على معظـم العوائق ، التي خلفتها العصور الوسطى في بنيتها .وتتمثل عناصر التغيير في **ازدهار اقتصادي** ساعد عليـه استخدام الفحـم الحجري ، والاختراعات التقنية ، التي دفعـت (**التقدم الصناعي**) خطوات كبيرة نحو الامام . وبالتالي أبرزت في الصف الاول

من المجتمع ، (**البورجوازية**) . هذه البورجوازية التي أخذت تطالب بمكانة سياسية تتناسب وأهميتها الاقتصادية ، والاجتماعية . وتبدت عناصر التغيير في هذا القرن أيضا **بفكر جديد** يستند للشك ، أكان بالسلطة الحاكمة ، أم بالله . ويتسم باهتمام شديد بالعلم ، وتطبيقاته ، وبتحكيم العقل في كل مظاهر الحياة ، وباتجاه نحو الحرية ، وتثبيتها في كل ميدان .

الفصل الأول

السمات العامة للتطور في اوربا في القرن الثامن عشر

اولا ـ السمات الاقتصادية

عاشت أوربا في القرن الثامن عشر تطورات هامة دفعت باقتصادها نحو النماء والازدهار •

آ ـ عوامل الازدهار الاقتصادي

ان من الاهتمامات الاساسية التي سيطرت على الفكر الاقتصادي الاوربي في القرن الثامن عشر ، كان الانتاج بكميات أكبر من السابق • ويفسر هذا الاهتمام بالامور التالية :

١ ـ زيادة عدد السكان : ان عدد السكان في أوربا في بداية القرن الثامن عشر ، لم يطرأ عليه تبدل كبير ، عما كان عليه قبل قرنين من الزمن • ومع أنه كانت هناك فترات ازدهار زراعي ، حدث فيها نمو سكاني نسبي ، الا انها لم تدم طويلا لتعوض نتائج الوفيات الكبيرة ، التي رآها القرن السابع عشر • ولكن هذا الحال تغير منذ ١٧١٥ ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر : فقد ارتفع سكان فرنسا من (٢٠) مليونا الى (٢٦) مليونا في ١٧٨٩ • وفي الوقت ذاته ارتفع عدد سكان ايطاليا من (١١) مليونا ، الى (١٨) مليونا ، وانكلترة من (٥) ملايين ، الى (١٠) ملايين ، والشيء ذاتـه يقال عن اسبانيا • وتضاعف عـدد سكـان بروسيا ، ورأت روسيا تزايدا متسارعا ، وبنسبة أكبر مما كانت عليه في أوربا • وبالمجموع تزايد عدد سكان أوربا في ثلاثة ارباع القرن ، (٧٠) مليونا ، أي بعد

أن كان في عام ١٧٠٠ ، (١١٨) مليونا ، غدا في عام ١٧٨٩ (١٨٧) مليونا ، أي بنسبة تفوق ٥٠٪ •

ولا يرجع هذا (التفجر السكاني) الى زيادة في نسبة المواليـد ، فهـذه النسبة بقيت مرتفعة كالسابق ، وبلغت ٠٤٠٪ أي (٤٠) طفلا في السنة في الف من السكان • الا ان الجديد هو النقص الكبير في الوفيات • وسبب ذلك تقـدم الطب ، والجراحة ، على الرغم من أن هذا التقدم بقي بطيئا ، حتى ان بعـض الاجتماعيين يهمل أثره • إذ ان الجراحين في أواخر القرن السابـع عشر ، كانوا لا يزالون يمارسون عملهم في دكاكين الحلاقين • ومع ذلك ، لابد ان يعترف ، بأن الجراحة قد تطورت عندما وجد تعليم متخصص في ميدانها ، وأسست في فرنسا (أكاديمية الجراحة) في عام ١٧٣١ • وهؤلاء الجراحون ــ وقد انصرفوا الى ميدان الملاحظة المباشرة لجسم الانسان ــ هم الذين دفعوا الطب قدما ، وجعلوه يحقق تطوره نحو الاعلى • ومن أمثال هؤلاء الانكليزي (جنر Jenner) ، مكتشف لقاح الجدري •

ان العنصر الاساسي والحاسم في الزيادة السكانية ، في الحقيقة ، هـو التحسن البطيء والمستمر لمستوى الحياة ، وتقهقر الجوع • من المؤكد ، أن مشكلة توفير المواد الغذائية ، بقيت مشكلة تشغل بال الاوربي ، ولاسيما في المـدن • وظلت المواسم الزراعية السيئة تجر معها الارتفاع الكبير في الاسعار ، وبصفـة خاصة في الفترة التي تكون حبوب الموسم السابق قد استهلكت ، ولما تطرح بعد حبوب الموسم الجديد (تموز ــ آب) • وما فتيء الجو الاقتصادي مهيئا لظهور تحركات ثورية من أجل الغذاء ، ولقمة العيش • ولكن اذا ما أريد الحديث عن المجاعة ، فان المجاعات الكبيرة قد زالت تدريجيا • ولعل ذلك يعوذ الى أسباب مناخية : فبعد الشتاء القاسي عام ١٧٠٦ ، مرت أوربا بمرحلة طويلة من الدفء ، كانت كافية للتخفيف من المواسم الزراعية السيئة • الا ان السبب الهام بالدرجة الاولى هو التحسينات ، التي كانت من عمل الانسان ، وكانت نتيجة للتغييرات التي أجراها الفلاحون الاوربيون ، وبجهد دؤوب ، لزيادة انتاج أرضهم ، واصلاح

الجديد من تلـك الارض • ومثلما اختفت المجاعات المميتة ، **تضاءلت الاوبئة ،** بل ان الطاعون زال تماما من عام ١٧٢٠ م •

وكان من نتائج زيادة عدد السكان ، السعي لزيادة الانتاج : فالصناع والحرفيون وجدوا عددا أكبر من المستهلكين ، وأقل فقـرا ، وأكثر استعدادا لدفع سعر أعلى ، ثمنا للسلع التي يطرحها المنتج في السوق •

٢ – **رؤوس الاموال الوفيرة :** منذ القرن السادس عشـر فتحت التجارة البحريـة الكبيرة أمـام الاوربيين أبواب تكديـس رؤوس الاموال • الا ان المستفيدين من ذلك ، لم يكن جميع الاوربيين • ومع أن البحر المتوسط احتفظ بدور هام في التجارة مع الشرق ، فان أكثر البلاد المغتنية من تلك التجارة ، كانت تلك المطلة على شواطىء الاطلنطي ، وبحـر الشمال : كانكلترة ، وفرنسـا ، والمقاطعات المتحدة ، وغـيرها • وكان تجارهـا يشترون التوابل ، ومنتوجات المستعمرات من القهوة ، والسكر ، والروم ، والقطن ، ويبيعون مقابلها في بـلاد آسيا وامريكا منتوجات صناعتهم • الا أن أكثر ما كان يدر الارباح مـن تلك التجارة ، ما كان يسمى بـ **(التجارة المثلثة)** : وفيها كـانت المراكب الاوربية تحمّل بسلع غير ذات قيمة كبيرة ، كالاسلحة والكحول ، وتنطلق مـن موانىء انكلترة ، وفرنسا ، وهولاندة ، الـى الشاطىء الافريقي الغربي ، حيث تبادل حمولتها بعبيد سود • وكانت تلك المراكب تحمل هؤلاء الى أمريكا ، في شروط رهيبة ، وقد كدست المئات منهم في قعر السفينة ، دون غذاء ، مما كان يؤدي الى وفيات كثيرة بينهم ، قد تصل الى ٣٠٪ من عددهم • وكان يباع المتبقـي منهم ، لملاكي المزارع الواسعة في أمريكا ، وبخاصة التي تزرع قصب السكر • وبثمن أولئك العبيد ، كان النخاسون يشترون مـن أمريكا التبغ ، والسكر ، والروم ، وغيرها • ويعودون ، فيبيعونها بأرباح خيالية في أوربا • وهذه التجارة التي أخذ بعض الاوربيين في ذلك القرن يشمئز منها ، كانت أساس ثروة كثير من كبار الرأسماليين في شمالي غرب أوربا •

ان تزايد عدد السكان ، الذي رافقه طلب كبير على مختلف المنتوجات ، والتحسن البطيء لمستوى الحياة ، وسهولة الحصول على اسواق تجارية خارج

أوربا ، كل ذلك كان عاملا في **ارتفاع الاسعار** . وهذه الظاهرة ، تميز الثلثين الاخيرين من القرن الثامن عشر • ولابد أن يضاف الى أسباب غلاء الاسعار تلك ، عنصر اساسي ، وهو **تدفق الذهب والفضة** على أوربا ، بعد اكتشاف مناجم جديدة للذهب في أمريكا الوسطى ، والبرازيل • فتزايد حجم النقد ، بسرعة تفوق تزايد كتلة السلع المطروحة للتبادل ، ولا سيما ان **النقد الورقي** كان قد ظهر ، وبصفة خاصة في انكلترة • وساعد ارتفاع الاسعار ، الطويل الامد ، على نمو الانتاج : لان أرباب العمل حصلوا على أرباح كبيرة ، حفزتهم على زيادة الانتاج ، أكثر فأكثر • ان الحاجة لصنع كميات وافية من المنتجات ، وبسرعة ، يفسر لهفة الناس في القرن الثامن عشر ، للبحث عن تقنيات صناعية جديدة •

٣ ـ بدايات ثورة تقنية : يفتتح القرن الثامن عشر في تاريخ الحضارة الاوربية **(عصر الآلة)** ، وبخاصة في بريطانيا ، التي سبقت بقية أوربا في هذا الميدان • وان أكبر تقدم تقني تم فيها ، كان في الدرجة الاولى في **حقل (الميكانيك)** ، أي في **حقل الالات** المصممة لزيادة مردود العمل البشري ، أكان ذلك في المصانع الصغيرة أو الكبيرة • ففي **الصناعة النسيجية** مثلا ، كان هناك سباق كبير بين منتجي الغزل والنساجين • وكانت المشكلة بالنسبة للنساجين تتركز في ارضاء طلبات السوق ، تلك السوق الواسعة ، التي كانت ستتسع أكثر فأكثر ، اذا ما خفضت الاسعار ، وبيعت السلع بسعر أدنى مما يبيعها به الحرفيون الآسيويون ، الذين اعتادوا على مستوى منخفض من الحياة ، وملكوا في الوقت ذاته مهارة يدوية كبيرة •

ففي عام ١٧٣٣ صنع « جون كه J. Key » ، وهو نساج انكليزي (المكوك الطائر) مما سمح بالسرعة في النسيج ، وبنسج قطع أعرض مما كان يفعله النول الخشبي التقليدي • وقد حقق هذا الاختراع سبقا كبيرا لعملية النسيج على عملية الغزل ، مما دفع العاملين في حقل الغزل الى استبدال (آلات الغزل) الحديثة بالدولاب التقليدي القديم • وكان ان اخترع « هرغريفز » ، وهو نساج ونجار حاذق ، « آلة الغزل » (جيني Jenny) في عام ١٧٦٧ • وهي اطار يحمل ثمانية مغازل ، وزوجا من الملاقط ، تحل محل الايدي في التقاط

الخيوط وتوجيهها ، بحيث يتيسر لعامل واحد أن يدير العجلة ، ويحرك الملاقط ، فتغزل ثمانية خيوط مرة واحدة .

ثم ظهر اختراع « اركرايت » وهو حلاق وتاجر للمواشي ، فصنع آلة ، تسحب الخيوط بين زوجين من الاسطوانات ، ثم تحولها الى خيوط متينة ، بمغازل متحركة . وكانت تدار بالخيول اولا ، ثم بقوة الماء ، ومن ثم اطلق عليها اسم « الاطار المائي «Waterframe » . وقد استخدم هذا الجهاز الكبير الحجم في المصانع الواسعة . ولما كانت الخيوط التي انتجتها (جيني) رفيعة وضعيفة ، والتي غزلها (الاطار المائي) غليظة وقوية ، فقد قام « كرومتون «Crompton » بصنع الآلة التي اطلق عليها اسم (البغلة Mule-Jenny)) . وكان بامكانها ، ان تغزل في وقت واحد ، الفي خيط . ولا يزال تصميمها العام هو الاساس في آلات الغزل المعاصرة .

ونتيجة ذلك الاختراع في ١٧٧٠ ، اصبح الغزل يطغى على حاجة النساجين . فعكف (كارتريت Cartwright)) ، في ١٧٨٥ ، وهو قس من الكنيسة الانغليكانية ، على اختراع (نول آلي) . ونجح في ذلك ، واصبح منذ عام ١٧٨٩ يتحرك بقوة البخار . الا ان هذا النول لم يستخدم على نطاق واسع الا منذ ١٨٢٠ ، بعد أن ادخلت عليه تحسينات كبيرة .

ورافق ذلك التقدم الكبير في (الغزل ، والنسيج) مخترعات اخرى آلية ، لتبييض النسيج وصباغته ، مما ادى الى **توسع الصناعة النسيجية ورقيها** .

وفي **ميدان صناعة التعدين** تمت خطوة حاسمة في عام ١٧٣٥ ، عندما اخترع اثنان من معلمي صناعة الحديد الانكليز ، وهما (الدربي Darby) **طريقة صناعة (الحديد المصهور)** ، لا باستخدام فحم الخشب ، وانما **باستخدام فحم (الكوك)** . وقد ادى ذلك الى تثبيت الصناعات المعدنية ، على احواض الفحم الحجري ، للاستفادة من انتاجها مباشرة .

الا ان اكبر الفتوحات الحضارية في القرن الثامن عشر ، كان هو **استخدام الآلة البخارية** التي عرفت منذ اواخر القرن السابع عشر . وكان هذا من عمل

الانكليزيين (نيوكومين Newcomen) اولا ، ثـم (واط J. Watt) ثانيا • فقد اوجد (واط) عام ١٧٨٤ بعد دراسته للامر (الآلـة ذات العمل المزدوج) ، أي جعل البخار يعمل على وجهي الاسطوانة (البيستون) ، فحصل على حركة ذهاب واياب ، حوّلها الى حركة دائرية مستمرة • وهذا ساعد على استخدام الآلة البخارية ، في تحريك الآلات الصناعية ، بينما كان ذلك مقتصرا على ضخ المياه من المناجم • الا ان انتشارها لـم يتم ، الا في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر •

وقد سعى بعض الفرنسيين ، في اواخر القرن الثامن عشر ، الـى استخدام القوة البخارية في وسائل النقل ، الا انهم لـم يفلحوا • وقـد تابـع تجاربهـم (فولتون) في مطلع القـرن التاسع عشر ، ونجح في استخدام البخار في تسيير السفـن •

ويلاحظ ممـا ذكر سابقا ، ان الاختراعات لم تكن كلها مرتبطة بالحاجات المباشرة للصناعة ، وهذا ينطبق على (الملاحة الجوية) التي بدأ العمل في ميدانها في فرنسا في اواخر القـرن الثامن عشر : ففـي ١٧٨٣ تمكن (بيلاتردو روزيـه Pilatre De Rozier) و (الماركيز دارلانـد D'Arlande) ان يحققـا اول صعود في الجو ، على الآلة التي صنعها الاخوان (مونغولفيه Montgolfier)• وفي السنة نفسها صعد الفيزيائي (شارل Charles الى ارتفاع ٤٠٠٠ م ، في (بالون) مملوء بالهيدروجين • وبعد عامين اجتاز (بلانشار Blanchard) بحر المانش على (مركبه الطائر) •

ب ـ مظاهر التقدم الاقتصادي :

١ ـ في ميدان الزراعة : ظل الماضي يرزح بثقله على الزراعة : فالفلاح لـم يكن يعمل الا ليقيم اوده ، ويحصل على كفايته فحسب • ومن ثـمّ فانه كـان لا يزرع في ارضه سوى (الحبوب) التي هي اساس غذائه • ولمـا كان لايملك الماشية الكافية ، فانه لـم يكن لديه من السماد الطبيعي الحيواني ، ما يسمح لـه بزيادة مردود الارض ، او بتحويل الاراضي ذات التربة الضعيفة الى حقول•

وفي افضل الظروف ، لم يكن ليأمل ان يحصل على اكثر من خمسة اضعاف الكمية التي بذرها ، ولا ان يتجاوز مردود الهكتار (٨ـ٩) كنتالات • هذا بالاضافة الى تعلقه بالعادات الزراعية القديمة ، ولجوئه الى اراحة الارض ، أي تركها دون زراعة كل سنتين ، او كل ثلاث سنوات • الا ان تلك الصورة بدأت تتبدل وكانت اسرع التطورات واوسعها في انكلترة : **فحركة تسبيج الاراضي الزراعية ،** التي توقفت قليلا في اواخر القرن السابع عشر ، عادت فتسارعت حوالي ١٧٤٠ • وامتدت الملكيات الواسعة على حساب الملكية الصغيرة **واستخدم اصحابها تقنيات حديثة :** محاريث حديثة ، واسمدة ، ومروج صناعية (عندما تكون الارض قاحلة يزرعونها عشبا ويتركون مواشيهم ترعاه وهو على الارض وبذلك تتحسن تربة الارض من زبل الحيوانات ومن العشب) ، ونباتات تغني التربة بدل استهلاكها ، كاللفت ، والشوندر السكري •

وقد اتبعت (المقاطعات المتحدة) الاساليب نفسها ، الا ان التقدم كان بطيئا في بقية انحاء القارة ، وجزئيا • ولكن النباتات الجديدة ، الآتية من امريكا انتشرت ، كالذرة والبطاطا ، مما ساعد على تحسين الماشية ، كما استخدمت بدل القمح في غذاء الفلاح •

ويضاف الى تلك التطورات ، ان بعض الفلاحين اخذوا يزرعون اكثر من حاجتهم ،ويبيعون الفائض في الاسواق المجاورة ، ويشترون بثمن ما يبيعون ، ادوات حديثة ، كالمحراث الجديد ، والمنجل ، مما زاد في المردود ، ونمى الارباح • فاوربا اذا في أواخر القرن الثامن عشر ، **اخذت تسير في طريق الثورة الزراعية**

٢ ـ **في الصناعة :** ان رؤوس الاموال المتجمعة من التجارة ، والمتكدسة في (المصارف) ، سمحت للصناعة ، **بالخروج جزئيا من النطاق الحرفي ،** الذي كانت تعيش ضمنه • وقد ادى السعر المرتفع للآلات ، الى جعل الحصول عليها صعبا ، بالنسبة لصغار معلمي الحرف ، الذين كانوا بدورهم خاضعين للقيود الشديدة **للنقابات •** بل ان اقتناءها كان مستحيلا ، بالنسبة للعاملين الصغار في

الارياف ، والمدن • ومن ثـم كان ضروريا ، تجميع العمـال في **مصانع مجهزة بالآلات الميكانيكية الحديثة** ، بمـا فيها الآلات البخارية ، وقادرة على انتاج كميات وفيرة باسعار افضـل •

ان ان هذا التطور لم يمس جميع بلاد اوربا : فدول اوربا الشرقية كانت تجهله تمامـا • وفي فرنسا ، استمرت الحرف في عملها ، معتمدة على قـوة الانسان ، او الماء • وكانت تقدم صناعات حسنة ، وانما اسعارها مرتفعة ، ونتاجها قليل ، ما عدا الصناعة التعدينية في الالزاس ، التي انتجت عام ١٧٨٥ (الحديد المصهور بالفحم الحجري) • هذا في الوقت الذي كانت فيه **انكلترة** تسير فـي (**ثورتها الصناعية**) • ففي نهاية القرن ، كانت احواض الفحم فيها ، التي تركزت عليها صناعاتها الثقيلة ، تنتج عشرة ملايين طن من الفحم • وكان فيها عام ١٧٩٠، (١٢٠)فرنا عاليا ، تنتج (١٢٥ر٠٠٠) طن من الحديد المصهور ، وهو رقم كبيـر بالنسبة لذلك العصر • وبالطبع تقدمت الصناعة النسيجية ، بفضل الاختراعات المشار اليها ، الصوفية منهـا والقطنية ، ولا سيمـا ان الحكومة منعت استيراد المنسوجات القطنيـة من الهنـد • وظهرت صناعات جديـدة كصناعة الزجاج ، والخزف•وفي الوقت نفسه، انتظمت شبكة المواصلات ، ونمت الموانىء بسرعة ، وبخاصة ميناء لندن ، وليفربول ، وبريستول • وبذلـك **غدت انكلترة اول قوة صناعية في العالم** ، وسبقت منافساتها من الدول الاوربية بنصف قرن تقريبا •

٣ – **في التجارة** : لقد عرفت التجارة الاوربية ، في القـرن الثامن عشر ، نشاطا لـم تعرف مثلـه في العصور السابقـة ، وبخاصة **(التجارة البحرية)** • فكل التجارة الكبيرة ، كانت تجري على البحار ، لان النقـل البري بقي بطيئـا وكثير التكاليف • وكان المحيط الاطلنطي ، والهندي ، هما اللذان جذبا انظـار التجار • أما المحيط الهادي ، فكان موضع اهتمام المستكشفين • وفي المحيطين الاولين كانت تتـم (التجارة المثلثة) ، التي اشير اليها سالفا •

وفي الواقع ان التجارة بين دول اوربا والمستعمرات ، كانت عصب تلـك التجارة البحرية • فالاوربيون كانوا يأتون بالشاي ، والمنسوجات الحريرية ،

والتوابل ، من جزر الهند الشرقية . وكانوا يتاجرون مع (جـزر السكر) أي (الانتيـل) في امريكا المدارية . وكانت تلك الجزر تمـون اوربـا بمنتوجات المستعمرات . ومن البرازيل ، والمكسيك ، كانت تحمل الى اوربا المعادن الثمينة ، ومن كندا ، الفرو ، والجلود . وكانت التجارة مع المستعمرات ، تعتمد علـى المبدأ القائل « بأنه لا يحق للمستعمرة ان تتاجر الا مع الدول المستعمرة » . الا أنه يلاحظ ، ان الاتفاقات التجارية بين الدول ، قد تجاوز أحيانا هذا المبدأ : فالانكليز ، حصلوا في اتفاقية عقدوها مع البرتغال عام ١٧٠٣ ، على انه يمكنهم المتاجرة بحرية كامنة مع المستعمرات البرتغالية ، وانه يحق لهم ، ان يرسلوا كـل عام ، الـى ميناء من موانيء امريكـا الاسبانية ، سفينة بحمولة (٥٠٠) طونو ، وقد اطلق عليها اسم (سفينة التصريح) . وبالمقابل كانت القرصنة نشيطة جدا : فقد كان البحارة الفرنسيون ، والانكليز ، والهولانديون ، يمارسونها بشكل شبه رسمي مع المستعمرات الاسبانية .

تجارة العبيد : قد تكون اكثر السلع المدرة للربح هـي **تجارة العبيد** : اذ ساد الاعتقاد ، ان اليد العاملة السوداء هي اكثر تلاؤما مع مناخ المناطق المدارية والاستوائية ، وهي الوحيدة ، القادرة ، علـى استثمار الجزر المنتجة للنباتات المدارية التي تحتاجها اوربا ، كقصب السكر ، والقطن ، والقهوة ، والكاكاو . وكانت معاملة هؤلاء العبيد سيئة جدا ، فهم يقسرون على عمل منهك دون راحة ، ودون ان يستمتعوا بحياة عائلية ، فهم في بيوت ملاكي المزارع الواسعة ، اشبه بقطع أثـاث . وقد تزايد عددهم في امريكا ، حتى بلغ عدد من نقل منهم مـن افريقيا ، خلال قرنين (١٢) مليونا على الاقل . واذا كانت « تجارة العبيد »احدى دعامات قوة الاقتصاد الاوربي ، فقـد كانت سببا هامـا في اضعاف المجتمعات الافريقيـة .

ومـن منتصف القرن الثامـن عشر ، ظهـرت **(حملة انسانية) في اوربا والمستعمرات** لصالح الزنوج ، وضد نظام الرق ، وتجارة العبيد . وكان ذلـك تحت تأثير الافكار الفلسفية ، والشعور الديني . ولكن المصالح الاقتصادية لملاك المزارع الواسعة في المستعمرات كانت قوية لدرجة ، انها اخضعت لهـا سياسات

الحكومات . وعندما جاء القرن التاسع عشر ، فانـه حقق الغاء تجارة العبيد اولا ، ثـم اتبع هذا بالغاء الرق كله .

ثانيا ـ التطورات الاجتماعية العامة في اوربا في القرن الثامن عشر

قد لا يكون طرأ تغيير ذو بال في « الطبقات الاجتماعية » في اوربا فـي القرن الثامن عشر ، بل يمكن القول ان امرين اجتماعيين هامين ، يميزان هـذا القـــرن :

١ — التفجر السكاني .

٢ — ظهور بوادر مجتمع جديد ، او طليعة مجتمع جديد .

أمـــا (**التفجر السكاني**) فقد اشير اليه سابقا ، وبينت اسبابـه ، وبعض نتائجه ، ولا سيما على الحياة الاقتصادية . وفي الحقيقة لقد اقلقت تلك الزيادة السكانية مفكـري اوربا ، ومنهم الانكليزي (**مالثوس**) (**١٧٦٦-١٨٣٤**) ، فوضع دراسته المعروفة عن زيادة السكان ، واسبابها ، ونتائجها ، واخطارها . الا ان الزيادة السكانية ، في اوربا في ذلك القرن ، كانت في الواقع لصالحها . فبالاضافة الى حفزها للاقتصاد الاوربي ، وللفكر ، والتقنية ، اوجدت **تجددا في هرم الاعمار** . فغدت اوربا ، قارة تضاعف فيها عدد الشباب ، بمـا يتصفون بـه من حركية وجرأة ، ومغامرة ، وحيوية ، وتجديد في ميادين العمل ، والفكر ، ولقد لوحظت السن المبكرة ، التي نبغ فيها كثيرون في اوربا في القـرن الثامن عشر : (ففردريك الاكبر) ، لم يكـن الا في الثامنة والعشريـن من عمره عندمـا اجتاح سيليزيا . وتبدت العبقرية العسكرية (لشارل الثاني عشر) ملك السويد ، في الخامسة عشرة . وابتدأ (موزار) عزفه العبقري ، وهو لا يزال طفلا . ودخل (لافوازيه) اكاديمية العلوم في الخامسة والعشرين . واخترع (واط) الآلـة البخارية في الثامنة والعشرين ..... الخ ، ويبدو **اثـر هذه (الزيادة الشابة) في الثورات** ، التي اندلعت في اوربا ضد النظم التقليدية القائمة ، واهمها (الثورة الفرنسية) . كما ان هذه الزيادة جعلت اوربا اكبر مصدر للبشر ، وللافكار ،

وللتقنية الى انحاء العالم ، فغدت تلعب دور المسيّر للحياة الاقتصادية والسياسية فيها .

أما السمة الاجتماعية الجديدة في المجتمع الاوربي في القرن الثامن عشر ، فهي ظهور **بوادر قيم اجتماعية ، مغايرة للقيم السابقة** : فقد خلفت الثورة في الاسعار ، وفي الديموغرافيا ، وفي الصناعة ، آثارها على المجتمع الاوربي . فقد نمت في المدن ، والموانىء الكبرى ، مجموعات اجتماعية كانت موجودة سابقا ، كالتجار ، والصناع ، وملاكي المناجم ، والمصرفيين ، والماليين ، واصحاب السفن . وكان نمو رؤوس اموالها سريعا ، بسبب غلاء الاسعار . وهذه المجموعات هي التي كانت تكون (**الطبقة البورجوازية**) . وفي الوقت ذاته ارتفعت قيمة (اصحاب الكفايات والمواهب) : كالادباء ، والمهندسين ، والاطباء ، والفنانين ، والموسيقيين ، ومن ثم ، فان مبدأ التقويم الاجتماعي ، المعتمد على وضع (القدرة على استخدام السلاح) في اعلى سلم القيم الاجتماعية ، قد تضعضع ، ان لم يكن قد اهتز تماما . اذ ان العقلية العامة ، لمجتمع القرن الثامن عشر ، اخذت تصنف الناس ، والمجموعات بحسب مبادىء اخرى ، وهي : (الثروة) ، و (الدور الذي يلعبه الانسان في مجال الانتاج ، وتبادل الاشياء المادية) . فبدلا من ان يوضع (المحارب) في مقدمة المجتمع ، فانه قد احل محله (الصناعي) ، و (التاجر) ، و (اولئك الاغنياء ، المفيدين لمواطنيهم) . وهكذا اخذ (البورجوازي) مكان (النبيل) .

وكلما كانت هذه القيم الجديدة تترسخ جذورها في عقلية المجتمع ، فان مجتمع الفئات الثلاث (النبلاء ، ورجال الدين ، والشعب) ، السائد آنذاك ، اخذ يبدو اطارا شرعيا مفرغا من لبه ، وغير متآلف البتة مع الحقائق الجديدة . ومن ثم كان لا بد من تجاوزه : فالطبقة البورجوازية الجديدة ، التي تنامت عددا ، وثروة ، كانت تريد (اعترافا شرعيا) بوجودها ، وذلك باعادة توزيع السلطات السياسية ، بحسب التطبق الاجتماعي الجديد . واذا كانت الامور قد سارت في انكلترة مثلا في طريقها الصحيح ، وبشكل تدريجي ، فانها في فرنسا ،

والبلاد الاوربية الاخرى ، اكتست طابع الثورة ، والعنف • والثورة الفرنسية عـام ١٧٨٩ ، شاهد قوي على ذلك •

ويجب الا ينسى في المجتمع الاوربي ، في اواخر القرن الثامن عشر ، فئـة اجتماعية جديدة ، تزايدت في العدد ، وتكاثفت بصفة خاصة في المدن ، وهـي طبقة **(العمال)** • وكانت تمثـل (بروليتاريا) حقيقية ، لا يحميها قانـون • وقد دفعها عدم وجود عمل لهـا الى التشرد ، والى بؤس رهيب • وقد تدفقت هذه الفئة من الارياف ، لتعمل في (المصانع) ، وكانت تضم رجالا ، ونساء ، واطفالا • وتلاحظ هذه الطبقة ، في انكلترة بالذات ، حيث حدثت (الثـورة الصناعية) • الا ان هذه الطبقة ، لن تلعب دورا هاما ، الا في القرن التالي •

ان ما ذكر سابقا ، عن تطور المجتمع في اوربـا ، يخص في الواقع المجتمع **الاوربي الغربي** ، الذي تتوقف حدوده عند نهر (الالب) •

أما في **الشرق الاوربي** فكل شيء كان مختلفا : اذان اغلبية السكان ، كانت من اقنان الارض ، الملزمين على (السخرة) ، لصالح الاقطاعي • فهو اذا يملكهم كما يملك الماشية ، ويمارس عليهم السلطة العامة ، ويحاكمهم ، ويفرض عليهـم الضرائب ، ويجمع منهم الجند ، الذين قد يحتاجهم الملك • فكل قوة دول شرقي اوربا ، كانت ترتكز على طبقة النبلاء ، التي تمتلك القسم الاكبر من الاراضي•

وعندما قام الملك (فردريك الثاني) **ملك بروسيا** ، باعادة تعمير الارض التي اجتاحتها حرب الثلاثين عاما ، فانه ادخل عنصرا اجتماعيا جديدا • اذ اسلم تلك الارض الى (معمرين) لهـا • ولـم يطبق عليهم نظام قنانـة الارض ، فشكلوا **طبقة من المزارعين الاحرار** ، تعيش خارج النظام الاقطاعي • وفي عـام ١٧٦٣ الغى نظام القنانة ، والسخرة ، في الاراضي الملكية ، ولكنه لم يجرؤ علـى تطبيق ذلك في اراضي النبلاء •

واجرت الامبراطورة (ماري تيريز) ، في دولها الوراثية ، اصلاحا مشابها الى حد ما ، فسعت الى تحسين احوال الفلاحين ، وجعلت السخرة ثلاثة ايام في الاسبوع ، كحد اقصى ، وذلك بعد **ثورة الفلاحين عام ١٧٧١** • وحددت في

بوهيميا الضرائب المفروضة عليهم ، واعطتهم حق الاقامة في أي مكان يريدون .

اما في بولونيا ، وروسيا ، فلم يجر أي تطور من هذا القبيل • ففي بولونيا لم تكن المدن لتضم اكثر من (٦٪) من السكان ، وفي روسيا (٤٪) ، ومعظمهم من اليهود • وكان (٩٠٪) هم من الاقنان ، المرتبطين بارض الاقطاعيين الكبار • وقد رسخ نظام قنانة الارض في روسيا خلال القرن الثامن عشر ، نتيجة سياسة (بطرس الاكبر) ، و (كاترين الثانية) • فالقياصرة اختاروا التحالف مع النبلاء ، فأعطوهم سلطة مطلقة على فلاحيهم من الاقنان • وكان عمال المناجم يؤخذون عادة من بين اقنان الدولة ، والكنيسة ، والنبلاء • وقد اندلعت ثورات فلاحية في اواخر القرن الثامن عشر ، دفعت (كاترين الثانية) الى مصادرة املاك الكنيسة لصالح الدولة ، وكذلك الاقنان الموجودين عليها •

ويتضح من هـذا ان البورجوازية كانت محدودة جـدا ، ويقتصر وجودها على المدن • وقد تسربت اليها ، شيئا فشيئا ، افكار الغرب الاوربي ، فشكلت ما يشبه جزيرة من الحرية ، وسط ذلك النظام الاقطاعي الساحق •

ثالثا ـ الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر في اوربا

كان القرن الثامن عشر في المنحى الفكري استمرارا للقرن السابع عشر ، ففي ذلك القرن اظهر الفيلسوف (ديكارت) ، قوة الفكر ، المستندة الى العقل ، والذي يتحكم فيه (الشك الطرائقي) • وطرح (نيوتون) عام ١٦٨٧ نظريته في الجاذبية الكونية ، فوضع بذلك اسس علمي الفيزياء ، والفلك الحديثين • وفتح الالماني (ليبنتز) للعلماء ، بكشوفه الرياضية ، آفاقـا جديدة ، فالقرن السابع عشر كان ـ كما رأينا ـ قرن (الثورة العلمية) • وجاء القرن الثامـن عشر بعده ، ليكون (قـرن الانوار Siècle de Lumière) فالعقلانية فيـه ، تجاوزت حدود العلم ، وانتشرت لتشمل كل مجالات اهتمام الانسان • وقـد ولدت هذه الظاهرة ، التي تتمثل في اخضاع كل مسألة لاختبار العقل ، مناخـا فكريا ، عرف بـ (التنوير) •

ان اكثر الاهتمامات الفكرية ، في هذا القرن ، انصبت على امور ثلاثة : **العلوم ، والاقتصاد ، والفلسفة .**

آ ـ **العلوم** : لقد رأى القرن الثامن عشر ازدهارا علميا مماثلا لما كان عليه الامر في القرن الذي سبق . ويرجع ذلك الازدهار الى الاجواء الملائمة التي احاطت بالعمل العلمي ، والعلماء . فاللهفة على (العلوم) كانت من خصائص ذلك القرن . وكان العلماء ، من الشخصيات المحترمة جدا من جميع فئات المجتمع يقربها الملوك ، والامراء ، ويشجعونها . بل انه كان من البدع المحببة في ذلك القرن ، ان يكون لكل واحد من كبار افراد المجتمع ، أكان نبيلا ، أو مصرفيا ، أو قاضيا ، أو بورجوازيا ثريا ، (قاعة فيزياء) تجرى فيها التجارب الصغيرة ، وتنظم فيها مجموعات من الاحجار ، او النباتات ، او الحيوانات ، او الآلات . وانصرف الكثيرون الى قراءة الكتب العلمية ك (كتاب التاريخ الطبيعي) ل (بوفون) مثلا ، والى استماع المحاضرات العلمية . فقد كان في درس (الاسقف نوله Nollet) . مثلا في كلية الناقار ، ما يزيد عن (٦٠٠) مستمع ، يصغون لدروسه في الفيزياء العملية .

وقد رعى رؤوساء الدول هذا التيار ، واغدقوا الهبات ، ومظاهر التقدير ، على العلماء المشهورين . فالملك (فريدريك الثاني) ملك بروسيا ، استقبل على مائدته علماء وفلاسفة . والملك (لويس الخامس عشر) ، ملك فرنسا ، حوّل اراضي العالم (بوفون) الى كونتية ، واقيم تمثال له في حديقة الملك ، وادخل العالم (لافوازيه) الى (اكاديمية العلوم) وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

كما انشىء في انحاء اوربا ، **اكاديميات للعلوم** ، على غرار (اكاديمية العلوم) في باريس ، او (الجمعية الملكية) في لندن . وكانت هذه الاكاديميات توزع المنح والجوائز ، وتنظم البعثات العلمية بدعم مالي من الملوك .

ويضاف الى تلك الاجواء المساعدة على النمو العلمي ، ان العلماء كانوا يتبادلون المراسلات فيما بينهم ، ويطلعون بعضهم ، على ما جد في ميادين عملهم .

ويلاحظ ان اللغة الفرنسية ، كانت في ذلك الوقت ، لغة يتقنها معظم المثقفين في اوربا ، ومن ثم كانت ذات طابع عالمي بالنسبة لذلك العصر ، واداة تفاهم بين المثقفين الاوربيين . كما ان هؤلاء العلماء استخدموا اداة فكرية جديدة ، وهي (الطريقة التجريبية) ، وجاء تحسين عدد من ادوات القياس ، والملاحظة ، ليسهل بحوثهم ، وكشوفهم .

الكشوف العلمية الرئيسية :

كان هم علماء **الرياضيات ، والفلك** ، بصفة خاصة ، تثبيت كشوف (ديكارت) و (نيوتون) ونظرياتهما ، واتمامها ، ولا سيما نظرية الجاذبية الكونية . وبمبادرة من (اكاديمية العلوم) في باريس ، ارسلت بعثتان عام ١٧٣٥ احداهما الى لابونيا (في فنلندة) ، والثانية للبيرو ، لقياس طول درجة من درجات الطول . وقد قامتا بذلك القياس ، وتحققتا من حسابات نيوتون، عن تفلطح الارض في الاقطاب . وفي نهاية القرن اكتشف الالماني (هرشل) الكوكب السيار (اورانوس) عام ١٧٩١ ، وعرض العالم (لابلاس) الفرنسي، عام ١٧٩٦ ، نظريته عن حركة المجموعة الشمسية . وكان للعالمين الفرنسيين (لاغرانج) ، و (مونج) ، بحوثهما الرياضية ، بل ان الاخير هو مؤسس (الهندسة الوصفية) .

وفي علم **الفيزياء** ، ركزت البحوث بصفة رئيسية على نقطتين : اولهما **(الحرارة)** . وتمكنت الدراسات ، التي قام بها الفرنسي (ريئومور Réaumur) ، والالماني (فاهرنهايت) ، والسويدي (سيلسيوس) ، من صنع الترمومتر الزئبقي ، ومن ثأية دور هام في التحسينات التي ادخلت على الآلة البخارية .

وثانية النقطتين **(الكهرباء)** ، التي اثارت مظاهرها الرأي العام المثقف . وكانت دراسات الايطاليين (غالفاني) ، و (ڤولطا) ، والفرنسي (كولومب)، عاملا في نمو المعرفة الكهربائية ، وتطبيقاتها . ولكن الدراسات الاساسية للعالم الامريكي (بنجامان فرانكلين) ، هي التي وضعت مبدأ (لاقطة الصواعق) ،

بعد ان لاحظ التشابه بين البرق الجوي ، والشرارة الكهربائية • ولم يحمل علماء (الجمعية الملكية) في لندن آراءه في بادىء الامر محمل الجد ، الا ان تأييد العالم الفرنسي (بوفون) له ، وغرسه اول قضيب حديدي على قصره ، سمح بتجربة اختراعه امام ملك فرنسا في عام ١٧٥٢ ، وكان نجاح التجربة • وتخلص الانسان بذلك الاختراع ، من احد الامور الرهيبة التي كانت تقض مضجعه• واثبت الانكليزي (غره Gray) ان الاجسام ليست متساوية في نقل الحررة •

الكيمياء : وكان علما جديدا في القرن الثامن عشر ، وعلى رأسه العالم الفرنسي (لافوازيه) • وكان بورجوازيا ثريا ، وقام بدراسة الهواء ، والمحروقات واوجد مبادىء البحث في الكيمياء ، واعطى لهذا العلم لغته الرمزية • وهو الذي اكتشف تركيب الهواء ، والماء ، وادخل في ملاحظاته القياس الرياضي • كما ان (بريستلي Priestly) الانكليزي درس الغاز • وفي الحقيقة ، قطعت الكيمياء كل صلة لها (بالسيما) ، واكتشفت اجساما جديدة ، كالاوكسجين ، والكلور، والآزوت •

وفي حقل **التاريخ الطبيعي** برزت بحوث السويدي (لينه Linné) ، الذي صنف الانواع النباتية ، والفرنسي (بوفون Buffon) ، الذي نشر (٣٦) مجلدا (١٧٤٩ـ١٧٨٨) ، تحت عنوان (التاريخ الطبيعي) • وفيه وصف الحيوانات ، وطرح فكرة تطور الكائنات الحية ، التي اخذها بعده العالم (لامارك) وطورها •

اما في **ميدان الطب** فالتقدم كان بطيئا ، كما اشرنا ، وان كان الانكليزي (جنر) قد ختم القرن عام ١٧٩٦ ، بلقاحه ضد (الجدري) •

ب ـ الفكر الاقتصادي : لقد سيطر على الفكر الاقتصادي في القرن السابع عشر ـ كما رأينا ـ (النظريات المركنتيلية) ، التي ادت الى تنظيم الحياة الاقتصادية ، تنظيما دقيقا وصارما • وقد اعتمدت تلك النظريات ، مبادىء ، تستند الى الاعتقاد ، بأن كمية المعدن الثمين المتبادل لا يمكن ان تزيد • ولكن لوحظ ، ان القرن الثامن عشر رأى تدفقا جديدا من الذهب والفضة • ومن هنا

بدأ النقد للفكر المركنتيلي ، وذلك من عام ١٧٥٠ . وفي الوقت نفسه ، كانت ضرورة تنمية الانتاج (غلاء الاسعار ــ زيادة عدد السكان) ، تصطدم بعقبات كبيرة في ميدان الصناعة ، ومنها (القيود النقابية) ، وفي ميدان الزراعة (القيود الجماعية) ، كحق المرعى ومنع تسييج الارض ، وفي ميدان التجارة (الحواجز الجمركية الداخلية) . فضد مثل تلك العوائق في وجه الاقتصاد ، وكلها من تراث الماضي ، قام (**الفيزيوقراطيون**) ، وانصار (**المذهب الاقتصادي الحر**) .

الفيزيوقراطيون : لقد اعتمد هؤلاء على فرنسا نموذجا : فرنسا التي بقيت بلادا زراعية بالدرجة الاولى ، فطرحوا فكرتهم بأن (الارض هي المصدر الوحيد للثروة) .

ومن هؤلاء المفكرين (كينه Quesnay) ، طبيب الملك لويس الخامس عشر من عام ١٧٥٥ . وقد كتب عدة موضوعات في (الموسوعة) ، قبل ان ينشر في عام ١٧٥٨ ، كتابه (لوحة اقتصادية) . وقد نقد فيه (المركنتيلية) ، واوضح بأنه لا يرى في النقد سوى وسيط ، وثروة عقيمة ، لا تنتج شيئا . فالزراعة وحدها ، قادرة على تقديم انتاج صاف ، أي انتاج يفوق النفقات التي صرفت للحصول عليه . ومن ثم فيجب ان تكون موضع الاهتمام الخاص للدولة . الا ان دور الدولة ، يجب ان يقتصر ، على ضمان حسن عمل قوانين الطبيعة (ان كلمة فيزيوقراطيا تعني حكومة الطبيعة) . اي يكفيها ان تشجع التطورات التقنية ، وان تساعد على اقامة الملكيات الكبيرة ، وعلى الغاء كل عائق في وجه ملكية الارض ، والتخفيف من اعباء الفلاح .

وقد تابع تلامذته من امثال (غورنه) وزير التجارة ، و (تورغو) مفتش المصانع ، ثم وزير الملك (لويس السادس عشر) ، آراءه ، مع الاعتراف بدور الصناعة ، والتجارة .

اصحاب نظرية الاقتصاد الحر : ولقد انبثق معظمهم من الفيزيوقراطيين ، الا ان لافكارهم ابعادا اوسع : فقد نادى (غورنه) في فرنسا **بمبدا الاقتصاد الحر : « اتركه يعمل بحرية ، واتركه يمر بحرية »** . فعلى

الدولة الا تتدخل في الحياة الاقتصادية ، الا لتساعد على ازالة العوائق في وجه الانتاج ، وتبادل السلع • وبعد قليل ، ظهر الايقوسي (آدم سميث) ، الذي قدم في كتابه (ثروة الامم) في عام ١٧٧٦ ، عرضا كاملا للمذهب الاقتصادي الحر•وكان لهذا الكتاب نجاح كبير في اوربا • وكان يختلف عن الفيزيوقراطيين بقوله : انه يمكن النظر الى الصناعة ، والتجارة ، على انهما قطاعان انتاجيان حقيقيان ، وان **العمل هو المصدر الحقيقي للثروات •**

جـ ـ الفلسفة :

١ ـ اصول الحركة الفلسفية : لقد اعتاد فلاسفة القرن السابع عشر ، بعد « ديكارت » ، الا يقبلوا حقيقيا ، الا ما برهن عليه العقل • وقد أكد تقدم **(العلوم التجريبية)** اهمية **(ملاحظة الطبيعة) ،** وامكانية الوصول منها الى **(قوانين) •** وباسم هذه المبادىء قام رجال ، من امثال الفرنسي (بيل Bayle)، وهو مهاجر بروتستانتي ، والانكليزي (لوك) بالمطالبة بالحقوق الطبيعية للانسان•

وفي القرن الثامن عشر ، تزايد نقد الافكار القديمة ، التي كان ينظر اليها على انها ثابتة لا يمكن الطعن بها ، مثل ، سلطة القوى التقليدية ، وخضوع العقل البشري لدين اوحي به من السماء ، وارتكز على نصوص مقدسة لا يمكن معارضتها ولو جزئيا ، ومفهوم مجتمع طبقي ، يجب ان يبقى فيه كل فرد في مكانه• ان هذا النقد الشديد ، كان الاساس ، في الحركة القوية التي جمعت العلماء ، ورجال الادب ، والناس المتعطشين للحرية ، والتجديد ، في (المعركة الفلسفية)•

٢ ـ الفلاسفة وموضوعات المعركة الفلسفية : لقد اخذ الفلاسفة على عاتقهم تحرير الناس من ضغوط الماضي وقيوده ، بحمل (انوار) العقل اليهم • وماعدا (مونتيسكيو) الذي كان ارستقراطيا عريقا ، فان بقية الفلاسفة الفرنسيين المعروفين ـــ وهنا يلاحظ ، ان الفكر الفرنسي الفلسفي ، كان هو المؤثر في اوربا في القرن الثامن عشر ـــ من امثال (ڤولتير) ، و (روسو) ، و (دالمبير) ، و (ديدرو) ، كانوا ينتمون الى تلك البورجوازية ، التي لم تتوقف قوتها

الاقتصادية ، واثرها عن النمو ، والتي كانت ترنو الى المساواة بالحقوق ، والى ممارسة السلطة السياسية •

اما الموضوعات الكبرى التي شغلت الفكر الفلسفي في ذلك القرن فتتلخص بثلاثة :

- **الدين الطبيعي** : ان المفكرين الذين انكروا وجود الله ، من امثال (ديدرو) ، و (هولباخ) ، كانوا قلة قليلة جدا • الا ان قسما كبيرا من المفكرين ، طرح مقابل تعليمات الكنائس المنظمة ، **الاعتقاد (بكائن اعلى)** • وكان مفهومهم عن الكون ، بأنه آلة عملاقة ، او ميقاتة ضخمة ، لا بد لها من وجود صانع او ميقاتي - كما قال فولتير - • ومن هذا الدين تنبثق **(اخلاق طبيعية)** ، وفكرة **(التسامح)** • وقد عمل (فولتير) على التبشير بالمبدأ الاخير ، لا عبر كتاباته فحسب ، بل قام بأعمال مباشرة لصالح ضحايا التعصب •

- **المفهومات السياسية** : وقد اتفقت على نقد **(نظام الحكم المطلق)** المستند الى (الحق الالهي) ، كما اتفقت على تكريس **(الحرية الفردية)** ، و **(ارادة الشعب)** • فالفلاسفة لم يعودوا يرون في السلطة الملكية ، الا عقدا قام بين الحاكمين والحكومين • وهذا ماكان قد بشر به (لوك) الانكليزي في القرن السابع عشر •

ولكن الفلاسفة اختلفوا حول **(النموذج السياسي)** الذي يجب اتباعه : **فمونتيسكيو** Montesquieu) مثلا (١٦٨٩-١٧٥٥) ، الذي نشر عام ١٧٤٨ كتابه (روح الشرائع) ، كان يقول بملكية معتدلة ، ومقيدة بمجالس • أما الحريات التي دافع عنها فهي تشبه المطالب القديمة للنبلاء ، الذين ينتمي اليهم ، وللبارلمانات التي كان عضوا في واحد منها • فنقده كان موجها اذا ، ضد الصفة المطلقة ، والمركزية فقط ، للسلطة الملكية • الا ان النقد الشديد الذي تصدى به للنظام القديم ، اسهم في القضاء على ذلك النظام ، وفي اعداد الجو لثوار ١٧٨٩ •

اما **ڤولتير** Voltaire **(١٦٩٤-١٧٧٨)** فكان معجبا جدا بالمؤسسات الانكليزية ، ولذا فانه كان مذبذبا بين (**الاستبداد المستنير**) أي وجود ملك مطلق ، متحرر ، من تأثير رجال الدين ، والنبلاء ، ومستند على الفلاسفة فقط ، وهمه ممارسة سلطاته لصالح الشعب والجميع ، وبين ملكية على النمط الانكليزي • فالاصلاحات – بحسب رأيه – يجب ان تأتي من الاعلى ، وان (الشعب) بحاجة الى (نير ، ومهماز ، وتبن) •

ولكن **روسو** Rousseau **(١٧١٢-١٧٧٨)** كان على نقيض ڤولتير ، فقد اراد ان يعطي السلطة لذلك الشعب • فأصوله الشعبية من مدينة جنيف ، جعلته يميل الى (جمهورية ديمقراطية) • وقد رأى ان المواطنين يجب ان يعبروا عن ارادتهم بالتصويت ، والانتخاب • وفي كتابه (العقد الاجتماعي) الذي نشره عام ١٧٦٢ ، حاول ان يحل التناقض بين حقوق الفرد ، ومتطلبات الحياة ضمن المجتمع •

وفيه اعلن انه اذا لم تحترم الحكومة العقد الذي يربطها بالشعب ، فان هذا الاخير يجب أن يثور عليها • وقد استهوت آراؤه البورجوازية الصغيرة ، والحرفيين •

– **المساواة امام القانون** : كانت هي الاخرى موضوعا مشتركا ، ناقشه مختلف الفلاسفة : فمونتيسكيو مثلا دافع عن حقوق النبلاء ، الا ان فولتير هاجم امتيازاتهم بينما اكد روسو المساواة الكاملة بين الناس • واوضح في محاضرته ، عن (اصل عدم المساواة بين البشر) ، العوامل التي اوجدت ذلك التفريق ، ومنها (ملكية الارض) •

وفي الواقع لم تقتصر الحركة الفلسفية على فرنسا ، بل ظهر فلاسفة كبار في اجزاء اخرى من اوربا ، ومنهم البروسي (كانت Kant) (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي كان منبع التيارات الفكرية ، التي سيكون لها تأثير عميق في القرنين التاسع عشر والعشرين • والانكليزي (دافيد هيوم) (١٧١١-١٧٧٦) ، الذي بحث في المفهومات المستندة الى قوة العقل •

وهكذا تعرضت الملكية المطلقة ، والدين ، والنظام الطبقي الاجتماعي ، وكل ما يخص (النظام القديم) ، للنقد • وانتشرت تلك الافكار الخطرة على ذلك النظام ، انتشارا واسعا ، وسريعا ، بوسائل مختلفة ، مما ادى لتقويض ذلك النظام ، في (الثورة الفرنسية) بصفة خاصة •

٣ – **انتشار الافكار الجديدة** : ويفسر انتشار تلك الافكار **اولا** ، بأن الحكومات لم تكن تحارب دائما هذه المبادىء على الرغم من وجود المراقبة ، واضطرار الفلاسفة احيانا للفرار والاختباء : ففي فرنسا ، حمت محظية لويس الخامس عشر (مدام دوبومبادور) ، الفلاسفة ، وكذلك بعض الوزراء •وفي الخارج ، تبين بعض الملوك ، الفائدة التي يمكنهم الحصول عليها ، لو اعتمدوا على هذه المبادى الجديدة ، التي بشر بها الفلاسفة ، ولا سيما **مبادىء (الاستبداد المستنير)** ،فتبنوها ، وطبقوا جزءا منها •

وكذلك الكنيسة ، لم تكن لتملك سوى عقوبات دينية صرفة ، لا تأثير كبير لها • أما المعارضة الفكرية والردود ، فان الكتاب من رجال الدين ، لم يكونوا مستعدين لها •

ومقابل عدم وجود معارضة قوية من الحكومة ، والكنيسة ، فان **تقدم التعليم** وهو تقدم محسوس في اوساط البورجوازيين ، في القرن الثامن عشر ، في فرنسا بخاصة ، ساعد على انتشار (الانوار) •

ويضاف الى ذلك **الصحافة** ، التي تقدمت تقدما سريعا من منتصف القرن، ولا سيما في بلاد ، كانكلترة ، والمقاطعات المتحدة • أما فرنسا فلم تظهر اول صحيفة يومية فيها (صحيفة باريس) الا في عام ١٧٧٧ • والصحيفة الهامة في فرنسا في هذه المرحلة كانت (صحيفة العلماء) •

ومن البدهي ان يكون **للكتب** الدور الرئيسي في انتشار تلك (الانوار)•

ومع ان اسعارها بقيت مرتفعة ، ومراقبة الحكومات ، والكنيسة ، كبيرة عليها ، الا انها انتشرت بين طبقة النبلاء الاحرار ، والبورجوازية ، والطبقة المثقفة عامة • والدليل على هذا الانتشار ، انه طبع من كتاب (روح الشرائع) لمونتيسكيو ، (٢٢) طبعة في (٧) اعوام • ومن الكتب الكبيرة التي كان لها اثرها الهام في ذلك الوقت ، (**الموسوعة**) التي صدرت بـ (٣٥) مجلدا ، والتي قام على كتابة بنودها (١٣٣) مفكرا ، وكان على رأس ادارتها ، واخراجها المفكر الفرنسي (ديدرو) •

ومن وسائل نشر افكار (التنوير) في القرن الثامن عشر ايضا ، **الصالونات الادبية والعلمية** في باريس ، والمقاطعات ، حيث كانت تجتمع النخبة المثقفة ، وتتحاور في القضايا الادبية ، والعلمية ، والسياسية • وكان على رأس تلك الصالونات ، سيدات من الطبقة العليا في فرنسا • ومن اشهر تلك الصالونات صالون المركيزة (دولامبير De Lambert) ، و (مدام ديفان) ، و (مدام جوفران) • وبعد ١٧٥٠ اشتهر صالونا (الآنسة دو ليسبيناس) ، و (مدام نيكر) ، بمناقشاتهما السياسية • وكان يخالط تلك الصالونات عدد من الادباء ، والمفكرين الاجانب •

ويجب الا ينسى اثر (**الاكاديميات**) في بث تلك الافكار ، كالاكاديمية الفرنسية مثلا • فالاكاديميات هي مجامع العلماء ، والكتاب ، وكانت عاملا في حفز الفكر ، وتنشيطه بتنظيم المسابقات ، وتشجيع الفكر النقدي •

وكذلك (**المقاهي**) كانت امكنة للمناقشات الحادة • و (**محافل الماسونية**) : وهذه المحافل انتقلت من انكلترة الى انحاء اوربا ، والى فرنسا ، منذ ١٧٢١ • وهي جمعيات سرية ، تمثل تيارات فكرية مختلفة • ومع ان البابوية حاربتها ، فقد تسرب اليها الكثيرون من رجال الدين بصفة خاصة • وقد كان اليهود ، هم العاملين الاساسيين فيها •

وخلاصة القول ، لقد انتشرت الافكار العقلانية ، والعلمية الجديدة ، على ساحة واسعة • الا انه لم تتأثر بها جميع طبقات المجتمع بشكل متساو : فالطبقات

الدنيا من الشعب لم تصلها تلك (الانوار) • ومع ان اثـر الكنيسة ضعف عن السابق ، الا ان اثـر الدين ظل قويا ولا سيما على الفئة الفلاحية في الريف . وبالمقابل كان تأثير (الانوار) قويا في الطبقات العليا • فالموسوعة دخلت القصور ، ومساكن البورجوازية وبيوت رجال الدين •

ومع التأثير الفكري ، كان يتغلغل **(التأثير الفرنسي)** في الاوساط الاوربية. اذ ان الانتاج الفرنسي في ميدان الادب ، والفلسفة ، والفنون ، كان هو السائد في اوربا ، حتى ان معظم بلاطات اوربا ، كانت تستخدم **اللغة الفرنسية ،** بـل حلت هذه اللغة محل اللاتينية في انشاء المعاهدات • وكانت القيصرة (كاتريـن الثانية) ، امبراطورة روسيا ، و (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، يكتبان بالفرنسية، وكذلك اوربا المثقفة • وهذا ساعد على تداول كتب المفكرين الفرنسيين ، وتبني آرائهم • وقد ينسجم هذا الاتجاه ، مع دعوة الفلاسفة ، القائلة بأن (العالم هـو وطنهم) ، وان (الجنس البشري واحد) ، بل ان بعضهم اخذ ينادي بـ (الاتحاد الاوربي) •

ردة الفعل العاطفية والقومية :

ولكن **(الاتجاه العقلاني)** في التفكيـر الاوربي ، اخـذت تشوبه تيـارات مناقضة ، اشبه ما تكون بردة فعل عليه ، وعلى جفافه ، ومنها **(التيار العاطفي) ،** ذلك التيار الذي اخذيمجدكل العواطف الانسانيةويظهرها،لا السامية منهافحسب، ويؤكـد ان **(الافكار الكبيرة تأتي من القلب)** • ويشاهد هـذا التيار ، في فرنسا بعد ١٧٥٠ ، مع تزايد ونمو حتى الثورة الفرنسية • ومن اقطابه في فرنسا (روسو)، ويبدو هذا في كتابه (هيلويز الجديدة Le Nouvelle Héloïse) • الا ان هذا (التيار العاطفي) يبدو اقوى ما يكون خارج فرنسا ، وفي المانيا بصفة خاصة • فقصة (ڤرتر Werter) للاديب الالماني (غوته Goethe) ، التي نشرت عام ١٧٧٤ ، جعلت اوربا كلها تبكي لآلام البطل • وكذلك تبدى هذا التيار فـي انكلترة ، حيث ظهـر (ماكفرسون) الايقوسي ، بقصائده الاسطورية العاطفية عـام ١٧٦٠ •

وقد يكون من العوامل التي أدت لظهور هذا التيار ، عدم انسجام الذوق الادبي لجميع الناس مع العقلانية الجافة ، والتأثر بالمؤلفات الادبية المطروحة في مختلف دول اوربا ، واخيرا رد فعل على التأثيرات الفرنسية . اذ ان هذا التيار، قد اتخذ في معظم الحالات صورة (**العودة للماضي القومي**) ، **والتقاليد القومية** ، مما سيكون له اثـره الكبير في بعث التاريخ القومي ، ودعم المشاعر القومية . وردة الفعل العاطفية هذه شوهدت في ميدان الادب ، والتاريخ ، والفن ، بـل والفلسفة . واطلق على هذا التيار الفكري العام اسم (**الحركة الابداعية**) ، او (**الرومانتيكية**) ، التي مجدت فردية الانسان ، ودعت للعودة للطبيعة ، واكدت ان (العقل) لا يمكنه تفسير كل شيء في الوجود . وقد قويت هذه الحركة في القرن التاسع عشر ، وكانت منبعا للحركات القومية الكبيرة في اوربا ،ولاسيما الحركة القومية الالمانية ، والحركة القومية الايطالية .

رابعا ـ التطورات الفنية في اوربا في القرن الثامن عشر

لقد تغيرت ظروف الحياة في اوربا في القرن الثامن عشر ، كما لوحظ ذلك، وترك هذا بالطبع اثـره في الحركة الفنية . ففي فرنسا مثلا لم يعد البلاط ، هو مركز الثقل الوحيد لعالم الفنون والآداب . أو ليس هـو وحده ، الحافـز للفنانين ، بل ان الاهتمام بالفنون ، انتقل الى اوساط كبار النبلاء ، والبورجوازيين الذين كانوا يعيشون في العاصمة ، او في المدن الكبرى في المقاطعات ، مثـل ، ليون ، ونانت ، وبوردو ، وغيرها . وغـدا همّ هذه الاوساط ، انشاء القصور ، وتزيينها ، وتأثيثها باناقة كبيرة ، ولكن بمستوى ادنى ، مما هو عليه في (قصر فرساي) . وبذلك وجهوا الذوق الفني نحو فن يبحث عن راحة الافراد اكثـر ممـا يبحث عن العظمة المكلفة ، والابهة . فشاعت (المنازل الصغيرة) ، المزينة بغنى وترف ، والمتلائمة في الوقت نفسه مع متطلبات الحياة اليومية . وانتشر هذا الاتجاه حتى ترك اثـره في فرساي ذاته ، حيث عمل الملك (لويس الخامس عشر) على ان تكون الغرف ، والمكاتب الخاصة ، والمكتبات ، بحجم معقول ، مع تزيينها بغنى .

والفن في القرن الثامن عشر بالاضافة لما سبق ، كان موجها لمجتمع متفائل يؤمن بالسعادة وتقدم الانسانية . ولذا فقد سعى ليجعل اطاره اكثر مرحا وسرورا : فاستخدم في الاثاث الخشب ذي اللون الفاتح ، واهتم بالالوان بالالوان الضاحكة ، والمرايا . وقلت الموضوعات المستوحاة من الحياة الدينية ، واخذ الفنانون يبحثون عن التعبير عن فرح الحياة ، وعن الحركة ، وعن الشباب ، وعادت المرأة ، والطفل ليكونا ، من الموضوعات المفضلة بالنسبة للنحات ، والرسام . وغدا الفنان على صلة بالطبقة العليا ، وفي الوقت نفسه بالجمهور العام ، عن طريق عرض انتاجه ، في قاعات خصصت لذلك . واصبح الفنان محط الانظار ، وموضع التقدير ، والاحترام ، والاكرام ، في مجتمع كرس الجزء الاكبر من وقته ، وثروته للثقافة ، وللتمتع بمباهج الحياة ، مثلما كان عليه الامر مع الاديب ، والعالم . وفي هذا الفن ، كان الاثر الفرنسي الفني ، والفكري كبيرا ، ولا سيما خلال المرحلة الواقعة بين ١٧٤٠-١٧٨٠ . واسباب ذلك عديدة ، منها : اثر القوة العسكرية الفرنسية ، وترف البلاط الفرنسي وبذخه ـ ذلك البلاط الذي بقي نموذجا لكل ملوك اوربا ـ ، واشعاع الصالونات الباريزية ، حيث كان يستقبل المفكرون ، والسياح ، والاجانب ، منها بالحفاوة والترحاب ، والحياة الزاخرة في باريس نفسها ، التي كانت تخرج كل المستجدات في الازياء ، واشكال الحياة . ولا بد من اضافة دور (اللغة الفرنسية) ، التي ـ كما اشرنا سابقا ـ اتخذت لغة عالمية من قبل الدبلوماسيين ، وافراد الطبقة الاجتماعية العليا في اوربا .

واستنادا الى ذلك ، فقد كان عدد الفنانين الفرنسيين الذين استدعاهم الملوك الاجانب اليهم ، لبناء قصورهم ، وتجميلها ، وزخرفتها ، ولتعمير المؤسسات الاخرى ، التي تغني مدنهم ، كبيرا . فحيثما فكر الملوك والامراء في تشييد ما يشبه (ڤرساي) ، فانهم كانوا يستدعون المهندسين ، والنحاتين ، والرسامين ، الفرنسيين ، ليضعوا المخططات ، وليوجهوا الفنانين المحليين . ففي روسيا مثلا كان المهندس (لوبلون Leblond) هو الذي صمم لبطرس الاكبر (قصر بيتر هوف Peterhof) بشوارعه المروحية ، وحدائقه على النمط

الفرنسي . وفي **المانيا** ، كان **(ردبير دوكوت** (R. De Cotte **وتلاميذه** ، هم الذين وضعوا تصميمات **قصور (بون) و (شلايسهايم)** . وكان المهندسون الفرنسيون هم الذين بنوا لفردريك الثاني قصر (سان سوسي) . وقد شوهد الفنانون الفرنسيون ايضا في السويد ، واسبانيا ، وبولونيا ، حيث كان كبار اصحاب الاموال ، يتنافسون في تقريب الصياغ الفرنسيين ،و صانعي السجاد ، وصانعي الاثاث ، بل والطباخين .

الا ان هذا التأثير الفرنسي ، لم يؤد الى (توحيد الفن الاوربي) . فغالبا ما كان الالهام الفني الفرنسي ، يتضافر مع الهام الفنانين المحليين ، او الذين ما زالت ايطاليا تكونهم . وكانت نتائج هذا المزج رائعة المردود . ولا بد من الحذر ، من النظر الى فن القرن الثامن عشر في اوربا ، على انه كان خاضعا لقواعد الفن الفرنسي وحدها . فالمقاومة لتلك القواعد كانت كبيرة جدا، أكان هذا من قبل التقاليد القومية ، او التأثير الايطالي ، الذي استمر قويا في اوربا الوسطى مثلا بفن (**الروكوكو** Rococco) ، الذي يتميز بالاشكال كثيرة الانعطافات ، وبالمبالغة في الزخرفة ،والذي يعتبر امتدادا لفن(الباروك). وفي **نهاية القرن يبدأ الاثر الانكليزي بالظهور ،** حتى في فرنسا . ومن خصائص هذا الفن الانكليزي، الميل للطبيعة البكر بصفة خاصة ، هذا بينما كان الفن في المانيا يعيش اولى نفحات الحركة الابداعية .

ويمكن ان يميز في فن القرن الثامن عشر،وبصفة خاصة في فرنسا ،مدرستان:
الاولى وكانت في النصف الاول من القرن الثامن عشر . ويلاحظ فيها اتجاهات عديدة متعايشة ، وان كانت السمات البارزة فيها ، هي الخفة ، والرقة ، والاهتمام بمباهج الحياة ، والاحتفالات ، وهي بذلك اقرب الى (فن الروكوكو)
والثانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وهي مدرسة **(الكلاسيكية الجديدة)** التي تأثرت بالمدرسة الفلورنسية ، وبمدرسة البندقية ، في العمارة ، بخطوطها المستقيمة الرصينة التي تشبه الآثار اليونانية ، والرومانية، كما تأثرت بالكشوف الاثرية في ايطاليا ، كالكشف الاثري عن مدينة هركولانوم مثلا .

ولا بد ان يضاف الى تلك التأثيرات في الفن العمراني ، نمو المدن الكبرى، والموانىء ، الذي ادى الى هندسة ضخمة للمدن ، تبدت في الساحات الكبيرة، والاروقة الواسعة • وهـذا ساعد بالتالي ، على دعـم الاثـر القديم للابنيـة الكلاسيكية •

وفي القرن الثامن عشر نمت **(الفنون التزيينية)** ، و **(فنون الزخرفة)** : كالتزيين بالمرايا ، وبالخشب الفاتح اللون، والميداليات المنقوشة بدقة • وتزايدت أنواع الاثـاث ، وغدت مريحة وظهر طراز (لويس الخامس عشر) و (السادس عشر) في هـذا المجـال •

ومن اشهر فناني **المدرسة الاولى** في الرسم في فرنسا ، (واطو ١٦٤٨ ـ ١٧٢١) ، التـي تبرز لوحاتـه المجتمع المنغمس في حيـاة التـرف ، واللهو ، والبذخ ، والتي تنبثق منها شاعرية شفافة • و (فراغونار) الذي تفوق برسم المرأة ، وبالتعبير عن الاهواء •

ومن **المدرسة الثانية** (الكلاسيكية الجديدة) ، الفنان (دافيد ١٧٤٨ ـ ١٨٢٥) الذي استقى موضوعاته من التاريخ القديم •

وفي خارج فرنسا اشتهر من الانكليز (هوغارث) ، الـذي بـرع فـي فن **(الكاريكاتور)** ، ومثل بواقعية الاخلاق المنحلة في عصره • و (رينولدز) الذي تميز برسم صور الاشخاص ، والمناظر الطبيعية • وفي اسبانيا برز اسم الفنان الكبير (غويا Goya) ، الذي جمع في فنه ، التقليد الواقعي للمدرسة الاسبانية ، الى تأثيرات الكلاسيكيين الفرنسيين ، والاسبان •

أمـا في **النحت** فيبـدو ان فرنسا كانت هـي السائدة ، والمدرسـة الكلاسيكية هي الاقوى • وظهـر هذا الفـن في تماثيـل الاشخاص ، وفـي المنحوتات المتنوعة ، التي زينت بها احواض المـاء ، او الاضرحة ، او القصور وغيرهـا •

وفي **الموسيقى** ، كان القرن الثامن عشر مرحلة تجديد • ورأى ظهـور فنون موسيقية جديدة ، كموسيقى الغرفة ، والسيمفونية ، والاوبرا •

وبقيت ايطاليا ، حتى منتصف القرن الثامن عشر،هي الطليعة في فن الموسيقى، الا ان الفنانين الالمان ، انتزعوا منها في النصف الثاني من القرن ، تلك القيادة من امثال (باخ ١٦٨٥–١٧٥٠) ، الذي عرف بموضوعاته الدينية ، التي تمثل قمة في الموسيقى الباروكية • وقد ترك اثرا كبيرا في الفنانين الالمان ، الذين تلوه ، مثل (جوزيف هايدن ١٧٣٢ – ١٨٠٩) ، الذي خلق مجموعة ضخمة من الموسيقى الآلية • فقد عمل عبر سيمفونياته التي تزيد عن المائة ،على تحويل الاوركسترا ، الى جسم موسيقي واحد ، مركب من لغات عديدة ، تتكلم بصوت واحد • وتبع (موزار ١٧٥٦–١٧٩١) خطى هايدن • وقد اذهل موزار ،بعبقريته المبكرة ، العالم الاوربي • وقد ادخل في اوبراته (زواج فيغارو ١٧٨٦) و (المزمار السحري ١٧٩١) وغيرها ، الصوت مع الاوركسترا ، بطريقة لم يسبقه اليها احد • وسعى (هاندل الالماني) (١٦٨٥–١٧٥٩) ، الذي عاش في انكلترة ، لتطوير فن الاوبرا الايطالي ، الى صيغة شعبية ، الا انه لم ينجح ، ولكنه بمقطوعته (المسيح) بدا بطلا قوميا •

وصفوة القول ، عاش انسان اوربا في القرن الثامن عشر حياة العقل والقلب، وعبر عن ذلك بابداع ، وبانتاج فكري ، وفني ، خصيب وثري • ورسم في ذلك الانتاج ، بالقلم والريشة ، وادوات البناء، والنحت ،والنقش، والصناعة المتنوعة صورا من الوجود حوله ، باعماقه وسطحيته ، وعقلانيته ، وطبيعته ، وتصنعه وعواطفه •

الفصل الثاني

التطورات الداخلية

في دول اوربا في القرن الثامن عشر

ان تدفق الثروات على اوربا من (العالم الجديد) ، ونمو الرأسمالية التجارية ، والمالية ، والازدهار التقني ، والصناعي ، والقوة المتنامية للبورجوازية التي اصبحت تملك الثروة ، والثقافة ، وتتطلع لممارسة السلطة السياسية ، كل تلك الامور كانت من **(عوامل التغيير)** في مجتمع اوربا الغربية ، المطلة على المحيط الاطلنطي . كما كانت في الوقت نفسه من **(مظاهر التغيير)** . وكان لا بد لهذه الامور ان تضغط على النظم السياسية في مجموع اوربا . وقد عملت كل دولة من الدول الاوربية ، على ايجاد الحل السياسي ، الذي رأته ملائما لها : فانكلترة مثلا تجنبت القفزات السياسية ، وذلك بفتح ارستقراطيتها على مصراعيها للبورجوازية العالية . اما الملكيات في اوربا الوسطى ، فقد درأت الخطر باختفائها وراء الافكار الجديدة ، وتبنيها لنظم الحكم التي اطلق عليها اسم **(الاستبداد المستنير)** . هذا في الوقت الذي اظهرت فيه الملكية الاستبدادية المطلقة في فرنسا ، بانها غير قادرة على اجراء اصلاحات ، حتى الضرورية جدا منها . وبذلك فان (الثورة) التي كانت تندلع على طرفي الاطلنطي منذ ١٧٧٧ ، انفجرت اخيرا في فرنسا ، فابتدأ عصر جديد .

اولا ـ انكلترة في القرن الثامن عشر

عند وفاة الملكة (آن ستيوارت) عام ١٧١٤ ، انتقل الحكم في انكلترة الى

اسرة المانية ، تمت بصلة القربى للاسرة الانكليزية ، الا وهي ، الاسرة الحاكمة في مقاطعة (هانوفر) الالمانية • وكان اول الحاكمين منها في انكلترة ، الملك (جورج الاول ١٧١٤—١٧٢٧) ، وتبعه (جورج الثاني ١٧٢٧ — ١٧٦٠) • وكان الملكان لا يتكلمان اللغة الانكليزية ، ويهتمان بشؤون مقاطعتهما الالمانية ، اكثر من اهتمامهما بشؤون انكلترة • ولذلك تركا للبارلمان الانكليزي والوزراء الحكم •

وهكذا سارت انكلترة شيئا فشيئا نحو (نظام بارلماني) : أي نظام لايكون فيه الوزراء مسؤولين الا امام البارلمان ، وقد تحقق هذا عام ١٧٤٠ • وكان الملك قبل ذلك التاريخ ، يختار الوزراء ، من بين حزب الاغلبية في البارلمان • وكان هناك حزبان في انكلترة : (حزب التوري) ، وكان مؤيدا للسلطة الملكية ، الا انه لم يكن مقربا من الاسرة الحاكمة الجديدة، لانه بقي مخلصا لآل ستيوارت، و (حزب الهويغ) ، الذي يهدف لتثبيت سيادة البارلمان •

الا ان هذا النظام السياسي ، الذي كان محط اعجاب الفلاسفة الفرنسيين، لم يكن خاليا من العيوب : فالنظام الانتخابي يختلف من اقليم لآخر ، وهو بمجموعه لصالح الملاكين الكبار • كما ان توزيع المقاعد الانتخابية ثبّت منذ قرنين ، ولم يعدل ؛ بينما كان هناك مدن قد هجرت ، ومع ذلك فقد احتفظت بعدد من النواب ، يفوق عدد نوا بمدن كبيرة نمت حديثا • هذا بالاضافة الى ان التصويت كان يتم برفع اليد ، مما يسمح بممارسة شتى الضغوط على الناخبين • ومع تلك النواقص ، فقد كان الانكليز فخورين بنظامهم ، الذي يعطي حق التصويت ل (٢٥٠٠٠) نسمة من بينهم ، والذي هو فريد من نوعه في اوربا آنذاك •

الا ان ذلك التطور نحو ترسيخ (**النظام البارلماني**) في انكلترة ، اصطدم بمحاولة الملك (جورج الثالث ١٧٦٠—١٨٢٠) ، لاعادة النظام الملكي الفردي • وهذا الملك كان على نقيض سابقيه ، انكليزيا قلبا وقالبا ، ومخلصا لواجباته كملك • ولذا اراد ان يعيد للملك سلطته السابقة وهيبته ، معتمدا على حزب

التوري • فابعد رئيس الوزراء (بت Pitt) ، وفرض ارادتـه على البارلمـان بالرشوة ، وجمع حوله بعض الانصار • ولكن قامت في وجهه معارضة قوية خارج (مجلس العموم) ، ممثلة بالصحافة • فقد تأسست عدة صحف ، ونشطت ، مثل (مورنينغ كرونيكل Morning Chronicle) (١٧٦٣) ، و (المورنينغ بوست Morning Post ١٧٧٢)) ، و (التايمس Times ١٧٨٥) • واضيف الـى ذلك ، الاضطرابات في ايرلندة ، وانتصار ثوار امريكا • كل هذا ، وضع حدا لمحاولة الملك ، في عام ١٧٨٢ • ومنذ ذلك التاريخ،رسخت قدم البارلمان وحقوقه وساعـد على ذلك رئاسة (ويليـام بت) للوزارة • وهو ابـن (بت الكبير) ، وقد منحته انتخابات ١٧٨٤ اغلبية كبيرة ، على الرغم من انه لم يتجاوز الرابعـة والعشرين من عمره • وقد حكم انكلترة لـ (١٨) سنة ، وهو يحترم رأي الاغلبية. وقد نال تأييد الرأي العام بنزاهته ، وحيويته ، وطاقاته • لقد جدد (بت) انكلترة ، ولكنه لم يستطع تغيير (النظام الانتخابي) ، بالغاء مقاعد (المدن الميتة) ، اذ ان هذا يعني اضعاف قوة ارستقراطية الارض • الا انـه نجح بالمقابل ، عـام ١٧٩٨ ، بفرض ضريبة على جميع الدخول ، دون استثناء أيـة فئـة •

وعرفت انكلترة في ظل نظامها السياسي الديموقراطي **ازدهارا اقتصاديا كبيرا** • وقد اشير سابقا لتطورها الزراعي ، والتقني ، والصناعي ، ولزيادة عدد سكانها الكبير ، كما اشير لظهور الملكيات الزراعية الكبيرة فيها ، ممـا ساعد على استخدام التقنيات الحديثة ، وعلى استخدام المواشي وتربيتها بشكل واسع • كما اكد ظهور (انكلترة السوداء) ، الى جانب (انكلترة الخضراء) : انكلترة احواض الفحم ، التي تشبثت عندها الصناعات المعدنيـة (برمنغهام ، شفيلد ، وغيرهما) • وذكر ايضا ، التوسع في الصناعة الصوفية ، والقطنيـة ، التي تركزت في (مانشستر) ، وقرب ميناء (ليفربول) حيث كان يكدس القطن الخام ، المستورد من امريكا وبلاد الهند • وقد تنامى هذا النشاط الصناعي ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مما ادى الى زيادة سريعة في المـدن ، وسكانها • فلندن التي كان عدد سكانها في عام ١٧٠٠ (٦٠٠ر٠٠٠) نسمة اصبح

مليونا في نهاية القرن ، وغدت اكثر مدن العالم سكانا ، والمركز المالي الاول ، والميناء المتفوق بفعاليته التجارية •

وبقيت التجارة في انكلترة اساسا ضخما من اسس اقتصادها ، ولذا كان اهتمامها بالاسطول التجاري ، الذي تزايد عدده تزايدا كبيرا ، وسريعا ، ولاسيما بعد ان اوجدت (تأمينات لويد البحرية) عام ١٧٢٧ ، ضد مخاطر البحار • وكانت انكلترة تقوم بتصدير بضائعها المصنوعة ، وفحمها ، كما تعيد تصدير منتوجات المستعمرات ، بعد ان تكدسها في الموانيء الهامة كلندن مثلا • وقد لعب التجار البريطانيون ، دورا هاما في سياسة بلادهم ، حتى قال (بت الاول): (السياسة البريطانية هي التجارة البريطانية) • كما اوقعتها سياستها التجارية هذه ، في صراعات سياسية مع بقية الدول الاوربية المنافسة لها في هذا الميدان، كفرنسا ، واسبانيا ، والمقاطعات المتحدة •

اما **التطورات الاجتماعية في انكلترة في القرن الثامن عشر ،** فانها لاتخرج عما ذكر سابقا ، عن مجموع التغييرات الاجتماعية في اوربا الغربية : فطبقة النبلاء القديمة ، المالكة للارض ، بقيت قوية في الارياف ، وحافظت على الاساسي من السلطة السياسية • ومع ذلك يبدو ان هناك اختلافا بين هذه الطبقة ومثيلتها في فرنسا ، اذ انها في انكلترة اسهمت في الفعاليات الاقتصادية ، كما وتمازجت مع البورجوازيين ، الذين كانوا يمارسون الانماط نفسها منا لحياة ، ويرتادون الجامعات ذاتها ، ويعملون على التزاوج معها •

هذا في الوقت ، الذي ادى فيه **تمركز العمال في المدن** ، وانخفاض الاجور الذي رافق تقدم الآلية ، وكثرة اليد العاملة ، وعدم وجود حماية البتة للعمال ـ اذ منعوا من التجمع للدفاع عن مصالحهم ـ كل هذا ادى الى **بؤس كبير تفشى بين الطبقات الفقيرة** •

وبالمقابل نجم عن ثراء الطبقة العليا ، وحبها للمال ،و تلهفها على الملذات ، وانتشار الادمان على الخمر، وتفاقم الاجرام في الاوساط الشعبية **ازمة اخلاقية** ، تبدت واضحة فيما كتبه الاديب الانكليزي (سويفت ١٦٦٧ ــ ١٧٤٥)

في كتابه المشهور « رحلات غوليفر Gulliver's Travels » ، حيث نقد المجتمع الانكليزي في المنحيين الاجتماعي ، والسياسي ، كما فعل (فولتير) في فرنسا . كما تبدت تلك الازمة ، في رسوم الفنان (هوغارث) .

وكردة فعل على تلك (الازمة الاخلاقية) ، قامت **(يقظة بوريتانية)** ، كان على رأسها (جون ويسلي J. Wesley) حوالي عام ١٧٤٠ . وقد دعا (ويسلي) لحياة اخلاقية اكثر صرامة ، ولتقى اعمق ، ولدين يحترم القواعد ، كالمواظبة على الكنيسة ، وتكريس يوم الأحد لله . وقد توجه بوعظه للطبقات الشعبية ، وهاجم انانية الاثرياء . وقد اقلق تبشيره هذا ، الاوساط الاجتماعية العليا في بادىء الامر ، الا انه لم يهاجم النظام الاجتماعي القائم ، بل كان يعلم الفقراء الصبر ، والتحمل ، ولذا فقد تلاشى ذلك القلق . وقد كون (ويسلي) واتباعه ما يسمى (بالكنيسة الطرائقية Méthodiste) ، وترك اثرا في المجتمع الانكليزي ظهر واضحا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اذ ابتعد ذلك المجتمع عن بعض مظاهر الانحلال الخلقي التي بدت صارخة . وقد امتد اثر (ويسلي) الى المستعمرات في امريكا .

ولكن انكلترة لم تعان تلك الازمة الاخلاقية فحسب ، بل واجهت في النصف الثاني من القرن ، واباان حربها ضد ثورة مستعمراتها في امريكا ، اضطرابات في المدن العمالية ، نتيجة سوء احوال العمال المشار اليها آنفا ، وفي **ايرلندة** حيث كان الفلاحون الذين طردوا من ارضهم التي يزرعونها ، يقاسون اشد انواع البؤس . ونجم عن ذلك **اتجاهات فكرية انسانية** تطالب بقدر كبير من المساواة ، والحرية ، والاخوة . وكان اكبر الانسانيين المدافعين (ولبرفورس Wilberforce) الذي كافح ضد استغلال عمل الاطفال في المصانع ، وضد تجارة العبيد .

وقد تكون اكبر مشكلة سياسية اصطدمت بها انكلترة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، هي ثورة مستعمراتها في امريكا ، وستبحث في حقل العلاقات الدولية .

ثانيـــا ـ المقاطعات المتحـدة

اصاب (المقاطعات المتحدة) في القرن الثامن عشر الضعف : فحرب الوراثة الاسبانية كانت عبئا ثقيلا على ماليتها ، وفقد الهولانديون مراكزهم الاستعمارية في امريكا الشمالية • وحتى يثبتوا اقدامهم في (جزر الهند الشرقية) ، اضطروا لتجهيز الجيوش والحملات ، مما زاد مـن تكاليفهم الماليـة • وحتى تستمر (الشركات التجارية) في تحقيق ارباح كبيرة ، اضطرت لبيع المنتجات المستوزدة باسعار مرتفعة ، مما وضعها في موقف صعب تجاه المنافسة الفرنسية الانكليزية •

وقد تركزت **الفعالية الاقتصادية** حول « امستردام » ، مما ولد غيـرة الموانىء الاخرى ، والمقاطعات الريفية ، واشعل الخصومات السياسية ، والدينية ، التي كانت قائمة في القرن السابق •

ومن ناحية **السياسة الخارجية** ، فان ضعف الاسطول ، والخوف مـن احتلال الفرنسيين للبلاد ، وازدياد الروابط المالية مـع لندن ، دفـع بالمقاطعات المتحدة لتدور في فلك انكلترة الدبلوماسي •

ويلاحظ ان الوهن لحق ايضا **بالانتاج الفكري** ، ما عدا ميدان العلوم • ولكن هولاندة ، بقيت البلاد التي تقدم الحرية الواسعة للفلاسفة ، والادبـاء ، والصحفيين ، الذين يودون نشر ما كان ممنوعا ، او محرما في بلاد اخرى •وقد حكمت (المقاطعات المتحدة) خلال القرن الثامن عشر اسرة (ناساو Nassau) التي هي فرع من اسرة اورانج السابقة ، اذ توفي (ويليام الثالث) حاكمها عام ١٧٠٢ ، دون ان يخلف وريثا على العرش •

ثالثـــا ـ دول البلطيق

كان تأثير التغيرات التي عاشها الغرب الاوربي عليها بطيئـا : **فالدانمارك** التي كانت تضم **النرويج** ، كانت اشبه ببلدين مختلفين : فهناك واجهة بحريـة نشيطة ، برزت فيها طبقة بورجوازية تجارية ، ومنطقة داخلية ريفيـة ، تسودها الارستقراطية • وكان يسيطر على الحكم الى جانب الملك ، حاشية معظمها مـن

اصل جرمني • وقد حاول احدهم (ستروينسي Struensee) عام ١٧٧١ ، ان يجعل سلطة الملك مستقلة عن النبلاء ، فهاجم امتيازاتهم ، واعاد تنظيم الادارة، والغى المراقبة على الصحافة ، وكان متأثـرا بمبادىء « **الاستبداد المستنير** » . الا انه عزل واعدم نتيجة ثورة من القصر عام ١٧٧٢ • وبين عامي ١٧٨٤–١٧٨٨ جرت **محاولة اصلاحية اخرى** لتنظيم العلاقات بين ملاكي الارض ، والفلاحين ، وتبع ذلـك **الغاء قنانة الارض في الدانيمارك** •

أما **السويد** فوضعها مشابه للدانيمارك • الا ان تأثيرات غرب اوربا فيها كانت اقوى ، وطبقة النبلاء اكثر قربا من البورجوازية • اذ كان النبلاء هم الذين يستثمرون الغابات الواسعة ، ومناجم الحديد الغنية ، أي منتجات التصدير • وقد استطاعت الطبقتان متضافرتين ، ان تحدا من الاستبداد الملكي ، بعد وفاة الملك (شارل الثاني عشر) عام ١٧١٨ • وكان دور البورجوازية هاما ، وقويا في الموانىء الالمانيـة ، في بحـري الشمال ، والبلطيق • الا ان الملك (غوستاف الثالث) (١٧٧١–١٧٩٢) ، استطاع بحركة انقلابية عسكرية ، ان يعيـد الحكم المطلق ، ويقيـد سلطـة المجلـس (الريكسداغ Riksdag) • وحاول بعد ذلـك ان يكون ملكـا (مستبدا مستنيرا) ، فالغى التعذيب ، وحسن قوانين الفقراء ، وأعلن التسامح الديني ، وحرية الصحافة ، وشجع حرية التجارة ولكن عندما قامت (الثورة الفرنسية) اتخذ حكما اكثر ميلا للرجعية •

رابعا ـ اوربا القارية والمتوسطية

بدا القسم الاكبر من القارة الاوربية ، في مطلع القرن الثامن عشر ، متأخرا في تطوره عن البلاد المطلة على الاطلنطي ، والبحار الشمالية • فقد بقي الاقتصاد مستندا الى استثمار ثروات الارض ، واحتفظ المجتمع ببنية تقليدية ، وبسيطة نسبيا : فهناك طبقة من النبلاء ، قابضة على الارض ، مقابل فئة فلاحية ، خاضعة قليلا أو كثيرا لنظام القنانة • واذا ما وجدت الطبقة البورجوازية ، فهي قليلـة العدد ، ولا تملك القوة المالية،او التأثير الفكري ، اللذين تملكهما البورجوازيات الغربية • وكانت آثـار الاقطاعية كثيرة ، والمؤسسات السياسية غير ناضجة •

١ ـ **شبه جزيرة ايبريا** : ويمكن استثناؤها من الوصف السابق ، لان **اسبانيا و البرتغال** كانتا في الواقع مفتوحتين ، بسبب موقعهما الجغرافي ، للتأثيرات الاطلنطية : من ثروات متدفقة ، وتيارات فكر • ومع ذلك ، فلم تعرف واحدة منهما كيف تستفيد من رؤوس الاموال المتكدسة لديها من التجارة البحرية ، والاستثمار الاستعماري ، لتدفع باقتصادها قدما •

فاسبانيا في عهد الملك (فيليب الخامس ١٧٠٠ــ١٧٦٤) ، لم تعد تملك تلك القوة الكبيرة التي كانت لها في القرن السابق،بل اكتفت باستثمار امبراطوريتها الواسعة في امريكا بطريقة عشوائية ، ودون اكتراث حقيقي بجدوى عملها • ولم تتمكن على الرغم من جهود السلطة في تنمية المصانع ، واعادة بناء الاسطول ، من اتباع خطوات انكلترة ، وفرنسا ، في دروب التوسع الصناعي • وقد يكون السبب ، ان قسماً كبيرا من ارباح التجارة فيما وراء البحار ، قد استغل في الارض ، او استخدم لشراء منتجات مصنوعة من الخارج • ويمكن ان يرجع ذلك ايضا ، الى انه لم يكن في اسبانيا ، سوى مكان ضيق ومحدود لنخبة (مستنيرة) ، قادرة على اجراء الاصلاحات ، التي لا غنى عنها • فالساحة الاجتماعية ، مشغولة من ناحية ، بطبقة النبلاء ، المتعلقة بامتيازاتها ، والنافرة من التأثيرات الاجنبية ، ومن ناحية ثانية ، بطبقة رجال الدين ، الكثيرة العدد ، والقوية ، ومن ناحية ثالثة ، بالكتل الشعبية الجاهلة ، التي احاطتها الكنيسة من كل ناحية • واذا كان مجموع اسبانيا على تلك الحال ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، فان (كاتالونيا) كانت اقرب برخائها الى شمالي غرب اوربا• والشيء نفسه كان في **البرتغال** • اذ لم تعرف كيف تستفيد من قوتها التجارية، لاقامة نهضة صناعية فيها ، او تجديد زراعي • ففقدت في القرن الثامن عشر دورها الوسيط بين المستعمرات واوربا ، وغدت تابعا اقتصاديا يدور في فلك انكلترة •

ومع ذلك ، يلاحظ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اتجاه **نحو (الاصلاح)** في الدولتين : ابتدأه في اسبانيا الملك (شارل الثالث) ، بتشجيع الري ، وبناء المصانع ، والطرقات • وقوى الاسطول التجاري ، ودعم التجارة

البحرية ، واصبحت الكنيسة اكثر خضوعا للسلطة المدنية . وفي ١٧٧٦ تم طرد اليسوعيين من اسبانيـا .

أمـا في البرتغال ، فالوزير (بومبال Pombal) ، هو الذي قام بالمبادرة الى الاصلاح : فدفع النشاط التجاري قدما ، وشجع الصناعة ، وكان مـن رواد (الاستبداد المستنير) .

٢ ـ **ايطاليـا** : كان انقسام ايطاليا الى مجموعـة من الدويلات : (مملكـة نابولـي) في الجنـوب ويحكمها آل بوربون ، ودول الكنيسة ، وطوسكانا ، ولومبارديا الخاضعة للنمسا ، والجمهوريات التجارية ، (جنوة والبندقية) ، عائقا في وجه التقدم الاقتصادي فيها . هذا بالاضافة الى ان الفعاليا تالاقتصادية ، قاست كثيرا من انتقال التجارة الى المحيطات . ولكن حدث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اصلاح هـام في طوسكانا ، مس الميـدان الاجتماعي ، والقضائي . وكذلك في (مملكة نابولي) ، حيث وقف (شارل بوربون) بقوة في وجه امتيازات ملاكي الارض الكبار . هذا علما ان (مملكة سردينيا) ، الى الشمال الغربي من ايطاليا ، كانت في تطورها الاقتصادي ، مشابهة لشمالي غربي اوربا ، لقربها من فرنسا .

٣ ـ **اوربا الوسطى والشرقية** : الى الغرب من نهر الالب ، كـان هنـاك فسيفساء من الدول الصغيرة ، التابعة نظريا للامبراطور . وما تبقى من شرقي اوربا ، ووسطها ، فتقتسمه خمس دول كبيرة :

آ ـ **الامبراطورية العثمانية** : وكانت في القرن الثامن عشر لا تزال تحتل شبه جزيرة البلقان ، وشمالي البحر الاسود . الا انـه في اواخر هذا القرن ، ابتدأ التراجع : فقد اخذ البولونيون ، والروس ، والهنغـار ، والبنادقة ، يمارسون ضغطا عليها . وسنرى كيف اضاعت اجزاء مما تملك في بحث العلاقات الدولية .

ب ـ **بولونيـا** : وكانت بلادا ضعيفة ، فهـي لا تملك حدودا طبيعية ، ولا تجانسا ، او اندماجا قوميا : فمن (١١) مليونا من السكان ، هناك ٣٠٪ من الروس ، و ١٥٪ من الالمـان ، و ٥٠٪ من البولونيين . ويضاف الى انلاتجانس

القومي، الانقسام الديني • ولم يكن للملك أية سلطة : فالنبلاء هم الذين يحكمون بوساطة (الدييت) وهو مجلسان : مجلس شيوخ ، يعينه الملك ، ومجلس ، انتخب اعضاءه النبلاء • وقد استفاد كبار النبلاء من ضعف الملكية ، ليفرضوا على الفلاحين ، واجبات اقطاعية ، وانواعا ثقيلة من السخرة • وقد تحالفوا مع طبقة النبلاء الصغار ، ووقفوا في وجه كل اصلاح •

ج ـ دول آل هابسبورغ : كانت تتألف من مساحة برية واسعة ، يختلف سكانها عرقيا ، ولغويا ، ودينيا ، اختلافا كبيرا • وان سيادة (آل هابسبورغ) في مطلع القرن ، على الاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) ، وعلى دوقية ميلانو ، جعلتهم بتماس مع البلاد المتطورة اقتصاديا ، في غربي اوربا • وقد سعوا من جانبهم لتشجيع النمو الصناعي ، وانشاء المصانع ، الا ان المجتمع ، والمؤسسات حافظا جزئيا على صفتهما في العصور الوسطى ، كاستمرار قنانة الارض مثلا • ومع ذلك فقد تحققت بعض اصلاحات تحت حكم الملك (شارل السادس) (١٧١١ـ١٧٤٠) ، اذ اعاد تنظيم المالية ، وشجع الصناعات النسيجية ، واصلح الموانىء ، على البحر الادرياتيكي • وقد توبع هذا الاصلاح في عهد حفيده الامبراطور (جوزيف الثاني) ، الذي كان من المؤمنين بمبادىء (الاستبداد المستنير) •

مبادىء الاستبداد المستنير : وتتلخص تلك المبادىء بتقوية الدولة عن طريق تنظيمها تنظيما عقلانيا • وليس الهدف من ذلك المصلحة الشخصية للملك ، او ارضاء حبه للسلطة المطلقة ، وانما لتوفير السعادة لرعاياه • وقد تأثر الملوك الذين تبنوا تلك المبادىء ، بآراء الفلاسفة الفرنسيين ، الذين كانوا على علاقات معهم ، وبخاصة (فولتير) • فالملك (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، كان له مراسلات مع هذا الفيلسوف ، واستدعاه الى بروسيا عام ١٧٤٥ ، وعينه مستشارا له • كما ان القيصرة (كاترين الثانية) ، عقدت صلات مع (دالمبير) ، و (فولتير) ، و (ديدرو) ، الذي اقام عام ١٧٧٣ـ١٧٧٤ خمسة اشهر في بلاطها • وفي الحقيقة لقد استخدم الملوك المصلحون ، **(الافكار الجديدة) كالتسامح الديني ، والغاء الامتيازات ، والقضاء على قنانة الارض ،** ليحرزوا

نصرا على القوى التقليدية ، الممثلة بالنبلاء ، ورجال الدين ، والتي وقفت في وجه سلطتهم المطلقة . ولكن الاعتبارات الفلسفية ، لم تلبث ان تراجعت امام اهتمام اولئك الملوك بتدعيم قوتهم ، وعظمتهم ، واستمالة الرأي العام اليهم .

اما الطريقة المتبعة في الاصلاح فقد اتت من الاعلى ، او بتعبير آخر ، ما كان من الممكن ان تأتي ـ كما كان عليه الحال في اوربا الغربية ـ من طبقة موجهة (مستنيرة) ، تتضافر فيها جهود بورجوازية الاعمال ، مع النبلاءالمتحررين. ومن ثم ، فالرعايا ، لم تستشر في الاصلاحات ، ولا في (برنامج التحديث)، الذي فرضه الملك . لان هذا الاخير لا يمكن ، وهو الذي يسيره العقل ، ان يخطيء بحسب اعتقادهم ، او تنتقص سلطته . فالامبراطور (جوزيف الثاني) اذن ، وقد وصل الى العرش بعد امه (ماري تيريز) ، عام ١٧٨٠ ، اتبع تلك الخطوات الاصلاحية . وقد فكر اولا ، **في توحيد دوله ،** فاتخذ خطوات ادارية ، وقضائية . وقسم الامبراطورية الى (١٣) حكومة ، وفرض اللغة الالمانية لغة رسمية ، مما ادى الى مقاومات محلية ، ولا سيما في بوهيميا ، وهنغاريا . وجمعت القوانين ، والمراسيم في عهده ، واعترف بالمساواة امام القانون، وبالزواج المدني ، والطلاق .

وفي **الميدان الاجتماعي ،** كان عمله جديدا كل الجدة : فبينما اعتمد (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، و (كاترين الثانية) على الارستقراطية ، وقويا بذلك تأثيرها ، فان (جوزيف الثاني) لم يتردد في مهاجمة امتيازات النبلاء ، بمساعدة موظفين اكفياء ، ومخلصين للدولة . ففي ١٧٨١ الغى قنانة الارض الشخصية ، فاصبح بامكان الفلاحين ان يتنقلوا حيثما يريدون ، وان يختاروا مهنتهم ، مما دفع قسما منهم الى الحقل الصناعي. واصبح بمقدورهم كذلك، ان يشتروا من اسيادهم الارض التي يفلحونها ، والغيت السخرة ، والنقابات . واوجد في الوقت نفسه (ضريبة عقارية) يدفعها الجميع . وبديء باقامة (الكاداستر) ، وهو سجل يمسح كل الارض ، ويحدد قيمتها ، ليكون تحديد الضريبة دقيقا ، وبذلك تكون الضرائب على الارض عادلة .

وفي **المضمار الديني**، منح (مرسوم التسامح) عام ١٧٨١ ، حرية العبادة الى جميع الرعايا غير الكاثوليك ، ـ ما عـدا اليهود ـ • واخضعت الكنيسة الكاثوليكية للدولة ، ولم يعـد ارتباطها بالبابا قائما ، الا مـن ناحية العقيدة ، واغلقت بعض الاديرة • ان هذا الاصلاح الكنسي ، بادخال الكنيسة في البنية الادارية ، والذي يطلق عليه اسم (الجوزيفيسم) (نسبة الى اسم الامبراطور) ، اثار صراعا مـع البابا • ولكن الامبراطور لـم يغير موقفه على الرغـم مـن زيارة البابا لفينا عـام ١٧٨٢ •

د ـ بروسيـا : لقد نمت (بروسيا) دولة قوية في القرن السابع عشر ، وتابعت ذلك النمو في القرن الثامن عشر ، فيعهد ملكها (فردريك غليوم الاول) الذي حكمها حتى عام ١٧٤٠ • وقد خلفه على العرش ابنه (فردريك الثاني) او الكبير (١٧٤٠ـ١٧٨٦) • وفي عهده وصلت بروسيا الى اوج قوتها ، بفضل الاصلاحات التي اجراها ، والحروب التي خاضها •

وقـد كان يطلق علـى (فردريك الثاني) ، لقب (الامير الفيلسوف) ، لاهتمامه بالفلسفة والآداب ، مع كل مشاغله السياسية ، التي تركزت حول : توفير القوة ، والمنعة ، والعظمة ، لدولته بروسيا • فقد قرب اليه فولتير ، وجعلـه مستشارا لـه ، ونشر في عـام ١٧٤٦ كتابه (تاريخ عصري) • وكـان يحفظ مسرحيات (راسين) ، الاديب الفرنسي ، عن ظهر قلب ، واستدعى الى بلاطه ، فلاسفة ، وادباء ، ورعى الفن ، والفنانين • وقد تركت اهتماماته تلك ، آثارها الطيبـة فيه ، فتبنى هو الآخـر ـ كمـا فعل جوزيف الثاني بعـده ـ مبادىء (الاستبداد المستنير) ، وطبقها في اصلاح بلاده بروسيا •

ففي **الميدان الاقتصادي والمالي :** اراد (فردريك الثاني) ان يعمر خزائنه بالمـال لخدمة سياسته الداخلية والخارجية ، والانفاق على حروبه • فاوجـد ادارة ملكية للضرائب غير المباشرة ، وفرض احتكار الدولة لبعض المنتجات ، والغى القنانة في الاملاك التابعة للتاج ، مما حفز الفلاحين على العمل بشكل افضل ، وزاد من مردود الارض ، ومن ثم ، من الواردات المالية • وجعل الزراعة موضع

عناية خاصة : فطبق آراء الفيزيوقراطيين ، واستصلح اراضي زراعيـة واسعة واسكن عليها (٣٠٠٫٠٠٠) مـن المعمرين ، والعمال ، والفلاحين الالمان ، والمهاجرين، وذلك في المناطق الشرقية • وشجع على انشاء مصانع الجوخ الكبيرة ، ومصانع الحرير ، والسجاد ، والخزف • واستثمر منـاجم (سيليزيا) بشكل كثيف ، وحفر عددا من القنوات •

وفي **حقل الادارة والقضاء :** فانه اعاد تنظيمها باتجـاه المركزية الشديدة ، والارتباط القوي بالدولة • ونظر في القوانين وصاغها صياغـة جديدة ، والغى التعذيب ، وعين قضاة اكفياء •

وفي **مضمار التعليم :** شجـع اقامـة مؤسسات التعليم الثانوي الكبرى ، المسماة (الجمناز Gymnases) ، ووسع الجامعات ، وطورها • واهتم بصفـة خاصة ، بالتعليم الابتدائي ، لانه اداة توحيد ، في بلد يتجمع فيه سكان مـن اصول مختلفة • فأقر **التعليم الالزامي** ، واعد المعلمين في دورات تعليمية خاصة ، وجعل من **(اكاديمية برلين)** مركزا فكريا هاما •

اما في **المجال الديني :** فقد بدا (فردريك الثاني) متسامحا ، اذ اعطى حرية العبادة الكاملة للكاثوليك في سيليزيا ، بل استقبل اليسوعيين الذين طردتهم الدول الكاثوليكية • اما الكنيسة اللوترية فروقبت مراقبة شديدة •

ان اهتمام (فردريك الثاني) بقضايا الفلسفة ، والفكر ، لم تخفف مـن ايمانه بضرورة القوة العسكرية التي غرسها في نفسه مبكرا والده • فالقوة العسكرية اساسية لتحقيق عظمة بروسيا ، كما كان يرى ، ويرى اجداده من قبلـه • ولذلك فانه دعم الجيش الذي كان والده قد اعده اعدادا متينا ، حتى اصبح بين يديـه (٢٠٠٫٠٠٠) جندي ، من اصل (٦) ملايين نسمة هم عدد سكان بروسيا • وقـد قال (ميرابو الفرنسي) عن الجيش البروسي : (ان بروسيا ليست ابدا دولة تملك جيشا ، وانما هي جيش يحتل دولة) • وكان ذلك الجيش ، يخضع لنظام قاس، وعلى رأسه ضباط اكفياء ، تسيرهم العبقرية العسكرية (لفردريك الثاني) •

واستطاع بهـذه القوة العسكريـة ان يوسع بروسيا : (فحرب الوراثـة النمسوية) ، التي اشترك فيها ، ادت الى ضمه لسيليزيا عام ١٧٤٢ • واعطـاه

تقسيم بولونيا الاول عام ١٧٧٢ ، اراضي هامة على حافة بحر البلطيق • ففي ربع قرن ، ارتفعت مساحة بروسيا من (١٢٠٫٠٠٠) كم٢ الى (٢٠٠٫٠٠٠) كم٢ ، وسكانها ، من مليونين ، الى ستة ملايين نسمة •

وهكذا غدت بروسيا دولة المانية قويــة ، تنافس النمسا ذاتهــا في محيط الامبراطورية ، وتخشاها الدول الاوربية ، وتحسب حسابها في السياسة الدولية ، وترنو اليها انظار الالمان كنواة لدولة المانية موحدة ، تضم شمل الدويلات الالمانية الكثيرة والمبعثرة •

الا ان بروسيا ، حافظت على بنيتها الارستقراطية ، وظل دور ملاكي الارض الكبار (اليونكرز Junkers) قويا فيها •

هـ ـ **روسيا** : اشير سابقا الى التطورات الكبيرة التي ادخلها حكم (بطرس الاكبر) في روسيا ، والتي توقفت بعد وفاته لثلاثين عاما ، أي حتى وصل الى عرشها (القيصرة اليزابيت ١٧٤١ـ١٧٦١) • وتوبعت تلك الاصلاحات في عهد القيصرة (كاترين الثانية ١٧٦٢ـ١٧٩٦) ، الالمانية الاصل ، التي ازاحت زوجها (بطرس الثالث) عن العرش ، ويقال (انه قتل بدفع منها) ، وقد ثبتت نفسها حين دانت بالارثوذكسية • وكانت ملكة مثقفة وعلى علاقة بالفلاسفة ، والادباء الفرنسيين ، الذين استقبلتهم في سان بطرسبورغ ، وكذلك بالفنانين • ولكنها قبل ان تكون امرأة فكر ، وثقافة ، فانها كانت رئيسة دولة ، واقعية الاتجــاه ، وسلطوية • وان الاصلاحات التي قامت بها ، والتي اوحى لها بجزء منها ، المقربون اليها ، من امثال (اورلوف) ، و (بوتمكين) ، كانت تهدف في الدرجة الاولى الى تقوية السلطة الامبراطورية ، والى دعم عظمة روسيا • (فكاترين الثانية) ، شأنها شأن (فردريك الثاني) ملك بروسيــا ، ، و (جوزيف الثاني) الامبراطور ، كانت من انصار (الاستبداد المستنير) بل من اقطابه ، ولذلك سعت في مجال الاصلاح :

ففي الحقل الاقتصادي : ابدت عناية بالزراعة ، فاستصلحت اراضي جديدة ولا سيما في (اوكرانيا الجنوبية) ، حيث سعت لتثبيت السكان ، انصاف البدو على الارض ، وتحويلهم الى زراع مستقرين ، وكذلك في اقليم (الفولغا) • واستخدمت لتعمير تلك الاراضي عناصر اجنبية ، أتي بها من الامبراطورية العثمانية

(من الرومان والبلغار واليونان) ، او مــن المانيا • وقــد وصل عــدد هؤلاء المعمرين في اواخر حكمها الى (٨٠٠ر٠٠٠) •

وشجعت الصناعة ايضا ، بالحث على انشاء المصانع لنسج الصوف،والكتان، والتوسع في الصناعة التعدينية في الاورال ، التي كانت تغذي تيار تصدير كبير •

واهتمت **بالتجارة البحرية** ، فانشأت ميناءي (اوديسا) و (سيباستبول) على شاطىء البحر الاسود •

وفي المجال الاداري بذلت كاترين الثانية جهدا كبيرا لاعادة تنظيم البلاد ، ومركزة الحكم في يــدها : فقسمتها الى (٤٤) حكومة ، كل حكومة مقسمة الى اقسام اصغر ، ووضعت على رأسها حاكما ، يرتبط بالسلطة المركزية • وادخلت تحسينات على الامور القضائية • ولاتمام عمل (التحديث) الذي بدأته ، كــان عليها ان تستند الى طبقة النبلاء ، لعدم وجود طبقة بورجوازية قوية • فقــد منحت تلك الطبقة الارض ، ودعمت سلطانها على الفلاحين • فالى هذه المرحلة من حياة روسيا يرجع تثبيت نظام قنانة الارض نهائيا فيها • وقد ادى هذا بالتالي الى عدة ثورات ريفية اشهرها ثورة (بوغاتشيف Pougatchev) الذي ادعى انه (بطرس الثالث) ، وأثار اقليم الفولغا • وهاجــم الاقنان في كل مكان الاسياد الاقطاعيين • الا ان القوزاق خانوه ، واسلموه لكاترين الثانية ، التي نفــذت فيه حكم الاعدام عام ١٧٧٥ •

اما **التعليم** ، فلم تعر (كاترين الثانية) الابتدائي منه الاهتمام ، لقلــة الوسائل ، وخشية ان يؤدي ذلك التعليم الى تنبيه الاذهان ضد سلطة القيصرة • فهي التي قالت لمحظيها (بوتمكين) « لو كان رعايانا متعلمين لمــا بقينا ، انــا وانت ، في مكانينا هذين » • ومــع ذلك فقد اهتمت بالتعليم الثانوي ، والعالي ، لتخريج موظفين اكفياء للدولة • كما انها كانت فخورة بانشائها (معهد سمولني Smolnyi) لتعليم فتيات الطبقة النبيلة •

وفي ميدان الدين قامت كاترين الثانيــة بالاستيلاء علــى امــلاك الكنيسة الارثوذكسية ، وبذلك قصقصت آخر اجنحتها •

ولم تكتف (كاترين الثانية) بتلك الاصلاحات ، **بل دعمت الجيش** كما فعل (فردريك الثاني) ، وبذلك الجيش ، استطاعت ان تنتصر على القوات العثمانية ، وان تضم اليها الشواطىء الشمالية للبحر الاسود . كما اقتسمت بولونيا مع النمسا ، وبروسيا ، وتوسعت غربا . وقد ارتفع عدد سكانها بين (١٧١٥ — ١٧٩٥) ، بمقدار الضعف ، فغدا (٢٦) ستة وعشرين مليون نسمة .

وهكذا يلاحظ ، ان اغلب ملوك اوربا الوسطى ، والجنوبية ، والشرقية ، قد تأثروا بآراء الفلاسفة ، وارادوا ان يحكموا (بأنوار العقل) ، الا انهم ، لم يكونوا يقبلون البتة ، اية مناقشة حول الاصلاحات التي قاموا بها . فقد كان (فردريك الثاني) يقول « كل شيء للشعب ، ولا شيء بالشعب » ، وهذا ما اعطى حكمهم صفة (الاستبداد المستنير) .

وقد اتبع اولئك الملوك سياسة تشابهت في كثير من الامور ، الا انها اختلفت في اخرى ، وذلك يرجع الى الاختلاف في الشخصية ، والظروف المحلية . وكان الاختلاف أكبر ما يكون في الميدان الاجتماعي . ويمكن القول انهم جميعا اتبعوا آراء الفلاسفة ، ولا سيما في المجال الديني . الا انهم في الواقع ، لم يضعوا الدولة في خدمة الشعب ، — كما اراد اولئك الفلاسفة — ، وانما الشعب في خدمة الدولة ، ليزيدوا من قوتها ويرفعوا من شأنها .

خامسا — فرنسا في القرن الثامن عشر

خلّف الملك لويس الرابع عشر فرنسا في عام ١٧١٥ ، وقد انهكتها الحروب، ونـاء شعبها تحت ثقل الضرائب ، وكانت احوج ما تكون الى اصلاح اوضاعها . وعلى الرغم من بعض المبادرات الطيبة بهذا الشأن ، الا ان مقاومة الملك (لويس الخامس عشر) كانت عائقا في وجه أي تغيير عميق . ولذا فقد توفي الملك (لويس الخامس عشر) وفرنسا تعاني مشكلات كبيرة . ومثلما لم تنجح محاولات الاصلاح في عهد الملك (لويس الخامس عشر) ، فانها اخفقت في عهد خلفه (لويس السادس عشر) ، وهكذا غدا الجو مهيئا للانفجار الكبير الذي كان (الثورة الفرنسية) عام ١٧٨٩.

آ — عهد لويس الخامس عشر (١٧١٥—١٧٧٤) : كان (لويس الخامس عشر)

وهو احد احفاد لويس الرابع عشر ، في الخامسة من عمره ، عندما وصل الى العرش • وقد اظهرت فترة حكمه ، انه لم يكن يتمتع بشخصية قوية تتيح له ان يدير البلاد وهي في ازماتها • كما انــه صرف اهتمامه الى كثير من اللهو • ومن ثـم ، فان تأثير الطبقة الارستقراطية ، قد تزايد في عهده ، عبر حاشيته وموظفيه • وقـد جرت محاولات لتقوية البنية الادارية والمالية ولكنها اخفقت •

ويمكن ان يقسم عهده الى ثلاث مراحل واضحة :

١ ـ مرحلة الوصاية على العرش ١٧١٥ـ١٧٢٣ : وكان يحكم خلالها فرنسا الوصي على العرش (فيليب دورلئان) ، ابن اخي لويس الرابع عشر • وكـان معروفا بالشجاعة ، والذكاء ، ورعاية الآداب ، والفنون ، الا انــه كان كسولا وانانيـا • فاعطى السلطة لطبقة نبلاء الدم (السيف) ، واعـاد للبارلمان حقه الكامل في الاعتراض على قرارات الملك • الا ان هذه الاجراءات لم يطل امدها ، اذ اضطر امام ازدياد مقاومة البارلمان ، ان يضعه عند حده ، واستغنى عن عمل (نبلاء الدم) ، وبذلك عادت وزارات الدولة الى (نبلاء الثوب) •

وتميز عهده باتجاه البلاط ، والطبقة العليا ، الى حياة اللهو ، والتسلية ، والانغماس في الحفلات ، والاستقبالات ، وموائد الطعام ، والشراب ، واللعب • وكأن هذه الفئة من المجتمع ارادت ان تعوض سنوات الصرامة التي عاشتها فـي عهد الملك لويس الرابع عشر • وقد يشبه هذا (الازمة الاخلاقية) التي عانتها انكلترة والتي أشير اليها سابقا •

وقـد يكون اسوأ ما اصاب فرنسا في هذه المرحلة ، هو ما سمي في التاريخ بـ (فضيحة « لــو Law ») المالية) • وهي في واقعها ، اخفاق محاولة لايجـاد تجديد مالي في فرنسا • فقد كانت البلاد تشكو خللا في اوضاعها المالية : فالتجارة راكدة ، والدولة تنفق الضرائب قبل (٣) اعوام من جمعها ، والنقد المعدني مختف• وامام هذا الوضع كان لا بد من تضييق النفقات ، واتباع سياسة تقشف شديدة• ولكن الوصي على العرش اختار طريقا آخر ، وهــو ما عرضه عليــه الايقوسي (جون لــو John Law) • فقد اسس هذا الاخير مصرفا ليودع الناس فيـه

اموالهم ، وما لديهم من ذهب وفضة • واعطي هذا المصرف بالمقابل حق اصدار (ورق نقدي) بقيمتها • وقد وثق الناس في بادىء الامر بتلك الاوراق النقدية ، لانـه كان بامكانهم ان يبدلوها في أي وقت ، بنقد رنان (أي نقد معدني) ودون اية صعوبة • الا ان المصرف اصدر ورقا نقديا ، اكثر بكثير من قيمة الذهب والفضة المودعين ، وبذلك اصبح لدى البنك رؤوس اموال يمكنه أن يقرضها للدولة ، وأن يقوم بمشروعات واسعة •

وبالفعل اوجد (شركـة المسيسبي) لاستثمار ثروات امريكا ، ووضع يده على الشركات الاخرى ، واحتكر جمع الضرائب ، وصك النقود ، وبيع التبغ ، واعيد لصالحه ، منصب (المراقب العام للمالية) •

وحتى يجعل الناس يقبلون على توظيف اموالهم في المصرف ، فانـه نظـم دعاية واسعة ، وذلك بان منّاهم بارباح خيالية • الا ان الامور ما لبثت ان تكشفت، واتضح ان الارباح الموزعة ، لا تتفق مع الآمال • فبدأ بعض المساهمين يسحبون اموالهم ، وتبعهم آخرون ، واشتد الذعر • ولمـا لـم يكن المصرف يملك سوى ما قيمته (٥٠٠) مليون من النقد الرنان ، فانه لم يستطع ان يسدد ثمن المليارات الثلاثة التي اصدرها • ومـن ثم كـان اعلان الافلاس عام ١٧٢٠ ، واضطر (لو) الى الهرب ، وافلس آلاف الاشخاص ، بينما حقق بعضهم ارباحا صارخة •

وقد يكون من الأعمال الحسنة للوصي على العرش ، هو تحالفه مع انكلترة، ذلك التحالف الذي اوقف لفترة ، الصراع الطويل من اجل السيادة الامبراطورية في المستعمرات •

٢ ـ مرحلـة ادارة فلوري Fleury ١٧٢٣ـ١٧٤٣ : وكان «فلوري» مربي الملك ، واصبح في عام ١٧٢٦ وزيره الاول • واستطاع خلال عشرين عاما ، ان يحكم البلاد برصانة وحكمة ، فقد عاشت فرنسا في سلام خارجي وداخلي • وتجنب فلوري الصراعات الدينية ، والصدامات مع البارلمانات ، ولم يقم بأيـة محاولة لتغيير الاوضاع تغييرا جذريا • وبالفعل فقد ثبتت قيمة النقد ، وكـان هذا دافعا لحفز الاعمال قدما • وكانت المواسم الزراعية حسنة بشكل عام ، ومردود

الضرائب افضل من السابق ، والحكم في المقاطعات حازما ومنتجا • وقد توسعت الطرق ، وازدادت التبادلات ، ونمت التجارة الخارجية بين ١٧١٣ـ١٧٤٣ من (٨٠) مليون من الليرات ، الى (٣٠٨) ملايين منها ، وتوسعت موانيء الاطلنطي ، وازدهرت • وعندما توفي فلوري عام ١٧٤٣ ، كانت فرنسا قد عوضت ما فقدته في حروب لويس الرابع عشر •

٣ ـ مرحلة الحكم الشخصي للملك ١٧٤٣ـ١٧٧٤ : قبض الملك على السلطة بنفسه بعد وفاة فلوري • وعلى الرغم من نياته الطيبة ، فان ادارة الآليــة المعقدة للدولة كانت تفــوق امكاناته • وجاءت سياسته الخارجية ، ودخوله في حروب طويلة ، لتزيد من حاجته المالية ، ولتولد بالاحرى (أزمة مالية) • وهذه بدورها، جعلته في مجابهة مباشرة مع الكنيسة ، والبارلمانات ، والمصالح الخاصة فــي البــلاط •

وفي الواقع،وقفت البارلمانات في وجهه ، عندما اراد نفي بعض (الجانسينيين)• وظل (بارلمان باريس) لخمس سنوات ، وهو يعارض ارادته •

كما ان البارلمانات ، وقفت في وجه أي حل جذري للمشكلة المالية • فالحالة المالية كانت خطرة ليس بسبب النفقات العسكرية ، وفتح الطرقات ، وتأمين حياة البلاط اللاهية فحسب ، وانما لان التنظيم المالي كان سيئا في اساسه ، لعدم وجود ميزانية دقيقة ، ولسوء توزيع الضرائب : فقد كان دافعوها هــم الطبقة الدنيــا فقط • كما ان طريقة جمع تلك الضرائب كانت سيئة : فالملتزمون العامون كانوا يجمعون من الضرائب غير المباشرة ، اكثر بكثير مما يدفعونــه للدولة • وكــان الحل الوحيد والسليم ، **ايجاد (ضريبة موحدة) تتناسب مع الدخل** ، وتفرض على الجميع • وبالفعل فرضت ضريبة ٥٪ على الدخل ، وكان ذلك عام ١٧٤٩ • الا انــه تشكل تحالف مؤقت من رجال الدين ، والنبلاء ، والبارلمانات ، لمقاومتها، واستطاع هذا التحالف ان ينجح • وبقيت ضريبــة ٥٪ (أو $\frac{١}{٢٠}$) موجودة ، وانما ضريبة على الشعب وحده •

ولكن حاجة لويس الخامس عشر للمال ، بسبب حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، طرحت المشكلة ثانية . ووقفت البارلمانات هذه المرة ، جبهة واحدة ، في رفضها الضريبة الواحدة على الجميع . الا ان الملك اتخذ موقفا صلبا منها ، فالغى (بارلمان باريس) عام ١٧٧١ ، ونفى اعضاءه ، وجمعت الضريبة الموحدة . كما جعل القضاء مجانا (أي ان المتخاصمين لم يعودوا يدفعون تكاليف دعاويهم) ، والغى بيع وظائف القضاء ، واصبح القضاة موظفين تعينهم الدولة ، ويتقاضون اجورهم منها . وهكذا لم تعد البارلمانات قوة في الدولة .

الا ان الدعاية ضد تلك الاصلاحات ، من خصومها النبلاء ورجال الدين ، جعلت الرأي العام يكره اكثر فاكثر حكم الملك لويس الخامس عشر . ولذلك ، عندما حضرته الوفاة عام ١٧٧٤ ، فان النقمة ضده كانت عارمة . وهذا ما سمح للفئات الارستقراطية المناوئة كي تشن هجومها .

ب ـ عهد الملك لويس السادس عشر (١٧٤٧-١٧٨٩) : خلف (لويس الخامس عشر) على عرش فرنسا ، حفيده (لويس السادس عشر) ، الذي حكم حتى اعدامه عام ١٧٩٣ . لقد كان مخلصا ومستقيما ، الا انه لم يكن ليملك الذكاء الكافي ، او قوة الارادة الحازمة ، لقيادة فرنسا في تلك الفترة الصعبة من تطورها. وكانت زوجه هي (الملكة ماري انطوانيت) ، ابنة الملكة (ماريا تيريزا) ، امبراطورة المانيا . وقد اساءت الى نفسها ، والى الملك ، والى الملكية ، بسلوكها اللاهي ، وعدم اكتراثها بالرأي العام .

وفي عهد لويس السادس عشر ، رفعت طبقة النبلاء التي دعمتها الملكة ، رأسها ، وتحدت سلطة الملك ، واضعفت هيبته ، في الوقت الذي تجنبت فيه تحمل أية مسؤولية . اما فئة الفلاسفة ، والمفكرين ، فقد ضاعفت حملاتها النقدية على النظام القديم ، دون ان تعارض الملكية بشكل مباشر . وكانت البورجوازية تشكو من عدم تسلمها المناصب السياسية ، بما يتلاءم مع قوتها الاقتصادية . وكانت الفئات التي لا تتمتع بأية امتيازات ، والتي لا تملك شيئا ، هي التي تحمل اكبر الاعباء ، وقد بلغت قوة احتمالها حدها الاقصى .

ومع ان الملك (لويس السادس عشر) أعاد الى البارلمانات سلطتها ، فان تعيينه الفيزيوقراطي (تورغو) مراقبا عاما للمالية ، كان دليلا على رغبته في متابعة الاصلاحات • وقد اراد (تورغو) ان يوجد تجديدا كاملا في البنية الاقتصادية ، والمالية ، ولكن برامجه اثارت هجوما عاصفا ، مما ادى الى عزله عام ١٧٧٦ • وقد سعى الذين تلوه ، من امثال (نيكر) و (كالون) و (دوبريين) ان يسيروا في الاصلاح المالي ، ولكنهم لم يستطيعوا المتابعة • فعلى الرغم من تفاقم (الازمة المالية) الناجم عن تدخل فرنسا في (الثورة الامريكية) ، فان الارستقراطية رفضت قبول اية اصلاحات ، يمكن ان تمس امتيازاتها •

وحوالي منتصف ١٧٨٠ ، كانت طبقة النبلاء لا تحتكر البارلمانات نفسها فحسب ، وانما مناصب الوزارة ، والاساقفة ، وقادة الجيش • وازدادت الاوضاع سوءا بعد ١٧٨٥ ، اذ تبدت ازمة اقتصادية خانقة ، لسوء مواسم ١٧٨٧و١٧٨٨ ، واشتدت البطالة ، وارتفع سعر الخبز ، وتضاعف البؤس بين الطبقات الفقيرة •

وفي هذه الاجواء قامت اضطرابات ، اثارتها بارلمانات المقاطعات في مدن عديدة من فرنسا ، اذ ان اصحاب الامتيازات قرروا النضال ضد السلطة المطلقة للملك ، وضد أية ضريبة تفرض عليهم • وقد ظهرت البارلمانات في اعين الشعب ، وهي تدافع في الحقيقة عن امتيازاتها ، وكأنها هي حامية الشعب والوطن • وقد اصرت تلك البارلمانات على دعوة (الجمعية العمومية) للانعقاد ، تلك الجمعية ، التي تضم نوابا عن الفئات الثلاث في المجتمع : رجال الدين ، والنبلاء ، والشعب ، والتي لم تنعقد منذ مطلع القرن السابع عشر • وتراجع الملك امام موقف البارلمان ، وقرر دعوة (الجمعية العمومية) في ايار ١٧٨٩ •

وهكذا ابتدأت (الثورة الفرنسية) بثورة (اصحاب الامتيازات) ، الا انها لم تلبث ان تحولت الى حركة ثورية واسعة ، تجاوزت بعيدا ، أهداف البادئين بها •

الفصل الثالث

العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر

آ – السمات العامة للعلاقات الدولية :

اتسع ميدان العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر اتساعا كبيرا ، وتضاعفت المنافسات على ارض القارة الاوربية بين الدول الكبرى ، واضيف اليها المنافسات الاستعمارية ، فلم تعد الحرب تجري على البحر لسلامة هذه الطريق التجارية أو تلك فحسب ، وانما على ارض المستعمرات نفسها : ففي الهند ، وامريكا ، اصطدم الفرنسيون ، والانكليز ، والاسبان • وكان يسبق الحروب بين البلدان التجارية والبحرية ، ويرافقها ، مفاوضات تجري بين الكواليس الدبلوماسية ، ويقوم بها تجار كبار ، لهم نفوذهم السياسي • ومع ذلك فان الارض الاوربية بقيت المركز الاساسي للصراعات العالمية • وكان الملوك يتبعون فيها (سياسة اسرية) ، هدفها في الدرجة الاولى الحفاظ على ما ورثوه من تراب الوطن ، او توسيعه ، وهذا ما يفسر كثرة حروب الوراثة •

ولم تخضع العلاقات الدولية في هذا القرن لقواعد اخرى غير قواعد مصلحة السلالة الحاكمة ، ومصلحة الدولة •وكانت جميع الوسائل مباحة للانتصار على العدو : مثل رشوة الممثلين الدبلوماسيين لرجال الدولة ، وشراء المراسلات ، أو التجسس عليها ، واعطاء منح للاحزاب المعارضة ، الخ • ومثل تلك المبادىء ، كانت وراء اندلاع الحرب ، وسيرها ايضا • ففي عام ١٧٤٠ ، قذف الملك (فردريك الثاني) بجيوشه في سيليزيا ، دون ان يعلن الحرب • وفي ١٧٥٦ اجتاح ساكسونيا بالطريقة نفسها • وفي البحر هاجم الانكليز اساطيل اعدائهم ، واستولوا على سفنهم التجارية •

وعندما كان يأتي وقت انهاء الحرب ، واقامة الصلح ، واعادة رسم الحدود ، فانه لم يكن لينظر البتة الى ارادة الشعوب • فالشيء الوحيد الذي يحسب حسابه هو (قانون المنتصر) : فالغالب هو الذي يتصرف بالاراضي المفتوحة ، ومن يعيش عليها • ويمكنه ان يبادل سكانها مع آخرين كسلعة بسيطة • ففي عام ١٧٢٠ مثلا ، الزم الامبراطور (شارل السادس) ، ملك البيه مون ، على التنازل عن صقلية ، مقابل حصوله على سردينيا •

ب ـ الجيش والحرب :

١ ـ تركيب الجيش : كان يجمع جزء من الجيش ، في القرن الثامن عشر ، من سكان البلاد انفسهم : ففي فرنسا مثلا ، كان يجمع ، ومنذ اواخر القرن السابع عشر ، من الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ـ٤٠ سنة ، من سكان الريف العازبين • وكان هؤلاء يكوّنون **(فرق ميليشيا المقاطعات)** •

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، غدت هذه الفرق دائمـة ، وتؤلف جيشا حقيقيا يخدم افراده بين عامين ، وستة اعوام • وكان هذا الجيش اثنـاء « حرب السنوات السبع » يمثل اكثر من ثلث القوى المشتركة في القتال • أما باقي الجيش فكان يتكون من (جنود محترفين) • وهم قسمان : اما (متطوعة) ، يجمعهم بعض الضباط ، بطـرق خسيسة كالاغـراء بالمـال ، او الطعـام وغيـره • او **(جنود مرتزقـة)** غرباء ، تدفع لهم اجور حسنة ، ويجمعون في فرق ، بحسب لغاتهم • وهكذا كان تحت تصرف فرنسا ، في عهد الملك لويس الخامس عشر ، (١١) فرقة سويسرية ، بالاضافة الى الحرس السويسري الخاص بالملك ، و (٦) فرق المانية ، و (٥) ايرلندية ، و (٢) ايطالية الخ • وكان يمكن اعارة هـذه الوحدات المحترفة للملوك الآخرين ، او تأجيرها لهـم • وكان بعض قـادة تلك الجيوش ، بغيرون المعسكرات التي يعملون معها ، كما يحلو لهم • كمـا كـان بامكـان بعض ضبـاط الجيش ، ان يلعب في الجيوش الاجنبية الاخـرى ، دور (مستشار تقني) ، او ان يمارس قيادة رئيسية ، مثلما كان عليه ، حال (المركيز

لافاييت) في جيش الثوار الامريكيين • وقد ادى تكوين ضباط الجيش في المدارس، والاكاديميات العسكرية ، وكثرة الحروب ، وانقلابات التحالفات العديدة ، الى صبغ الطبقة العسكرية بصبغة (العالمية) •

٢ ـ **كيفية الحرب :** ان جيوشا ، مثل تلك التي اشير اليها ، تكلف غاليا • ولذا فقد كان الجنود يخضعون لتدريبات هامة للحصول على النصر • ومن هنا اتت تلك التدريبات المستندة الى علم حقيقي ، والتي جعلت من الحرب لعبة شطرنج فعلية ، يسعى فيها نحو اجبار العدو على التراجع ، وذلك بتهديده بالحصار من كل جانب • والهدف ، هو ايصاله ، شيئا فشيئا ، الى ارض صالحة ، لالتحام المعركة عليها • وقد غدت المعارك قاسية ، قاتلة ، وازدادت ضراوة مع تقدم التسليح ، وانتشار استخدام الرماة ، (وهم جنود مسلحون تسليحا خفيفا يوضعون في طليعة الجيوش) ، والبارود •

واذا كانت الحرب قاسية على الجنود،فانها كانت أقسى على السكان المدنيين• فحيثما كان يمر الجنود ، فانهم كانوا يعيثون فسادا بالبلدان التي يمرون منها ، ويزرعون في جنباتها الرعب • واقل الامور التي كانوا يرتكبونها ، هو الاستيلاء على الطعام ، والثروات ، ونهب البيوت ، والكنائس • واذا ما قاوم المدنيون ، فان القرى كانت تحرق ، والرجال يقتلون او يشنقون ، والنساء والاطفال يذبحون• ففي كل يوم تقريبا ، كان هناك ذعر يروع السكان ، ويجعلهم يهجرون ديارهم • وفي أي عصر هذا ؟ في (عصر الانوار) وعصر سيادة مظاهر الحضارة الرفيعة •

٣ ـ **التسليح :** حلت (**البندقية**) في القرن الثامن عشر محل (الطبنجة)، وغدت سلاح جميع الجيوش الاوربية • وكانت اخف واسهل في الاستعمال منها ، ويمكنها ان تطلق طلقتين او ثلاثا في الدقيقة ، والى بعد ١٠٠ـ١٢٠ مترا ، وكانت مزودة بحربة ومن ثم كان من الممكن استخدامها في حرب الالتحام ، جسما بجسم •

والى جانب البندقية ، كان هناك (**المدفعية**) وتصنع من البرونز ، وكان المدفع قادرا على توجيه قنبلة ، او قنبلتين في الدقيقة ، بوزن ٤ـ٣٣ ليبرة ، انما

لـم يكن التصويب دقيقا • وقد ادخلت تحسينات على المدفعية في فرنسا ، خلال حروب الثورة ، والامبراطورية • ويلاحظ ان اللباس الموحد للجيش قد انتشر وعمم في هــذا القرن •

ج ـ الاطوار الكبرى للعلاقات الدولية

اولا ـ العودة الى السيادة الفرنسية (١٧١٥ـ١٧٤٠) :

على الرغم من ان هذه المرحلة كانت مضطربة في اوربا ، الا انهـا لـم تجر خلالها سوى حرب واحدة هي (حرب الوراثة البولونية ١٧٣٣ـ١٧٣٨) • وقـد تميزت بالعلاقات الطيبة بين انكلترة وفرنسا ، مما ادى الى التحالف بينهما •

التحالف الفرنسي الانكليزي : بعد حروب (لويس الرابع عشر) الطويلة ، مالت انكلترة وفرنسا الى السلام : الاولى لتستفيد ما امكن مـن المواقع الممتازة التي كسبتها في معاهدات ١٧١٣ـ١٧١٤ ، والثانية لتستعيد قواها ، وتنظم ماليتها. ففي ١٧١٦ وقعت معاهدة تحالف بـين الدولتين ، دخلت فيها في العـام التالـي المقاطعات المتحدة • وقد ساعد هذا التحالف على كبح جماح طموحات ملك اسبانيا (فيليب الخامس) ، الذي أراد ان يستعيد ممتلكات اسبانيا في ايطاليا • فبعـد حرب قصيرة ضد الامبراطور (١٧١٧ـ١٧٢٠) ، اضطر الملك فيليب ان يتنازل عن مطامحــه •

حرب الوراثة البولونية (١٧٣٣ـ١٧٣٨) :

كان ملك بولونيا (ستانيسلاس ليكزنسكي Stanislas Leczinski) وهو حمو الملك لويس الخامس عشر ، قد خلع عن عرشه عا م١٧٠٩ ، الا انه اعيـد انتخابه ملكا لبولونيا ، عام ١٧٣٣ بدعم من فرنسا • ولكن النمسا ، وروسيا ، تدخلتا ضــده ، فاستنجد بصهره ملك فرنسا • ودخلت فرنسا الحرب ، وحققت انتصارا في الجبهة الايطالية ، وفي منطقة الريــن • وانتهت الحرب بتوقيع (صلح فينا) عام ١٧٣٨ ، وفيهيتنازل (ستانيسلاس) عن بولونيا ويأخذمقابلذلك مقاطعة (اللورين) ، التي تعود بعد وفاته الى صهره ملك فرنسا • وينال (دون كارلوس)،

ابن ملك اسبانيا ، الذي كان حليفا لفرنسا في حربها ، نابولي وصقلية ، ويؤسس سلالة آل بوربون في نابولي • ويعطى صهر الامبراطور (فرانسوا دوق دولورين) (طوسكانا) تعويضا عن الامارة التي تنازل عنها • وبذلك تدعمت قوة فرنسا ، وشيئا فشيئا ، فرضت نفسها حكما لاوربا ، بفضل وزيرها (فلوري) • ففي ١٧٣٩ دخلت وسيطا بين السلطان العثماني حليفها ، وبين الامبراطور ، وتوصلت الى صلح لصالح الدولة العثمانية ، استعادت فيه هذه الدولة (صربيا) ، وجزءا من (فلاشيا) ، كانت قد فقدتهما عام ١٧١٨ • ونالت فرنسا مقابل وساطتها ، تجديدا لامتيازاتها التجارية القديمة • وقد اقلق هذا الامر بريطانيا ، في وقت دخلت فيه العلاقات بين الدول مرحلة جديدة •

ثانيا ـ مرحلة السيادة الانكليزية البروسية (١٧٤٠-١٧٦٣) :

لم يكن بوسع فرنسا ان تحافظ على سيادتها في القارة الاوربية ، وهي في الوقت نفسه تنازع انكلترة السيادة على البحار ، وفي المستعمرات • ولذا فانها ، وهي تتبنى هذه السياسة المزدوجة ، وقعت في مأزق ، واصيبت بنكسات خطرة خلال الحروب التي خاضتها ، وهي :

آ ـ حرب الوراثة النمساوية (١٧٤١-١٧٤٨) :

وترجع الى عـدة أسباب :

اولها ، التنافس الاقتصادي : شعرت انكلترة بالتقدم الاقتصادي الفرنسي، والاسباني ، كما هددت سيادتها على البحار • ولم يعد التجار الانكليز ، يحققون الارباح المعهودة في تجارتهم مع امريكا الجنوبية • ولذلك دخلت في حرب مع اسبانيا • وجاءت فرنسا الى جانب اسبانيا ، للصلة القوية بين السلالتين الحاكمتين، ولرغبتها في اضعاف انكلترة •

ثانيها ، قضية وراثة عرش الامبراطورية : توفي في عام ١٧٤٠ الامبراطور (شارل السادس) ، تاركا التاج لابنته (ماريا تيريزا) ، بعد ان تنازل لها في

حياته عن جميع املاكه • وقد اعترفت لــه بذلك الدول الرئيسية الكبرى،ورعاياه. الا أنــه بمجرد وفاته ، تنصل عدد من الملوك ، والامراء الكبار ، والصغار ، من عهدهم السابق • ومنهم امراء بافاريا ، وساكسونيا ، وسردينيا ، وملك بروسيا ، وفكروا في اقتسام النمسا ، واقتطاع اجزاء منها •

ثالثها ، طموح الملك (فردريك الثانــي) : ملــك بروسيا ، وطمعه بسيليزيا الشهيرة بصناعتها النسيجية • وقد بادر هذا الملك ، واستولى على سيليزيا ، وانتصر في حربــه على النمسا • ودفع هذا النصر فرنسا ، كي تتحالف مع الدولة الفتيــة والقوية ، وكانت تأمل ان تستولي على الاراضي المنخفضة النمسوية(بلجيكاحاليا). كما دخل في التحالف ، امير بافاريا الذي كان يطمع بالتاج الامبراطوري •وقررت انكلترة ، والمقاطعات المتحدة ان تقفا في وجه المطامع الفرنسية ، فتحالفتا مع ماريا تيريــزا •

ودارت الحرب ، على ارض القارة الاوربية ، وفي المستعمرات • وابــدت (ماريا تيريزا) الكثير من الشجاعة ، ورباطة الجأش ، فاستقطبت الى جانبها كما رأينا انكلترة ، والمقاطعات المتحدة • الا ان فرنسا ، وبروسيا ، وحلفاءهما ، حققوا انتصارات على النمساويين في ايطاليا ، والاراضي المنخفضة ، وارض الامبراطورية، حتى احتلت فرنسا بوهيميا •

وفي المستعمرات استطاع (دوبليكس Dupleix) الفرنسي ، ان يقف في وجه الانكليز في الهند ، وان ينتزع منهم مركز (مدراس) التجاري • اما فــي امريكا الشمالية ، فقد كانت الهجمات الانكليزية قوية ، اجتاحت كندا الفرنسية وازالت الخطر الذي كان يهدد مصائد الاسماك الانكليزية •

واتتهت الحرب في عام ١٧٤٨ بتوقيع (صلح ايكس لاشابيل) : وفيه كسب (فردريك الثاني) سيليزيا ، الا ان فرنسا تنازلت عن جميع فتوحاتها ، في سافوا ونيس ، والاراضي المنخفضة • واعادت اوضاع المستعمرات ، الى ما كانت عليه قبل بــدء الحرب • واعترف بـ(فرانسوا دولورين) ، زوج (ماريا تيريزا) ، امبراطورا لالمانيا ، باسم (فرانسوا الاول) •

الا ان الصلح لم يكـن الا هدنـة مؤقتة ، لان (الرأي العام الفرنسي) لم يكن راضيا عنه ، اذ بدا فيه الملك (لويس الخامس عشر) ، وكأنه خاض الحرب لصالح (**فردريك الثاني**) .

كما ان (ماريا تيريزا) ، لـم تنس سيليزيا التي كانت تقول عنها : (هذه المقاطعة العزيزة هي لؤلؤة الامبراطورية) ، ولذا كانت تعد نفسها للثأر .

ب ـ حرب السنوات السبع (١٧٥٦ـ١٧٦٣) : وكانت **حربا على القارة ، وفي البحار ، وفي المستعمرات** . واتخذت صورة حرب عامة ، مع مسارح عديدة للعمليات الحربية في اوربا ، والهند ، وامريكا .

وتمثل السنوات السابقة للحرب ، في الواقع ، والممتدة بين ١٧٤٨ــ١٧٥٦ ، مرحلة (حرب باردة) : فقد كانت (ماريا تيريزا) تعد نفسها ، وتقوي دولتها ، لاستعادة سيليزيا .فتحالفت مع روسيا في الشرق ، ومـع فرنسا العدوة الوراثية لآل هابسبورغ في الغرب . وخاف فردريك الثاني من خطر العزلة ، فتحالف مـع انكلترة ، التي كانت مصممة على اضعاف فرنسا في اوربا ، وعلى طردها من كندا ، والهند . ودخل الى جانب فرنسا ، النمسا ، وروسيا ، اسبانيا ، وبعض الـدول الالمانية . ومرة أخرى أثبت (فردريك الثاني) مواهبـه الحربيـة ، فهـاجم ساكسونيا دون اعلان للحرب ، والزم الجيش الساكسوني على القتال الى جانبه ، وحقق انتصارا على الجيش الفرنسي ــ الالماني في (روسباخ) ١٧٥٧ ، وعلـى الجيش النمسوي في (لوتــن Leuthen) . واستطاع وحده ان يقاوم هجمات الفرنسيين ، والنمساويين ، والروس . ولكن الهزائم اخذت تلاحقه في عام ١٧٥٩ ، وكاد ان يستسلم امام القوات الحليفة ، التي استولت على برلين عـا م ١٧٦٠ ، لولا ان الصدفة انقذته . فقد تسلم عرش روسيا (بطرس الثالث) ، وكان شديد الاعجاب بـه ، فقرر الانسحاب من الصراع ، واعلن نفسه حليفا لـه .

وفي هذا الوقت ، كانت الحرب دائرة على البحار ، وفي المستعمرات ، بـين انكلترة وفرنسا . وحقق الانكليز ، باسطولهم الضخم ، النصر علـى الاسطول الفرنسي ، على الشواطىء الفرنسية ، وخارج اوربا . وفي ١٧٦١ كـانت لهـم

السيادة المطلقة على البحار . وفي المستعمرات ، لم يكن النجاح حليف الفرنسيين ايضا ، اذ هزموا في كندا ، والهند .

وانتهت الحرب(**بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣**) ، التي فقدت فيها فرنسا مستعمراتها الرئيسية . ولم تحتفظ في الهند ، سوى بخمسة مراكز تجارية . وكان هذا **نهاية (الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية الاولى)** . كما وقع (صلح هوبرتسبورغ Hubertsbourg) في العام نفسه ، وفيه تنازلت (ماريا تيريزا) نهائيا عن سيليزيا لفردريك الثاني .

واذا كانت ارض بروسيا قد اجتاحتها القوى المعادية وخربتها ، فان ما حققته من نصر ، رفع مكانتها في اوربا و لاسيما في البلاد الالمانية ، حيث شرع نفوذها ينافس النفوذ النمسوي ، ويحل محله . وكان هذا تهديدا للنمسا ، التي خرجت من الحرب منهوكة القوى ، لاهثة الانفاس . اما فرنسا فقد اضاعت هيبتها ، وضعف شأنها ، وخسرت اقتصاديا خسارة كبيرة بفقدانها لمستعمراتها .

ثالثا ــ العلاقات الدولية في شرقي اوربا (١٧٣٥ ــ ١٧٩٢)

وكان محورها الدولة العثمانية ، وبولونيا . وقد أشير سابقا ، بأن الدولة العثمانية ، كانت لا تزال في القرن الثامن عشر مسيطرة على شبه جزيرة البلقان ، وعلى الشواطىء الشمالية للبحر الاسود ، على الرغم مما اصابها من ضعف داخلي. ومن المعروف ان روسيا ، كانت دائما تطمح بالوصول الى المياهالدافئة فيالجنوب ، في البحر الاسود وفي البحر المتوسط ، كما كانت تعتبرنفسها وريثة الامبراطورية البيزنطية ، وحامية المسيحية الارثوذكسية ، والشعوب السلافية . ومن ثم فان مطامعها بالامبراطورية العثمانية كانت غير خافية . بل اصطدمت معها في عهد بطرس الاكبر ــ كما سلف القول ــ .

الحرب الروسية التركية (١٧٣٥ــ١٧٣٨) : وعادت الحرب بين الطرفين ثانية عام ١٧٣٥ ، وذلك بسبب التدخل الروسي في شؤون بولونيا ، وحرب الوراثة البولونية ، وبسبب النزاع على بعض المناطق على الحدود بينهما . ودخل الى جانب روسيا ، النمسا العدوة التقليدية للدولة العثمانية . واستولت روسيا على

(آزوف) . الا ان فرنسا دخلت وسيطا بين الطرفين ، وانتزعت صلحا لصالح الدولة العثمانية وهو (صلح بلغراد) . وفيه تنازلت النمسا عن شمالي بلادالصرب وعن بلغراد نفسها ، ووافقت روسيا على ازالة تحصيناتها العسكرية في آزوف ، والا تبني اسطولا حربيا في البحر الاسود ، وان تنقل تجارتها فيه على مراكب تركية .

وفي عهد القيصرة (كاترين الثانية) التي كان همها الاكبر التوسع غربا وجنوبا ، عادت العلاقات للتأزم . فقد اقامت القيصرة علاقات وثيقة مع (فردريك الثاني) ملك بروسيا . ووقفت في وجهها في سياستها هذه الدولة العثمانية ، وبولونيا ، كما شعرت النمسا ، وفرنسا ، والسويد ، بخطر هذا التحالف .

وقررت (كاترين الثانية) ان تحول الملكية البولونية الى لعبة في يدها ، كجزء من سياستها التوسعية غربا . فعندما حاول ملك بولونيا (ستانيسلاس بونياتوفسكي) أن يصلح الاحوال في بلاده ، فانها منعت تلك الاصلاحات ، واحتلت البلاد عام ١٧٦٨ . وبتحريض من فرنسا ، اعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا .

الحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨-١٧٧٤) : وعلى الرغم من ان كاترين الثانية لم تكن لتريد الحرب في ذلك الوقت ، فانها احتلت المقاطعات التركية ، مولدافيا - وفلاشيا (البغدان والافلاق) ، وبعثت بعملائها لتحريض الثورة في اليونان .

وخشيت النمسا ان تسيطر روسيا ، لا على بولونيا فحسب ، وانما على شاطىء البحر الاسود ايضا ، فتحالفت مع تركيا . الا ان (فردريك الثاني) ، الذي اقلقه امكان تحول الحرب في شرقي اوربا ، الى حرب عامة ، وهو غير مستعد لها ، فانه دخل وسيطا بين النمسا وروسيا . وكانت النتيجة الاقتسام الاول لبولونيا عام ١٧٧٢ : وفيه يأخذ (فردريك الثاني) بروسيا البولونية ، و (ماريا تيريزا) غاليسيا ، و (كاترين الثانية) روسيا البيضاء . وبذلك فقدت بولونيا (٢/٥) اراضيها .

وظلت الحرب دائرة مع الدولة العثمانية حتى ثورة (بوغاتشيف) في روسيا ۱۷۷۳ • وعلى أثرها ، وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا ، معاهدة (كوشوك قينارجة) عام ۱۷۷٤ • وفيه تأخذ روسيا ازوف ومناطق اخرى في شبه جزيرة القرم ، كما يصبح لها حق حرية الملاحة في المياه التركية • واعترف باستقلال التتر في شبه جزيرة القرم ، شريطة اعترافهم بالسلطان كخليفة • واعيدت مولدافيا ، وفلاشيا ، الى الدولة العثمانية ، على ان تحكما نفسيهما بنفسيهما • وسمح لروسيا ان تبني كنيسة في (غلطة) ، ووعد الاتراك بحماية الكنائس المسيحية ، واعترفوا بحق روسيا في حماية الكنيسة التي ستبنى في (غلطة) • وفسرت روسيا هذا البند ، بانه يعني حق حمايتها للرعايا الارثوذكس كلهم في الدولة العثمانية ، وهذا ما ادعته باستمرار منذذلك التاريخ •

وفي ۱۷۸۱ تم التحالف بين روسيا والنمسا ، وقدمت فيه (كاترين الثانية) (مشروعها اليوناني) : ويتضمن طرد الاتراك من اوربا ، واعادة الامبراطورية البيزنطية في شخص حفيدها (قسطنطين) ، وينال النمساويون مقابل ذلك النصف الغربي من البلقان •

وفي ۱۷۸۳ ضمت روسيا (شبه جزيرة القرم) ، واقنعت النمسا وانكلترة والدولة العثمانية بالقبول •

الحرب الروسية التركية الثانية (۱۷۸۷-۱۷۹۲) :

الا ان الحرب عادت بين الدولة العثمانية وكاترين الثانية ، لمطامع روسيا في جورجيا ، ولادعائها ، بأن الدولة العثمانية تحيك المؤامرات مع تتر شبه جزيرة القرم ضدها • ودخلت النمسا الى جانب روسيا ، وحققت الدولتان نصرا ، وانتهت الحرب بمعاهدة (ياسي) عام ۱۷۹۲ • وفيه اعترفت الدولة العثمانية بضم روسيا لشبه جزيرة القرم • وهكذا اصبح لروسيا واجهة بحرية واسعة في الجنوب ، واخذت تحلم بالامتداد منها الى البحر المتوسط •

وبينما كانت روسيا منشغلة في حربها الثانية مع الدولة العثمانية ، حاولت بولونيا ان تعود ، وتحقق استقلالها • فقررت (كاترين الثانية) وضع حد

لمقاومتها • وبالاتفاق مع بروسيا ، اجرت التقسيم الثاني لبولونيا (١٧٩٣)،واتبعته بالثالث (١٧٩٥) • وبالتقسيم الاخير محيت بولونيا تماما من خريطة أوزبا ، ولم تعدللوجود ثانية الا بعد الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٩ •

ويتضح مما سبق ، ان الدولة العثمانية بقيت حتى نهاية القرن الثامن عشر ، محورا هاما من محاور العلاقات الدولية ، وستكون محط اهتمام أكبر في القرن التاسع عشر ، ومنطقة تسعى الدول لاقتطاع اجزاء منها ، ومركزا تتحالف الدول الاوربية ضده أو معه ، لتحقيق مصالحها ومطامحها • وستكوّن العلاقات الدولية المتشابكة حولها ، ما يسمى بـ (المسألة الشرقية) •

رابعا ـ الاستعمار الاوربي والعلاقات الدولية

تمهيـــد : لقد اشير سابقا ، عند الحديث عن القرن السادس عشر ، الى تأسيس اسبانيا والبرتغال امبراطوريتين استعماريتين ، وسعـي الدول الاوربية الاخرى لتقليدهما في هذا المضمار ، للحصول على مكاسب اقتصادية مماثلة ، ولانتقاص سيادتهما الاستعمارية •

ففي القـرن السادس عشر ، كـان القراصنة الفرنسيون ، والانكليـز ، والهولانديون ، يغيرون على المراكب الايبرية ، بل ويهاجمون المراكز الاسبانية ، والبرتغالية ذاتها • وفي مطلع القرن السابع عشر اصبحت كـل من فرنسـا ، وانكلترة ، وهولاندة (المقاطعات المتحدة) ، بدورها ، دولا استعمارية • وتحولت التجارة من تجارة بالذهب والفضة ـ التي مع ذلك بقيت لها اهميتها ـ الـى التجارة بالسكر ، والتبـغ ، والتوابل ، والمـواد الصباغية • وبلـغ الصراع الاستعماري ذروته ، في ١٧٦٠ ، عندما أكـدت انكلترة بأنها القـوة التجارية ، والبحرية السائدة •

لمحـة عـن التطور الاستعماري في القرن السابع عشر :

من ابـرز التطورات في ميدان الاستعمار في القرن السابع عشر ، انحطاط الدولتين الاستعماريتين ، البرتغال ،واسبانيا ، ومن ثم ضعف قبضتيهمـا على امبراطوريتيهما •

فبالنسبة **للبرتغال** ، هناك امران هامان ، كانا وراء خسارة جزء هام من امبراطوريتها ، الى جانب العوامل التي كانت قد ذكرت سابقا . واول هذين الامرين ، الحاق البرتغال باسبانيا عام ١٥٨٠ . وقد بقيت وحدة اسبانيا والبرتغال هذه قائمة حتى ١٦٤٠ . وعلى الرغم من ان الملك (فيليب الثاني) عمل لحماية مصالح الرعايا البرتغاليين ، فان انشغاله بامور القارة الاوربية ، وامبراطوريته في (اسبانيا الجديدة) ، طغى على المصالح البرتغالية .

وثاني الامرين ، ثورة الاراضي المنخفضة (١٥٨٦) ، التي اغلقت ميناء (انفرس) في وجه الصادرات البرتغالية . ولما رأت هولاندة، وانكلترة، بانهما اصبحتا مبعدتين عن تجارة لشبونة ، فانهما اخذتا تغيران على السفن البرتغالية ، اولا ، ثم عملتا على التسلل الى (جزر التوابل) ، ثانيا . وشيئا فشيئا ، انتزعتا منها تلك المراكز ، التي زرعتها على سواحل افريقيا ، وفي آسيا . ومع ان معظم تلك القواعد قد وقع في يد (هولاندة) ، فان البرتغال احتفظت بمحطات تجارية هامة في (غوئا) في الهند ، وفي (مكاو) في الصين ، وفي (انغولا)و (موزامبيق) في افريقيا ، حتى القرن العشرين . كما احتفظت بـ (البرازيل) ، في امريكا الجنوبية حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر .

أما بالنسبة **لاسبانيا** : فان القوة الاسبانية وصلت الى اوجها خلال حكم الملك (فيليب الثاني ١٥٥٦ــ١٥٩٨) ، الا انها في الوقت ذاته كانت تسير في طريق الضعف والانحدار . ولم يكن للملوك الذين توالوا على العرش بعده قوة شخصيته ، واخلاصه لشؤون دولته . ولذا فقد تابعت اسبانيا انحطاطها وذبول قوتها الاستعمارية . وساعد على ذلك ، ظهور قوى استعمارية جديدة . ولكن على الرغم من الهجوم المستمر لتلك القوى على امبراطوريتها ، كهولاندة، وفرنسا ، وانكلترة ، ولمدة ثلاثة قرون ، فان اسبانيا احتفظت بكل امبراطوريتها ما عدا (جمايكا) التي استولت عليها انكلترة عام ١٦٥٥ ، و (جبل طارق) الذي اعطي لانكلترة عام ١٧٠٤ . ولكن القوة البحرية الاسبانية كانت في تراجع،

والاقتصاد في المستعمرات في ركـود ، تتيجـة المركزية الشديـدة ، والادارة الفاسـدة •

الامبراطورية الهولاندية : واذا كان القـرن السابع عشر هو قـرن ضعف الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ، فانه ايضا القرن ، الذي تم فيه ، ظهور الامبراطورية الاستعمارية الهولاندية ، وقوتها • وقد بدأت هولاندة ببنـاء تلك الامبراطورية ، منذ ثورتها ضد اسبانيا (١٥٦٨ـ١٦٠٩) • ومع ان الاسطول الهولاندي ا بتدأ قوة دفاعية ، الا ان رجال الحرب الهولانديين ، شرعوا بقتـال اعدائهم ، وكونوا امبراطورية •

شركة الهند الشرقية الهولاندية : عمل الهولانديون حتى ١٥٩٠ عملاء في تجارة التوابل البرتغالية ، الا ان فيليب الثاني طردهم من موانىء ايبريا • ولمـا اصبحوا غير قادرين على ان يلعبوا دور الوسيط ، قرروا الذهاب الى منبـع التوابل للحصول عليها • وفي السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر ، اندفعت عدة بعثات الى (جزر الهند الشرقية) • وعلى الرغم من الخسارات الكثيرة التي لحقت بها ، الا انهـا عادت بحمولات كبيرة • ولتنظيم تلك البعثات اصدرت (الجمعية العامة) صكا بتكوين (شركة الهند الشرقية) عام ١٦٠٢ ، واعطتها الحق بانشاء محطات تجارية ، واقامة العدل ، والدخول في اتفاقات تجارية مـع الحكومات المحلية ، وحتى باعلان الحرب والسلام •

وشرعت تلك الشركة تعمل للاستيلاء على الامبراطورية البرتغالية فـي الشرق • وتمكنت من اخراج البرتغاليين من (جزر الهنـد الشرقية) ، ومـن (ارخبيل المالايـو) ، واقامت مستعمرة في (فورموزا) بقيت حتـى ١٦٦١ ، وعقدت علاقـات تجارية مـع اليابان • ثـم ضمت (مالاقـا) في ١٦٤١ ، و (سيـلان) في ١٦٥٨ • وانشأت مستعمرة (الكاب) ، في اقصى جنوبـي افريقيا في ١٦٥١ •

وفي العقود الاولى من القرن السابع عشر ، حيث ابتدأ الصراع مع البرتغال كانت هولاندة تشترك وانكلترة في التجارة ، وتحاربان معا•ولكن عندما تساقطت

المقاومة البرتغالية ، فان الهولانديين قرروا أن يحتكروا ذلك الامر لانفسهم ، فأخرجوا التجار الانكليز من (جزر التوابل) عام ١٦٢٣ • فتحولت انكلترة الى الهند ، واصبحت تلك البلاد هي المكان الاول لتجارة انكلترة في الشرق الاقصى •

ومثلما انشأت هولاندة (شركة الهند الشرقية) ، فقد اسست (شركة الهند الغربية الهولاندية) عام ١٦٢١ ، وعلى الاسس نفسها • وقام عملاؤها بمهاجمة (البرازيل) عام ١٦٢٤ ، ووضعوا معظم الساحل تحت سيطرتهم ، وبقي الامر كذلك حتى ١٦٤٥ لما قامت ثورة فيه ، الزمتهم على مغادرة المنطقة كلها ، ما عدا (سورينام Surinam) • وفي الوقت ذاته هاجمت اساطيل الشركة ، التجارة الاسبانية في (جزر الانتيل) ، وهددتها بشكل دائم ، عن طريق استيلائها على (توباغو) و (كوراشاو) ، في شمال امريكا الجنوبية عام ١٦٣٠ • وانشأ الهولانديون ايضا مستعمرة في مصب نهر الهدسون عام ١٦١٥ ، وقد تنازلوا عنها الى انكلترة عام ١٦٦٤ ، وهي التي سميت بـ (نيويورك) •

الا ان المقاطعات المتحدة (هولاندة) ـ كما اسلفنا القول ـ مالت الى افول في النصف الثاني من القرن السابع عشر • فالحروب التي خاضتها مع فرنسا تارة ، ومع انكلترة تارة اخرى ، هدت قواها وعرضتها لخسائر كبيرة • الا ان السبب الاكبر لانحطاطها في الواقع يتركز ، في ان فرنسا وانكلترة ، خلال القرن الثامن عشر ، كانتا اكثر قدرة منها على تكريس طاقات ورؤوس اموال كبيرة ، لمشاريع ما وراء البحار •

الامبراطورية الفرنسية : كانت الملكية الفرنسية ، خلال القرن السابع عشر ، منشغلة بالسياسة الاوربية،ومن ثم فانها لم توجه للشؤون الاستعمارية سوى اهتمامات ضئيلة • ومع ذلك فان الوزيرين (ريشليو) و (كولبير) ، اعتقدا ، بأن الحصول على أراضٍ ما وراء البحار ، يزيد من قوة التاج ، ويعلي من شأنه ، وبالتالي يدعم مطامع الملك في القارة الاوربية • ولما كان الدافع نحو التوسع الاستعماري قد اتى من الحكومة الفرنسية ، لا من التجار ، مثلما كان عليه الحال في هولاندة وانكلترة ، فان الامبراطورية الفرنسية ، عكست

النزعة نحو المركزة السياسية للدولـة ، ورقابتها الاقتصادية • وكانت البقاع الاساسية التي امتدت فيها الامبراطورية الفرنسية هي : جزر الهند الغربية ، وامريكا الشمالية ، والهنـد •

جزر الهند الغربية : لقد قصر الفرنسيون نشاطهم في هـذه المنطقة علـى استعمار (جزر الانتيل الصغرى) ، حيث لم يكن لاسبانيا مصالح فيها • وفي هذه الجـزر انشأت فرنسـا مجموعة مـن المستعمرات منـذ ١٦٢٠ ، وضمت (المارتينيك) ، و (الغوادلوب) ، واخيرا (هايتي) (وهي الجزء الغربي من هيسبانيولا) • ولم تنجح الشركات ، التي انشأتها فرنسا لاستغلال تلك المناطق، وادارتها ، في بادىء الامر • الا انـه بعد ادخال زراعة قصب السكر اليهـا ، عـام ١٦٤٠ ، شرعت تلك المستعمرات تنمـو اقتصاديا ، وأنشىء فيها نظـام (المزارع الواسعة) ، المعتمد على عمل العبيد من الزنوج •

امريكا الشمالية : تركـز الاستعمار الفرنسي في (كنـدا) : فأسست (كويبك) علـى مصب نهر (سـان لوران) ، واتخـذت مركزا للادارة ، والتجارة ، واستكشاف القارة الامريكية • واستكشفت منطقة البحيرات الكبرى ، ومجرى نهر المسيسيبي • وانشئت مستعمرة (لويزيانا) عـام ١٦٩٩ ، وتبع ذلك تأسيس مدينة (اورليان الجديدة) • وهكذا توضع الفرنسيون في منطقة واسعة تمتد من مصب المسيسيبي جنوبا ، الى حوض البحيرات الكبرى شمالا ، وتنفذ شرقا الى المحيط الاطلنطي • وكان المستعمرون يعملون في تجارة الفـرو ، ولا يكرسون جهدا للزراعة ، لان الحكومة منحت أراضي واسعة ، وحقوقا اقطاعيـة للملاكين الكبار ، وهذا منع نمو طبقة من الملاكين الاحرار ، الذين كانوا عصب المستعمرات الانكليزية •

في افريقيا والهنـد : وامتد الاستعمار الفرنسي الى افريقيا ، والهند ، واقيمت محطة لتجارة العبيـد في (السنغال) بعـد ١٦٤٥ ، وحصنت جـزر (موريسيوس) ، و (الريئونيون) ، كمراكز ستراتيجيـة على طريق الهند • وقد كانت مصالح فرنسا في الهنـد ، تجارية بحتـة • وكانت اقامتها للمراكز التجارية فيها ، مثل ، (بوند يشيري ١٦٧٤) ، على الساحل الجنوبي الشرقي

و (شاندرناغور ١٦٩٠) في مصب نهر الغانج ، سببا للمنافسة التجارية بينها وبين انكلترة • ونتيجة لـذلك غدت الهند مسرحا للعمليات العسكرية خلال القرن الثامن عشر •

الامبراطورية الانكليزية : على الرغم من الاضطرابات الداخلية ، التي عانت منها انكلترة في القرن الثامن عشر ، فانها دخلت الصراع الضاري بين الدول المستعمرة ، لتحقق الثروة والنفوذ • ويرجع نجاحها في هذه المنافسة الى عاملين رئيسيين يختلفان ، بل يتناقضان ، مع التجربة الفرنسية • واول هذين العاملين أن (رجال الاعمال) هم الذين اقاموا تلك الامبراطورية • وبذلك استندت الى نشاط تجاري متين ، بينما كانت الامبراطورية الفرنسية من عمل الدولة ، التي كانت تفتقد غالبا اهتمام التجار الفرنسيين ، ونشاطهم ، ودعمهم • وثاني العاملين ، ان انكلترة وحدها ، من بين الدول الاستعمارية ، كانت لا ترسل الى المستعمرات مجموعة من الاداريين الاستعماريين فحسب ، وانما اعدادا كبيرة من المستوطنين • وهؤلاء المستوطنون ، كونوا جماعات تجارية ، وزراعية ، كانت مصدر قوة ، وتثبيت لقدم انكلترة ، في البقاع المستعمرة •

وقد اتجهت انكلترة الى الاستعمار ، في ثلاث مناطق اساسية ، هي : امريكا الشمالية ، والهند ، وجزر الهند الغربية •

في امريكا الشمالية : من المستعمرات الاولى فيها كانت مقاطعة (ڤرجينيا) ، التي حولت الى مستعمرة ملكية عام ١٦٢٤ • وقد اسسها في بادىء الامر المغامرون التجار ، والمهاجرون الانكليز ، الذين عملوا في الزراعة ، وبصفة خاصة في زراعة التبغ • وتلا ذلك مقاطعة (ماساشوستس) ، التي عمل على انشائها شركة انكليزية بهذا الاسم في عام ١٦٢٩ ، وساعدها على ذلك الهجرة الانكليزية المتدفقة بسبب الاضطهادات الدينية •

ومثلما لعبت الشركات دورها في تأسيس المستعمرات الانكليزية ، فان (نظام منح الملك الاقطاعات الارضية) في المستعمرات ، للافراد ، او النقابات ، مقابل ان يتحمل الطرفان تكاليف الاستعمار ، والادارة ، كان ايضا من الاسس

التي اعتمد عليها في انشاء المستعمرات الاخرى مثل (ماريلاند) ، و (كارولينا)، و (نيوجرسي) ، و (بنسلفانيا) و (جورجيا) وغيرها .

جزر الهند الغربية : كان استقرار الانكليز في جزر الهند الغربية ، في وقت واحد مع الفرنسيين . وقد استولوا على (باربادوس) في عام ١٦٢٤ . وجذبت هذه الجزيرة مستوطنين اليها اكثر مما فعلت (انكلترة الجديدة) ، ولكن كثيرا من المستعمرين اضطر الى مغادرتها بعد ١٦٤٠ . لان مزارع (قصب السكر) وفلاحوها من العبيد ، حلت محل مزارع (التبغ) التي كان يعمل فيها رجال احرار . وفي عام ١٦٥٥ انتزعت انكلترة جزيرة (جمايكا) من اسبانيا ، واصبحت هذه الجزيرة ، اغنى مجموعة الجزر الانكليزية في البحر الكاريبي ، انتاجا لقصب السكر .

في الهند : بعد ان اخرجت انكلترة من (جزر التوابل) عام ١٦٢٣ ، ركزت (شركة الهند الشرقية الانكليزية) نشاطها في الشرق الاقصى على شبه جزيرة الهند ــ كما اشرنا الى ذلك ــ . وقد قاومت القوى الهندية الوطنية ، في بادىء الامر الاستيلاء على الارض ، او التثبت فيها . ولكن ما لبثت انكلترة ان كونت (محطات تجارية) ، في (سورات ١٦١٦) ، و (مدراس ١٦٣٩) ، و(بومباي) .

وكانت الهند في البدء ، سوقا تجارية فقيرة ، بالنسبة للسلع الانكليزية ، ولكن (شركة الهند الشرقية الانكليزية) ، عملت على تصدير المنسوجات القطنية فحققت بذلك ربحا وفيرا . وفي القرن الثامن عشر ضاعف التجار الانكليز من فعاليتهم ، واضافوا الى تلك السلعة (الشاي الصيني) حتى فاق بارباحه ، وكميته المنسوجات القطنية .

وقد طبقت انكلترة سياستها المركنتيلية في القرن السابع عشر على امبراطوريتها تلك ، أو بتعبير آخر ، ابعدت بمجموعة من القوانين ، الاجانب عن دائرة نفوذها التجاري ، واستثمرت مستعمراتها ، لفائدتها الاقتصادية وحدها . وهذه القوانين

اشير لبعضها سابقا ، (كقانون الملاحة الاول)[١] ، و (قانون الملاحة الثاني)[٢] عـام ١٦٦٠ ، و (قانون السلع الرئيسية Act of Staples))[٣] عام ١٦٦٣، و (قانون الرسوم) عام ١٦٧٣[٤] .

ان ذلك البرنامج المركنتيلي ، دعم انكلترة اقتصاديا ، وسياسيا : فالبحرية التجارية الانكليزية ، احتكرت التجارة في شمالي الاطلنطي ، والمراكب الاستعمارية، سيطرت على التجارة الساحلية لشمالي امريكا ، واستفاد التجار الانكليز مـن تجارة اعادة تصدير السلع الاوربية ، وسلع المستعمرات ، فتفوقت بذلك البحرية الانكليزية ــ وهي عنصر اساسي لتدعيم المركنتيلية ــ على منافساتها .

ولـم يكن باستطاعة انكلترة ان تطبق تلك القيود بشـدة ، وباستمرار . ولمـا حاولت ان تفعل ، فانها اغضبت المستعمرات ، واوربا : فالمستعمرون الذين كانوا يدفعون الرسوم الجمركية الانكليزية ، على الرغم من كونهم مستعمرين ، كانوا يمارسون (تجارة التهريب) مـع اسبانيا ، وفرنسا . فـدبس السكر[٥] المستورد من جزر الهند الغربية مثلا ، كان اقل سعرا من دبس السكر الانكليزي،

---

(١) وينص على ، ان السلع المستوردة ، يجب ان تحمل الى انكلترة ،امـا على سفن انكليزية ، يقودها بحارة انكليز ، أو على مراكب البلـد التي تم استيراد السلع منها . وغايته اضعاف تجارة النقل التي تمارسها (المقاطعات المتحدة).

(٢) وينص على ، ان جميع السلع المتبادلة بين انكلترة ومستعمراتها ، يجب ان تحمل اما على سفن انكليزية ، او على سفن المستعمرات . وان بعض السلع، بما فيها السكـر ، والتبغ ، والمنتجات الاستعماريـة الرئيسية ، يجب ان تصدر لانكلترة فقط ، أو الى ايـة مستعمرة انكليزية .

(٣) وينص ، ان المراكب الشاحنة لجميع انواع السلع ، التي هدفها المستعمرات الانكليزية ، يجب ان تخرج من ميناء انكليزي . وغاية القانون ، ابعاد المراكب الاجنبية عن تجارة المستعمرات .

(٤) فرض هـذا القانون ، رسما على مجموعـة من السلع ، التي كانت تحمل من مستعمرة انكليزية الى اخرى . وهدفه ان يجعل انكلترة المركز الرئيسي لكل التجارة الاستعمارية ، وان يمنع التجار في المستعمرات ، مـن تجاوز قوانين الملاحة ، بنقل السلع خارج الامبراطورية ، بحجة نقلها الـى مستعمرة اخـرى .

(٥) دبس السكر (Molasses) مادة لزجة ، تفصل عن السكر الخام عند صنع السكر ، ومن تخميرها ، يتكون مشروب (الروم) وهو مشروب مسكر .

لان النظام المركنتيلي الفرنسي ، كان يمنع استيراد الروم من المستعمرات ، لحماية صناعة البراندي الفرنسية المحلية • وكان المستعمرون الانكليز، يستخدمون الروم المستخرج من دبس السكر الفرنسي ، كمادة رئيسية في (التجارة المثلثة)، حيث يرسلونه الى افريقيا ، مع سلع اخرى • ان محاولة انكلترة التضييق على (تجارة التهريب) ، المربحة جدا لرعاياها في المستعمرات ، أزّم العلاقات بينها وبينهم ، في المرحلة السابقة للثورة الامريكية • كما ان هذه السياسة المركنتيلية ادت الى صراع طويل مع هولاندة ، اذ انها اصابت تجارتها بضرر كبير •

الصراع الانكليزي الهولاندي : ولقد ذكر سابقا ، بأن انكلترة خاضت ثلاث حروب ضد هولاندة : **اولها :** (١٦٥٢–١٦٥٤) ، على اثر (قانون الملاحة الاول عام ١٦٥١) ، وانهزمت فيها هولاندة واضطرت الى دفع غرامة حربية • **ثانيها :** (١٦٦٥–١٦٦٧) ، وكانت نتيجة استيلاء انكلترة على بعض المحطات التجارية الهولاندية في افريقيا ، وعلى (امستردام الجديدة) (نيويورك فيما بعد) عام ١٦٦٤ • ووقف الى جانب هولاندة ، الدانيمارك وفرنسا • وعلى الرغم من المصائب التي حلت بانكلترة ، كالوباء ، وحريق لندن ، وضرب اسطولها ، فانها وقعت صلحا ، كان لصالحها • واحتفظت بامستردام الجديدة ، وتبادلت بعض المناطق في امريكا الوسطى ، والشمالية ،مع فرنسا• **وثالث الحروب** كانت حرب (١٦٧٢–١٦٧٨) ، وفيها تحالفت انكلترة مع فرنسا • وانتهت الحرب بالمحافظة على الحالة الراهنة ، وبمعاهدة (نيميغ) المشار اليها آنفا •

وفي تلك الحروب ، احتفظت هولاندة بقوتها العسكرية ، وعملت على التفاوض ، من اجل الحصول على معاهدات ، تكون لصالحها ما امكن ، ولكنها لم تستطع ان توقف نمو البحرية الانكليزية ، ولا ان تقف وحدها في وجه التوسع الفرنسي على القارة الاوربية •

الصراع الفرنسي الانكليزي في القرن الثامن عشر : وبخروج هولاندة من ساح الصراع الاوربي تركز الصراع بين الدولتين القويتين انكلترة ، وفرنسا •

وقد استمرت الحرب بينهما ، انما بشكل متقطع ، من ١٦٨٩ الى ١٧٦٣ ، وكانت اشبه بحرب عالمية . ومع ان المعارك كانت شديدة في المستعمرات ، الا انه ينظر الى تلك الحرب فيها ، على انها وجه هامشي ، من اوجه الصراع الرئيسي ، الذي كان يجري على ارض القارة الاوربية . وتلخص هذه الحروب في المستعمرات ، بالحروب التالية ، علما بأنه اشير لبعضها اثناء الكلام عن العلاقات الدولية وتطور الدول الاوربية :

١ ـ **حرب الملك ويليام (١٦٨٩-١٦٩٧) :** وهي مظهر من مظاهر (حرب عصبة اوغسبورغ) التي كان هدفها منع التوسع الفرنسي في منطقة الرين . وانتهت بصلح (ريزويك) الذي اعاد الوضع الى ما كان عليه .

٢ ـ **حرب الملكة آن (١٧٠٢-١٧١٣) :** وكانت الحرب قد تجددت في اوربا من اجل (وراثة العرش الاسباني) ، وانتقلت الحرب هذه المرة ايضا الى المستعمرات ، ودارت على ارض امريكا الشمالية ، وهوجمت المستعمرات الفرنسية في كندا ، كما هاجمت فرنسا المستعمرات الانكليزية . وانتهت الحرب بصلح (اوترخت) عام ١٧١٣ ، الذي حمل لانكلترة مكاسب كبيرة في شمالي امريكا ، والبحر الكاريبي . فقد تنازلت فرنسا عن (نوفاسكوشيا) ، و (الارض الجديدة) ، و (خليج هدسون) ، الى انكلترة . ونالت انكلترة امتيازات تجارية في الامبراطورية الاسبانية ، كما اعطيت جبل طارق ، الذي يحرس مدخل البحر المتوسط .

٣ ـ **الهدنة المسلحة (١٧١٣-١٧٣٩) :** وفيه كانت الدولتان المستعمرتان المتنافستان تراقبان بعضهما بعضا في امريكا الشمالية والهند . وفي امريكا الشمالية عملت فرنسا في هذه الفترة على انشاء حصون في وادي المسيسيبي ، وحوض البحيرات الكبرى ، لتقوي مواقعها وتستعد لجولة قادمة .

٤ ـ **حرب اذن جنكين Jenkin's Ear (١٧٣٩-١٧٤٢) :** في عام ١٧٣٩ ، قامت الحرب بين انكلترة واسبانيا ، وقضت على السلام الذي ساد لربع قرن بعد (صلح اوترخت) . ويرجع السبب ، الى ان التجار الانكليز كانوا يتجاوزون

بصورة دائمة حدود الامتيازات ، التي اعطتهم اياها اسبانيا ، في مستعمراتها • ولكن احتجاجات اسبانيا كانت تذهب ادراج الرياح • وعندما قدم القبطان (جنكين) تقريره الى البارلمان الانكليزي ، بان احد خفراء السواحل الاسبان ، قطع اذنه ، وان هذا سبب كاف لاعلان الحرب على اسبانيا ، فان انكلترة استجابت للنداء ، وارسلت حملة الى جزر الانتيل ، ولكن الحملة اصيبت بالحمى الصفراء ، ولم يبق من رجالها الا القليل • وفي هذا الوقت كانت الحرب العامة قد اغرقت اوربا •

٥ ـ حرب الملك جورج (١٧٤٣ـ١٧٤٨) : فقد ذكر آنفا ان (حرب الوراثة النمسوية) ادخلت جميع الدول الاوربية الكبرى في اتونها • وقد عرف وجهها الاستعماري ، بـ (حرب الملك جورج) • وقد بين سابقا ، ان الصراع في امريكا ، بين فرنسا وانكلترة ، كان شديدا ، وكذلك في الهند • ومع ان انكلترة كانت المنتصرة في امريكا ، وفرنسا في الهند ، الا ان معاهدة (ايكس لاشابيل) اعادت الامور الى نصابها ، ومن ثم كانت تلك المعاهدة ، اشبه بهدنة ، منها بصلح دائم •

٦ ـ حرب السنوات السبع (١٧٥٦ـ١٧٦٣) : ان حرب السنوات السبع التي درست سابقا ، والتي اجتاحت اوربا الوسطى ، اثبتت انها كانت ذروة الصراع في التنافس الاستعماري الانكليزي ـ الفرنسي • وكانت الحرب شديدة على الارض الامريكية ، وحققت فرنسا ، في بادىء الامر ، عدة انتصارات على انكلترة • ولكن عندما استلم رئيس الوزراء الانكليزي (بت) قيادة الحرب فان الانكليز شرعوا ينتصرون ، ويستعيدون ما خسروا • وتمكنت القوات الانكليزية من الاستيلاء على اقوى الحصون الفرنسية ، ومنها (كويبك) • وبسقوط المدينة الاخيرة سقطت بقية (كندا الفرنسية) بيدهم •

وكذلك كان نصر انكلترة في الهند حاسما : فبعد ان كان وضعها قبل بدء الحرب سيئا ، فانها منذ عام ١٧٥٣ ، استطاعت ان تسيطر على ساحل (كوروماندل) بما فيه (مدراس) ، وانتقل الصراع الى الشمال واستعاد قائد القوات الانكليزية (كلايف Clive) مدينة (كالكوتا) ، وسيطر على (البنغال) • وكان

خضوع (امير البنغال) الهندي ، مرحلة هامة في غزو الهند كلها ، في القرن التالـي •

وانتهت حرب السنوات السبع ـ كما اشير سابقا ـ بـ (معاهدة باريس) ١٧٦٣ • وفيها اخذت انكلترة كل (كندا الفرنسية) ، ما عـدا بعض مصائـد الاسماك • وتنازلت اسبانيـا ، التي دخلت الحرب الـى جانب فرنسا ، عـن (فلوريدا) ، وعوضتها فرنسا بـ (لويزيانا) غرب المسيسيبي • وحافظت فرنسا على مراكزها التجارية في الهند ، على الا تحصنها • وبذلك اصبحت انكلترة حـرة في التوسع على الارض الهندية كما يحلو لهـا ، دون اية منافسة اوربية • وبرزت في المحيط الدولي ، سيدة للبحار ، واكبر قوة استعمارية •

ولكن اذا كانت (حرب السنوات السبع) قد اوصلت بريطانيا الى الاوج ، وثبتت اقدامها في امريكا ، فانها بالتالي ، كانت عاملا قويا في زحزحة اقدامها من اكبر مستعمراتها فيها • اذ ان تلك المستعمرات ثارت عليهـا ، وكونت دولـة مستقلة هي (جمهورية الولايات المتحدة) •

خامسا ـ استقلال المستعمرات الانكليزية في امريكا والعلاقات الدولية (١٧٦٥ ـ ١٧٨٣)

ان المستعمرات الانكليزية ، التي ثارت على انكلترة ، هي المستعمرات الثلاث عشرة ، الممتدة في امريكا الشمالية على شاطىء المحيط الاطلنطي ، بين المحيط الاطلنطي شرقا ، وجبال الابلاش غربا • وقد قطنها منـذ القرن السابع عشر ، مستعمرون من اصل انكليزي ، وقليل منهم من اصل هولاندي ، أو المـاني • وكانت البدايات صعبة ، اذ كان على هؤلاء المستوطنين ان يكافحوا ضد الطبيعة، ولـم تكن معطاء ، كما صورتها لهم شركات التجارة ، التي كـان المهاجرون يتعاقدون معها • وكان عليهم ايضا ، ان يقاتلوا السكان الاصليين من الهنود ، الذين كانوا يقاومون استيطانهم ، وهم لا يملكون سوى وسائل حربية بسيطة• ومع ذلك فقد توسعت تلك المستعمرات شيئا فشيئا ، وضاعفت مصادر ثروتها

من زراعات استهلاكية ، وتربية للماشية ، وصيد ، وتصدير اخشاب ، وتبــغ الـــخ •

وبلغ عدد سكان المستعمرات الشمالية ، والوسطى ، في القرن الثامن عشر ، ما يقارب مليون نسمة • وكان هؤلاء يعيشون من الزراعة،على النمط الاوربي ومن بعض الفعاليات الصناعية ، كصناعة الخشب ، والمواد التعدينية ، والنسيجيه ومن التجارة البحرية مع انكلترة ، وجزر الانتيل • وكان ميناء (بوسطن) هو الميناء الرئيسي ، الا ان ميناءي (نيويورك) و (فيلادلفيا) ، دخلا في مندفسه معه • وكانت (بورجوازية الاعمال) ، هي التي تسيطر على الحياة السياسية ، والفكرية • وابناؤها ، هم الذين كانوا يرتادون جامعتي (يـال) و (هارفارد)•

أما (مستعمرات الجنوب) وتضم فرجينيا ، وكارولينا ، وجورجيا ، فكانت مختلفة : فهي اوسع مساحة ، وأقل سكانا ، وركزت اهتمامها على زراعة المنتجات المدارية ، كالتبغ ، والنيلج ، والقطن • وكان يسودها طبقة ارستقراطية مـن اثريـاء المزارعين ، تملك اراضي شاسعة ، يفلحها عديد مـن العبيد الزنوج ، وخصص انتاجها للتصدير •

ولـم يكن هناك من رابطة سياسية بين المستعمرات الثلاث عشرة ، وانمـا تشابه كبير في المؤسسات : فكل واحدة تتمتع باستقلال كبير ، ولها (مجلس) ينتخب ، وهو الذي يقرر الضرائب المحلية • وعلى رأس كل مستعمرة (حاكم)، يمثل ملك انكلترة ، ويعين من لندن • ومن الوجهة الاقتصادية ، لـم يكن مـن حق المستعمرين مبدئيا ، التجارة الا مع الانكليز • وهؤلاء بالتالي لـم يكونوا يعارضون ابدا (تجارة التهريب) ، التي كانت تتـم مع المستعمرات الفرنسية ــ كما ذكر سابقا ــ • وشيئا فشيئا نشأ نوع من التضامن بين المستعمرات ، نتيجة التوسع نحو الغرب ، والقتال ضد الهنود ، وحصار الفرنسيين لهم فـي الداخـل •

وكانت علاقاتهم مع الوطن الام (انكلترة) علاقات تفاهـم وود ، الا ان موقف الحكومة الانكليزية منهم تغير بعد (معاهدة باريس ١٧٦٣) • فقد ارادت

الحكومة ان تطبق القوانين المركنتيلية ـ المشار اليها آنفا ـ ، بشدة وصرامة ، مما اقلق التجار ، واصحاب السفن ، الذين اغتنوا من التجارة مع جزر الانتيل . وقررت (لندن) ، ان تجعل المستعمرات تتحمل جزءا من الاعباء المالية التي انفقتها في حربها مع فرنسا ، ففرضت لهذا الغرض ضرائب ورسوما جمركية ، على عدد من السلع . كما فرضت (رسم الطابع) على الصحف ، وامور التجارة . واتخذت موقفا آخـر اغضب المستعمرات ، وزاد في نقمتها ، وثورتها ، عندمـا قررت ان تربط (أراضي الغرب) التي تنازلت عنها فرنسا ، بكندا ، مما منع المستعمرات من التوسع غربـا .

وامام اضطراب المستعمرات ، التي اعترضت عام ١٧٦٥ ، وبشدة على مبدأ (فرض الضرائب دون استشارتها) ، واكدت ان هذا من حق مجالسها وحدها ، واتبعت ذلك الاعتراض ، بتأليف عمـال المدن (جمعيات ابناء الحرية) ، لمقاومة سلطة ملك بريطانيـا على المستعمرات ،اضطرت (لندن) ان تلغي عام ١٧٧٠ رسوم الجمارك على جميع السلع ما عدا (الشاي) . ولا سيما بعد ان حدث صدام مسلح ، قتل فيه ثلاثة من سكان بوسطن . واعطت (لندن) لشركة الهند الشرقية احتكار بيع الشاي في المستعمرات الثلاث عشرة . فعادت الاضطرابات ، بل وتفاقمت . وفي ليلة ١٦ كانون الاول ١٧٧٣ ، قام بعض سكان بوسطن ، وقد تنكروا بزي الهنود الحمر ، ورموا بالبحـر حمولة ٣ مراكب مشحونة بالشاي ، وتابعة لشركة الهند الشرقية . فقرر الملك (جورج الثالث) اغلاق الميناء ، واحتلاله عسكريـا . فدعت مستعمرة (ماساشوستس) ـ وكانت بوسطن عاصمتهـا ـ المستعمرات الاخرى للاجتماع . وفي ايلول ١٧٧٤ انعقد **(مؤتمر فيلادلفيا الاول)** ، وقرر مقاطعة البضائع الانكليزية ، وارسل احتجاجا صارما على تصرفات حكومة لنـدن . وشرع سكان المستعمرات باعـداد مخازن للاسلحة ، وتهيئـة انفسهم للمقاومة المسلحة . وفي نيسان ١٧٧٥ تمكن المسلحون من اهل المستعمرات ، مـن القضاء ، على معظم افراد كتيبة انكليزية ، عملت على مهاجمتهم في (لكسنغتون Lexington) ، بالقرب من بوسطن . ورد الملك (جورج الثالث) على ذلك العمل المسلح ، باعلان المستعمرات متمردة .

وفي ايار ١٧٧٥ اجتمع (مؤتمر فيلادلفيا) ثانية ، وقرر حمل السلاح•ووضع (**جورج واشنطن**) على رأس الجيش الثائر ، وكان قائدا للفرق المسلحة في مستعمرة ڤرجينيا •

الحرب (١٧٧٥–١٧٨٣)•

وفي الحقيقة ، كانت اغلبية اعضاء (مؤتمر فيلادلفيا) الى جانب الاتفاق ، والتفاهم ، مع لندن • فقد كانت تخشى الحرب ، أولا ، وتخشى ثورة شعبية ، ثانيا ، اذا ما خرج الجيش الانكليزي من المستعمرات • ولكن موقف التاج البريطاني العنيد ، في المحافظة على ما يدعيه من حقوق على المستعمرات ، ادى الى تحالف اولئك المعتدلين ، مع الاقلية ، التي كانت تنادي بالانفصال عن انكلترة، وعلى رأسها (مستعمرة ڤرجينيا) • وقد اعلنت هذه الاخيرة نفسها جمهورية مستقلة • وتبعها في تلك الطريق مجموع المؤتمر ، الذي صوت في ٤ تموز ١٧٧٦، على (**اعلان الاستقلال**) • وقد قدم له بـ (لائحة حقوق) ، تنص على بيان الحقوق الاساسية للانسان ، الذي خلق مساويا لاخيه الانسان • ومن تلك الحقوق « الحياة ، والحرية ، والبحث عن السعادة » • وقد دبج نص تلك اللائحة ، (جيفرسون) • وكان لتلك اللائحة صدى كبير ، لا في امريكا فحسب ، وانما في الاوساط الاوربية ، وبصفة خاصة في فرنسا •

وهكذا فتلك الثورة التي فتح بابها على مصراعيه ، لم تترك لانكلترة منفذا ، الا القبول بها ، او الحرب ، وقد اختارت الحل الثاني •

وعندما ابتدأت الحرب لم تكن لصالح الثوار : فجيشهم صغير ، وينقصه المال ، والسلاح ، ولا يخضع للنظام ، على الرغم من جهود (جورج واشنطن)• ولكن هذا الكفاح من اجل الحرية ، ولد في اوربا تيارا قويا ، متعاطفا مع المستعمرات • فتطوع في ذلك الجيش عدد من الفرنسيين ، ومنهم (المركيز دولافاييت) • وارسل الثوار ، (**بنجامين فرانكلين**) ، الى فرنسا للحصول على مساعدتها • وكانت فرنسا تفكر بالانتقام من انكلترة ، ولكنها ترددت في دخول الصراع بشكل مباشر •

وتمكن الانكليز في بادىء الامر من احتلال (بوسطن) ، و (فيلادلفيا) ، الا ان حماسة القوات الامريكية ، ومعرفتهم الممتازة باراضيهم ، ساعدت « واشنطن » على محاصرة جيش انكليزي في **(ساراتوغا) عام ١٧٧٧** ، والانتصار عليه •

وقد ساعد ذلك النصر ، على اقناع فرنسا ، بالوقوف رسميا لجانب الثوار ، وتقديم المساعدة العسكرية والمالية لهم • فارسلت للمستعمرات الثائرة حملة عسكرية من (٦٠٠٠) جندي و (٣٨) سفينة حربية • وحصلت فرنسا على تحالف اسبانيا وهولاندة معها ، بينما كونت (روسيا ، وبروسيا ، والدانمارك ،والسويد) (عصبة المحايدين) ، التي وقفت بدورها في وجه الادعاءات البريطانية • وتمكن الجيش الفرنسي ــ الامريكي في ١٧ تشرين الاول ، ان يجبر الجيش الانكليزي الرئيسي ، على الاستسلام ، في معركة (يورك تاون York town) •

وتجاه هذا النصر ، وموقف عصبة المحايدين ، وتأييد قسم من الرأي العام الانكليزي للسلام ، وقعت (معاهدة فرساي) في ايلول ١٧٨٣ • وفيها تعترف انكلترة باستقلال المستعمرات الثلاث عشرة ، وتتنازل لهم عن الغرب حتى نهر المسيسيبي ، وتستعيد اسبانيا (فلوريدا) ، وفرنسا بعض جزر الانتيل ، ومراكزها في السنغال •

امـا بالنسبة للمستعمرات الثلا ثعشرة ، فقد حدث اختلاف في الآراء بينها، وذلك في المؤتمر الذي عقد في (فيلادلفيا) ، **لوضع دستور للبلاد :** (فالجمهوريون) كانوا يريدون استقلالا شبه تام لكل مستعمرة • و(الاتحاديون) وعلى رأسهم (واشنطن) ، يرغبون في حكومة اتحادية قوية • وبعد مناقشات طويلة ، توصلوا الى تفاهم في ١٧٨٧ ، واقروا **(دستور الولايات المتحدة الامريكية)**

وقد اعطيت **السلطة التنفيذية فيه** لـ (رئيس الجمهورية) وينتخب لمدة ٤ سنوات ، بالتصويت العام غير المباشر • وهو الذي يختار الوزراء ، ويستدعي الجيش • واسلم المنصب عام ١٧٨٩ لـ (جورج واشنطن) •

أمـا **السلطةا لتشريعية** فوضعت بيد (الكونغرس) ، المؤلف من مجلسين

(مجلس النواب) ، وتتمثل فيه كل ولايـة بعدد من النواب ، يتناسب مـع عدد سكانها ، و (مجلس شيوخ) ، ولكل ولايـة فيـه ممثلان ، كبرت الولايـة أم صغرت •

ويمارس السلطة القضائية (محكمة عليا) تضم (٩) تسعة اعضاء ، يعينهم رئيس الجمهورية لمـدى الحياة ، وهم الحراس على الدستور ، ويفصلون فـي الخصومات التي تقع بين الولايات •

وهكذا ، ولاول مرة ، اسس الاوربيون خارج اوربا ، جمهورية مستقلة ، وحقق دستورها مبدأ الفصل بين السلطات ، وفي الوقت ذاته التوازن بينها • كما تـرك لرئيس الجمهورية سلطة كبيرة ، ومنح لكل ولاية جميع السلطات ، التي لـم يمنحها للحكومة الاتحادية •

وخلاصة القول ، تركت ثورة المستعمرات الانكليزية اثـرا كبيرا في اوربا : فقد ولدت لدى الاوربيين شعورا بانهم يحيون في مرحلة زمنية ستشاهد تغيرات ضخمة • لانهم رأوا ، ان المذاهب الفلسفية التي يناقشونها ، ليست خيالية ، بل قابلة للتطبيق • واخذوا يحنون ليكون مجتمعهم على غـرار (المجتمع الامريكي الجديد) ، الذي يشبه المجتمع الذي وصفه (روسو) •

وقد تعرفت اوربا (الثورة الامريكية) ، عن طريق الصحافة ، والمناقشات التي كانت تجري في (جمعيات الفكر) ، وعن طريق احاديث الجنود العائدين من حرب الاستقلال ، وعبر الدعاية الامريكية نفسها •

واذا كـان أثر (الثورة الامريكية) متفاوتا في قوتـه ، في مختلف دول اوربا ، فانـه كان في فرنسا شديدا ، لعاملين رئيسيين : **اولهمـا ،** انتشار افكار الحرية والمساواة على نطاق واسع فيها ، بعد عودة المحاربين • **وثانيهما ،** انهـا كانت عاملا أساسيا في تفاقم (الازمة المالية) فيها ، بسبب نفقات الحرب ، ممـا فجر الموقف ، وادى الى اندلاع (الثورة الفرنسية) عام ١٧٨٩ ، التي غـدت فاتحة عصر جديد في اوربا ، اصطلح المؤرخون على تسميته بـ (الحقبة المعاصرة) • وفي الحقيقة كانت الثورة الامريكية طليعة (عصر الثورات) في اوربا وامريكا ، الذي امتد قرنـا من الزمن ، وحتى ١٨٧١ •

الخاتمة

كان **العصر الحديث في اوربا** ، **بقرونه الثلاثة** ، وكما أتضح من العرض السابق : عصر تغيرات كبيرة ، مست الاقتصاد ، والاجتماع ، والفكر ، والفن ، والسياسة .

فاكتشاف الاراضي الجديدة في القرن السادس عشر ، فتح امام اوربا ، باب العلاقات التجارية مع عالم ما وراء البحار . وتدفق الذهب والفضة عليها ، مما رفع الاسعار ، وأوجد مناخا ملائما للحركة الاقتصادية ، وللعمل في ميدان المشروعات التجارية ، والصناعية الكبيرة .

ونجم عن ذلك **التطور الاقتصادي** ، تغيير اساسي في حياة المجتمع :فالاقطاعي الذي كان يملك الارض ، ويسود (مجتمع العصور الوسطى) ، رأى قوته الاقتصادية تتلاشى امام بورجوازية التجار ، واصحاب المصارف ، والمصانع .

ومع ذلك فان التحول كان بطيئا ، ولم يمس الناس جميعهم . فالقرن السابع عشر ، على الرغم من واجهته البراقة ، كان مرحلة صعبة ومظلمة : فالحروب والاوبئة ، والمواسم الزراعية السيئة ، ونقص المعادن الثمينة ، بعد غزارتها ، جعلت منه (مرحلة شبه توقف) ، في التطور الاقتصادي ، والاجتماعي ، في اوربا .

ولم يستفد من تلك التطورات الجديدة ، في الواقع ، الا بلدان (شمالي غربي اوربا) ، بينما بقيت (اوربا الشرقية) و (الجنوبية) بعيدة عنها ، او ملامسة لها .

هذا في الوقت الذي لم يتزايد فيه السكان الا ببطء شديد ، وكأن القرن السابع عشر كان قرن كمون ، اندفعت بعده **الزيادة السكانية** اندفاعا قويا ، في القرن الثامن عشر ، بسبب قلة الاوبئة ، والتغذية الفضلى .

ومثلما كان العصر الحديث مقر تلك التحولات الاقتصادية ، والاجتماعية الكبيرة ، فانه كان ميدانا لحركات فكرية جديدة ، او مجددة ، بل وقالبة التفكير الاوربي الوسيط رأسا على عقب . **فالاكتشافات الجغرافية** ، باثباتها وجود عوالم مجهولة ، ولدت ثورة في معتقدات اناس القرن السادس عشر ، فهزتها كلها. وانطلق من تلك الثورة في بدايتها ، ارادة العودة الى المصادر الاولى ، فكانت (**الحركة الانسانية**) . كما انبعثت محاولة لاعادة النظر ، وجذريا ،بقواعد الفن ودوره ، فنشأت (**النهضة الفنية**) . وبذل جهد كبير للبحث عن جذور الدين ، واصوله ، ورفض كل ما يبدو متناقضا معها ، فكان (**الاصلاح الديني**) . وادت تلك الثورة في القرن السابع عشر الى (**الفلسفة الكارتيزية**) ، التي لا تقبل (الحقيقة) على انها (حقيقة فعلا) الا اذا قبلها (العقل) . وفي القرن الثامن عشر وحده ، ظهرت نتائج ذلك التطور الثوري الطويل بشكل واضح . فا (**العقلانية العلمية**) ، توصلت الى تفسير للكون بنظرية نيوتن . وقلبت (**الكشوف التقنية**) شروط الانتاج ، باختراع (**الآلة**) . واخضعت (**الحركة الفلسفية**) **للنقد** ، جميع الامور التي لم يجرؤ الفكر في الماضي على مناقشتها الا بحذر ، مثل الاعتقاد بالله ، وتنظيم المجتمع ، واسس السلطة السياسية .

وتوصل مفكرو المجتمع الاوربي الى (**مفهومات سياسية**) ، **قلبت المفهومات السياسية السابقة** : فالعصور الوسطى عاشت على فكرة (امبراطورية مسيحية واحدة) ، وكانت محاولات الامبراطور (شارلكان) ، و (فردينان الثاني) ، في القرن السادس عشر ، لتثبيت تلك الفكرة ، أو اعادتها ، محاولات مخفقة **فالاصلاح الديني** حطم وحدة العالم المسيحي ، وافسح تلاشي المفهومات السياسية القديمة ، المكان لمفهومات جديدة .

فبدلا من امبراطورية واحدة ، تولدت مجموعة من **الدول القومية** ، شعرت كل واحدة منها ، انها مختلفة عن الاخرى ، ووقعت بصراعات فيما بينها . ولم يعد هدف ملوكها توحيد اوربا المسيحية ، وانما السيطرة عليها لصالحهم . وقد

تمثل ذلك في سياسة (فيليب الثاني) ملك اسبانيا ، و (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا • وقد ادى اخفاق تلك المحاولات الى دعم مفهوم (التجزؤ) وتأكيد (السمات الخاصة) لدى كل شعب • ويشاهد في نهاية القرن الثامن عشر وضوح (**فكرة الامة**) ، التي نظر اليها على انها مجموعة من البشر تتكلم لغة واحدة، ولها ماض واحد •

كما ان الملوك في كل دولة ، خلال العصر الحديث ، حاولوا ان تكون لهم سلطة كبيرة كسلطة الامبراطور ، وهذا ادى لظهور فكرة (**الملكية المطلقة**) . وعندما ظهر (**طغاة الاستبداد المستنير**) في القرن الثامن عشر ، لم يكن هدفهم في الواقع مغايرا • فقد بدوا ، وكأنهم يستوحون من الفلاسفة ، الا انهم في الواقع كانوا يسعون لتثبيت قوتهم الشخصية ، وسلطتهم ، عن طريق (تحديث دولتهم).

ولكن منذ نهاية القرن السابع عشر وبصفة خاصة في القرن الثامن عشر ، طرح المفكرون جانبا فكرة (السلطة المطلقة للملوك) ، واحلوا محلها فكرة (حقوق الامة بكاملها) و (الشعب وسعادته) : ف (لوك) ، و (جان جاك روسو) ، يريان ان السيد الحقيقي والحاكم الحقيقي هو الشعب ، وان الملك لا يحكم الا بعقد مع ذلك الشعب • وهذه الافكار ، هي التي سادت في القرن التاسع عشر ، وسعت الشعوب ، لا في اوربا وحدها ، وانما في العالم كله لتحقيقها •

المراجـع العربيـة

اندرسون (م) : تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا . تعريب د. نور الدين حاطوم . دمشق ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

التوحيدي (ابو حيان) : الامتاع والمؤانسة ٣ اجزاء مصر ١٩٣٩ .

تومسون (جيمس) : حضارة عصر النهضة . تعريب عبد الرحمن زكي . القاهرة د. ت .

حاطوم (نور الدين) : عصر النهضة . دمشق . د . ت .

حداد (جورج) وحسامي (راتب) : تاريخ الحضارة العربية . دمشق .د.ت

حسن (سليم) والاسكندري (عمر) : تاريـخ أوربا الحديـث وآثـار حضارتها القاهرة . د.ت

حمدان (جمال) : استراتيجية الاستعمار والتحرير.القاهرة . دار الهلال د.ت

الحموي (ياقوت) : ارشاد الاريب في معرفة الاديب . ٧ أجزاء . مصر ١٩٠٧/ ١٩٢٥ دائرة المعارف الاسلامية المعربة (١٢) مجلدا . القاهرة د.ت

دارك (سدني) : عصر النهضة . تعريب محمد بدران . لبنان ١٩٦٨

ديلماس (ك) : تاريخ الحضارة العربية تعريب كوليت حبيب . وزارة الثقافة.دمشق. د.ت (الطبعة الاولى)

راوس (ا.ل) : التاريخ الانكليزي : تعريب مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٤٦

الرفاعي (انور) + مصطفى (شاكر) : العالم الحديث . دمشق . د.ت

زاهر (رياض) : الاستعمار الاوربي لافريقية . القاهرة .

الزركلي (خير الدين) : الاعلام ١٣ مجلدا مع المستدركات .بيروت.الطبعة الثالثة .

السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصر ١٣٢٦ هـ

شنايدر (هربرت) : بنيامين فرانكلين . تعريب امين محمود الشريف.القاهرة١٩٥٤

طوقان (قدري حافظ) : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك .
عثمان (حسّن) : سافونا رولا . الراهب الثائر . القاهرة ١٩٤٧
فيشر (هربرت) : تاريخ أوربا في العصر الحديث . تعريب أحمد نجيب هاشم وودیع الضبع . القاهرة
أصول التاريخ الاوربي الحديث . تعريب زينت راشد واحمد عبد الرحيم القاهرة ١٩٦٥
قاسم (محمد) وهاشم (احمد نجيب) : التاريخ الحديث والمعاصر . دار المعارف بمصر . د . ت
قاسم (محمد) وحسني (حسين) : تاريخ القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٤٧
كرد علي (بسام) وحداد (جورج) : مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الازمنة الحديثة دمشق ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م
لابردس (ارنست) وموسنيه (رولان) : القرن الثامن عشر (١٧١٥ – ١٨١٥) تعريب يوسف وفريد داغر . بيروت ١٩٦٥ . (الجزء الخامس) من مجموعة (تاريخ الحضارات العام) .
مظهر (جلال) : أثر العرب في الحضارة الاوربية . بيروت ١٩٦٧
موسى (سلامة) : كتاب الثورات . بيروت ١٩٦٣ . الطبعة الثالثة
موسنيه (رولان) : القرنان السادس عشر والسابع عشر . تعريب يوسف وفريد داغر . بيروت ١٩٦٥ . الجزء الرابع من مجموعة (تاريخ الحضارات العام)

المراجع الأجنبيـة

— R. Aubenas, R. Ricard : L'Eglise de la Renaissance (1449-1517) (Coll. Histoire de l'Eglise I & V. Paris 1951.

— J. Burckhardt : La Civilisation de la Renaissance. Tr. de l'Italien par M. Smith, Paris 1885. 5 Vols.

— F. Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II.Paris 1949.

— E. Bruley, R. Cloet, S. & P. Coquerelle : La Fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne (1328-1715). Hatier. S. D. (Paris).

— A. Châtel et R. Klein : L'Age de l'Humanisme. Paris 1963.

— P. Chaune :- L'Amérique et les Amériques de la Préhistoire à nos jours. Paris 1964.

- Séville et l'Atlantique (1504-1650). Paris 1955

- La Civilisation de l'Europe Classique. Arthaud 1966.

— J. Delumeau :Naissance et affirmation de la Réforme. Coll. N. Clio. No. 30.

— J. Dupâquier & M. Lachiver : Les Temps Modernes. Coll. Bordas. Paris 1970.

— Encyclopédie de l'Islam : 1ère Edition Leide 1913 - 1938 & 2ème Edition 1954 -

— CH. Endress : History of Europe (1500-1848). London 1975.

— J. Favier : De Marco Polo à Christophe Colomb (1250 - 1492). Coll. H.U. Larousse de Poche. Paris 1968

– J. Imbert ——— : Histoire économique des origines à 1789. P.U.F. 1965.

– W. Kirchner : Western Civilization since 1500. London 1975.

– W. Langer : An Encyclopedia of World History. New-York 1948.

– H. Lapeyre : Les monarchies européennes du XVI^e siècle et les relations internationales.

– Lavisse & Rambaud : Histoire générale du IV^e siècle à nos jours. T.IV et V. Paris 1894 - 1895.

– P. Milza, S. Berstein & J. L. Momeron : XVI^e, XVII^e, XVIII^e siècles. Nathan. Paris S.D.

– N. Morineau : Le XVI^e Siècle. Paris 1968. Coll. Lar. de Poche.

– N. Mousnier : - XVI^e et XVII^e siècles. Paris 1961. Coll Histoire des Civilisations.

– R. Mousnier & E. Labrousse : XVIII^e Siècle. Paris 1963.

– H. Methivier : Louis XIV. P.U.F. 1950.

– J. H Parry : The Age of Renaissance : Discovery, Exploitation and Settlement, 1500 to 1650. London1963.

– Suzanne Pillorget : Apogée et déclin des sociétés d'ordres (1610 - 1787). Paris 1967.

– J. Pirenne : Les Grands Courants de l'histoire. Tome III, IV. Paris 1950.

– P. Portal : Pierre le Grand. Club français du livre 1961.

– E. Preclin & V.L. Tapie : - : Le XVII^e siècle. P.U.F. coll. Clio. 1949.
- : Le XVIII^e siècle. P.U.F. 1953. 2 vols

– P. Riche : Grandes Invasions et Empires (V^e - X^e). Coll. Lar. d. P. Paris 1968.

– H. Sée & A. Rébillon : Le XVI^e siècle. Paris. 1934.

– G. M. Trevelyan : Précis d'histoire de l'Angleterre. Payot 1955.

— L. Febvre : Au cœur religieux du XVI[e] siècle. Paris 1967.

— W. Ferguson : La Renaissance dans la Pensée Historique. Paris 1950. (Tr. Française)..

— H. A. L. Fisher : History of Europe. London 1946.

— B. Gile :- Les ingénieurs de la Renaissance 1964.
- Histoire économique et sociale de la Russie du Moyen Age au XX[e] siècle. Paris 1949.

— C. Grimberg & Ragnar Svanstrom : (adaptation française sous la direction de Georges - H. Dumont. Coll. Marabout University. Verviers S.D.
- 1) No. 5 - Le déclin du Moyen Age et la Renaissance,
- 2) No. 6 - Les grandes Découvertes et les Réformes.
- 3) No. 7 - Des Guerres de Religion au siècle de Louis XIV
- 4) No. 8 - L'hégimonie anglaise et la fin de l'Ancien Régime.

— J. Godechot : Les Révolutions (1770-1799). Presses Universitaires de France. N. U. 1965.

— Grand Larousse Encyclopédique. 10 vols. et deux Suppléments Paris 1960-1975.

— R. Grusset & E. G. Léonard : De la Réforme à nos jours. T. III de l'Histoire : Universelle de l'Encyclopédie de la Pléiade. Gallimard 1958.

— C. H. Haring : The Spanish Empire in America. New-York, Oxford 1947.

— E. J. Hamilton : American Treasure and the Price Revolution in Spain. Cambridge (Mass) 1934.

— H. Hauser & A. Renaudet : Les débuts de l'Age Moderne. Paris 1948.

— H. Hauser —— : De la Modernité du XVIe siècle. Paris 1963.
—— : La Prépondérance espagnole (1559 - 1660). Paris 1941

- P. Villar : Histoire d'Espagne. P.U.F. 1965.
- De Vaux (Carra) : The Legacy of Islam. ed. by Th. Arnold & A. Guillaume.
- Zollner (E) : Histoire de l'empire autrichien, des origines à nos jours. Roanne, Horvath 1968.

الفهرس الابجدي

ـ ا ـ

ـ ب ـ

– ت –

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

– ل –

ـ م ـ

– هـ –

ـ و ـ

ـ ي ـ

التصويب

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٧	٣	الاسباني	الانساني
٨	١٢	جرىء	جـريء
٢٠	١٩	ثـورة	ثـروز
٢٤	١	نشططظ	نشط
٢٤	١٦	مدينشه	مديتشه
٢٦	٢	نوفغورد	نوفغوررود
٣٥	٧	Malattestat	Malattesat
٤٠	٢	منظرا و مدينة	منظرا أو مدينة
٤١	ماتحت الصورة	اشكل	الشكل
٥٧	٢٠	عليهـم	على هؤلاء الاخيرين
٦٢	٨	وانكلترا	وانكلترة
٦٣	٤	احداهما	احداها
٦٣	السطر الاخير	ومص	ومصـر
٦٣	٢٣	التالبة	التالية
٧٥	٤	بعد أتضاح أسواق تجارتها للحصول على المال اللازم لبيان كيانها السياسي	بعد اتضاح معالم الدول القومية الناشئة ورغبتها في تطوير اقتصادها الخاص
٧٥	١٥	تهاجـم	تجاههم
٨١	١	وغيرهم	والادريسي(١١) وأبـي الفداء(١٢) وغيرهم
٨٩	١٦	١٤٩٣ .	١٤٩٣ ،
١٠٩	٢٠	وما وراء	ما وراء
١١٥	١٣	تنافس	تناقض
١١٥	١٦	نتاج	نتاج تغيير
١٢٠	٩	اثـر	اثـره
١٢١	٨ من الهامش ٦	ثلاثون	ثلاثين
١٢١	٦ من الهامش ٧	صـل	وصل
١٢٢	٥	بل اذ	بل ان
١٢٢	٢٣	أولا الحروب	أولا والحروب
١٢٨	٣	والعرب .	والعرب ،
١٢٨	١٥	الفن الجديد(٢)	الفن الجديد
١٤٥	٣	ابطاليين	ايطاليين
١٤٦	٦	اليوناني الروماني	اليوناني والروماني

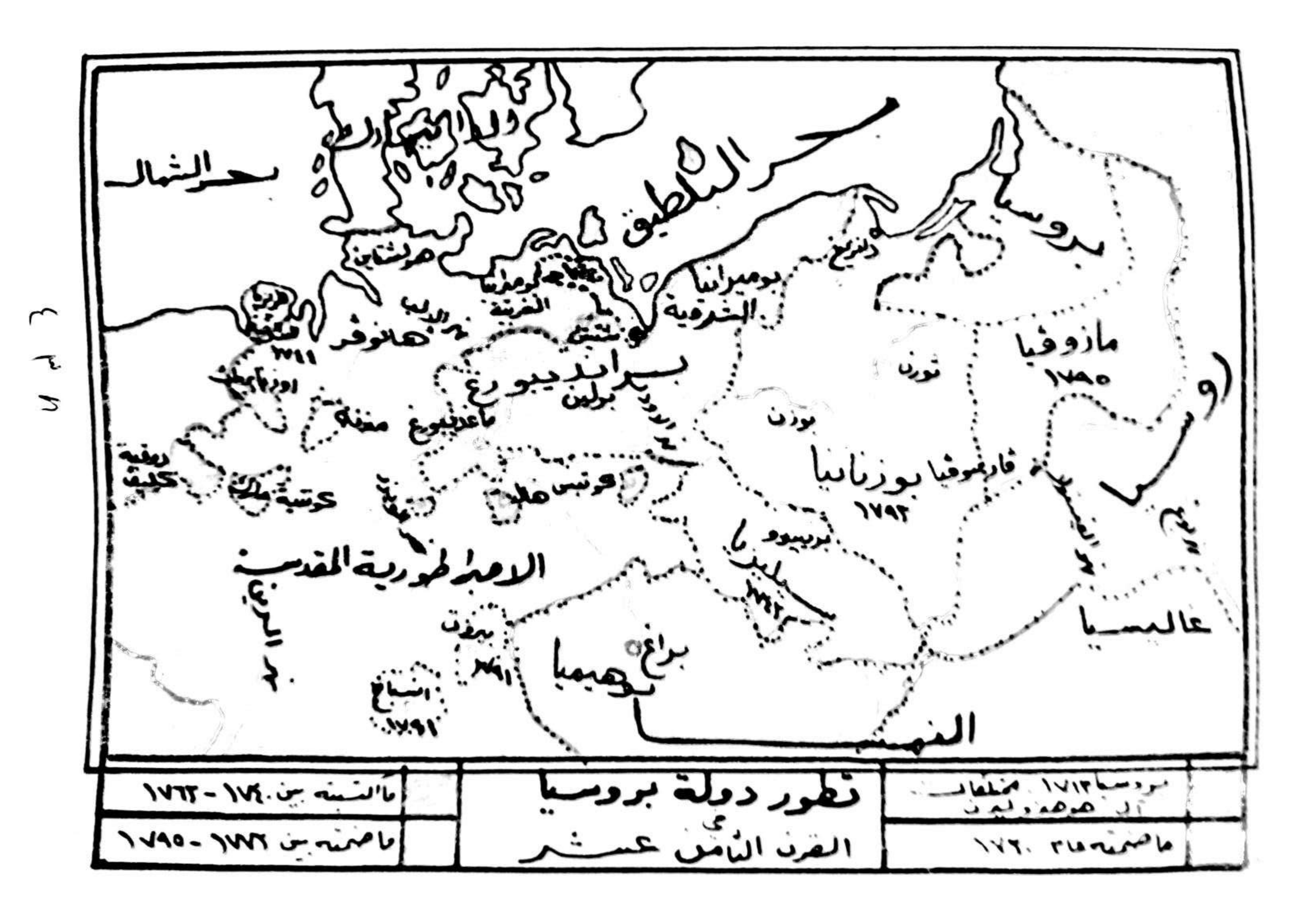
الصفحة	السطر	الخطـا	الصواب
١٥٢	٧	ارخمپدس	ارخميدس
١٥٤	٦	ڤيزال	ڤيزال (٤)
١٥٨	٣	المسحيية	المسيحية
١٦٠	٨	نفـذ	نقـد
١٦٢	١١	لدين	تديـن
١٦٩	١٦	الـ (٢٥) عاما	الـ (٢٥) عاما من العمر
	السطر الاخير	الرجعيه	الرجعية
١٧٧	٨	١٥٤٢	١٥٤١
١٧٨	٥	١٥٠٨	١٥٩٨
١٨٨	١٩	تولي	توالى
١٩٤	٢٢	الملكة	المملكة :
١٩٧	٩	زراعية	زراعيا
٢٠٠	٥	١٥٩٧	١٥٧٩
٢٠٢	١٥	ان لا	الا
٢٠٦	٣	الادببي	الادبي
٢١١	١٢	نسمية	نسميه
٢١٥	١١	Ale	Alès
٢٢٠	٢	البت	التب
٢٢٧	١٨	١٦٧٣	١٦٨٣
٢٢٧	١٨	١٩٧٣	١٦٧٣
٢٣٢	١	دومانتون	دومانتنون
٢٣٢	٢	بفصل	يفصل
٢٣٣	١٨	الـى	الذي
٢٣٤	٢٠	رغايا	رعايا
٢٣٧	١١	البروتستانت	البروتستانت
	١٢	مينلرن	فينلون
٢٣٨	٣	ميعشرة	مبعثرة
٢٤٠	٢٤	الفـرن	القـرن
٢٤١	٥	سعدا	سعداء
٢٤٥	٢٠	هونـدة	هولاندة
	٢١	التـي	الذي
٢٥٠	٨من هامش١	الظاهرن	الظاهرة
٢٥٣	١	Naseby» :	«Naseby»
٢٥٤	٩	دكرى	ذكرى
٢٥٥	١٣	كامير	كاميرال
٢٥٧	١٦	١٣٠٠٠ سفينة	٣٠٠٠ سفينة
٢٥٧	٢٣	ليبيعونهم	ليبيعوهم
٢٥٨	١٩	الثامن	الثامن عشر

الصفحة	السطر	الخطـا	الصواب
٢٦١	١٤	دشرقي	شرقي
٢٦٣	١	لذين	الذين
٢٦٧	١٧	السابع	السادس
٢٧٧	٢٤	وهكذا وكان	وهكذا بدا وكان
٢٨٠	٢١	تحالفنا	تحالفتا
٢٨٨	١٩	انها احتفظت	انهم احتفظوا
٢٩٧	١٩	فتيء	فتىء
٣٠٣	٤	ان ان	ان
٣٠٥	١٦	والفكر ،	والفكر .
٣٠٩	١٣	(Nollet . مثلا	(Nollet ، مثلا
٣٠٩	١٥	رؤوساء	رؤساء
٣٢٥	السطر الاخير	وهبيته	وهيبته

الفهرس العام

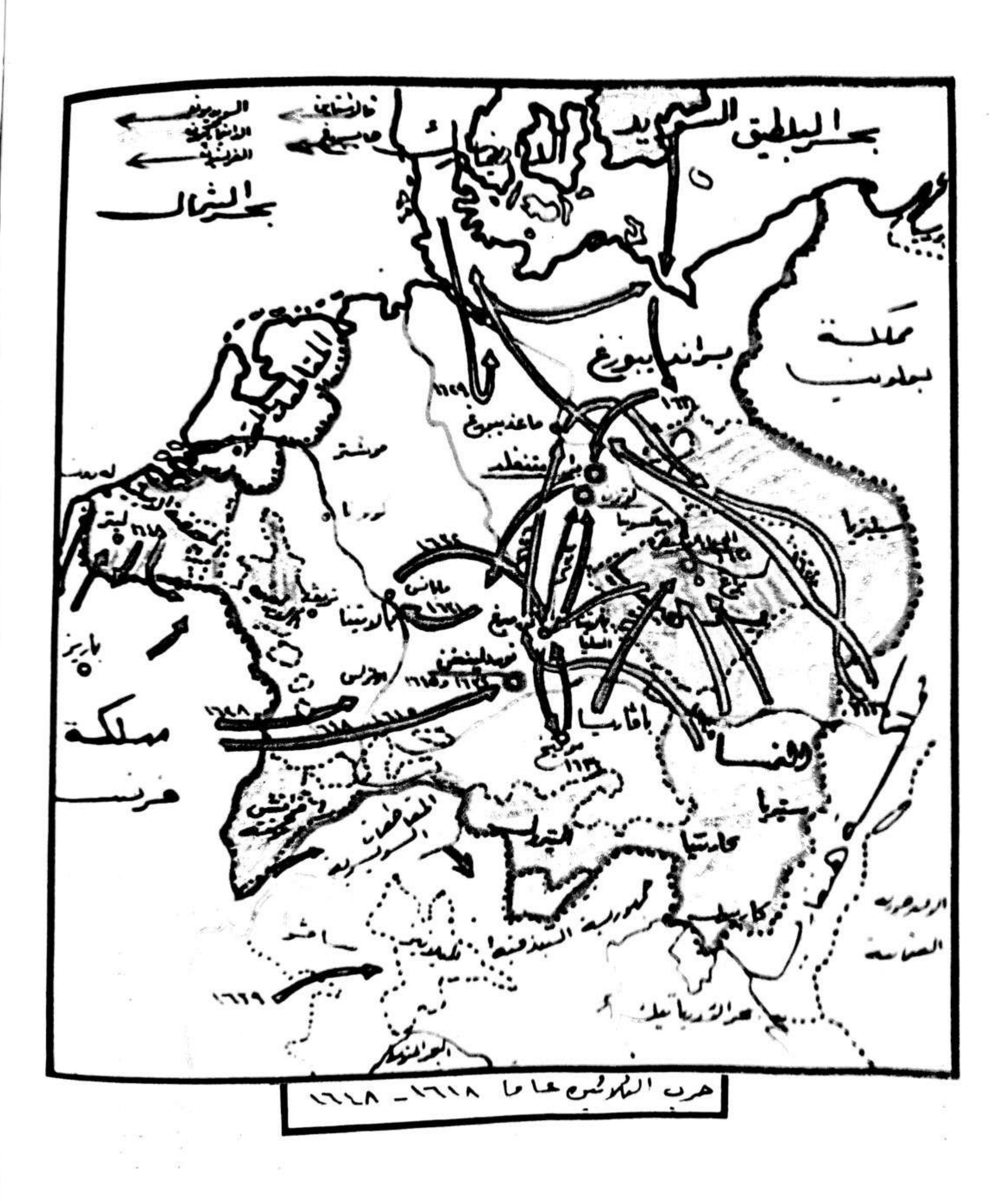


المقاطعات المتحدة
في القرن السابع عشر
بحر الشمال
غرونينغ
فريز
درنث
خليج زويدرزي
أوفرايسل
غيلدر
هورن
هارلم
هولندة
أمستردام
لاهاي
أوترخت
دلفت
روتردام
الأراضي المنخفضة الإسبانية

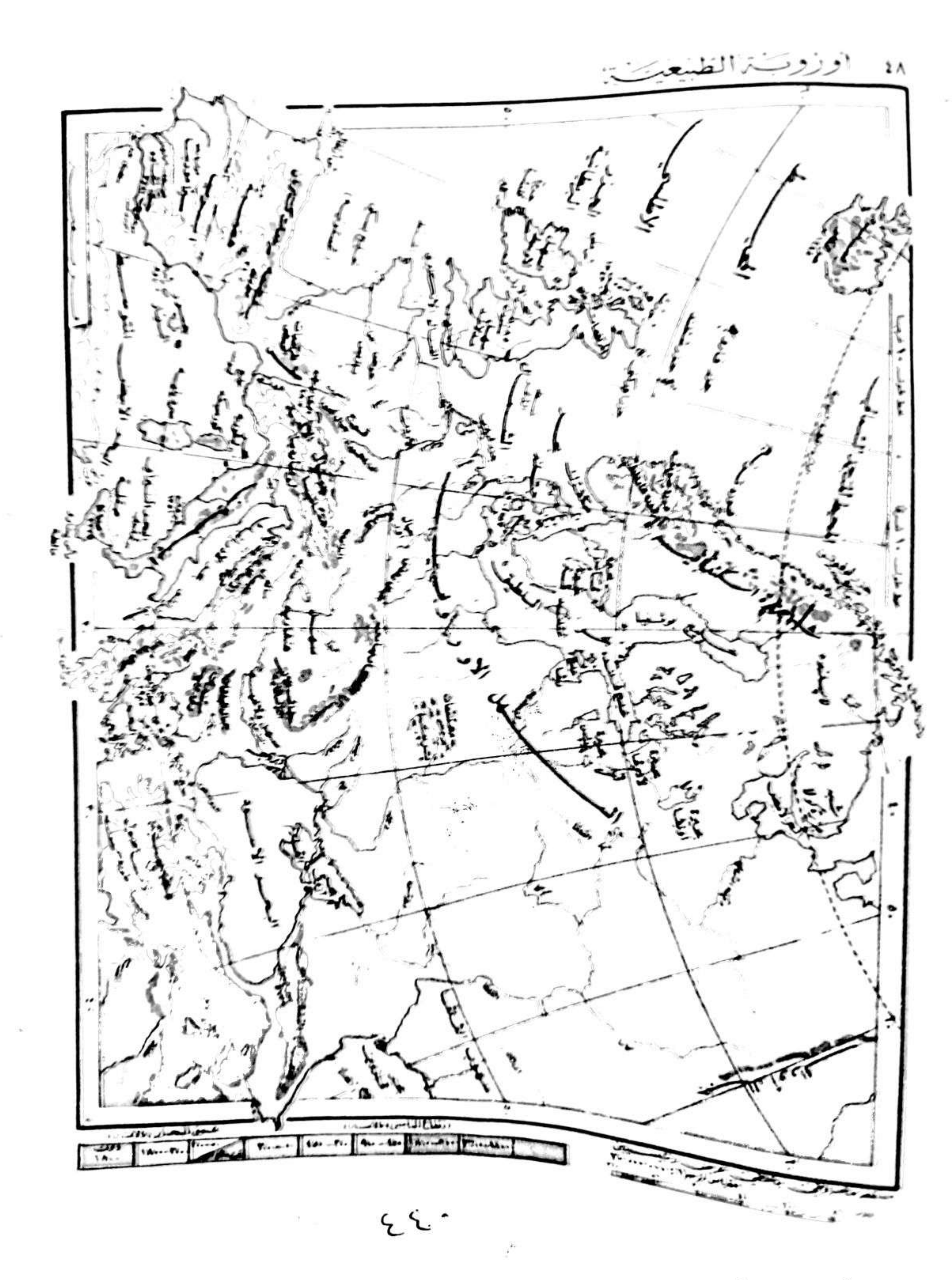

تطور دولة بروسيا في القرن الثامن عشر
ما اكتسبته بين ١٧٤٠ - ١٧٦٣
ما ضمته بين ١٧٧٢ - ١٧٩٥
بحر الشمال
بحر البلطيق
بروسيا
مازوفيا
١٧٩٥
روسيا
بوميرانيا الشرقية
براندنبورغ
برلين
هانوفر
نهر الأودر
تورن
بوزن
فارصوفيا بوزنانيا
١٧٩٣
سليزيا
بريسلو
الامبراطورية المقدسة
بوهيميا
براغ
النمسا
غاليسيا
نهر الراين



فنلندة
١٧٢١
لادوغا
سان بطرسبرغ
١٧٠٣
استونيا
١٧٢١
ليفونيا
كورلاند
نيجني نوفغورود
موسكو
سمولنسك
ليتوانيا
بروسيا
١٧٩٣
١٧٩٥
اوكرانيا
كييف
بودوليا
١٧٩٣
نهر الدون
نهر الفولغا
القوزاق
النمسا
خرسون
آزوف
١٧٧٤
١٧٨٣
القرم
كوبان
سيباستبول
نهر الدانوب
البحر الأسود
استانبول
استراخان
بحر قزوين
القوقاز
الامبراطورية العثمانية
برم
تطور روسيا
في القرن الثامن عشر
روسيا ١٧٢٠
الدولة العثمانية



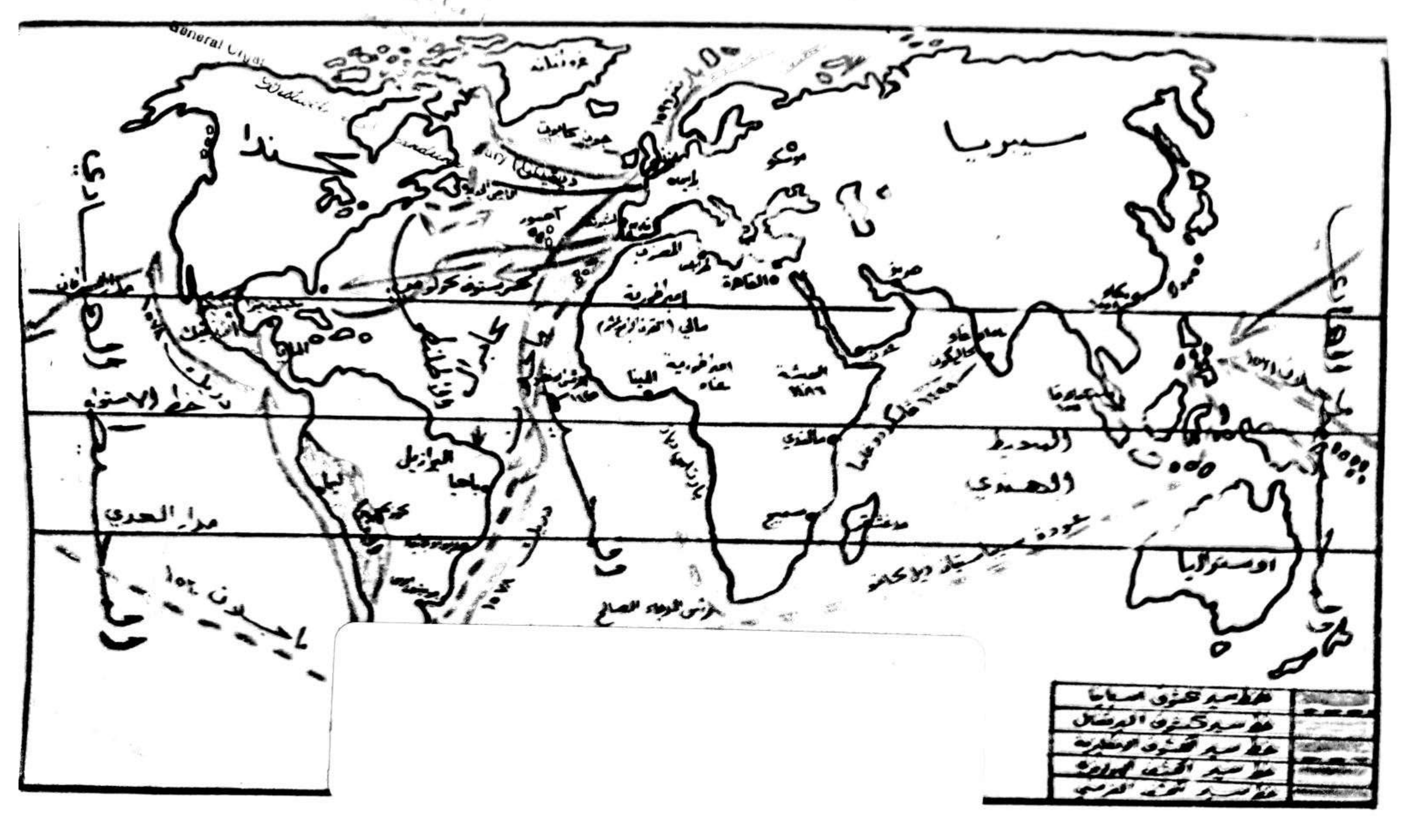
حرب الثلاثين عاما ١٦١٨ - ١٦٤٨



أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر




النمسا
البندقية
هنغاريا
فرنسا
رافنا
روما
كورسيكا
سردينيا
صقلية
المغرب العربي
ايطاليا في القرن السادس عشر
والحروب الايطالية


سيبريا
كندا
موسكو
القاهرة
الحبشة
البرازيل
المحيط
الهندي
اوستراليا
مدار الجدي
خط الاستواء
خط سير كشوف اسبانيا
خط سير كشوف البرتغال



صدر بإشراف لجنة الإنجاز

سعر المبيع للطالب (١٥٠) ل.س

مطبعة دار الكتاب ـ دمشق